دايي روبنشتاين

«إمّا نحن وإمّا هم»

معركة القسطل:
الساعات الأربع والعشرون الحاسمة



فريق
متميزون
E-BOOK

ترجمة: سليم سلامة

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:



كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

إمّا نحنُ وإمّا هُمْ

داني روبنشتاين
ترجمة: سليم سلامة

عن الكتاب..

الترجمة العربية لكتاب "إمّا نحن وإمّا هم" - "معركة القسطل: الساعات الأربع والعشرون الحاسمة" للكاتب والصحافي الإسرائيلي المتخصّص في الشؤون الفلسطينية داني روبنشتاين، ترجمه عن العبرية سليم سلامة.

ويسرد الكاتب على امتداد 400 صفحة رؤيته للحرب على مصير فلسطين في نهايات الانتداب عبر استعادة سيرة القائد عبد القادر الحسيني، والإضاءة على محطات مفصلية في حياته، وتفاصيل حراكاته الداخلية والعربية المكثفة في نيسان العام 1948، مركزاً على معركة القسطل كمحطة حاسمة في مسار الحرب.

وينوه المؤلف بأنه كُتبت بشأن معارك القدس بوجه عام، وبشأن معركة القسطل بوجه خاص، عشرات بل مئات الكتب والمقالات والأبحاث، التي استخدمت - في غالبيتها الساحقة - مصادر إسرائيلية وأجنبية، بينما القليل منها فقط استند إلى مصادر عربية. ويعود ذلك، برأيه، إلى سبب بسيط جداً، هو أنه لا يتوفر الكثير من مثل هذه المصادر، وحتى إن توفرت توثيقات عن تلك الحقبة، فمن الصعب، أو المستحيل تماماً الوصول إليها في حالات كثيرة.. كذلك لدى الفلسطينيين أيضاً، فإن الأرشيفات المتوفرة قليلة جداً وغير منظمة. وثمة مشكلات أخرى، في مقدمتها عدم معرفة العديد من الباحثين، الإسرائيليين والأجانب، اللغة العربية، ناهيك عن الاستخفاف الظاهر، في كثير من الأحيان، بموثوقية الوثائق العربية وصدقيتها من منطلقات شتى. وهو استخفاف راسخ لدى جلّ الباحثين الإسرائيليين لدوافع مسبقة البرمجة والأدلجة.

بعد هذا التنويه، يؤكد المؤلف أنه في كتابه هذا سعى للاستئناس أولاً وقبل أي شيء بالمصادر العربية، بما في ذلك مصادر عائلية بقيت خارج دائرة الاستخدام، تماماً تقريباً، طوال أعوام عديدة. وأوضح أن ما حثّه على الاستناد إلى تلك المصادر هو طريقة العمل التي اعتمدها د. شريف كناعنة، من مواليد عرابة البطوف في الجليل، وأستاذ العلوم الإنسانية الذي كان يدرّس في جامعة بيرزيت، ودرَس ودرَّس في الولايات المتحدة لسنوات عديدة، وأثارت إعجابه، فقرّر أن يستخدمها في بحثه عن مصادر تكشف له ملابسات معركة القسطل، على ما تحفل به من أهمية بعيدة المدى.

ويتميز الكتاب الذي يستعير عنوانه من جملة أطلقها الحسيني، بقيام المؤلف بإعادة التذكير أن العام 1948 هو عام مصيريّ للغاية في تاريخ قضية فلسطين برمتها، كونه العام الذي "استطاع فيه البيشوف اليهودي تأسيس

دولة"، بينما "حلّ بالفلسطينيين، في المقابل، دمار وطني شامل، وشخصي أيضاً في كثير من الحالات". وهو يفعل ذلك بالأساس بوساطة التركيز على القدس ومعركة القسطل من خلال أحد أهم رموزهما في تاريخ النكبة الفلسطينية، معتبراً أنه بنظرة إلى الوراء يمكن الجزم بأن اليوم الحاسم في معركة القسطل ومقتل الحسيني هما عصارة قصة سقوط القدس العربية، وربما بمثابة جوهر قصة النكبة الفلسطينية كلها، وأن الأحداث التاريخية أثبتت ما قاله رؤساء الجمهورين اليهودي والعربي معاً حيال مسألة السيطرة على القدس في العام 1948، وفحواه أن من يسيطر على القدس يسيطر على البلد (فلسطين) كله.

ويشير الكاتب مستنداً إلى الخلاصات، التي توصل إليها من الإحداثيات التي قدّم تحليلاً لها، إلى أن جميع الذين كتبوا عن الأحداث الجسيمة التي وقعت في 1948 يعتبرون معركة القسطل نقطة تحوّل رمزية ودراماتيكية في المعارك التي اندلعت في البلد عشية انتهاء الانتداب البريطاني يوم 15 أيار من ذلك العام. ففي اليوم الذي جرت فيه معركة القسطل (7/8 نيسان 1948) وقع حدثان آخران: مذبحة دير ياسين ومعركة مشمار هعيمق. ويعرب عن اعتقاده بأن هذين الحدثين حسما مصير الحرب، حتى قبل أن تدخل الجيوش العربية إلى ساحة القتال، بعد ذلك بوقت قصير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



إهداءٌ..

إلى مرغولا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



تقديم..

مدلولات الماضي الذي لا ينقضي...

بقلم: أنطوان شلحت

سأسمح لنفسي بأن أقفز مباشرة وبشكل عامد عن الوقائع، التي يوردها الكاتب والصحافي الإسرائيلي المتخصّص في الشؤون الفلسطينية داني روبنشتاين في هذا الكتاب، لا من باب تبخيس أهميتها الفائقة، ولا من باب التنائي عن مساجلتها سيما وأن فيها مجموعة من المغالطات أحياناً (كما أكد لنا أفراد من عائلة الحسيني، الذي يتناول الكتاب سيرة واحد من أعلامها ومن أهم رموز قضية فلسطين، وهو القائد الشهيد عبد القادر الحسيني)، وإنما كي أنتقل بسرعة للإشارة إلى عدة نقاط قوة تكمن فيه، وهي هي ما رجّحت إنجاز ترجمته إلى اللغة العربية، مع التأكيد في الوقت ذاته أنها ليست نقاط قوته الوحيدة.

أولى هذه النقاط تكمن في قيام المؤلف بإعادة التذكير أن العام 1948 هو عام مصيريّ للغاية في تاريخ قضية فلسطين برمتها، كونه العام الذي "استطاع فيه البيشوف اليهودي تأسيس دولة مستقلة ومزدهرة"، بينما "حلّ بالفلسطينيين، في المقابل، دمار وطني شامل، وشخصي أيضاً في كثير من الحالات". وهو يفعل ذلك بالأساس بواسطة التركيز على القدس ومعركة القسطل من خلال أحد أهم رموزهما في تاريخ النكبة الفلسطينية؛ القائد والمناضل الفلسطيني الشهيد عبد القادر الحسيني، معتبراً أنه بنظرة إلى الوراء يمكن الجزم بأن اليوم الحاسم في معركة القسطل ومقتل الحسيني هما عصارة قصة سقوط القدس العربية، وربما بمثابة جوهر قصة النكبة الفلسطينية كلها، وأن الأحداث التاريخية أثبتت ما قاله رؤساء الجمهورين اليهودي والعربي معاً حيال مسألة السيطرة على القدس في العام 1948، وفحواه أن من يسيطر على القدس يسيطر على البلد (فلسطين) كله.

ويستهل روبنشتاين كتابه بطرح سؤال: لماذا القسطل؟ وفي معرض إجابته عليه يشير على نحو خاص، مستنداً إلى الخلاصات التي توصل إليها من الإحداثيات التي قدّم تحليلاً لها، إلى أن جميع الذين كتبوا عن الأحداث الجسيمة التي وقعت في 1948 يعتبرون معركة القسطل نقطة تحوّل رمزية ودراماتيكية في المعارك التي اندلعت في البلد عشية انتهاء الانتداب البريطاني يوم 15 أيار من ذلك العام. ففي اليوم الذي جرت فيه معركة القسطل (7/8 نيسان 1948) وقع حدثان آخران: مذبحة دير ياسين ومعركة مشمار هعيمق. ويعرب عن اعتقاده بأن هذين الحدثين حسما مصير الحرب،

حتى قبل أن تدخل الجيوش العربية إلى ساحة القتال، بعد ذلك بوقت قصير. ويلفت بهذا الشأن إلى أنه في أعوام لاحقة، وعلى هذه الخلفية، طالبت شخصيات فلسطينية بتحديد ذكرى "يوم النكبة"ـ ذكرى فقدان الوطن الفلسطيني ـ ليس في يوم 15 أيار، اليوم الذي أعلن فيه قيام دولة إسرائيل، بل قبل ذلك بخمسة أسابيع، أي في يوم 9 نيسان، وفيه جرت مراسم دفن عبد القادر الحسيني، القائد الفلسطيني المحبوب، الذي قتل خلال معركة دارت في الليلة السابقة، قبل بزوغ فجر يوم الخميس، الثامن من نيسان 1948.

وتنطوي إعادة التذكير هذه من جانب المؤلف، وإن بصورة ضمنية، على رسالة ذات دلالة مهمة تشفّ، في العمق، عن دعوة إلى الوقوف عند ما ترتب على أحداث ذلك العام من تداعيات تتعلق بقضية فلسطين وبعدم إيجاد حل لها حتى الآن. ويتعيّن القول أيضاً إنها تداعيات كانت بمثابة ذروة لأحداث وتواريخ سبقتها وتسبّبت بنشوء تلك القضية، منذ بدايات الهجرة اليهودية إلى فلسطين العام 1882، مروراً بانعقاد المؤتمر الصهيوني الأول العام 1897، و"وعد بلفور" العام 1917، وليس انتهاء بقرار تقسيم فلسطين العام 1947.

فضلاً عن هذا، من المهم أن نسلط الضوء على نقطة قوة ثانية هي تنويه المؤلف بأنه كُتبت بشأن معارك القدس بوجه عام، وبشأن معركة القسطل بوجه خاص، عشرات بل مئات الكتب والمقالات والأبحاث، التي استخدمت ـ في غالبيتها الساحقة ـ مصادر إسرائيلية وأجنبية، بينما القليل منها فقط استند إلى مصادر عربية. ويعود ذلك، برأي روبنشتاين، إلى سبب بسيط جداً، هو أنه لا يتوفر الكثير من مثل هذه المصادر، وحتى إن توفرت توثيقات عن تلك الحقبة، فمن الصعب، أو المستحيل تماماً، الوصول إليها في حالات كثيرة. فليس من الممكن لمؤلف مثله الدخول إلى أرشيف الدولة في دمشق أو بغداد أو عمّان، والحصول على ملفات، كما هي الحال في لندن أو واشنطن مثلاً. كذلك لدى الفلسطينيين أيضاً، فإن الأرشيفات المتوفرة قليلة جداً وغير منظمة. وثمة مشكلات أخرى، في مقدمتها عدم معرفة العديد من الباحثين، الإسرائيليين والأجانب، اللغة العربية، ناهيك عن الاستخفاف الظاهر، في كثير من الأحيان، بموثوقية الوثائق العربية وصدقيتها من منطلقات شتى. وهو استخفاف قارّ لدى جلّ الباحثين الإسرائيليين لدوافع مسبقة البرمجة والأدلجة.

بعد هذا التنويه يؤكد المؤلف أنه في كتابه هذا سعى للاستئناس أولاً وقبل أي شيء بالمصادر العربية، بما في ذلك مصادر عائلية بقيت خارج دائرة الاستخدام، تماماً تقريباً، طوال أعوام عديدة. وأوضح أن ما حثّه على الاستناد إلى تلك المصادر هو طريقة العمل التي اعتمدها د. شريف كناعنة، من مواليد

عرابة البطوف في الجليل، وأستاذ العلوم الإنسانية الذي كان يدرّس في جامعة بير زيت، ودرَس ودرَّس في الولايات المتحدة لسنوات عديدة، وأثارت إعجابه، فقرّر أن يستخدمها في بحثه عن مصادر تكشف له ملابسات معركة القسطل، على ما تحفل به من أهمية بعيدة المدى.

أما نقطة القوة الثالثة لهذا الكتاب، والتي أجد حاجة إلى التطرّق إليها كنقطة إضافية وليست أخيرة، فهي نابعة من مدلولات أعتبرها بليغة تقف وراء تثبيت المؤلف عبارة عبد القادر الحسيني "إمّا نحن وإمّا هم" عنواناً لكتابه. وهي عبارة اقترضها من الموقف الذي أكد فيه قائلها أنه "لا يمكن أن تكون فلسطين للعرب والصهاينة معاً ـ إما نحن وإما هم [...] إنها حرب حياة أو موت؛ إما أن نخرج من الحرب منتصرين وإما أن نموت جميعاً». وأتبع ذلك باستقراض ما شدّد عليه عبد القادر، أيضاً، في سياق مقابلة لصحيفة «النداء» المصرية في كانون الثاني 1948، بأن إنشاء دولة يهودية في فلسطين هو تهديد واضح للعروبة وللعالم العربي بأسره، «ذلك أن [وجود] الدولة اليهودية يعني الاعتداء على استقلال الدول العربية جميعها، قريبة أم بعيدة على حد سواء».

ومع أن روبنشتاين سجّل في سياق مقابلة لصحيفة «هآرتس»، أجريت معه في أواخر 2017، بأنه هو شخصياً يتبنى الآن مقاربة «نحن وهم» لا «إما نحن وإما هم»، إلا أنه في الوقت عينه أورد مسوّغ تلك المقاربة الأخيرة من خلال ردّ تلقّاه من أحد معارفه الفلسطينيين على سؤال وجهه إليه وكان فحواه: «من كان الأفضل ومن كان الأكثر سوءاً من بين الذين قاموا باحتلالكم؛ الفرنجة أو المماليك أو الأتراك؟»، وجاء في ذلك الردّ: «لا أعرف من كان الأفضل، ولكن الأكثر سوءاً هو أنتم». وأضاف صاحب الردّ: «جميع من ذكرت أتوا لاستعبادنا، أما أنتم فأتيتم لتحلّوا محلنا»!

ولا شكّ في أنّ مجرّد هذا الردّ ينطوي على ما يحيل إلى الخصيصة الكولونياليّة الإحلالية للعقيدة الصهيونيّة والتي ما انفكّت ملازمة لها ولم تتحوّل إلى شيءٍ ما من الماضي المنقضي. ولعلّ أكثر ما ينبغي تأكيده على صلة بهذا، هو أنه في إسرائيل الراهنة التي قامت بسَنّ «قانون القوميّة» العام 2018، وفيها أكثر من نصف مليون مستوطن في الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة منذ عام 1967، وتتواتر من جانبها مشاريع ترمي إلى تهويد النقب والجليل، لا يمكن الكلام حول تلك الخصيصة كما لو أنّها أمر ينتمي إلى الماضي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

مقدمة

القسطل خاصتي

لماذا القسطل؟ يَعتبر جميع الذين كتبوا عن 1948 معركة القسطل نقطة تحول رمزية ودراماتيكية في المعارك التي اندلعت في البلاد عشية انتهاء الانتداب البريطاني في 15 أيار. في ذلك اليوم الذي جرت فيه معركة القسطل، وقع حدثان آخران: مذبحة دير ياسين ومعركة مشمار هعيمق. حسم هذان الحدثان مصير الحرب، حتى قبل أن تدخل الجيوش العربية ساحة القتال، بعد ذلك بوقت قصير.

في سنوات لاحقة، طالبت شخصيات فلسطينية بتحديد ذكرى "يوم النكبة"ـ أي، ذكرى فقدان الوطن الفلسطيني ـ ليس في يوم 15 أيار، اليوم الذي أقيمت فيه دولة إسرائيل، بل قبل ذلك بخمسة أسابيع؛ أي في يوم 9 نيسان، اليوم الذي جرى فيه دفن عبد القادر الحسيني، القائد الفلسطيني المحبوب، الذي قتل خلال معركة دارت في الليلة السابقة، قبل بزوغ فجر يوم الخميس، الثامن من نيسان 1948.

بين الكتابات العربية الكثيرة عن القسطل، ثمة بيت شعر من قصيدة للشاعر محمود درويش، ابن قرية البروة الجليلية المهجَّرة. نشأ درويش كطفل لاجئ في قرية جديدة المجاورة وبعد العام 1967 غادر إسرائيل ليلتحق بمنظمة التحرير الفلسطينية. مع الوقت، أصبح درويش الشاعر الفلسطيني الأول. في قصيدته "أبد الصبّار"، يروي عن الأب الذي يأمر ابنه:

يا ابني تذكّر غداً وتذكّرْ قلاعاً صليبيَّةً قَضَمَتْها حشائش نيسان...

نيسان هو الاسم العربي لشهر أبريل وثمة الكثير من الأدبيات الفلسطينية التي تعتبره الشهر الذي وقعت فيه نكبة الفلسطينيين، هزيمتهم في حرب استقلال إسرائيل.

من بين "القلاع الصليبية التي قضمتها حشائش نيسان"، يبدو أن القسطل هي الأكثر أهمية: قمة شاهقة في الطريق الصاعد من منطقة وادي الخليل إلى القدس. خلال العصر الروماني، أقيمت على هذه القمة قلعة ثم على أسسها أقيمت، في الحقبة الصليبية، "قلعة كوكب الهوا". ثم على أنقاض القلعة، نشأت لاحقاً قرية عربية صغيرة نسبياً، مثلما حصل في أماكن أخرى في البلاد، كما في قرية صوبا المجاورة، مثلاً، التي أقيمت على خرائب "قلعة بِلمونت" ("الجبل الجميل") الصليبية.

بدأ اهتمامي بمعركة القسطل في الفترة التي عملتُ فيها صحافياً، عقب حرب العام 1967. التقيتُ آنذاك فيصل الحسيني، الابن الأوسط لعبد القادر الحسيني. أصبحتُ خلال سنوات عديدة من العمل الصحافي في القدس الشرقية وفي المناطق الفلسطينية، على علاقة ثابتة ودائمة، شبه يومية، مع ممثلين ـ سريين، في البداية، ثم رسميين لاحقاً ـ للحركة الوطنية الفلسطينية بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية (م. ت. ف.). كان فيصل الحسيني يترأس ممثلية القيادة في القدس الشرقية. التقيت به خلال فترات متقاربة، في مكتبه في "بيت الشرق" (أورينت هاوس) ـ إحدى البنايات الأكثر فخامة التي بقيت قائمة من حي الحسيني الذي أنشئ في أواخر العصر العثماني، على المساحة الممتدة ما بين الشيخ جراح ووادي الجوز.

كان فيصل الحسيني حتى يوم وفاته المفاجئة في نهاية أيار 2001، خلال زيارته الكويت، دائم الاهتمام بتاريخ والده وظروف موته في معركة القسطل. حين قُتل والده، كان فيصل في الثامنة من عمره يعيش مع والدته، شقيقته وشقيقيه في القاهرة؛ وكما سنرى، فقد أبعد العمل الوطني عبدَ القادر عن بيته وعائلته لفترات متواصلة. جمع فيصل شهادات عديدة عن والده، حفظها في مكتبه، في الأرشيف وفي مكتبة صغيرة ملاصقة لمكتبه. من بين الذين التقاهم فيصل الحسيني، يعقوب سلمان، قائد الثكنة التي كانت على قمة القسطل والتي منها أطلق مرؤوسُه، مئير كرميول، صلية الرصاصات التي أصابت عبد القادر. قُتل كرميول نفسه بعد ذلك ببضع ساعات، والشهادة التي أدلى بها قائدُه، سلمان، هي الوحيدة التي كشفت بعض التفاصيل عن ملابسات موت القائد الفلسطيني.

في آب 2001، بعد شهرين من وفاة فيصل الحسيني، وعلى خلفية التصعيد في الانتفاضة الثانية، أصدرت الحكومة الإسرائيلية أمراً إدارياً أغلقت به المكتب والمكتبة في "بيت الشرق". ولا يزال الدخول إليهما محظوراً، حتى كتابة هذه الأسطر أيضاً. بعض الكتب والوثائق التي أتاحت تأليف هذا الكتاب وكانت في عهدة فيصل الحسيني، تولى نجله، عبد القادر، الذي يحمل اسم جدّه، مهمة تجميعها وتركيزها. أقام الحفيد، مع شقيقته فدوى، معهداً ثقافياً صغيراً في حي الرام، على الطريق بين القدس ورام الله، بجوار استاد فلسطيني جديد لكرة القدم أطلق عليه اسم فيصل الحسيني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين كنت أعمل في مقر صحيفة "دفار" في القدس، قبل سنوات عديدة، التقيتُ د. شريف كناعنة، أستاذ العلوم الإنسانية الذي كان يدرّس في جامعة بيرزيت آنذاك. كناعنة، من مواليد عرابة (البطوف) في الجليل، درَس ودرَّس في الولايات المتحدة لسنوات عديدة، وهناك تزوج أيضاً. لدى عودته إلى

البلاد، نقل مكان سكناه إلى رام الله وبدأ يدرّس في جامعتين فلسطينيتين: جامعة بيرزيت، إلى الشمال من رام الله، وجامعة النجاح في نابلس. حين زرته في منزله، تحدث بحماس شديد عن دراسات أعدّها ـ وحده ومع آخرين ـ حول مصير القرى الفلسطينية المدمَّرة داخل حدود دولة إسرائيل. ربما كانت دير ياسين الأكثر شهرة من بينها.

إحدى القضايا التي كانت تشغله، بالطبع، السؤال الذي احتار فيه كتاب كثيرون طوال سنوات عديدة: كم كان عدد القتلى في المجزرة التي وقعت هناك؟ كان العدد المتفق عليه 254، نصفه من النساء والأطفال. أوضح كناعنة أن مصدر هذا العدد هو القائمة التي أعدتها منظمة "الصليب الأحمر الدولي" بناء على معلومات استقتها من لاجئي القرية، الذين جرى تجميعهم في مقر القوات العربية في البلدة القديمة (في بناية كانت تسمى "روضة المعارف" وأصبحت تعرف باسم "العُمَرِيّة") في طلعة باب الأسباط.

غادر الهاربون من القرية، التي بلغ عدد سكانها آنذاك نحو 700 شخص، منازلهم في ساعات الصباح والظهيرة من يوم الجمعة، 9 نيسان 1948 ـ بعد ساعات قليلة من بدء المعركة في قريتهم، مع بزوغ فجر ذلك اليوم. كانت أمامهم طريق واحدة فقط للهروب، عبر الهبوط إلى وادٍ عميق مليء بالنباتات المتشابكة من جهة الجنوب، كان يؤدي إلى القرية الكبيرة المجاورة، عين كارم (التي أصبحت لاحقاً "حيّ عين كارم" في مدينة القدس). كل الطرق الأخرى كانت مغلقة بالأحياء اليهودية في غرب القدس وبقرية لفتا العربية، التي كان سكانها قد هجروها في وقت سابق.

هبط اللاجئون في طريق شائكة، عائلات مع أولادها وقليل من المتاع الذي استطاعوا إخراجه من البيوت على وجه السرعة. استراحوا في عين كارم لبضع ساعات، وربما أكثر في بعض الأحيان، ثم واصلوا الصعود في الطلعة الحادة نحو قرية المالحة العربية (التي أصبحت لاحقاً "حي المالحة" في مدينة القدس). في هذه الطريق، أيضاً، كانوا عرضةً لإطلاق النار من الأحياء اليهودية. وصلوا، في نهاية المطاف، إلى الحيين العربيين في جنوب القدس، القطمون والبَقعة، ومن هناك إلى داخل أسوار البلدة القديمة، إلى مقر القيادة العربية.

دخل لاجئو دير ياسين إلى المدينة يوم الجمعة ذاته، التاسع من نيسان، في الساعات التي كانت شوارعها تشهد اضطرابات كبيرة وواسعة. فقد تجمع في شوارعها وأزقتها، منذ ساعات الصباح الباكر، عشرات آلاف الأشخاص للمشاركة في جنازة عبد القادر الحسيني الذي قتل في معركة القسطل قبل ذلك بيوم واحد. في ذلك المعمعان، أبلغ اللاجئون الذين وصلوا إلى مقر

القيادة أسماء أبناء عائلاتهم الموتى والمفقودين من القرية التي هجروها للتو، دير ياسين.

توصل د. شريف كناعنة إلى القائمة الأصلية التي تضم الأسماء الـ 254، والتي اعتبرها الجميع القائمة الكاملة والحقيقية بأسماء الشهداء، واستغلها كل واحد من الأطراف لأغراضه السياسية. "إيتسل" ("التنظيم العسكري القومي")، الذي لم يكن، حتى قيام الدولة، تحت إمرة قيادة "الهاغناه" وخاضعاً لها، كان معنياً بخلق حالة من الذعر والهروب بين العرب؛ استغل "الهاغناه" وبن غوريون القائمة، التي شملت نساء وأطفالاً، لتقريع التنظيمات "المنسحِبة" وإثبات وحشيتها؛ بينما أراد العرب بطبيعة الحال إظهار مدى حقارة اليهود وخسّتهم. عقد د. حسين خالدي، الذي أشغل في السابق منصب رئيس بلدية القدس ومن بين الشخصيات العربية القيادية القليلة التي بقيت في المدينة، مؤتمراً صحافياً مفاجئاً تحدث فيه عن المجزرة. فيما بعد، اتهمه متحدثون عرب بخلق حالة الهلع التي أدت إلى هروب جماعي فساعدت اليهود.

ذكّرني د. كناعنة بأنه باحث ولا يهتم بسياسة الأطراف المختلفة. ما يهمّه هو تحديد العدد الدقيق لضحايا المجزرة. من جهته، كانت الطريق نحو البحث سهلة. كانت القرى العربية ـ وبقيت، إلى حدّ ما ـ وحدات جماهيرية ذات بنية اجتماعية تقليدية. ثمة عائلات كبيرة، حمائل وعائلات موسعة، يعرف أفرادها بعضهم بعضاً، جميعاً. يسكن أفراد كل حمولة بجوار بعضهم البعض، وفق نظام عائلي واضح يقضي ببقاء الأبناء المتزوجين قريبين من الوالدين فيما تنتقل البنات إلى بيوت أزواجهن. تجري الغالبية الساحقة من الزيجات في نطاق العائلة الموسعة. وقد أظهرت مسوحات لاحقة أن معدل الزيجات من داخل العائلة في المجتمع العربي التقليدي يبلغ 50٪. وهي، في الغالب، زيجات بين أبناء / بنات الأعمام والأخوال. في الماضي، في عهد الانتداب البريطاني، كانت النسبة أعلى من ذلك بكثير، بالتأكيد. في العائلات الموسعة القروية، كانت (ولا تزال) شائعة طريقة "زواج البَدَل": أنا أزوِّج ابنك من ابنتي وأنت تزوج ابني من ابنتك. هذا يجنّب الأطراف "التعقيدات" المرتبطة بالمصروفات وبدفع المَهر ويسهّل أموراً أخرى.

في معظم القرى، لا يسكن أفراد العائلة معاً فحسب، بل يعملون معاً أيضاً ويعينون بعضهم بعضاً. حتى أنهم يتحدثون أحياناً اللهجة ذاتها، المميزة للقرية والحمولة الكبيرة. إنه مبنى اجتماعي مختلف جوهرياً عن المجتمع المديني الغربي، كالمجتمع اليهودي في إسرائيل مثلاً، حيث الساكن في بناية مشتركة لا يعرف من هو جاره في الشقة المقابلة في الطابق ذاته أحياناً، ناهيك عن الجيران في الطوابق الأخرى طبعاً.

حتى حين هرب لاجئو القرى، أو هُجِّروا، في العام 1948، حافظوا على الإطار العائلي، إجمالاً. وحتى بعد مضي عشرات السنين، ليست ثمة مشكلة في العثور على لاجئي قرية لفتا مثلاً (القرية الواقعة عند مشارف مدينة القدس اليوم)، والذين تقيم غالبيتهم في حي قدورة في رام الله، اليوم؛ أو على لاجئي قرية ساريس (التي تقوم على أراضيها اليوم بلدتا "شورِش" و"شوئيفا" اليهوديتان) الذين يقيم كثيرون منهم في مخيم قلنديا اليوم. كذلك، يتجمع لاجئو القسطل في زقاق واحد في بلدة العيزرية إلى الشرق من مدينة القدس. في جميع مخيمات اللاجئين ومراكز المدن المختلفة في الضفة الغربية، يتجمع أبناء العائلة الواحدة في منطقة واحدة ـ في حي واحد، بل في شارع واحد أحياناً.

هكذا هو حال لاجئي دير ياسين أيضاً. انتقل كثيرون منهم إلى حيّ قرويّ بمحاذاة قرية بيتين إلى الشرق من رام الله، والتي تقوم مكان "بيت إيل" التوراتية (حيث تقوم مستوطنة "بيت إيل" اليوم). واصلوا، هناك أيضاً، مزاولة أعمال الحفريات وتقطيع الحجارة، وهي تقليد مهني كان شائعاً في قريتهم. هناك أيضاً، يسكنون معاً، يتزاوجون فيما بينهم، يعملون سوية ويساعدون بعضهم بعضاً، كما كان الحال في القرية، حتى أن لهم مقبرة مشتركة عند منحدر السور الشرقي لمدينة القدس القديمة.

روى لي د. كناعنة أنه أخذ إلى هذا الحي القرويّ قائمة الأسماء الـ 254. توجه إلى إحدى الحمائل وسأل عن الطفل حسن ابن الـ 12 عاماً الذي يرد اسمه في القائمة. قالت شقيقة حسن الكبرى إنهم حين غادروا القرية يوم 9 نيسان، لم يعثروا عليه وحسبوا أنه قد مات. ثم اتضح لهم لاحقاً أنه تخلف لإصابته برضّة في قدمه اضطرته إلى التوجه إلى العيادة في عين كارم، حيث مكث أسبوعاً كاملاً: "إنه يعمل سائق باص في البيرة ويمكنك التحدث إليه لدى وصوله إلى المنزل مساءً".

هكذا استعرض شريف كناعنة جميع الأسماء، واحداً تلو الآخر، فأحصى في نهاية الأمر 107 قتلى. وقال إنه اصطدم بمشكلة في أسماء بعض الشهداء غير المعروفين والذين لم يتم التعرف عليهم ـ سيدتان مسنتان لم يكن واضحاً ماذا حل بمصيرهما، وعدد من المقاتلين "الغرباء"، من غير أبناء القرية.

لفتتني طريقة العمل التي اعتمدها وأثارت إعجابي. بما أنني أتجول في القدس الشرقية وضواحيها منذ عشرات السنين، قررت استخدام هذه الطريقة في بحثي عن مصادر تكشف لي ملابسات معركة القسطل. كان لديّ العديد من الكتب باللغة العربية ومذكّرات بعض العرب الذين قاتلوا في القسطل، وفي مقدمتها كتاب بهجت أبو غربية في خضمّ النضال العربي

الفلسطيني، الذي صدر في بيروت سنة 1993. جمعتُ من هذه المصادر المكتوبة أسماء أشخاص عرب شاركوا في أحداث القسطل وكلما التقيتُ أحداً من أفراد العائلات سألتُه عنهم: سألتُ عمال شركة الباصات التابعة لعائلة جولاني وأصحاب حانوت "مفروشات جولاني" الكبيرة عن عبد الحليم، ابن العائلة الذي كان يلقّب بـ "شَلَف" إبان الثورة العربية سنة 1936 ومعارك القدس سنة 1948 (التقيتُ عبد الحليم نفسه أيضاً، وقد أصبح كهلاً ـ لقاء حصل صدفة في الكشك الصغير الذي فيه كان الحاج عمير دعنا، "أبو سلام"، يبيع الصحف، عند باب العامود، بعد أن أتاحت له دولة إسرائيل العودة إلى البلاد، عقب اتفاقيات أوسلو)؛ وسألتُ عايد، وكيلَ الإعلانات الدعائية في صحيفة "القدس"، عن شقيق جدّه علي موَسوَس، الذي كان فتىً متتلمِذاً في مرآب لتصليح السيارات لدى انضمامه إلى مقاتلي عبد القادر، إبان معارك الثورة، لدى مدير عام شركة الكهرباء في القدس الشرقية، هشام العُمَري من بيت صفافا، حاولت استيضاح تفاصيل عن عبد الله العمري، قائد القرية الذي كان مقرباً من عبد القادر الحسيني منذ بدء العمليات في سنة 1936؛ أما أستاذ الاقتصاد في جامعة القدس، بروفيسور إسكندر النجار، فسألته عن ابن عائلته محمد عادل النجار، الذي حارب في القسطل، ثم كان بعد ثلاثة أيام على رأس المجموعة التي نفذت الهجوم وعمليات القتل ضد قافلة هداسا إلى جبل سكوبوس (معركة الشيخ جراح، بالتسمية العربية). هذا ما فعلتُه في عشرات الحالات الأخرى، أيضاً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حتى بعد سنوات عديدة من اللقاء بالفلسطينيين والتعامل معهم، يبدو لي أن الجمهور الإسرائيلي لا يعي مدى التأثير السياسي للمبنى الاجتماعي التقليدي في المجتمع العربي، وهو مبنى مختلف تمام الاختلاف عن مبنى مجتمعنا نحن. قد يحدث أن يستغل الفلسطينيون عدم الوعي هذا. في السنوات الأولى بعد 1967، تعرفت في القدس على الصرّاف "أبو حسن الحموري"، وهو ابن عائلة خليلية كبيرة، كان يمتلك دار ضيافة صغيرة للرحّالة، في شارع نابلس. طلب ابنه حسن منّي تصوير بعض الصفحات من كتاب الخليل له. بدا لي طلبه هذا غريباً، إذ كان يقصد كتاباً يهودياً قومياً بامتياز أصدره المستوطنون في المدينة بقيادة الحاخام موشيه ليفنغر. كان جزء كبير من هذا الكتاب مخصصاً للمجزرة التي تعرض لها يهود المدينة في أحداث العام 1929. كانت الصفحات التي طلب مني حسن الحموري تصويرها له تحتوي على قوائم بأسماء العرب الذين أنقذوا يهوداً خلال المجزرة. وكان بين تلك الأسماء، أيضاً، اسم الشيخ محمود الحموري الذي قيل إنه "أخذ نيسيم غوزلان وسبعة من أبناء عائلته من منازلهم وأنقذ حيواتهم". سألتُ حسن: "ما حاجتك إلى هذا؟" فقال إنه صوّر بضع نُسخ من تلك الصفحات لأبناء عائلته

لأنها قد تساعدهم في الحياة اليومية: عند الحواجز، مثلاً. حين يتعرض له الجنود الإسرائيليون أو أفراد "حرس الحدود" ويضايقونه، يستل هذه الأوراق ويُريهم: ها هو جدّه قد أنقذ يهوداً في سنة 1929. يتضح أن هذه الصفحات قد ساعدت ولداً واحداً، هو ابن أخيه الذي حوكم بتهمة إلقاء الحجارة. فقد أخذ القاضي الإسرائيلي ذلك في الاعتبار. كذلك عمّته التي أغلقت شرفة في القدس الشرقية، من دون تصريح، حظيت بالعفو في المحكمة البلدية حينما عرضت حقيقة أن الجدّ المجهول كان قد أنقذ بعض اليهود. "هل تعرف ما هي القرابة العائلية بينك وبين الشيخ محمود الحموري؟"، سألتُ حسن. ضحك حسن: "هنالك قرابة بالتأكيد"، قال، "لكن ثمة المئات من أبناء الحمولة في البلاد وفي الخارج؛ يمكنني استيضاح الأمر بسهولة، لكنني لست في حاجة إلى هذا".

مثل حسن، كذلك أنا، كصحافيّ، اعتقدتُ بأنّ من المفيد استغلال المبنى التقليدي للمجتمع الفلسطيني في تقصي واستيضاح حقائق تاريخية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كُتبت عن معارك القدس عموماً، وعن القسطل بوجه خاص، عشرات، بل مئات، الكتب، المقالات والأبحاث، التي استخدمت ـ في غالبيتها الساحقة ـ مصادر إسرائيلية وأجنبية، بينما القليل منها فقط استند إلى مصادر عربية. سبب ذلك بسيط جداً: لا يتوفر الكثير من هذه المصادر، وإن توفرت توثيقات عن تلك الحقبة، فمن الصعب، أو المستحيل تماماً، الوصول إليها في حالات كثيرة. ليس من الممكن الدخول إلى أرشيف الدولة في دمشق، بغداد أو عمّان، والحصول على ملفات، كما هو الحال في لندن أو واشنطن، مثلاً. كذلك لدى الفلسطينيين أيضاً، الأرشيفات المتوفرة قليلة جداً وغير منظمة. وثمة مشكلات أخرى، في مقدمتها عدم معرفة العديد من الباحثين، الإسرائيليين والأجانب، اللغة العربية، ناهيك عن الاستخفاف الظاهر، في كثير من الأحيان، بموثوقية الوثائق العربية وصدقيتها.

أياً كان الحال، فقد اعتمدتُ ـ في محاولاتي الاهتداء إلى مصادر عربية حول 1948 ـ على مصادر عائلية بقيت خارج دائرة الاستخدام، تماماً تقريباً، طوال سنوات عديدة. ومن المهم التنويه إلى أنني لم أصادف، إطلاقاً، أي فرد من أبناء العائلة لا يعرف عمّ يجري الحديث وعمّن، ولو بصورة عامة. حتى حين كانت العائلة الموسعة تعدّ آلاف الأشخاص، كانوا يعرفون دائماً توجيهي إلى أبناء الشخص المعني تحديداً، أحفاده وأقربائه الأقربين. كانت لديهم، جميعاً، قصص شائعة بين أفراد العائلة، دفاتر يوميات، مقاطع إذاعية وتلفزيونية، أو عناوين مواقع إنترنت، حفظتها العائلة لأنه ورد فيها ذِكر أولئك الأقارب الذين شاركوا في معارك القدس والقسطل.

كانت ثمة حالات عديدة لم تكن فيها الروايات دقيقة تماماً. فقد تبلورت في إطار العائلات قصص وأساطير كان من السهل، في حالات كثيرة، التحقق من مصادرها ومدى صدقيتها. خداع الذاكرة أمر معروف. أصبح جمع المواد، بالنسبة لي، عنصراً مركزياً في محاولة استجلاء الصورة التي تشكلت عن معارك القدس وعبد القادر الحسيني والصورة التي ارتسمت عن النكبة في أعين العرب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اتكأ الدارسون، على مدى سنوات عديدة وبصورة واسعة جداً، على المؤلفات التي وضعها الناشط الفلسطيني المعروف، المقدسي عارف العارف، الذي يعتبر المؤرخ العربي الأكثر موثوقية لتلك الأيام. التقيته المرة الأولى في العام 1969 ثم المرة الثانية عشية وفاته في صيف 1973. تحدثنا عن أعماله المعروفة، بضمنها كتابه عن البدو في بئر السبع، الذي قرأته حين كنتُ فتى. تعالج مؤلفاته حرب العام 1948، بصورة أساسية. عندما التقينا، كان يقيم في مدينة رام الله، في منزل قديم كان الدخول إليه يمر عبر حديقة فيها أشجار شاهقة من الصنوبر، قبالة المدرسة القديمة والراقية التي أقامها الصاحبيون (كويكرز) الأميركان. رأيته آنذاك كيف يدأب على جمع المواد، بعناية قيّم الأرشيف والمحفوظات، لغرض كتابة مؤلفاته. هكذا تصرف، أيضاً، في موضوع الحرب والاحتلال الإسرائيلي سنة 1967 وما بعدها.

حين أجريت مقابلة معه، كانت تتصدر عناوين النشرات الإخبارية مسألة هدم بيوت "مخربين" في القدس الشرقية. كان الحديث عن التفجير الذي نفذه الجيش الإسرائيلي في منزل المهندس كمال النِّمري، الذي خرج سوية مع شاب آخر، هو وليام نصار، للانتقام من عربي اعتنق اليهودية ـ صاحب محطة للوقود عند مدخل "نفيه إيلان" على الشارع بين القدس وتل أبيب. سرَت بين الجمهور العربي آنذاك شائعات، حاولتُ تقصي مصدرها، عن أن ذاك العربي نفسه، ابن قرية القسطل، هو المسؤول عن وفاة عبد القادر الحسيني في ليلة المعركة على الجبل.

أوضح عارف العارف لي مدى أهمية عائلة النمري وثرائها. كانت تمتلك عمارات كبيرة جداً في أطراف حي القطمون (شارع 29 نوفمبر) وأطلق على منطقة القطمون اسم النمامرة. والآن، بعد أن استولت السلطات الإسرائيلية على بيوت العائلة في القطمون في العام 1948، ها هم يهدمون منزلاً جميلاً آخر من منازل العائلة، في الجزء الشرقي من المدينة هذه المرة. قلت له إن الحديث هنا عن بيوت قليلة جداً جرى هدمها داخل حدود دولة إسرائيل في فترة ما بعد حرب العام 1967. ردّ بغضب شديد وعرض أمامي ملفات سميكة جداً فيها مئات الصور عن هدم وتدمير جميع البيوت في حي المغاربة، الحي

الجميل الذي أصبح باحة لـ "الحائط الغربي" ("حائط المبكى" ـ حائط البراق): "أليست هذه بيوت عائلات عربية؟"، سأل بسخرية. ثم عرض أمامي وثائق وصوراً من قرى اللطرون التي تعرضت للمحو التام ومن أماكن أخرى في داخل البلاد وفي الضفة الغربية.

رأيتُ أمامي رجلاً مسناً يجلس محنيّ الظهر في غرفة معتمة، محاطاً بجبال من الأوراق، قصاصات الصحف، الصور، الكراسات والوثائق. بعد حرب 1948، أشغل العارف منصب رئيس بلدية القدس المقسمة، الأردنية، لكنه كان ممتلئاً حقداً وكراهية ضد النظام في عمّان. في صيف العام 1951، بعد وقت قصير من تنصيب طلال ملكاً على الأردن إثر مقتل والده عبد الله، قام الملك الجديد بزيارة إلى القدس. كرئيس للبلدية، استقبل العارفُ الملكَ بجملة تراثية معروفة استقبل بها شيخٌ بدويٌّ عمرَ بن الخطاب، الذي احتل القدس في القرن السابع. هكذا خاطبه الشيخ: "لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا». شعر الملك طلال، الذي كان يعاني من اضطراب نفسي (تسبب في عزله بعد سنة واحدة فقط من جلوسه على العرش)، بإهانة فأمر بعزل رئيس البلدية، بعد ساعتين، عبر مكالمة هاتفية. عاد العارف وأشغل منصب رئيس بلدية القدس مرة أخرى، كما تولى إدارة متحف روكفيلر المعروف في الشطر الشرقي من المدينة، لبضع سنوات. وكما ورد سابقاً، توفي العارف سنة 1973. وقد أخبرني أبناء عائلته بأنهم نقلوا أرشيفه الكبير إلى دولة الكويت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مصدر إضافي آخر للمعلومات هو الصحف اليومية الفلسطينية، وفي مقدمتها صحيفتا فلسطين والدفاع اللتان ظلتا تصدران في يافا حتى احتلالها في 1948. تأسست صحيفة فلسطين في بيروت سنة 1911 وبدأت بالصدور في البلاد كصحيفة يومية في العام 1929. كان عيسى العيسى مؤسسها ويوسف حنا رئيس تحريرها. كلاهما مسيحيان. وكان إبراهيم الشنطي صاحب صحيفة الدفاع ورئيس تحريرها وكان بدأ إصدارها في العام 1934. واصل الصحافيون، المحررون وعاملو الطباعة في الصحيفتين العمل في القدس الشرقية بعد العام 1967 أيضاً، وكان من أبرزهم: محمود أبو الزُلُف، صاحب صحيفة القدس، ومحمود يعيش، الذي كان صاحب صحيفة الشعب. خلال عملي الصحافي، اعتدتُ أن أزور كليهما، كل مساء، على مدى سنوات عديدة، وبرفقة زميلي يهودا ليطاني أحياناً.

كانت هاتان الصحيفتان مصدراً معتمَداً لتغطية ما يحصل في المناطق التي احتُلّت سنة 1967. كان لهما في كل مدينة وكل زاوية في الضفة الغربية وقطاع غزة، وكلاء ومراسلون، هم أصحاب حوانيت القرطاسية عادة. كان

أصحاب الحوانيت ملزَمين بالاتصال بهيئتي تحرير الصحيفتين في القدس، هاتفياً كل مساء، للإبلاغ عن الأحداث التي حصلت في محيطهم خلال النهار. لم يتقاضوا أجراً، لكنهم كانوا يحصلون، لقاء ذلك، على نسبة مئوية معينة من عائدات بيع الصحيفة والإعلانات الدعائية التي كانوا يجمعونها في أماكن سكنهم، وهي إعلانات وفيّات وتعازٍ في الغالب. كان شبان يتولّون مهمة معالجة ونسخ الأخبار التي تدفقت على الصحيفة كل يوم. كانوا يعملون معلمين أو موظفين في ساعات النهار ثم يعملون صحافيين ومحررين بوظائف جزئية وبأجور زهيدة في ساعات المساء. سمح لنا صاحبا الصحيفتين، محمود أبو الزلف ومحمود يعيش، اللذان كانا رئيسيّ التحرير أيضاً، بالدخول إلى غرف التحرير والاطلاع على الأخبار التي كانت تصل إليها في ذاك المساء. وكنا نقوم نحن، في ما يمكن تشبيهه بصفقة تبادلية، بمساعدتهم من خلال تزويدهم بمعلومات وتحليلات عمّا يحدث في إسرائيل. كان أبو الزلف يردد دائماً إنه يتذكر الأيام التي سبقت 1948 في يافا: كان هنالك آنذاك، على حد قوله، تعاون كامل تماماً بين اليهود والعرب في مجالين اثنين: العالم السفلي والصحافة.

مشاكل كون الصحف اليومية مصدراً تاريخياً معروفة ومفهومة. مثل صحف كثيرة في العالم، وكذلك في إسرائيل أيضاً، تمسكت الصحف الفلسطينية ـ ولا تزال تتمسك اليوم أيضاً ـ بأجندة إيديولوجية، سياسية ودينية. في العامين 1947 ـ 1948، كان من الصعب التمييز وتحديد الفوارق في الأخبار، في العناوين وفي التحليلات، بين صحيفتي فلسطين والدفاع، كما كان من الصعب لاحقاً العثور على فوارق حقيقية بين الصحف الفلسطينية التي صدرت في ظل السلطة الفلسطينية، مثل القدس، الأيام والحياة الجديدة. فقط في النزاعات داخل المعسكر الفلسطيني نفسه، تبرز على الفور خلافات الرأي في الصحف. بعد العام 2007، مثلاً، كان بالإمكان ملاحظة الاختلاف بين تقارير وتحليلات صحيفة «حماس» في غزة، التي تسمى القدس هي أيضاً، وصحف السلطة الفلسطينية في رام الله.

على نحو مماثل، برزت بعد العام 1967 الفروقات والاختلافات بين الصحيفتين المقدسيتين: كانت القدس مؤيدة لمنظمة التحرير الفلسطينية، بينما كانت النهار مؤيدة للأردن. وكانت كلتاهما مختلفتين عن صحيفة الأنباء اليومية التي كانت تتلقى معونات من السلطات الإسرائيلية.

يبرز أمام القارئ الإسرائيلي، على الفور، التشوش القائم في الصحف الفلسطينية ـ وفي وسائل الإعلام الفلسطينية بوجه عام ـ بين ما يسمى المعلومة وبين الرأي. بكلمات أخرى، المعلومات المقدمة للقراء على صفحات الصحيفة غالباً ما تكون مصحوبة بتعبير واضح عن رأي وموقف. ليس

هذا الأمر، في حدّ ذاته، حكراً على الصحافة الفلسطينية بالطبع، غير أن لدى العين الإسرائيلية حساسية فائقة لهذا، بشكل خاص. على سبيل المثال، في يوم 30 تشرين الثاني 1947 الدراماتيكي، نشرت صحيفة الدفاع الخبر عن قرار التقسيم الذي كانت الأمم المتحدة قد أصدرته قبل ذلك بيوم واحد. حِزم العنوان الرئيسي، بصورةٍ قاطعة، بأن القرار اتُخذ تحت ضغط الصهاينة. وكُتب عن القرار نفسه، أيضاً، أنه «يدفن العدالة وينتصر للظلم». ثم أوردت الصحيفة قائمة بأسماء الدول التي أيدت التقسيم، لكن العنوان لم يكن «صوَّتوا مع التقسيم»، وإنما «صوّتوا مع الباطل». وبجانبها، وردت قائمة الدول التي عارضت التقسيم تحت عنوان: «صوَّتوا مع الحقّ».

من نافل القول، ربما، الإشارة إلى أن جميع المصادر العربية، في تقاريرها عن الأحداث والمعارك التي اندلعت في نهاية 1947، تستخدم الأوصاف ذاتها لتحديد وتعريف الأطراف المتحاربة، كما حال المصادر اليهودية أيضاً، لكن بصورة معكوسة بالطبع. في المصادر العربية، يُعرَّف اليهود عادة بأنهم «العصابات»، التي تنقسم إلى «عصابات الهاغناه» أو «مجرمو الإرغون» («التنظيم العسكري القومي» ـ إيتسل) أو «الإرهابيون من عصابات شتيرن» («المقاتلون من أجل حرية إسرائيل» ـ ليحي). تضاف إلى هذه، عادة، صفات مثل «برابرة متعطشون للدماء» وما شابه.

من المثير أن اسم «شتيرن» (اسم أبراهام «يئير» شتيرن، مؤسس وقائد تنظيم «ليحي») في الصحافة العربية (وكذلك في الصحافة الأجنبية ـ The Stern Gang)، هو الوحيد الذي يظهر دائماً للدلالة على التنظيم الذي كان يترأسه. في المقابل، في تقارير الجانب اليهودي، كانت للوحدات في الغالب أسماء وأرقام ـ "لواء هرئيل"، "الكتيبة الخامسة"، وهكذا. أما في الجانب العربي، ففي جميع التقارير تظهر أسماء القادة كأسماء للوحدات، دائماً: "رجال أبو دية"، "مجموعة محمد عادل النجار"، "جماعة كامل ورشيد عريقات"، "خليل مِنّون ورجال عين كارِم". ما من شك في أن الخلفية التنظيمية والبنيوية المختلفة لدى كل من الطرفين في العام 1948 تجسدت هنا بصورة تفوق الرمزية وحدها.

استغرقت عملية جمع المواد لهذا الكتاب بضع سنوات وشملت زيارات إلى القرى وبيوت العائلات، مقابلات شخصية، تجميع دفاتر اليوميات وكتب المذكّرات والسير الذاتية. في تلك الفترة، أنهيت عملي في صحيفة دفار، بعد نحو عشرين سنة، وانتقلت إلى الكتابة في صحيفة هآرتس.

وقعت خلال تلك السنوات، أحداث دراماتيكية على صعيد العلاقة بين دولة إسرائيل والفلسطينيين: صدامات دموية، انتفاضات، التوقيع على اتفاقية أوسلو وانهيارها، وغيرها. لكن، رغم السنوات الكثيرة التي مرت، واصل كل

من الطرفين اعتبار 1948 السنة المصيرية في تاريخه. إنها السنة التي استطاع فيها الييشوف اليهودي تأسيس دولة مستقلة ومزدهرة، بينما حلّ بالفلسطينيين، في المقابل، دمار وطني شامل، وشخصي أيضاً ـ في كثير من الحالات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



1

هجومٌ عند الفجر

كانت الليلة بين 7 و8 نيسان 1948 ظلماء بشكل خاص: نهاية شهر آذار من سنة 1948، القمر أحدب متناقص والنجوم تتوارى خلف الضباب. بعد الساعة الثانية قبل الفجر، خفتت أصوات إطلاق النار في المعركة على جبل القسطل، المستمرة منذ بضعة أيام. أكد عبد القادر الحسيني، قائد "الجهاد المقدس"، أن هجوم رجاله على قمة الجبل قد توقف. قبل ذلك ببضعة أسابيع، كان قد تسلم قيادة جبهة القدس من اللجنة العسكرية التابعة للجامعة العربية، إثر جدالات وخصومات، وعاد إلى ساحة المعركة، يوم أمس. توقف إطلاق النيران الآن. لم تعد تُسمَع أصداء قذائف الراجمات. تراجعت وتيرة الطلقات. بدلاً منها، سُمعت أصوات إطلاق نار متفرق، أشبه بتبادل نيران عبثي.

كان عبد القادر متوتراً جداً ومرهَقاً، بعد ثلاث ليالٍ لم يذق فيها طعم النوم، إطلاقاً تقريباً. في مقر القيادة المؤقت الذي أقامه في المحجر التابع لعائلة اليشار ـ إحدى العائلات اليهودية السفارادية الأعرق في مدينة القدس ـ كان برفقته بعض الفتيان وشخصان بالغان، صديقان منذ الطفولة: علي موَسْوَس، من حي وادي الجوز في شرق القدس، وعبد الله العمَري من قرية بيت صفافا. كلاهما من قدامى الثورة العربية التي اندلعت ضد الانتداب البريطاني، قبل ذلك بعشر سنوات. كان المحجر على بعد نحو كيلومتر ونصف الكيلومتر إلى الجنوب من المنحدر الحاد لقمّة الجبل الذي تقع قرية القسطل على رأسه. من يقوم اليوم، بعد نحو سبعين سنة من تلك الليلة، بالبحث عن موقع مقر قيادة عبد القادر، سيلاحظ بسهولة فائقة بقايا منشآت المحجر تحت البناية التي أقام فيها رامي ليفي بقالة كبيرة عند مشارف بلدة مفسيرت تسيون اليهودية. بين المحجر والقسطل، يتعرج شارع ضيق يمتد من هناك في الاتجاه الجنوبي الغربي، نحو قمة حادة أخرى على رأسها قرية عربية أخرى هي صوبا (التي أقيم على أراضيها لاحقاً كيبوتس تسوفا).

كان الطقس في مطلع نيسان 1948، بداية الربيع، لا يزال بارداً في محيط القدس الجبليّ. قبل ذلك بأسبوعين، كان الثلج قد غطى قمم الجبال وخلّف بعض البِرَك وكثيراً من الوحل. مرت ساعتان إضافيتان، وبعد الرابعة فجراً بقليل، اقترب عبد القادر من موقع قيادة كتيبة موريا، إحدى وحدات الهاغناه في القدس، بمحاذاة قمة الجبل.

كان في الثامنة والثلاثين من عمره آنذاك، قصير القامة، ممتلئ الجسم، ذا نسب أرستقراطي من عائلة الحسيني العربية المقدسية المرموقة، التي تصدر أبناؤها قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية في سنيّ صحوتها. كان يرتدي زياً عسكرياً ميدانياً، في حزامه مسدس. على مسافة قصيرة من خلفه كان يسير شابان، من فلاحي قرية بيت فَجار، الواقعة إلى الجنوب من بيت لحم. كان الشابان قد التقياه صدفة قبل ذلك بوقت قصير، بين البيوت في أحد أطراف القرية. لماذا اقترب من هذه النقطة تحديداً، بعد ساعتين من مغادرته مقر القيادة في المحجر وحده؟ هل ضلّ الطريق؟ لا تساعد شهادات المقاتلين العرب في تفسير ما حدث لعبد القادر في تلك الساعة المصيرية. ثمة حول اللحظات الأخيرة من حياته شهادات المحاربين اليهود الذين التقاهم، فقط لا غير.

كان من الصعب جداً على الطرفين التعرف على المقاتلين في الجانب الآخر وتحديد هوياتهم. لاحظ مئير كَرْميول ويعقوب سلمان، من كتيبة الهاغناه، الأشخاص الثلاثة. اعتقدا بأنهم ضمن التعزيزات القادمة إليهما. ناداهم كرميول: "مرحبا يا جماعة" (تحية دارجة بالعربية كانت تجري على ألسن اليهود أيضاً). ردّ عبد القادر بالإنكليزية: "هالو بويز". لماذا ردّ بالإنكليزية، بينما كان يعتقد بأنه يلتقي مرؤوسيه من الجهاد المقدس؟ ـ "يجدر أن تستوضح ذلك"، اقترح عليّ فلسطيني تربطني به معرفة قديمة، ملمحاً بذلك إلى احتمال وجود مؤامرة بريطانية خفيّة أدت إلى موت عبد القادر.

في الصفحة المقابلة: خارطة القسطل ومحيطها القريب. كما يظهر من خطوط الارتفاع، تقع القسطل فوق الشارع الرئيسي المؤدي إلى القدس وتشرف، عملياً، على الطريق الرئيسي المؤدي من منطقة وادي الخليل إلى المدينة. حالت السيطرة الفلسطينية على الجبل دون إيصال المؤن إلى السكان اليهود في القدس فساهمت في تشديد الحصار على المدينة. (المصدر: مركز الخرائط الإسرائيلي، خرائط طوبوغرافية، 1:20,000، 1948).

من المؤكد أن الحقيقة بسيطة. لم يدرك عبد القادر نفسه أيضاً أن قبالته اثنين من أعدائه، محاربين يهوديين. ظنّ أنهما اثنان، أو ثلاثة، من الجنود الإنكليز، من أولئك الفارين من الجيش البريطاني الذين انضموا إلى المقاتلين العرب وجرى إدراجهم في وحدة الطليعة التي يقودها إبراهيم أبو دية، فأراد أن يردّ عليهم التحية بالإنكليزية. أبو دية، الذي كان قائد حي القطمون في الجهاد المقدس، هو الذي أوكل إليه عبد القادر قيادة الشق المركزي من الهجوم على قمة الجبل.

خاطب الطرفان، اليهودي والعربي، أحدهما الآخر، إذن، بلغة غير لغتيهما. مرّت لحظات من البلبلة والارتباك. استعاد سلمان رشده أولاً ونادى كرميول:

"مئير، هؤلاء عرب". أطلق كرميول صلية من الطلقات من مسدسه الرشاش من طراز "ستِن". كانت المسافة نحو 15 متراً فأصابت الطلقات عبد القادر الذي سقط جريحاً، احتضر قليلاً ومات.

كان الظلام ما زال مخيماً وصوت الرصاص يدوي في المنطقة. انتظر سلمان وكرميول ما يزيد عن ساعة من الزمن حتى انبلج نور الصباح وتوقف إطلاق النار. عندئذ فقط خرجا من مخبئهما، على شرفة منزل يعود إلى أحمد سعيد مْطَيِّر، كي يفحصا ما إذا كان الرجل مصاباً أم ميتاً. كان عبد القادر ممدَّداً هناك، ميتاً، وحيداً. شاهد الشابان الشقيقان جابر وإحسان خليل الحيان، الفلاحان من قرية بيت فجار، عبد القادر وهو يسقط، تراجعا إلى الوراء وقفلا عائدين ركضاً إلى مقر القيادة في المحجر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت تلك أيام أوج المعارك العسكرية التي سبقت إعلان قيام الدولة وغزو الجيوش العربية البلاد. مرت أربعون يوماً إضافية حتى 15 أيار، اليوم الذي اكتملت فيه ثلاثون سنة من الانتداب البريطاني على فلسطين. في تلك الأيام، كان البريطانيون يحكمون البلاد بأكملها، لكنّ سيطرتهم تراجعت وضعُفت تدريجياً. كانت الحرب بين الوحدات غير النظامية من العرب واليهود قد أصبحت على أشدّها: حرب أهلية وحشية، لا يأخذ الطرفان فيها أسرى، بل يَضربون فقط، يؤذون ويؤلمون الخصم: حرب لم يكن احتلال الأرض خلالها لغرض البقاء عليها... حتى التحول، الذي حصل بعد معركة القسطل.

إن كان ثمة شعور لا يزال سائداً في شتاء 1948 بأن الغلبة للعرب، فقد انعكست الآية في مطلع نيسان. انطلقت القوات اليهودية في هجوم نحو القدس المحاصَرة وحققت نجاحات. لا يستسيغ المؤرخون تشبيهات من هذا القبيل، لكن إن كان بالإمكان تحديد لحظة التحول التي جرى فيها حسم المعركة على القدس، وربما على البلاد بأسرها، فهي تلك اللحظة التي قُتل فيها عبد القادر بإطلاق النار عليه، مع بزوغ الفجر على القسطل.

لم يكن مقاتلو الجهاد المقدس يعلمون، في الساعات التي مرّت حتى نهار ذلك اليوم، أن قائدهم قد قُتل. عاد الشقيقان من بيت فجار إلى مقر القيادة ورويا أنهما كانا يسيران برفقة عبد القادر بين البيوت في مطلع الجبل. حصل إطلاق نار في المكان فسارعا إلى الاختباء. وحين نهضا بعد بضع دقائق، لم يجدا أثراً لعبد القادر. أدرك المجتمعون في مقر القيادة أن الشقيقين كانا آخر من رأى قائدهم. لماذا لم يروِ الشقيقان أنهما شاهدا عبد القادر وهو يتعرض للإصابة؟ يبدو أنهما كانا يخشيان اتهامهما بالتخلي عن القائد وهو جريح. لكن حقيقة أنهما لم يُخبرا بالأمر غيّرت مسار المعركة. اعتقد المقاتلون العرب بأن عبد القادر على قيد الحياة، لكنه جريح، محاصَر في مكان ما بين خرائب

القرية ولزام عليهم الهبوب لنجدته. سمع الناس في القدس والقرى المجاورة في ساعات الصباح الباكرة عن أحداث الليل فتطوعوا، على وجه السرعة، للانطلاق نحو القسطل.

كذلك، لم يكن المحاربون اليهود يعرفون هوية الشخص الذي أصابوه، على وجه الدقة. انتبهوا إلى أن القتيل يرتدي زياً عسكرياً مرتباً، ليس كحال غالبية المقاتلين العرب الآخرين، وأنه مزنّر بمسدس أخمصه مصنوع من العاج وفي جيبه كتاب القرآن بغلاف مذهَّب، وثائق ومحفظة سوداء. وفقاً لتوثيقات عضو منظمة بلماح (الذي أصبح لواءً في الجيش الإسرائيلي لاحقاً) عوزي نركيس، الذي رأىّ الجثة، فقد أخطأ الجنود في قراءة اسمه المدوّن على رخصة السياقة التي كانت في محفظته. قرأوا: عبد القادر موسى سليم (اسم أبيه واسم جدّه)، دون "الحسيني" في نهايته. مردخاي غزيت (الذي أصبح مديراً عاماً لديوان رئيس الحكومة لاحقاً)، الذي كان في القسطل في صباح ذلك اليوم، كتب في تقريره: "قتلنا سمكة سمينة، اسمها عبد القادر سُليّم. أكرر: سُليّم".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تواصلت حرب استقلال إسرائيل لأشهر عديدة بعد معركة القسطل. وقعت القدس فيما بعد تحت الحصار، مرة أخرى، ودارت معارك ضارية بين جيش الدفاع الإسرائيلي، الذي تشكل مع إعلان قيام الدولة، وبين جيوش الدول العربية التي دخلت إلى البلاد آنذاك. لكن ذلك اليوم، منذ طلوع فجر يوم الخميس 8 نيسان وحتى صباح يوم الجمعة 9 نيسان، مدوّن في تاريخ النكبة الفلسطينية بكونه يوماً فظيعاً.

يقدّر المؤرخون الإسرائيليون، العرب والأجانب، الذين يصفون سير المعارك في تلك الأيام، أن اليهود قد تلقوا ضربات قاسية في أشهر الشتاء من عام 1948، "حتى بداية نيسان، على الأقل، لم تكن المعارك قد حُسمت"، كما كتب لاحقاً، بحذر لافت، وليد الخالدي، أحد أهمّ المثقفين الفلسطينيين. غير أن باحثين آخرين في تلك الفترة لا يشاطرونه هذا الرأي، وكذلك عبد القادر ذاته: "جنودي في ذروة انتصارهم"، كتب على ورقة صغيرة أرسلها قبل ذلك ببضعة أيام إلى عزام باشا، الأمين العام لجامعة الدول العربية في القاهرة. صورة عن هذه الورقة المتفائلة، من يوم 6 نيسان 1948؛ أي قبل معركة القسطل بيوم واحد فقط، منشورة في الكتاب البحثيّ الذي وضعه عيسى خليل محسن عن عبد القادر، فلسطين الأم وابنها البارّ. لكن ثمة من يتحفظ على أصالة الورقة التي نُشرت بعد وفاة عبد القادر.

إلى جانب ذلك، ليس ثمة من يشكك في التقييم الأساس والجوهري: تلك الساعات الـ 24 في نيسان إياه كانت دراماتيكية جداً في المعركة على البلاد.

في ما يخص الفلسطينيين، وقعت في ذلك اليوم ثلاث مصائب: الأولى، وفاة عبد القادر في المعركة على القسطل وحقيقة أن القوات اليهودية بقيت، للمرة الأولى، في المنطقة التي احتلتها (السكان العرب من قرية القسطل لم يعودوا إليها، إطلاقاً)؛ الثانية، المعركة والمجزرة اللتان نفذتهما القوات اليهودية (أعضاء منظمتي "إيتسل" و"ليحي") في قرية دير ياسين، وهو ما اعتبره عدد من المؤرخين الفلسطينيين انتقاماً نفذته القوات اليهودية على الخسائر التي تكبدها اليهود في القسطل؛ والثالثة، تطور غير ذي صلة بالأحداث التي وقعت في القدس، وإنما بالمعركة في شمال البلاد ـ الفشل الذي مني به "جيش الإنقاذ" الذي أرسلته الجامعة العربية، تحت قيادة فوزي القاوقجي، في محاولة لاحتلال وتدمير كيبوتس مشمار هعيمق على الطريق إلى حيفا، وهو الفشل الذي تبينت معالمه بوضوح بعد بضعة أيام فقط.

بنظرة إلى الوراء، يبدو أنه في ذلك اليوم نفسه، الذي انقلبت فيه موازين المعركة وحُسم مصير البلاد، ترسخت أيضاً صورة عبد القادر الفريدة في الذاكرة الوطنية الفلسطينية. أصبح شخصية بطولية، المخلّص الذي قُتل: البطل، أمير العائلة المرموقة، الذي يحظى بتقدير وإعجاب الجماهير العربية، هنا في البلاد وفي خارجها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في صباح يوم الجمعة 6 نيسان، كان لا يزال في مقدور آخر المقاتلين العرب في القسطل رؤية الدخان المتصاعد في جهة الشرق، من قرية دير ياسين المجاورة، التي أشاعت أنباء المجزرة التي وقعت فيها حالة من الهلع تسببت بهروب فلسطيني جماعي. بعد تلك الساعات من معركة القسطل، مجزرة دير ياسين، وإخفاق جيش الإنقاذ في هدم مشمار هعيمق، بدأ الانهيار الفلسطيني يتدحرج مثل كرة ثلجية: في منتصف نيسان، سقطت طبريا العربية في أيدي اليهود؛ ثم انهار بعدها المركز المديني العربي الأكبر في حيفا؛ وبعد ذلك بأسبوعين، غادر عرب صفد مدينتهم وتشردوا؛ وعشية الخامس عشر من أيار تم احتلال يافا العربية وانتزاعها من أيدي الفلسطينيين. صحيح أن تلك الأسابيع شهدت إخفاقات يهودية، أيضاً، لكن لا مجال لمقارنتها بالهزائم التي تكبدها العرب. كانت حيفا ويافا المدينتين العربيتين الأكثر تطوراً وحداثة في فلسطين الانتدابية؛ كانتا مركزين أساسيين للفلسطينيين في الصناعة، التجارة، الأشغال الحرفية، المواصلات، الخدمات البنكية، المؤسسات الاجتماعية، التعليم والصحافة. أما أحداث المرحلة الثانية من الصراع؛ أي القتال المباشر بين الجيش الإسرائيلي والجيوش العربية، الذي أصبح على وشك الاندلاع، فقد كانت بمثابة استكمال للنكبة.

بنظرة إلى الوراء، يجوز التقدير بأن الأحداث التي تلاحقت بوتائر متسارعة في القسطل، في دير ياسين وفي مشمار هعيمق، قد أمْلت تحولاً سياسياً مهماً أيضاً. فبوفاة عبد القادر، فقدت الحركة الوطنية الفلسطينية بقيادة آل الحسيني أكبر أبنائها، فيما تعززت في المقابل القوة العسكرية والسياسية لدى معارضي آل الحسيني، وراعيهم، ملك الأردن عبد الله.

جرّت حرب استقلال إسرائيل كارثة كبيرة على عرب البلاد. فقدَ نحو نصف السكان العرب في فلسطين، الذين بلغ تعدادهم مليوناً وثلاثمائة ألف إنسان، بيوتهم، ممتلكاتهم وعوالمهم كلها. أصبحوا لاجئين، فجأة. كان عارف العارف، إحدى الشخصيات العربية البارزة بين عرب البلاد إبان الانتداب البريطاني، بين أوائل الذين وصفوا الهزيمة العربية في 1948 باسم "النكبة"، التي تعني الكارثة، المصيبة، المأساة. وقد اختار لمؤلفه الذي وثق فيه ضياع وطنه، في خمسة مجلدات، عنوان النكبة: نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود.

بذل مئات المؤرخين، الأكاديميين الفلسطينيين، الكتّاب، الشعراء وكتّاب المذكّرات، جهوداً كبيرة في محاولة فهم وتفسير كيف حصلت النكبة. أرادوا معرفة ما حصل بالضبط خلال الأيام التي جرى فيها التحول الميداني في المعارك، في بداية نيسان. ما الذي حصل في المعركة إياها على القسطل؟ "القسطل هي القدس"، أعلن عبد القادر على مسامع المشاركين في اللجنة العسكرية التابعة لجامعة الدول العربية. وفي الجهة المقابلة، قال دافيد بين غوريون، في تلك الأيام نفسها بالضبط: "إذا سقطت القدس، فنحن معرضون للسقوط في البلاد بأسرها". قال عبد القادر ذلك في مطلع نيسان في وزارة الدفاع في دمشق، بينما كان بن غوريون يتحدث في لقاء القادة العسكريين في منزله في تل أبيب يوم 1 نيسان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان لأحداث الساعات ما بين 8 و9 نيسان 1948 دور مركزي ليس في أنها حسمت مصير المعركة التي دارت في تلك الأشهر فحسب، بل لأن لها، أيضاً، آثاراً واضحة في كل مجريات الصراع الإسرائيلي ـ الفلسطيني وتطوراته على مدى عشرات السنين فيما بعد. إنها تتجسد في ظروف الفقر والضائقة الشديدة التي تعيشها مخيمات اللاجئين في الضفة الغربية، قطاع غزة، لبنان، سورية والأردن. وهي تبدو واضحة أيضاً في حلم العودة الذي لم يتلاشَ. مرت نحو سبعين عاماً منذ 1948 ولا يزال الفلسطينيون يحاربون على ذاكرة بيتهم المدمَّر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

2

ثـــورة

اندلعت في البلاد، في نيسان 1936، موجة من الاضطرابات. لم تكن في بداياتها، مختلفة عن موجات الاضطرابات السابقة التي صاحبت الانتداب البريطاني، منذ يومه الأول تقريباً. كانت موجات العنف الأولى في عاميّ 1919 و1921، مع تأسيس الحكم البريطاني في البلاد، بعد مغادرة الأتراك. ثم استمرت في صدامات 1929 ("أحداث 1929") ـ تحركات أعداد كبيرة من العرب، وخصوصاً في القدس، الخليل وصفد، والتي أوقعت في الأسبوع الأول من آب أكثر من 130 قتيلاً يهودياً و116 قتيلاً عربياً. كان لـ "احداث 1929" طابع ديني جليّ: شكّلت التغييرات في ترتيبات الصلاة في "الحائط الغربي" ("حائط البراق") الدافع المباشر لتفجر الاضطرابات التي تطورت إلى هجمات عنيفة شنها العرب ضد اليهود في أماكن مختلفة من البلاد (نذكر بشكل خاص المذبحة بحق اليهود في الخليل)، وهي الأحداث التي يسميها العرب "ثورة البُراق". على خلفية الهدوء النسبي الذي ساد واستمر طوال الجزء الأكبر من سنوات العشرينيات، سبَّب تفجر العنف في 1929 صدمة قوية للييشوف اليهودي. ظهر، للمرة الأولى، شعور بالحاجة الماسة إلى تشكيل وتنظيم قوة لحماية السكان اليهود، فتصدرت مسألة الأمن سلم الأهمية والاهتمام.

تبلور بين السكان الفلسطينيين في البلاد خلال العشرينيات، معسكران سياسيان متنافسان؛ الأول ـ معسكر أتباع "المجلس الإسلامي الأعلى" (المجلس) واللجنة التنفيذية العربية، اللذان سُمّيا باسم العائلة المقدسية التي وقفت على رأس هذا المعسكر، "الحسينيون". والثاني ـ المعارضة، مناوئو المجلس الإسلامي الأعلى واللجنة التنفيذية. وكانت على رأس قيادة هذا المعسكر عائلة نشاشيبي، إحدى العائلات البارزة والمهمّة في القدس، أيضاً. وكان الولاء لكل من المعسكرين يتحدد، في الغالب، حسب الانتماء العائلي التقليدي. وقد أقام كلٌّ من المعسكرين اتصالات وعلاقات مستقلة مع مجموعات، أحزاب، حُكّام وشخصيات متنفذة في العالم العربي.

سرعان ما اكتسبت الأحداث التي بدأت في العام 1936 طابعاً مغايراً للموجات السابقة من الصدامات فأصبحت تُعرَف بما سُمي "التمرد العربي" أو "الثورة الفلسطينية الكبرى". تحوّل التجمهر الذي حصل في يافا يوم 19 نيسان 1936 ثم الهجوم على بعض اليهود، هذه المرة، إلى حريق قُطري. تشكلت في غضون أيام قليلة، في ربيع ذلك العام، في المدن المختلفة "لجان وطنية" لإدارة التظاهرات وأُعلن إضراب عام. نشطت إلى جانب اللجان الوطنية، أيضاً لجان لتوفير وتقديم الدعم الاقتصادي لفئات أصبحت تعاني

النقص والعوز جرّاء الإضراب، لجان للشبيبة ولجان لمقاطعة الخدمات والمنتجات اليهودية. وفوق هذه كلها، أقيمت في نهاية نيسان "لجنة عربية عليا" بمشاركة المعسكرين الخصمين اللذين جنحا إلى التعاون المشترك في تلك المرحلة، بل ضمّا إلى قيادة الثورة مجموعات سياسية صغيرة أخرى. استمرت الثورة، على مراحل متقطعة، نحو ثلاث سنوات واعتُبرت، من جوانب عديدة مختلفة، حرباً حقيقية. في تلك الفترة، اشتهر اسم عبد القادر الحسيني كقائد لمجموعات الشباب في القدس وجوارها.

تنظّمت في البلاد خلال سنوات الثورة مئات المجموعات من الشباب العرب الذين كان هدفهم المسّ بممثلي السلطات البريطانية وباليشوف اليهودي. وضع الباحثان د. مصطفى كبها ود. نمر سرحان قوائم تضم أسماء نحو عشرة آلاف شاب عربي شاركوا في الانتفاضة. كانت غالبية هؤلاء الشبان من أبناء البلاد بالطبع، لكن انضم إليهم أيضاً بضع مئات من المتطوعين من الدول العربية المجاورة. وكان نحو 3,000 منهم شباناً من القرى العربية من مختلف أنحاء البلاد، أبناء فلاحين، مجنَّدين على مدى فترات طويلة تجنداً حقيقياً وتاماً، اختبأوا في الجبال وخصصوا وقتهم كله للقتال؛ نحو 1,000 آخرين كانوا مجنَّدين من بين سكان المدن، من صفد في الشمال حتى غزة وبئر السبع في الجنوب؛ ونحو 6,000 آخرين انضموا من حين إلى آخر إلى المعارك المختلفة في مناطق سكنهم. كانت طريقة انضمام هؤلاء الأخيرين إلى المعارك تسمى، بالعربية، "الفَزعة": تسري شائعة عن حادث ما بسرعة فائقة وتنتشر شفاهةً في القرى المحيطة فيُخرج السكان ما لديهم من أسلحة مخبأة في البيوت ويهرعون إلى مكان الحادث، إلى ساحة المعركة.

كانت لطريقة الفزعة التقليدية إيجابياتها وسلبياتها. الأفضلية الأساسية هي أن المشاركين من القرى كانوا يشكلون قوة احتياطية ما. وأفضلية أخرى هي أنهم لم يكونوا جنوداً نظاميين؛ ما يعني أنه لم يكن ينبغي الاهتمام بتوفير وضمان المعدات، الرواتب، المساكن والأغذية لهم. كان يجري، في بعض الأحيان، تزويدهم بالسلاح والذخيرة، لكن كثيرين منهم كانوا يمتلكون أسلحة شخصية خاصة بهم، يستخدمونها خلال الأيام العادية "لتسوية النزاعات" المحلية في داخل القرى. أما النقص الأكبر في هذه الطريقة فهو أن المشاركين في الفَزعة كانوا يبدون، في الغالب، مثل جماعات تفتقر إلى الترتيب والنظام، إلى التنظيم والالتزام. لهذا، فمن وجهة الناظر إليهم من الخارج، لا سيما إذا كان معادياً لهم، مثل الحكم البريطاني واليشوف اليهودي، لم يكن هؤلاء سوى غوغاء متوحشين ومتعطشين للدماء تدفقوا إلى المعركة للفوز بالغنائم وللانتقام من العدو. في عمليات الفزعة، كما في الأحداث العنيفة الأخرى التي يطلق عليها بالعبرية، اصطلاحاً، اسم "أحداث"، كثيراً ما كانوا يتعرضون للمواطنين، بل لم يتورعوا أحياناً عن التمثيل بجثث

الضحايا. كانت الفزعة طريقة تنظيم وقتال معتمَدة لدى عرب البلاد خلال كل سنوات الصراع الدامي، سواء في فترة الثورة بين 1936 ـ 1939 أو خلال الحرب في 1948.

خلافاً لأحداث دامية مشابهة في السابق، كانت ثمة فترات نجح خلالها الثوار العرب في بسط سيطرتهم التامة على أجزاء واسعة من البلاد، وخصوصاً في منطقة جبال نابلس، وكذلك لوقت قصير في مراكز المدن العربية، بل حتى في مراكز الحكم البريطاني وفي البلدة القديمة من القدس. حاول الثوار إنشاء مؤسسات للسيطرة والتحكّم ومنظومات قضائية مستقلة، عوضاً عن منظومات القضاء التابعة للحكم البريطاني، حتى أن لجنة عليا قد أقيمت في مرحلة معينة وكان مقرها في دمشق، أطلق عليها اسم "لجنة الجهاد المقدّس" وكانت تطمح إلى السيطرة على الثورة ومجرياتها والتحكّم بوجهتها. كانت تلك فرصة المقاتلين الفلسطينيين: فهم الذين أداروا المواجهة، كلها، بينما كانت المساعدات التي تلقوها من الخارج ضئيلة جداً، نسبياً.

جنّد البريطانيون قوات كبيرة من الجيش والشرطة لمحاربة الثوار العرب. استخدمت تلك القوات أسلحة ثقيلة، دبابات، مدفعية، وقصفت مراكز الثوار بالطائرات. تم هدم أحياء كاملة في القرى العربية كلياً عقاباً على إيواء الثوار وتوفير مخابئ لهم؛ كما هدم البريطانيون عشرات البيوت في عدد من المدن العربية، كما حصل في يافا القديمة، مثلاً. قُتل آلاف الفلسطينيين وتم إعدام كثيرين آخرين. فـُرِضت على المجتمعات في القرى والمدن العربية غرامات جماعية. غادر البلادَ وهاجَر إلى الدول المجاورة آلاف الفلسطينيين، بمن فيهم عدد من القادة بينهم أيضاً الرجل الذي كان يُعتبَر القائد الأكثر تطرفاً وتعصباً وطنياً بين الفلسطينيين، مفتي القدس الحاج أمين الحسيني.

تخللت سنوات الثورة الثلاث أحداث سياسية، اقتصادية واجتماعية على غاية من الأهمية غيّر بعضُها وجهَ البلاد: مبادرات سياسية وتدخلات من ملوك عرب؛ لجنة تحقيق بريطانية برئاسة اللورد بيل طرحت، للمرة الأولى، اقتراحاً عملياً لتقسيم البلاد بين اليهود والعرب؛ وفي المجتمع الفلسطيني، تأججت خصومات وانقسامات أدت، ضمن أشياء أخرى، إلى سلسلة من عمليات القتل المتبادلة وسفك الدماء خلال معارك دارت بين المعسكرات المتنازعة. ومقابل هذا كله، حصلت لدى اليهود سيرورات من التطور والنمو والتعاظم، التنظيمي والاقتصادي والعسكري.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الأسبوع الأول من أيلول 1936، حين كان الإضراب العام الذي بدأ في نيسان لا يزال في أوجه، عبَر الحدود الشمالية قادماً إلى البلاد، القائد

العسكري سعيد العاص، المولود في مدينة حماة السورية والضابط السابق في الجيش العثماني والذي يُعتبر أحد أبطال الثورة السورية في 1925 ضد حكم الفرنسيين. انضم العاص إلى مَن كان ضابطاً عثمانياً أكثر شهرة، فوزي القاوقجي، المولود في مدينة طرابلس اللبنانية الذي قدِم إلى البلاد في صيف 1936، على رأس عدد من مجموعات المتطوعين العرب الذين جاءوا لمساندة الثوار العرب في فلسطين.

وصل العاص، البطل العربي الذي وصفته وثائق الهاغناه بأنه "مغامر سوري"، إلى منطقة القدس بغية تنظيم وقيادة مجموعات الشبان ـ غالبيتهم من محافظات القدس، بيت لحم والخليل ـ الذين نفذوا جملة من هجمات إطلاق النار على قوافل، جنود، موظفين ومنشآت تابعة للجيش والحكم البريطانيين. كان بين أولئك الشبان العرب مقدسيّ يبلغ من العمر 26 عاماً، كان مميزاً بين الثوار ـ ذا ثقافة أكاديمية وابناً للعائلة العربية الأكثر عراقة ومقاماً في القدس وفي فلسطين عموماً في ذاك الوقت ـ عبد القادر الحسيني.

قبل ذلك، كان عبد القادر الشاب قد تأثر عميقاً بنشاط الداعية الإسلامي الشيخ عز الدين القسام، الذي جاء من سورية إلى حيفا وكان ينوي تنظيم حراك تمرّدي ضد الإنكليز واليهود في الوقت ذاته. تولى تنظيمه، "اليد السوداء"، تنفيذ سلسلة من الهجمات الدموية ضد اليهود والإنكليز في منطقة حيفا وفي شمال البلاد. في تشرين الثاني 1935، هاجم رجاله وحدة للشرطة بالقرب من عين حارود في مرج ابن عامر. بعد ذلك بشهر واحد، قُتل الشيخ القسام خلال معركة مع البريطانيين قرب بلدة يَعبَد في محافظة جنين. دُفن في قرية بلد الشيخ (هي، اليوم: تل حنان، عند مشارف حيفا من الشرق). شاركت جماهير غفيرة في تشييع جثمانه وأصبح الشهيد الأول في النضال الوطني الفلسطيني. أطلق اسمه على الذراع العسكرية لحركة "حماس" ("كتائب القسام") وعلى قذائف القسام المعروفة. يقوم شبان يهود بتحطيم الشاهدة على قبره، من حين إلى آخر، فيعيد شبان عرب بناءها من جديد. تحظى شخصيته بالاحترام والإعجاب إلى درجة أن فلسطينيين كثيرين درجوا، في السنوات الأخيرة خصوصاً، على إطلاق اسمه (قسّام) على مواليدهم الذكور (مثلاً، ابن مروان البرغوثي، أحد قادة حركة "فتح" المسجون في إسرائيل).

متأثراً بأعمال الشيخ القسّام، نظم عبد القادر الشاب مجموعة في القدس من الفتيان من حركة الكشافة العربية وأطلق عليها اسم "اليد الخضراء" (ثمة مجموعة عربية أخرى حملت الاسم ذاته كانت تنشط في الجليل قبل ذلك، في العام 1929). في لقاءاتهم، كان هؤلاء الفتية يتحدثون عن عمليات ينبغي تنفيذها، غير أن العمليات الحقيقية التي تم تنفيذها فعلياً كانت قليلة وتلخصت

غالبيتها في توزيع منشورات، رمي حجارة وتخريب خطوط هواتف. انتقل التنظيم إلى مسار أكثر جدية إثر اللقاء الذي بادر إليه عبد القادر خلال الأسابيع الأولى من صيف 1936 في مكاتب الحزب العربي الفلسطيني، حزب آل الحسيني. كان مقر الحزب في منزل عائلة دُزدار في حي مصرارة، تتمة شارع "هنفيئيم" (الأنبياء) اليوم. في البيت، الذي اكتُشفت تحته كنيسة أرمنية قديمة، هنالك مجموعة من القبور لشهداء مجهولين فوقها عبارة مؤثرة: "هنا دُفن الذين لا يعرف أسماءَهم إلا الله".

كانت تلك، كما يبدو، المرة الأولى التي يجري فيها نقاش حول تنظيم وحدة عسكرية سيطلق عليها لاحقاً اسم "الجهاد المقدّس"، بل نظم المشاركون في اللقاء، أيضاً، مراسم تأدية القَسَم، على غرار الطقوس التي كان من المعتاد تنظيمها في مدرسة روضة المعارف، معقل آل الحسيني. وهذا هو نص القَسَم:

الحياة ـ حقي؛

الاستقلال ـ غايتي؛

العروبة ـ مبدئي؛

فلسطين ـ أرضي،

ولا مكان فيها لغير العرب.

هذا ما أومن به والله على ما أقول شهيد.

تزودت مجموعات الشبان بالسلاح وانطلقت لتنفيذ عمليات خلال الأيام الأولى من إعلان الإضراب واندلاع الاضطرابات. لكن عبد القادر لم ينضم إلى تلك المجموعات. قبل ذلك بسنة واحدة، في أيار 1935، كان قد تزوج من ابنة عائلته، وجيهة الحسيني، ابنة أحد أثرياء العائلة، موسى رضا الحسيني، ومع بدء الاضطرابات وُلدت ابنتهما البكر هيفاء.

لم يخرج الوالد الشاب إلى الجبال سوى في نهاية الصيف، في أيلول، وحظي على الفور بمكانة مميزة بين الثوار لكونه من عائلة عريقة، مثقفاً، بالغاً ومتزوجاً. كان معظم رفاقه الثوار أصغر منه سناً، لم يبلغ كثيرون منهم العشرين من العمر. وكان بينهم أيضاً فتيان أبناء 15 ـ 16 عاماً لم يكن بعضهم يعرف القراءة والكتابة. كانوا يجلّونه أيضاً بسبب شجاعته وطبعه المقدام. يظهر كثيرون من هؤلاء الشبان في الوصف الذي يقدمه كبها وسرحان عنهم، مهنيين متدرّبين: أساكفة، خياطون، عاملو بناء، ميكانيكيو سيارات، عاملو طباعة، عتّالون، كهربائيون، نجارون، بائعون متجولون وحدادون. "كانوا مستعدِين للموت من أجلنا"، كتب أنورِ نسيبة في دفاتر يومياته التي بقيت في

عهدة أبناء عائلته. نسيبة، الذي كان أصغر من عبد القادر ببضع سنوات، كان يترأس اللجنة الوطنية في القدس في العام 1948، ثم أشغل فيما بعد مناصب رفيعة في مؤسسات الحكم الأردني.

بعض أعضاء مجموعة الشبان في بداية الجهاد المقدّس في العام 1936 ـ إبراهيم أبو دية، الشقيقان صبحي وبهجت أبو غربية، عبد الحليم الجولاني، علي موَسوَس، عبد الله العمَري، محمد عادل النجار، حافظ بركات أبو الفيلات، فوزي القُطُب وقاسم الريماوي ـ سيرافقون عبد القادر في فصول عديدة أخرى من حياته. كان بعضهم مرافقاً مقرّباً له طوال 12 سنة، حتى يوم وفاته في المعركة الأخيرة، معركة القسطل. بعد ذلك، تفرقت المجموعة وتوزع أعضاؤها في مختلف الاتجاهات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان واضحاً في مطلع أيلول 1936، حين جاء من سورية سعيد العاص، العسكريّ المحترف المكلل بهالة بطل المعارك، أنه من بين أعضاء مجموعة الثوار في جبال القدس والخليل، عبد القادر وحده هو المرشح الطبيعي ليكون نائبه. لم يعرف اسمَه كثيرون آنذاك، كما لم يعرفوا في تلك الأيام أيضاً أسماء الثوار الآخرين الذين كانوا نشطاء في العمل السرّي وكانوا مطلوبين للسلطات البريطانية. اختبأ رجال مثلهم آنذاك في الجبال حول القدس وكانوا يخرجون من حين إلى آخر لتنفيذ هجمات ضد أهداف بريطانية ويهودية. وكما يحدث عادة، حين يقوم أعضاء مجموعات من المُجنَّدين شبه المنظّـمين بالإعلان عن أنفسهم مقاتلي تحرير، قدمت عائلات الفلاحين المعونات والمخابئ لهم.

يقول المؤرخ عيسى السِّفري، في كتابه فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية، إن روح سعيد العاص، الضابط العثماني، قد ارتبطت بالقومية العربية بعدما تأثر بنهضة القوميات في حرب البلقان. وحين أوفد مع وحدته العسكرية إلى الحجاز، في وقت لاحق، تحمس العاص لما وُصف بأنه "روح العروبة" مع اندلاع التمرد ضد العثمانيين بقيادة الشريف حسين من مكة، والد الملوك الهاشميين في الحجاز، العراق والأردن.

نشر عيسى السفري مقالاته الأولى عن الثورة في فلسطين في مدينة يافا في العام 1937، بينما كانت الأحداث لا تزال في ذروتها. وهو يروي هناك كيف نجح العاص، الموصوف بجسارته، في جمع عبد القادر ورفاقه من حوله وقيادتهم في تنفيذ العمليات. كانت أولى تلك العمليات، كما يبدو، التي أطلق عليها اسم "معركة حلحول"، إلى الشمال من الخليل، والتي جرت بعد وصول العاص إلى جبال القدس بأسبوعين. بين عشرات المعارك التي جرت في السنة الأولى من الثورة، لم تتميز معركة حلحول بأي أهمية خاصة. حتى ذلك

الحين، كانت قد حصلت، في أيام الإضراب الصيفية، مواجهات عديدة بين الثوار والجيش البريطاني: بالقرب من قريتي بلعا ونور شمس في محافظة طولكرم؛ بجانب عصيرة الشمالية، بيت إمرين وجبع ما بين جنين ونابلس؛ وفي ترشيحا وإندور (عين دور الحالية) في الشمال، كما في وادي عارة (في المثلث الشمالي) وباب الواد، في الطريق صعوداً نحو القدس.

في الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم 24 أيلول، أقام العاص ومجموعته حاجزاً حجرياً على الشارع الخارج من الخليل شمالاً، قرب بلدة حلحول. قطعوا خطوط الهاتف الممتدة في المكان وانتظروا وصول سيارة عسكرية بريطانية إلى المكان، قادمة من صوب الخليل. حين اصطدمت السيارة بالحاجز، ترجل الجنود منها لإخلاء الحجارة من الطريق فأطلق الثوار النيران عليهم مما أوقع عدداً منهم جرحى. هبّ رفاق لهم لنجدتهم. وحين سمع سكان عرب من القرى المجاورة صوت إطلاق الرصاص، بدأوا بالتوافد إلى المكان وتجمعوا حوله. تواصل تبادل إطلاق النيران بصورة متقطعة طوال النهار والليل، حتى صبيحة اليوم التالي. وحسب ما أفاد السفري، فقد تكبد الإنكليز خسائر كبيرة، بينما قُتل ثلاثة فلسطينيين وأصيب عدد كبير منهم بجراح.

أصدر العاص حين رأى الحشود العسكرية البريطانية تعليماته لسكان القرى المجاورة الذين هبوا لتلبية نداء الفزعة بأن يعودوا إلى منازلهم. أما هو، فانسحب سوية مع عدد قليل من مقاتليه، بينهم عبد القادر الحسيني، نحو الشمال، إلى بيت لحم.

مرت بضعة أيام، خرجت مجموعة من الثوار من المخابئ في سلسلة الجبال قرب قريتي حوسان وبتير، إلى الغرب من بيت لحم، وتوجهت لتعطيل سكة الحديد النازلة من القدس إلى تل أبيب ويافا. سقط قطار كان يجر عربات تقل جنوداً بريطانيين عن سكته ففتح الثوار العرب نيرانهم على الجنود الذين نزلوا من العربات.

استدعى البريطانيون تعزيزات وشنوا حملة عسكرية واسعة، استهدفت بالأساس فرض الحصار على كامل المنطقة القروية إلى الغرب من بيت لحم. اكتشفت طائرة استطلاع بريطانية الثوار العرب مختبئين في الجبل قرب قرية الخضر. هناك، يوم 4 تشرين الثاني، وقعت "معركة الخضر" التي حظيت بنشر واسع في التوثيقات الفلسطينية، لأنه سقط خلالها الضابط السوري سعيد العاص. أصيب عبد القادر الحسيني بجراح خلال المعركة واقتيدَ أسيراً إلى مشفى حكومي في القدس. كان ذلك الحدث الأول الذي علا فيه اسم هذا الشاب المقدسي وانتشر خارج نطاق الدوائر ذات العلاقة بعائلته، آل الحسيني.

ابتداء من هذا الحدث في تشرين الأول 1936، بالقرب من قرية الخضر الصغيرة، واصل عبد القادر الحسيني حياته دون حيدة عن المسار الذي اختطه لنفسه: 12 سنة من المعارك، الصراعات والخصومات، النجاحات والإخفاقات، حتى معركة القسطل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الخضر هي قرية عربية جديدة، نسبياً. في القرن الثامن عشر، أقامت البطريركية اليونانية ـ الأرثوذكسية في القدس ديراً على أراضٍ تملكتها، إلى الجنوب الغربي من بيت لحم، وفيها أنقاض كنيسة بيزنطية عتيقة. أطلق على الدير اسم القديس جرجس/ جاورجيوس (سانت جورج)، المدفون في اللد (نظراً لأهميته للكنيسة الأرثوذكسية، أطلق اسمه على العديد من المواقع والمنشآت في البلاد). القديس جرجس، الذي يسمى "الخضر" بالعربية أحياناً، هو أيضاً راعي انجلترا، أثيوبيا ومدينة موسكو. شخصيته كفارس يركب حصانه ويهزم التنّين هي رمز مسيحي معروف جداً. أقام الرهبان في الخضر، على ناصية الطريق من الجنوب إلى بيت لحم، بوابة حجرية مصمَّمة، "بوابة الخضر"، توصل منها طريق ضيقة إلى الدير. استُخدِمت غرف الدير لفترة ما مصحة للمرضى النفسيين وأنشِئت بجانبه، خلال السنوات، عدة بيوت لعرب كانوا يفلحون أراضي الدير، كمزارعين مستأجرين. من هنا تطورت القرية العربية، حتى تحولت مع الوقت إلى ما يشبه الحي المديني الذي يحدّه من الشرق مخيم الدهيشة للاجئين ومنشأة بِرَك سليمان العتيقة، وجميعها في ضواحي مدينة بيت لحم.

قضيت في يوم الأربعاء، 7 حزيران 1967، اليوم الثالث من حرب الأيام الستة، ليلة طويلة مقابل بوابة الخضر، ضمن وحدة الاحتياط التي كنت مجنداً فيها. سافرنا آنذاك في قافلة عسكرية طويلة من القدس، متجهين جنوباً نحو الخليل؛ قبل ذلك ببضع ساعات، تلقى الجيش الأردني أمراً بالانسحاب إلى الجهة الشرقية من نهر الأردن. عند مدخل بيت لحم، تجاوزت القافلةَ العسكرية شاحنةٌ صغيرة مع مكبر صوت. بدت الشاحنة غريبة. كان فيها شخص إسرائيلي يتحدث العربية، ينادي: "يا سكان بيت لحم! عليكم مغادرة المدينة في اتجاه أريحا". في الساعات التالية، بعد الظهر، رأينا حشوداً من الفلسطينيين الخائفين يتحركون، بالسيارات ومشياً على الأقدام، نحو بلدة بيت ساحور وفي الممرات الصحراوية الهابطة نحو جسر اللنبي وشرق الأردن. لكن الأمر تبدّل في ذاك المساء وفُرض حظر التجول على المنطقة بأسرها.

لماذا أُمر السكان بالمغادرة؟ ربما كان هذا واحداً من سلسلة أوامر صدرت مع اندلاع المعارك، في بداياتها، لإخلاء الفلسطينيين من المناطق الحدودية.

هذا ما حصل في بلدة قلقيلية، التي تدمرت جزئياً، وفي بيت مِرسِم في الجهة الغربية من جبل الخليل. عاد سكان تلك المواقع إلى بيوتهم في غضون وقت قصير. في مكان واحد فقط، في معزل اللطرون، تم إخلاء القرى الحدودية الثلاث: عمواس، يالو وبيت نوبا وهدمها كلياً. أقيم على أنقاضها، لاحقاً، "متنزه كندا".

في تلك الأيام من حزيران 1967، جاء إلينا، في سيارة فاخرة من طراز مرسيدس، رؤساء ثلاث بلديات من العرب المسيحيين في بيت لحم، بيت ساحور وبيت جالا. قدموا لقائد القافلة العسكرية، ضابط الاحتياط والصحافي إسحق (إيجو) ريغر، وثيقة تحت عنوان "كتاب استسلام". أصدر القائد العسكري أمراً بضمهم، مع سيارتهم المرسيدس، إلى القافلة. كنا نقف هناك، بضعة جنود، فسأل أحدنا: "ما حاجتنا إليهم؟". ردّ ريغر، الذي أصبح فيما بعد رئيساً لبلدية بئر السبع، ربما بجدية وربما لا: "رهائن. نحن في حاجة إليهم ليكونوا رهائن". صدرت إلينا الأوامر بحراستهم جيداً ومنعهم من الهرب. دخلتُ، برفقة جندي آخر، إلى سيارة المرسيدس. كان الثلاثة، يرتدون بدلات وربطات عنق وهم في حالة من الذعر الشديد جداً. طلبنا من السائق، رئيس بلدية بيت لحم، البحث لنا عن إذاعة صوت إسرائيل في المذياع المثبت في السيارة. فعل ذلك فاستمعنا، معاً، إلى البث الدرامي من "حائط المبكى"، فور دخول المظليين إلى الساحة الضيقة. وقفنا إلى الجنوب من بيت لحم، بالقرب من مخيم الدهيشة للاجئين، حيث كان بالإمكان ـ من هناك ـ رؤية الرايات البيضاء التي كانت ترفرف فوق المنازل، تعبيراً عن استسلام السكان. في ساعة متأخرة من ليل ذاك اليوم، أُخلي سبيل رؤساء البلديات الثلاثة.

تغيرت خلال عشرات السنين التي مرت منذ ذلك الحين، هذه البيئة القروية بصورة جذرية تماماً. أقيمت إلى الجنوب من بيت لحم، ضاحية حضرية كبيرة أطلق عليها اسم "دوحة"، على اسم عاصمة إمارة قطر التي كان يعمل فيها فلسطينيون كثيرون من أبناء المنطقة خلال سنوات الوفرة المسماة "عِقد النفط" العربي (1972 ـ 1982). استُثمرت الأموال التي كان يرسلها هؤلاء إلى عائلاتهم في البلاد، هنا، أيضاً، في بناء هذه الضاحية. في موقع بِرك سليمان العتيق، شيدت السلطة الفلسطينية "مركز مؤتمرات". ومقابله، تقريباً، لدى الدخول في الشارع نحو الغرب عبر الساحة التي تنتصب فيها "بوابة الخضر"، هنالك سور الدير العتيق واستاد كرة القدم الجديد الذي أقامته السلطة الفلسطينية.

أصبح المحجر الصغير، الذي أحتُجز فيه رؤساء البلديات الثلاثة في العام 1967، كتلة ضخمة تضم عشرات المحاجر والمناشر الحجرية التي تملأ

المنطقة. يسيطر رجل الأعمال نصّار نصّار، من بلدة يطا الجنوبية، على إنتاج الحجر الجيري الناعم من جبال جنوب بيت لحم، والذي يعتبر أحد الأفضل جودة (بين هذه المنتجات) في العالم. يوصف نصار نصار، في العديد من المنشورات المختلفة، بأنه "مُنتج الأحجار المصنَّف ثالثاً على مستوى العالم". في تشرين الأول 2013، حاز على وسام شرف دولي، "فارس الحجر"، ونشرت في الصحافة إعلانات تهنئة كبيرة لهذا "المُبادر الفلسطيني الرائد".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما الذي حدث بالضبط في قرية الخضر في ذلك اليوم من تشرين الأول 1936؟ كذلك بعد مضي عشرات السنين، لا يزال باحثون فلسطينيون يواصلون الكتابة عن المعركة ويتذكر أهالي القرية ما سمعوه من مسنّيهم. لفهم تسلسل الأحداث في معركة الخضر، زرتُ القرية ثانية برفقة صديق، صحافي فلسطيني. جرت معركة سعيد العاص، عبد القادر الحسيني ورجالهما مع الجيش البريطاني، في نقطة غير بعيدة عن طرف القرية من الجهة الغربية. بعد سنوات عديدة، فتحَ الحكم العسكري في تلك المنطقة الفتحة الجنوبية للأنفاق التي تمر تحت بلدة بيت جالا وعبّد فيها شارعاً التفافياً يتجاوز مدينة بيت لحم ومخيمات اللاجئين حولها. وأقام الجيش الإسرائيلي، على الشارع، حاجزاً عسكرياً كبيراً، أشبه بمحطة، فيه جنود ورجال شرطة إسرائيليون يراقبون الحركة في الطرقات المؤدية إلى المستوطنات اليهودية الكبيرة في الضفة الغربية: بيتار عيليت وإفرات ومستوطنات غوش عتصيون وجبل الخليل.

عند المدخل الغربي إلى الخضر، هنالك جادة مزروعة بأشجار السرو، تقطع المقبرة المحلية. لصق الجادة، بناية حجرية شاهقة تعلوها قبة خضراء اللون. تبرز البناية، بمنظرها، مقابل قبور القرية المتواضعة التي تغطي بعضها أحجار مفتتة، من دون شواهد. في الجزء العلوي من البناية، التي يبلغ ارتفاعها نحو أربعين متراً، كُتب، على الحجر، نصّ يُستهل بآية من القرآن الكريم، معروفة تُستخدم في إعلانات النعي التي تُنشر في الصحافة وتُكتَب على قبور الشهداء:

«ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون».

(الآية 169 من سورة آل عمران)

ثم كُتب بعدها: «ضريح المغفور له المجاهد سعيد العاص.. وُلِد في حَماة بسوريّة».

بالنظر إلى الجوانب، لدى مغادرة المقبرة صوب الغرب، يمكن أن ترى من الشرقِ، بوضوح تام، الوادي الخصيب في الخضر. أصبح الجزء الأكبر منه

ممتلئاً بالبناء، لكن لا تزال فيه مساحات مزروعة بالخضروات والكثير من الأشجار المثمرة. في الجهة المقابلة، عند سفح طريق الأنفاق الذي يستخدمه المستوطنون اليهود، هنالك وادٍ. على المنحدرات الحادة، أقيمت مصاطب زراعية. عند أسفل المنحدرات، بقيت بعض المباني الحجرية الصغيرة دائرية الشكل ـ تجسيد للبناء التقليدي، من غير نقوش حجرية، من دون دعائم خشبية أو حديدية ومن دون اسمنت، كما اعتاد الفلاحون المحليون البناء. كان الفلاحون يقضون ساعات الليل على أسطح تلك البنايات في مواسم الحصاد، لحراسة الغلال من اللصوص ولطرد الحيوانات البرية عنها. كان الفلاحون يجدون لهم مأوى، في بعض الأحيان، في الفناء الضيق في داخل البيوت الحجرية، يلوذون به من المطر المفاجئ أو من الحر في أيام الصيف.

هنا، في أحد الوديان، نجح الجنود الإنكليز في إلقاء القبض على مجموعة الثوار الصغيرة، في بداية تشرين الأول 1936. «حصلنا على ذخائر وتوزعنا خلايا، تمركزت كل منها في موقع على أحد التلال الكثيفة المطلة على الطريق التي كان يُفترَض أن يأتي عَبرها الجنود الإنكليز»، كما كتب أحد المقاتلين في وصف تفصيليّ يورده الباحث الفلسطيني عيسى خليل محسن. «بعد وقت قصير، حلقت فوقنا طائرة كانت تقوم بتوجيه الجيش البريطاني [...] بينما توزع الجنود وشرعوا في الصعود إلى التلال باتجاه مواقعنا [...] رأيناهم بشكل واضح، غير أن قائدنا أصدر أمراً بعدم إطلاق النار إلا حين يصبح الجنود على مسافة قريبة جداً. وحين اقتربوا، أطلقنا نحوهم وابلاً كثيفاً من الرصاص من كل صوب. ثارت جلبة ودبّ فيهم رعب قاتل فطلبوا النجدة [...]. مرّت طائرات من فوقنا وأطلقت علينا نيرانها، ثم أحضر الجيش إلى المعركة مدرعات ودبابات". كانت تلك، كما يبدو، المرة الأولى التي يزجّ فيها البريطانيون، خلال الثورة، بدبابات ضد الثوار العرب.

حسب الوصف الدراماتيكيّ الذي يورده محسن، قاتل المجاهدون بكل ما أوتوا من قوة وعزم إلى أن نفدت ذخائرهم، فاستلّوا عندئذ سيوفهم وخناجرهم وحاربوا وجهاً لوجه. وصل الجنود البريطانيون حتى سعيد العاص وعبد القادر، اللذين كانا يختبئان وراء صخرة ويطلقان النار على الجنود فأصابا بعضاً منهم بجراح. في النهاية، نفدت الرصاصات من مسدس العاص فأصيب بطلقات نارية وسقط "بالطريقة التي أراد أن يموت بها [...] طُعن عبد القادر في مؤخرته من قبل أحد الجنود وكان ملقى على الأرض فيما انهال عليه الجنود بالضرب بأعقاب بنادقهم وهم يطالبون بقتله [...]، بيد أن أحد الجنود أوقفهم عن ذلك وقال: "هل تقتلونه بعدما رأيتم مدى شجاعته وبطولته؟" [...] في تلك اللحظة، وصل القائد البريطاني فتوجه إليه عبد القادر باللغة الإنكليزية وقال: "هل هكذا تعامِلون الأسرى؟".

طبقاً لشهادة أخرى مشابهة قدمها أحد المقاتلين العرب، طلب عبد القادر، المصاب جراء الطعنة في مؤخرته، التحدث مع القائد البريطاني. وافق الجنود. وحين وصل القائد، قال له عبد القادر: "هل تعلّم جنودك أصول القتال، أم جاءوا من خلف الدواب والبقر؟". ثم أضاف: "أنتم جئتم لتسلبونا حقوقنا وجئتم بجنود متوحشين أسوأ من البهائم والكلاب". وفقاً لهذه الرواية، سمع الجنود الإنكليز وقائدهم هذه الإهانات، لكن ما فاجأهم أكثر هو حقيقة أن الشاب العربي كان يتكلم الإنكليزية بطلاقة. "أرادوا أن يعرفوا من هو ومن يكون"، كتب محسن، "لأنهم كانوا يعتقدون بأن المقاتلين العرب متخلفون ولا يقاتلون من أجل الحقيقة، الحرية والحقوق، بل لأنهم يحبون سفك الدماء أو لأنهم مرتزقة".

تسترسل هذه الشهادة بكثير من شعارات البطولة والاستعداد للتضحية وتصف كيف أنزل الجنود البريطانيون عبد القادر المصاب "ودمه ينزف" إلى الشارع، حيث كانت تقف وحدة من رجال الشرطة الفلسطينيين الذين كانوا يخدمون في حكومة الانتداب، على رأسهم سعيد العزايزة، الذي كان يعرف عبد القادر شخصياً. قدموا له إسعافاً أولياً واقتادوه، أسيراً، إلى المستشفى العسكري الحكومي في القدس. "لو لم نكن هناك، لمات عبد القادر". قال العزايزة.

يبدو شبه مؤكد أن الرواية المنقولة عن ألسن المقاتلين كانت مبالغة. حتى بعد مرور سنوات كثيرة جداً، كانت القصة لا تزال معروفة لمسني الخضر الذين التقيت بهم. هم يتذكرون أموراً أقل بطولة من تلك. ربما كانت معركة الخضر، إذن، مختلفة بعض الشيء ولم تكن دراماتيكية إلى هذا الحد. استناداً إلى الذاكرة السائدة في القرية، كان الفلاح محمد حسن في يوم المعركة نفسها يعمل في قطعة أرض يمتلكها، مزروعة بأشجار العنب، في وادي الرويس إلى الغرب من الخضر، على الطريق إلى قرية حوسان. فجأة، رأى رجلين مسلحين يهبطان في المنحدر من الغرب، يتجهان نحوه. اقتربا منه وقالا إن الجيش البريطاني يطاردهما. اقترح عليهما خلع لباسهما العسكري وارتداء ملابس فلاحين والاختباء في إحدى البنايات الحجرية التقليدية التي كانت قائمة في قطعة الأرض، كخدعة معروفة للتمويه والهرب في تلك الأيام. وبينما كانوا يواصلون تبادل الكلام، وصل الجنود الإنكليز. أطلق الجنود النار على سعيد العاص على الفور وأردوه قتيلاً. انهالوا على عبد القادر بالضرب وقام أحد الجنود بطعنه في مؤخرته. ثم نقلوه إلى مستشفى في القدس، لاحقاً.

طبقاً لهذه الرواية القروية، بقي جثمان سعيد العاص ملقى بين أشجار العنب في قطعة الأرض التابعة لمحمد حسن طوال يومين كاملين. في اليوم الثالث،

جاء بعض سكان القرية، بينهم محمد دعدوع ويوسف صلاح، فحملوا الجثة ونقلوها من الوادي إلى القرية وهناك دفنوها. بعد ذلك، جاء إلى المقبرة عدد من الرجال فبنوا فيها القبر وشاهدته مع القبة الخضراء وثبتوا عليها النص عن المجاهد الكبير.

قاتل سعيد العاص ـ "مغامر سوري"، كما عرّفته استخبارات البيشوف اليهودي و"مقاتل جَسور"، كما تخلده الذاكرة العربية ـ في صفوف الثورة الفلسطينية الكبرى أقل من شهر واحد، إلى أن قتل ودُفن في قرية الخضر الصغيرة قرب بيت لحم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وُضع عبد القادر في المستشفى الحكومي العسكري في القدس؛ وهو عبارة عن بناية من طابقين أقيمت في نهاية القرن التاسع عشر كجزء من "المجمّع الروسي" (المسكوبية) الذي يشمل كنيسة، مباني عامة وفنادق للحجاج القادمين من روسيا. استُخدمت هذه البناية، المصمّمة بطريقة لافتة وتقع في الزاوية الجنوبية ـ الغربية من "المجمع الروسي"، مستشفى للحجاج الروس (اتُّخذت فيما بعد مقراً لمستشفى للجيش الإسرائيلي أطلق عليه اسم "أفيحايل"). كان مدخل البناية عبارة عن بوابة حجرية جميلة في الزاوية الجنوبية، أسفل الحديقة البلدية الصغيرة "متنزه جمال باشا" ("حديقة دانيئيل" اليوم)، الذي أقيم في زمن الأتراك وجرى تصميمه مجدداً في العام 1932 حين شُيّدت في طرفه الآخر بناية جديدة لبلدية القدس الانتدابية.

ثمة أمر مثير في موقع المستشفى، إذ تروي الشهادات العربية من يوم إدخال عبد القادر إليه إن حشوداً قد انطلقت من باب الخليل وباب العامود للتظاهر أمام بوابات المستشفى. كانت منطقة شارع يافا والشوارع المتفرعة عنه، حتى المستشفى، المنطقة التجارية الأكثر اكتظاظاً في القدس خارج الأسوار. كانت هنالك فنادق، مصالح تجارية، حوانيت كثيفة، مكاتب شركات ومهنيين مستقلين ومجموعة من المشاغل ـ يمتلك العرب الجزء الأكبر منها، لكن لليهود حصة فيها أيضاً. في الزقاق مقابل الحديقة البلدية، كانت محطة لشركة الباصات العربية التي كانت تعمل على الخط بين القدس ويافا، ومقابل الجزء الخلفي من المستشفى كانت السقالات منصوبة على بناية البريد المركزية في المدينة.

كانت المنطقة، في ذلك اليوم، شديدة الازدحام وفيها جلبة واسعة. "اشتعلت المدينة، سُمعت أصوات طلقات نارية في الهواء، وأُطلقت النيران على مؤسسات الحكم البريطاني في بعض المواقع"، كما يكتب عيسى خليل محسن. كان أحد أسباب الانفعال وتأجج المشاعر في المدينة، أيضاً، النبأ الذي شاع عن وفاة سعيد العاص، لكنّ ما أثار الانفعال أكثر من ذلك هو النبأ

عن إصابة عبد القادر الحسيني. ليس الانتساب إلى عائلة الحسيني المعروفة والعريقة وحده هو الذي ألهب مشاعر الناس، بل ـ بالأساس ـ كون عبد القادر ابنَ موسى كاظم الحسيني، القائد الفلسطيني الأبرز والأهمّ، الذي كان قد توفي قبل ذلك بعامين؛ إضافة، بالطبع، إلى قرابته لقائد آخر، ابن العائلة الذي سيغدو لاحقاً شخصية واسعة الشهرة، المفتي الحاج أمين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يشير أبناء عائلة الحسيني في القدس إلى أن بداية نسبهم يعود إلى النبي محمد (ص)، وهو النسب الذي يعطي الشرعية ـ حسبما يقولون ـ لمطالبتهم، على مر التاريخ، بأن يكون لهم موقع الصدارة في فلسطين. من الصعب، بالطبع، تأكيد هذا الادعاء أو نفيه. استناداً إلى كتاب إيلان بابِهْ أعيان البلاد: عائلة الحسيني، سيرة سياسية، من الواضح تماماً أن مكانة آلَ الحسيني في القدس برزت ابتداء من نهاية القرن التاسع عشر. فقد أشغلوا، جلّ الوقت، المناصب المركزية الثلاثة في المدينة: نقيب الأشراف، المفتي، وشيخ الحَرَم. وفي العام 1841، حين بدأت السلطات العثمانية بتعيين مجلس بلدي في مدينة القدس، سيطر عليه أبناء العائلات المرموقة، وفي مقدمتهم الحسينيون.

كان والد عبد القادر، موسى كاظم، الشخص الأبرز بين أبناء العائلة لدى احتلال البريطانيين البلاد. حين اندلعت الحرب العالمية الأولى، كان موسى كاظم قد أحيل إلى التقاعد من الخدمة في الإدارة العثمانية. وُلد موسى في العام 1853، درس في إسطنبول وأشغل مناصب إدارية رفيعة في مختلف أنحاء البلاد وخارجها. عُيِّن في العام 1908 حاكماً على منطقة في اليمن ثم انتقل من هناك فأشغل مناصب إدارية مختلفة في الأناضول، سورية والعراق.

أصبح موسى كاظم المتحدث المركزي باسم عرب البلاد إثر إقدام البريطانيين على عزله من منصب رئيس بلدية القدس، في نيسان 1920. جاء العزل في أعقاب خطاب علنيّ ألقاه في تظاهرة جرت بجوار مقر البلدية، الذي كان خارج الأسوار آنذاك (لصق باب الخليل، قرب نقطة الانعطاف إلى شارع مأمن الله). لم يبق أي توثيق دقيق لما قاله موسى كاظم أمام المحتفلين الفلسطينيين الذين توافدوا من الخليل ونابلس للمشاركة في مسيرة مقام النبي موسى التقليدية: فقد حيّا المحتفلين، لكن أقواله اعتُبرت تحريضاً. أصبحت التظاهرة عنيفة واتسعت لتصبح اضطرابات استمرت ثلاثة أيام، قُتل خلالها سبعة من اليهود وخمسة من العرب، أصيب كثيرون آخرون ولحقت بالممتلكات أضرار جسيمة.

كان في قيادة الشبان العرب شخصان: أمين الحسيني، الذي سيصبح مفتي القدس والشخصية الأبرز على الإطلاق في المجتمع الفلسطيني إبان

الانتداب، والضابط العثماني السابق عارف العارف. وقفت مقابل الشبان العرب، مجموعة من الشبان اليهود بقيادة الناشط الصهيوني زئيف جابوتنسكي. هرب قادة الشبان العرب من البلاد للنجاة من عقوبة السجن التي فرضها عليهم الحكم العثماني؛ بينما مثُل جابوتنسكي في محطة الشرطة، جرى اعتقاله ثم حكم عليه بالسجن مدة 15 عاماً. بعد بضعة أشهر، في تموز 1920، وصل إلى البلاد المندوب السامي البريطاني الأول، هيربرت صموئيل، وأصدر عفواً عاماً عن جميع المحكومين.

استُدعي موسى كاظم إلى الحاكم البريطاني على القدس، رونالد ستورْس، وهناك أُبلِغ بقرار عزله وأُرسِل إلى سجن عكا لبضعة أيام. "لن يجرؤ أحد على استبدالي في منصب رئيس البلدية"، قال موسى كاظم للحاكم سْتورْس. تبين أنه كان مخطئاً: وافق راغب نشاشيبي، فتحول التوتر الذي كان قائماً أصلاً بين العائلتين المقدسيتين العريقتين إلى خصومة شرسة. كانت تلك بداية خلاف حاد بين عائلتي الحسيني ونشاشيبي المقدسيتين؛ شرخ ترك بصماته على مدى سنوات الانتداب البريطاني كلها، كما بقيت آثاره واضحة في السنوات التالية أيضاً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لمع اسم عبد القادر الحسيني للمرة الأولى، إذن، بفضل كونه ابن موسى كاظم. قُتل وأصيب فلسطينيون كثيرون خلال أشهر الإضراب والمظاهرات في بدايات الثورة، إلا أن إصابة عبد القادر حظيت بنشر واسع فاق النشر عن إصابات الآخرين جميعاً، ليس في الصحافة العربية في البلاد فحسب، وإنما في الدول العربية المجاورة أيضاً، بل وفي الإعلام الأجنبي كذلك. ففي النبأ الذي بثته إذاعة لندن ـ ويقتبسه محسن ـ ورد:

ثمة بين المقاتلين الفلسطينيين شبان مثقفون يحاربون ضد بريطانيا، أحدهم هو عبد القادر الحسيني الذي انخرط في صفوف المتمردين. إنه ابن العائلة الأكثر وجاهة في فلسطين، كان موظفاً حكومياً رفيعاً في السابق (عمل عبد القادر، قبل ذلك ببضع سنوات، مسؤولاً عن سجلات الأراضي، الطابو، في منطقة الرملة)، وهو نجل القائد المتوفى موسى كاظم الحسيني وتربطه قرابة عائلية بالمفتي الأكبر.

كان عبد القادر بمثابة أسير في المستشفى العسكري، إلا أن السلطات البريطانية سمحت بزيارته، وخصوصاً لأبناء عائلته. لم تكن إصابته بالغة ـ طعنة حربة في المؤخرة ـ لكن يمكن اعتبارها إصابة محرجة. معروفة هي قصة جعفر الطيّار، ابن عمّ النبي محمد (ص)، الذي أصيب بكلتا يديه في معركة ضد البيزنطيين لكنه واصل القتال وحمل راية الإسلام في فمه حتى سقط قتيلاً في نهاية المطاف وفي جسده 18 طعنة رمح، جميعها في صدره،

كما تؤكد الرواية، دون أي واحدة في الجزء الخلفي من جسمه، دلالة على أنه لم يُدر ظهره للعدو هرباً.

لا يتطرق الذين يجلّون عبد القادر وذكراه إلى ذلك بالتأكيد، والشهادة الوحيدة على وضعه في المستشفى هي تلك التي أدلى بها شاب كان في الثامنة عشرة من عمره آنذاك، هو قاسم الريماوي، أكبر المعجبين به. كان الريماوي، ابن قرية بيت ريما في محافظة رام الله، قد أنهى دراسته في القدس آنذاك وأصبح متدرباً في مكتب البريد الانتدابيّ. فيما بعد، أشغل مهامّ رفيعة في الحركة الوطنية الفلسطينية وفي الأردن، بل تولى منصب رئيس الحكومة الأردنية لفترة قصيرة. روى في مذكراته (التي نُشرت مقاطع منها ضمن أبحاث فلسطينية مختلفة) كيف زار عبد القادر في المستشفى فور نقله إليه، مباشرة، فوجده مستلقياً على سرير في غرفة واحدة مع مصاب آخر، هو عبد الله العُمَري، من قرية بيت صفافا. كان كلاهما طويليّ اللحية بعد اختبائهما لأيام عديدة في الوديان ما بين الخليل وبيت لحم. وُضعت على المستشفى عامة، وعلى غرفة عبد القادر خصوصاً، حراسة خاصة وكانت السلطات تنتظر تماثله للشفاء كي تستطيع تقديمه إلى المحاكمة.

تعافى عبد القادر من إصابته بعد وقت قصير. وفي خطوة مفاجئة، تم إطلاق سراحه بكفالة مالية وشرط أن يمثل في الموعد الذي حُدِّد لمحاكمته، بعد ثلاثة أسابيع من ذلك اليوم. كان مبلغ الكفالة 250 جنيهاً (الاسم العربي لـ "الليرة" التي اعتمدها الانتداب البريطاني في "فلسطين" في العام 1927، بدلاً من الليرة المصرية)؛ وهو مبلغ كبير جداً في تلك الأيام؛ دفعه ابن العائلة، محيي الدين، كما أوكلت العائلة محامياً بالمرافعة عن عبد القادر، كان الأفضل والأكثر شهرة والأعلى تكلفة في المدينة ذاك الوقت ـ هنري أفندي قطّان.

من الممكن جداً تفسير خطوة إطلاق سراح عبد القادر بكفالة مالية، على الرغم من اعتباره إرهابياً خطيراً، بحقيقة أنه قد حصل في البلاد تطور سياسي على غاية الأهمية، خلال فترة مكوثه في المستشفى. فبوساطة ملوك عرب، أُعلن يوم 12 تشرين الأول 1936، بعد أيام معدودة من معركة الخضر، عن إنهاء الإضراب العام الذي كان مستمراً منذ نيسان. وبالفعل، هدأت الثورة الكبرى، على الرغم من أنه تبين في نهاية المطاف أن ما حصل لم يكن سوى هدنة مؤقتة، عادت الثورة وتجددت بعدها بقوة أكبر.

استفادت العائلة من وقف إطلاق النار والهدوء النسبي الذي أعقبه، سيما أنها كانت قلقة جداً على عبد القادر. وحسبما يقول الريماوي، تعين موعد المحاكمة ليوم 12 كانون الأول 1936 "أمام القاضي البريطاني السيد كوبلند [...] في ذاك اليوم، في الساعة الثانية بعد الظهر، انعقدت المحكمة. لكنّ

المتهم لم يمثل. انتظروا ربع ساعة، حتى الثانية والربع، ثم أبلغ القاضي المحامي كتن بأن المحكمة تضع يدها [تصادر] على مبلغ الكفالة وتأمر الشرطة بإحضاره".

تبين أن عبد القادر هرب من البلاد قبل ذلك بيوم واحد؛ أي يوم 11 كانون الأول ورافقه في ذلك شخصان هما قريب العائلة سليمان الحسيني والسائق خليل الدلو؛ رافقاه إلى جسر اللنبي ومن هناك انطلق إلى جولة في العالم العربي: دمشق، بيروت وبغداد.

روى لي أبناء فلاحين من قرية الخضر، التقيتهم في زيارة إلى القرية بعد عشرات السنين من أحداث المعركة، إنهم سمعوا من آبائهم قصة مختلفة بعض الشيء عما رواه الريماوي. قالوا إن القصة ببساطة أن عائلة الحسيني، الثريّة وذات العلاقات المتشعبة، دفعت رشوة لضباط الشرطة البريطانية بمبلغ ألف جنيه، مقابل إخلاء سبيل عبد القادر بكفالة. كان البريطانيون يعلمون، بالتأكيد، أنه يستطيع الهرب والإفلات من المحكمة التي كان من المؤكد أن تنتهي بالسجن.

يمكن العثور في منشورات أخرى لاحقة عن عبد القادر، من تلك التي تمجّد بطولته، على رواية أخرى، مشكوك فيها تماماً، تقول إن عبد القادر المصاب نجح في الهروب من سجنه في المستشفى، ثم ـ بذلك ـ من الأسر البريطاني.

إثر إصابته في معركة الخضر (تشرين الأول 1936)، اقتيد عبد القادر أسيراً وأُدخل إلى المستشفى الحكومي العسكري في "المجمع الروسي" في القدس. بعد أن تعافى، أخلي سبيله بكفالة إلى حين موعد محاكمته، لكنه هرب من البلاد، ربما بفضل تغاضي ضباط بريطانيين وغض أنظارهم عنه. (من كتاب عيسى خليل محسن، فلسطين الأم وابنها البارّ).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



3

خصومة الأشقاء

هرب عبد القادر ابن السادسة والعشرين عاماً، في كانون الأول 1936، من البلاد عبر جسر اللنبي إلى شرق الأردن، ومن هناك عبر دمشق إلى بيروت، المدينة التي كان يعرفها جيداً منذ فترة دراسته القصيرة في الجامعة الأميركية فيها. ثم انتقل من هناك إلى العراق، إلى العاصمة بغداد. مرت بضعة أيام أخرى غادر عبد القادر بعدها إلى ألمانيا. هناك، كما في العراق، استقبله أعضاء الجالية الفلسطينية الصغيرة، الذين كان بعضهم قد وصل إلى هناك إثر ملاحقته في البلاد على خلفية مشاركته في أنشطة السنة الأولى من الثورة. أمضى عبد القادر في ألمانيا بضعة أشهر، لغرض الاشتراك في دورات عسكرية، أيضاً. لم يكن المكوث في ألمانيا، التي تعززت فيها قوة النظام النازي آنذاك، صدفة. كانت ألمانيا في ذلك الحين "العدو الأول والأكبر لبريطانيا التي أنشأت في فلسطين حكم الاحتلال الإمبريالي، مصدر وعد بلفور"، كما وصفها قاسم الريماوي في كتاباته.

أصبح المسار من فلسطين إلى العراق، ثم من هناك إلى ألمانيا معروفاً لفلسطينيين كثيرين بعد ذلك بسنوات قليلة، خصوصاً وأنه كان مشابهاً لمسار تنقلات ونشاطات مفتي القدس الحاج أمين الحسيني وأفراد حاشيته أيام الحرب العالمية الثانية. أمضى المفتي معظم وقته في إيطاليا ـ وهذا أيضاً لم يكن صدفة: في السنوات التي سبقت نشوب الحرب العالمية الثانية، وكذلك خلال الحرب، تأسست ـ في بعض مناطق العالم التي كانت تحت سيطرة الإمبراطورية البريطانية أو تحت سطوتها وتأثيرها ـ حركات قومية سعت إلى التعاون مع ألمانيا بغية ضرب الحكم البريطاني. هذا ما حصل في العالم العربي، في مصر والعراق، وكذلك في فلسطين ـ أرض إسرائيل (الاسم الرسمي الذي أطلق على فلسطين الانتدابية).

كان ذلك من وجهة نظر الحركة الوطنية الفلسطينية، التي كانت تتبلور بقيادة آل الحسيني آنذاك، بمثابة مسار سياسي مصيريّ: فقد وضعها في خانة واحدة مع ألدّ أعداء بريطانيا وحلفائها. وعلى الرغم من كل الفوارق العديدة بين أعداء بريطانيا المختلفين هؤلاء، أصبح الحاج أمين ـ في نظر اليهود، بالتأكيد ـ صنواً لأرذل الشخصيات السياسية في تلك السنوات: لورد هاو هاو (وليام جويس)، الفاشي البريطاني الذي أدار حملات دعائية نازية باللغة الإنكليزية من قلب برلين؛ والزعيمين الفاشيين فيدكون كويزلينغ، رئيس الحكومة النرويجي، وليون ديغريل البلجيكي، اللذين تعاونا مع النازيين.

في الأثناء، أعلنت اللجنة العربية العليا، في تشرين الأول 1936، إنهاء الإضراب العام، استجابة لمبادرة من ملوك العرب: الأمير عبد الله من شرق الأردن، الملك غازي من العراق، الملك عبد العزيز بن سعود من السعودية، الإمام يحيى ملك اليمن، ومن تولى مهمة التنسيق بينهم ـ وزير الخارجية العراقي نوري السعيد. تم الاتفاق على تعيين لجنة ملكية بريطانية برئاسة اللورد بيل. انكبت اللجنة خلال الأشهر التالية على التحقيق في ما يجري في البلاد وفي 7 تموز 1937 نشرت خلاصات تحقيقها، التي كان في صلبها التوصية بتقسيم البلاد: دولة عربية في الجزء الأكبر من مناطق فلسطين ـ أرض إسرائيل ودولة يهودية صغيرة في منطقة الساحل.

خلال تلك الأشهر من شتاء 1936 – 1937 والصيف الذي تلاه، استمرت الصدامات العنيفة بين الجيش البريطاني ومجموعات العرب المسلحين، إلى جانب إطلاق النار والهجمات على أهداف بريطانية ويهودية، وإن بقوة أخفّ مما كانت عليه في السابق. في غضون ذلك، تصاعد التوتر في داخل المعسكر الفلسطيني، ما بين الأوساط الوطنية بقيادة الحاج أمين الحسيني، من جهة، ومعارضة الأوساط الأكثر اعتدالاً الممثَّلة بـ "حزب الدفاع" بقيادة رئيس بلدية القدس، راغب النشاشيبي، من جهة أخرى.

قبل نشر تقرير لجنة بيل ببضعة أيام، أعلن ممثلا "حزب الدفاع"، راغب النشاشيبي ويعقوب فرج، انسحابهما من اللجنة العربية العليا، في أعقاب محاولة اغتيال فخري النشاشيبي، ابن شقيق راغب والشخص الذي اختير لقيادة الثورة، سوية مع آل الحسيني.

تعمق الانقسام في داخل المعسكر الفلسطيني وتصاعدت حدته حتى تحول، في غضون أشهر معدودة، إلى صراع أشبه بحرب أهلية. في الجهة الأولى، كان مؤيدو الحاج أمين، الحسينيون (الحزب العربي) الذين رفضوا توصيات اللجنة بشأن تقسيم البلاد، رفضاً شاملاً وقاطعاً؛ طالب هؤلاء، بكل حزم، بإلغاء وعد بلفور وإعلان فلسطين دولة عربية، معبرين عن غضبهم على ملوك العرب الذين اعتمدوا موقفاً مساوماً. في الجهة الثانية، كانت المعارضة (حزب الدفاع) بقيادة راغب النشاشيبي، الذي ترأس بلدية القدس حتى العام 1935، وأبناء عائلته. قبلت أوساط المعارضة، التي حققت انتصارات في الانتخابات البلدية التي نظمتها حكومة الانتداب في العام 1934، بتوصيات اللجنة، عملياً. وكانت هذه المعارضة تحظى بدعم عبد الله، ملك شرق الأردن، الذي كان يتطلع إلى ضم فلسطين إلى بلاده، مقابل تنازلات معينة لليشوف اليهودي.

(من: مجموعة مطسون، مكتبة الكونغرس الأميركي)

كانت لهذا الخلاف الفلسطيني الداخلي انعكاسات سياسية وعسكرية عميقة استمرت سنوات عديدة: كان ذلك صداماً بين المطلب الوطني الفلسطيني بالسيطرة على البلاد بأسرها، وبين الموقف المساوم الذي تبنته العائلة المالكة الهاشمية الأردنية وحلفاؤها في معارضة آل الحسيني. وحقيقة الأمر أن المعتدلين، مؤيدي التسوية، عقدوا ما يشبه التحالف السري مع الييشوف اليهودي، وهو ما هيأ الأرضية للمفاوضات بين عبد الله، ملك الأردن، وممثلي الييشوف اليهودي، عشية الحرب في 1948، ثم للاتصالات التي جرت بعد ذلك بسنين عديدة بين حفيده، الملك حسين، والحكومات الإسرائيلية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في صيف 1937، في 26 أيلول منه تحديداً، قُتل رمياً بالرصاص في قلب مدينة الناصرة، الحاكم البريطاني الفعلي للجليل، الجنرال لويس أندروس. اغتاله بعض بقايا مجموعة عز الدين القسام: عز الدين نفسه كان قد قُتل قبل ذلك بسنتين، لكنّ رجاله واصلوا العمل إلى جانب خليفته، الشيخ فرحان السعدي، إلى أن تم إلقاء القبض عليه وإعدامه، بعد مقتل أندروس ببضعة أسابيع.

ربما كان من الممكن فهم موقف المعسكر الوطني، الحسيني، حيال موقف الملوك العرب المساوم من خلال قصيدة نظمها في تلك الأيام (بعد إعدام الشيخ فرحان) الشاعر الفلسطيني عبد الكريم الكرمي المعروف بلقب "أبو سلمى":

إيه ملوك العرب لا كنتم ملوكاً في الوجود

هل تشهدون محاكم التفتيش في العصر الجديد

قوموا انظروا القسام يشرق نوره فوق الصرود

يا من يعزون الحمى ثوروا على الظلم المبيد

بل حرروه من الملوك وحرروه من العبيد

واصل الفلسطينيون اتهام الزعماء العرب بنثر وعود لا رصيد لها وإطلاق تهديدات عبثية عديمة القيمة والجدوى ولا يزالون، حتى يومنا هذا أيضاً.

منذ بداية الثورة، كان مقتل أندروس الحدث الأول من نوعه الذي يُقتل فيه موظف بريطاني رفيع المستوى؛ وكان الرد البريطاني على القتل حاداً جداً. فقد تم، خلال يومين اثنين، اعتقال أكثر من مائتي شخص من أبرز قيادات عرب البلاد: أعضاء اللجنة العربية العليا، أعضاء المجلس الإسلامي الأعلى، أعضاء اللجان الوطنية في المدن والمحافظات المختلفة ونشطاء الأحزاب.

أعلنت حكومة الانتداب بعد حادثة القتل ببضعة أيام، في الأول من تشرين الأول، عزل المفتي الحاج أمين الحسيني من جميع مناصبه ووظائفه وإخراج المؤسسات القيادية الفلسطينية خارج القانون. فرّ العشرات من قادة الجمهور العربي وهربوا من البلاد، من بينهم المفتي أيضاً. اختبأ طوال أسبوعين ثم هرب في النهاية، متخفياً في قارب، إلى ميناء بيروت. تبعهم بعد ذلك مئات النشطاء الفلسطينيين الذين هربوا من البلاد، بينما تم إجلاء بعض القادة الكبار الذين تم إلقاء القبض عليهم إلى جزر سيشل (درج البريطانيون على الإجلاء إلى المستعمرات النائية جداً في أنحاء الإمبراطورية).

ظلت حقيقة مكوث المئات من قادة الجمهور والنشطاء السياسيين أبناء البلاد في الشتات طوال سنوات عديدة، في أعين الفلسطينيين، أحد الأسباب الأساسية للمأساة التي حلت بهم في السنوات التالية. بقي الجمهور الفلسطيني في البلاد، فعلياً، من دون قيادة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في نهاية حزيران 1937، عاد عبد القادر الحسيني إلى الشرق الأوسط. وصل إلى دمشق بعد أن مكث في ألمانيا نحو سنة ونصف السنة. تنقّل بين دمشق وبيروت، ذهاباً وإياباً، على مدى بضعة أشهر، التقى النشطاء الفلسطينيين الذين غادروا البلاد وتابع التطورات الدراماتيكية التي حصلت في ذاك الصيف: نشر تقرير لجنة بيل، اغتيال أندروس، حل المؤسسات القيادية وتدهور الأوضاع الأمنية بين عرب البلاد. في دمشق، التقى المفتي الحاج أمين زملاءه من الهاربين وعمل، سوية معهم، في التخطيط لإشعال الثورة من جديد. عكف على شراء الأسلحة والتجهيزات العسكرية وعلى تدريب الشبان وتنظيمهم.

في النصف الثاني من تشرين الأول 1937، تسلل عبد القادر إلى البلاد وأمضى بعضاً من الوقت في أبو ديس، شرق مدينة القدس. قد يكون عقد، وقتذاك، لقاء قصيراً وسرياً مع كامل عريقات، ابن إحدى العائلات المرموقة في البلدة، كان خدم في الشرطة البريطانية وأصبح فيما بعد، في العام 1948، نائباً له في "الجهاد المقدس". بدأ عبد القادر بتنظيم الفرق الأولى من المقاتلين من أبناء عشيرتيّ التعامرة والعبيدية البدويتين، إلى الشرق من بيت لحم. تنقّل بين القرى المحيطة بالقدس: صور باهر (إلى الجنوب الشرقي من المدينة)، بيت إكسا (إلى الشمال الغربي)، وبيت عطاب (إلى الغرب، بجوار مستوطنة بار غيورا اليوم). في كل واحد من هذه الأماكن، استطاع تجنيد وتنظيم فرقة محلية مزودة بقليل من الأسلحة وعيّن لها قائداً محلياً. في قرية علار (إلى الغرب من المدينة، أقيمت على أراضيها مستوطنة مَطاع)، عقد

عبد القادر الاجتماع الأول لقادة الفرق وجعل قرية عين كارم الكبيرة، عند المشارف الغربية لمدينة القدس، مركزاً لمقره القيادي.

كانت العملية العسكرية الأكبر التي نفذها عبد القادر ورجاله في خريف 1937 هجوماً على قافلة بريطانية قرب عرطوف (بجوار بيت شيمش اليوم): في كمين محكم جيداً، استطاع رجال عبد القادر قتل جنود بريطانيين والاستيلاء على أسلحتهم. أهدى عبد القادر إحدى البنادق التي غنمها رجاله للشيخ حسن سلامة، قائد فرق الثوار من منطقة المركز (الرملة واللد)، ابن قرية كولِه (قرب مستوطنة الحريديم إلعاد اليوم)، تعبيراً عن الحلف بينهما، ربما. وبالفعل، فقد استمر هذا الحلف لسنوات عديدة، حتى المعركة الأخيرة.

في ربيع وصيف 1938، بلغت الثورة العربية أوجها في مختلف أنحاء البلاد. انطلق عبد القادر ورجاله فنفذوا سلسلة طويلة من الهجمات ضد محطات للشرطة البريطانية، ضد بلدات وأحياء يهودية في المنطقة المحيطة بالقدس، كما أطلقوا النيران على قوافل للجيش والشرطة. في موازاة ذلك وبالتزامن معه، قام مقاتلو فرق عربية أخرى، في مختلف أنحاء البلاد، بمهاجمة بلدات يهودية ومنشآت بريطانية. نصبوا كمائن للسيارات، قطعوا خطوط الهاتف، عطلوا السكك الحديدية، هاجموا مراكز الشرطة، زرعوا الألغام، فجروا الجسور وخربوا أنبوب نقل الغاز من العراق إلى حيفا. إضافة إلى ذلك، نفذوا عمليات ثأر وقتل بحق متعاونين ومعارضين للثورة من داخل المعسكر المعارض. ابتداء من ربيع 1938 وصاعداً، لأكثر من سنة ونصف السنة، كانت المنطقة الداخلية من البلاد تحت سيطرة الثوار ومسرحاً لحروب دامية بين الجماعات المختلفة. توقف اليهود والبريطانيون عن السفر في الشوارع الداخلية في المناطق العربية ورُفع العلم العربي بألوانه المعروفة ـ الأخضر والأسود والأحمر ـ على أسطح المنازل في القرى والبلدات العربية.

انطلق عبد القادر من القاعدة التي أقامها في عين كارم، إلى القرى المجاورة، من صوريف في الجنوب (قرب غوش عتصيون) وحتى بيت مَحسير (بيت مئير، اليوم) في الغرب وبيت ريما في محافظة رام الله في الشمال. في جميعها، جنّد عبد القادر أشخاصاً للمشاركة في تنفيذ العمليات. كان من المجنَّدين شاب من قرية صوريف يدعى إبراهيم أبو ديّة، الذي يُعتبر في التاريخ الفلسطيني بطلاً حربياً والذي سيؤدي، لاحقاً، دوراً حاسماً في معركة القسطل. كان عبد القادر يدخل إلى القدس سراً، من حين إلى آخر، ليزور زوجته وابنته، لكنه أمضى أغلب الوقت بين القرى المحيطة بالمدينة، وخصوصاً عين كارم.

برز اسم الابن الأصغر لموسى كاظم، من آل الحسيني، واشتهر منذ ذاك الوقت ولم تتوقف محاولات البريطانيين لإلقاء القبض عليه. في إحدى

المرات، ضربوا طوقاً على منطقة عين كارم بأكملها وأجروا حملة تفتيش واسعة، من بيت إلى بيت، في جميع القرى المجاورة. صعد عبد القادر وعدد من رجاله من عين كارم إلى الجبل المحاذي لقرية الجورة (مستوطنة أورَه، اليوم) واختبأوا في ساعات ما بعد الظهر في الحرش الذي يحمل اسم "مِس كيري" (بالقرب من مستشفى هداسا). ألقي القبض على أحد مرافقي عبد القادر، بينما نجح هو نفسه في الاختباء في الحرش وبقي فيه حتى حلول الظلام. من هناك، انتقل إلى قالونيا (موتسا التحتا، اليوم) وبيت عنان (إلى الغرب من جبعات زئيف، اليوم) ونقل مركز نشاطه وعملياته إلى منطقة رام الله.

خلال أشهر صيف العام 1938، شدد البريطانيون قبضتهم على الثوار، أكثر فأكثر. وضعوا 4,500 شاب عربي رهن الاعتقال الإداري، هدموا آلاف البيوت في يافا، في اللد والناصرة والقرى التي كانت تُعتبر مراكز للثورة، مثل بلعا (قضاء طولكرم)، دير الغصون (غرب رام الله)، البروة في الجليل (قضاء عكا)، مجد الكروم (على شارع عكا ـ صفد) وشعَب (الجليل الأسفل).

تصف الشهادات من تلك الأيام عبد القادر بأنه شاب قصير القامة، ذو جسم قوي يستطيع حمل حمولة ثقيلة على ظهره. وبالفعل، فقد تنقل مع عدد قليل من المرافقين بين القرى لأسابيع طويلة وهو يحمل كيساً كبيراً يحتوي على معدات عسكرية، أسلحة وذخائر، إضافة إلى حاجيات يومية: ملابس، بطانية ومواد غذائية. ومع هذا الحمل الهائل على ظهره، أصبح يُلقَّب بـ "الدبابة المتنقلة". كان يحافظ على نظام حياة تقشفي: كان ينام في المغاوِر والجبال ويتغذى على الفواكه من البساتين في المنطقة.

كان ثمة آخرون كثيرون مثله، بالتأكيد، من أبناء عائلات الفلاحين الذين شاركوا في الفعاليات وفروا من بيوتهم هاربين، غير أن الأمور كانت تبدو مختلفة تماماً عند الحديث عن عبد القادر. "كانت الطريق مفتوحة أمامه نحو مستقبل مهني وسياسي زاهر، إلا أنه اختار طريقاً آخر؛ وهو ما جعله محط إعجاب وتقدير"، كما كتب عنه أنور نسيبة في مذكراته. في الوقت الذي كان أبناء جيله من الشبان، وبضمنهم أبناء عائلته من الأرستقراطية العثمانية العريقة في القدس بالطبع، يتوجهون إلى دراسة الحقوق، الهندسة، الطب، التجارة، أو الانخراط في مجال الأعمال، اختار عبد القادر التجول في الجبال بصحبة أبناء الفلاحين وفقراء الناس، وسط تعريض حياته لخطر دائم. وتجسد حقيقة استهجان أنور نسيبة للطريق الذي اختطه عبد القادر المفهوم الطبقي الذي كان سائداً تلك الأيام في المجتمع العربي.

ما الذي دفعه إلى ذلك؟ المهندس المقدسي إبراهيم الدقاق أصغر سناً من عبد القادر بعشرين عاماً، حقاً، لكنه يذكره من سنوات الطفولة كشخصية

مميزة. التقيتُ الدقاق في القدس مرات عديدة خلال السنوات، على خلفية عمله. فقد كان المهندس المسؤول عن ترميم وتأهيل المسجد الأقصى في أعقاب الأضرار الجسيمة التي لحقت به من جراء الحريق الذي أشعله فيه الشاب الأسترالي مايكل روهان في صيف العام 1969. كان الدقاق، الذي كان مقرباً من أوساط اليسار الفلسطيني، إنساناً دمثاً ومفوَّهاً. دأب، على مدى سنوات عديدة، على تنظيم حلقة للحوارات الفكرية في القدس الشرقية. تعتبر عائلة الدقاق من العائلات العريقة في القدس وعشية الحرب العالمية الثانية، كان منزل المهندس الدقاق، القائم في طرف وادي الجوز، ملاصقاً لمنزل والديّ وجيهة الحسيني، زوجة عبد القادر. شقيق إبراهيم الدقاق متزوج من هيفاء، ابنة عبد القادر، وكان خلال السنوات كلّها يستمع إلى قصص كثيرة ومختلفة عنه. كان معظم تلك القصص يدور حول حقيقة أن عبد القادر، منذ طفولته، مختلف عن الآخرين: متمرد وجَموح، على عكس أبناء طبقته. "كان قوياً وشجاعاً. وقد روى لي كثيرون إنه حين كانت تقع مشاجرات بين الأولاد في الحي، كانوا يستعينون بعبد القادر دائماً فيستدعونه لفض الخلاف وفرض النظام"، يروي الحفيد عبد القادر، نجل فيصل الحسيني، الذي يحمل اسم جدّه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تشير معظم الوثائق إلى أن عبد القادر وُلد في العام 1910، حين كان والده موسى كاظم على عتبة الستين من عمره. تزوج موسى كاظم من ثلاث نساء، الواحدة تلو الأخرى ـ زَهرة، رُقيّة وزكيّة ـ وثلاثتهن شقيقات من حمولة الحسيني (بحسب الشريعة الإسلامية، من الجائز التزوج من شقيقة الزوجة في حال وفاة الأخيرة).

الأولى، زَهرة، أنجبت له ابنتين (كوثر وفاطمة) وأربعة أبناء. اثنان من الأبناء، فؤاد، كان يفلح أراضي زراعية تابعة لعائلته، ورفيق، كان مهندساً، توفيا صغيرين نسبياً ولم يشاركا في الأحداث الدراماتيكية التي سبقت الحرب العالمية الثانية وحرب العام 1948. الاثنان الآخران، فريد، كان محامياً وعالج قضية أملاك الوقف العائلية، وسامي، كان محامياً أيضاً لكنه عمل مدرّساً. بعد وفاة والدتهم، زَهرة، تزوج موسى كاظم من شقيقتها، رُقيّة، التي أنجبت عبد القادر وتوفيت بعد ذلك بسنة ونصف السنة أثناء الولادة الثانية.

كان فريد وسامي، ابنا زهرة، قريبين جداً من أخيهما الصغير عبد القادر، ابن خالتهما رقية. كانا يكبران عبد القادر بسنوات عديدة (سامي، الأصغر من بينهما وُلد سنة 1895؛ أي كان يكبر عبد القادر بخمسة عشر عاماً). "لم يكن ثمة أي شَبَه بين عبد القادر وأخويه البالغين"، يقول إبراهيم الدقاق، معتمداً على ذكريات عائلية. "كانا رجليّ أعمال مهنيَّين محترَمَين، مثل جميع أبناء

العائلات الأرستقراطية المقدسية الأخرى، بينما كان عبد القادر "ابناً عاصياً" في عائلته".

كانت زوجة موسى كاظم الثالثة، زكيّة، شقيقة الاثنتين الأوليين، متزوجة من قبل من شريف، شقيق موسى كاظم، الذي كان زير نساء وهاوي مقامرات فتطلقت منه. اكتسبت زكّية صفة سيدة المجتمع الفلسطيني الأرستقراطي، فكانت سيدة مفعمة بالحيوية وسليطة اللسان. لكن ليست هي التي تولت تربية الطفل عبد القادر، الذي فقد أمَّه، بل الجدّة نُزهَة، والدة رقيّة، والدته، بمساعدة الحاضنة ثليجة، التي كان يعرفها الجميع وكانت بمثابة أمٍ له.

وكما سبقت الإشارة، رحل موسى كاظم عن الحياة في العام 1934. في صيف 1936، في ذروة الإضراب العام، توقف تزويد القدس بالمياه لبضعة أيام. اتصلت زكيّة الحسيني الغاضبة بمكتب المندوب السامي آرثور ووكوب لتشكو انقطاع المياه في منزلها ـ خطوة جريئة من امرأة كانت تعتبر نفسها منزَّهة عن الشعب. واستناداً إلى الشهادة التي وثقتها ابنة العائلة سيرين الحسيني، في كتابها مذكرات مقدسيّة، تفاجأ المندوب السامي بهذا الاتصال من أرملة موسى كاظم وتعهد بمعالجة الأمر. علم عبد القادر، ابن شقيقتها، بأمر الاتصال الهاتفي فسارع متوجهاً إلى بيت والده الفاخر في مشارف وادي الجوز. قبّل يدها وقال لها: "أيتها الخالة العزيزة، سمعتُ أنك اتصلتِ بالمندوب السامي ليساعدك في مسألة انقطاع المياه. اتصال آخر كهذا وسيشتعل هذا البيت كله". بعد وقت قصير، غادرت زكيّة المصدومة مدينة القدس وانتقلت إلى مكان أكثر راحةً ـ فندق جميل في بيروت.

بعد ذلك بسنوات عديدة، بعد وفاته، وبعد أن أصبح اسم عبد القادر على كل لسان كبطل وطني، كُتبت عن ولادته نصوص كلها إجلال وإكبار:

تسللت أشعة الشمس إلى أزقة القدس وأضاءت شوارعها، وفي الحي الذي كان يقيم فيه أبناء آل الحسيني سُمع في ذلك الشهر من سنة 1910 صوت طفل؛ شقّ الفضاء الذي أحاط بالمدينة المقدسة، ثم علا واشتدّ حتى امتزج برنين أجراس الكنائس وابتهالات المؤذن؛ كان الصوت صوت المجاهد البطل عبد القادر موسى الحسيني.

لدى أولئك الذين أرادوا تمجيد اسمه، اكتست الدراما الأسطورية المتمثلة في ولادته ميزة إضافية أخرى من حقيقة أن أمه قد ماتت وهو ما زال طفلاً رضيعاً، ما جعله، حقاً، ابن الوطن، فلسطين، الأم التي من أجلها عاش وضحّى بحياته. وبالفعل، فقد أطلق عيسى خليل محسن على الكتاب الشامل الذي وضعه عنه عنوان فلسطين الأم وابنها البارّ عبد القادر الحسيني.

ثمة توصيف آخر لولادته يظهر في الكتاب الذي ألفه نبيل الأغا عن حياته تحت عنوان قضية فلسطين في سيرة البطل الشهيد الحيّ عبد القادر الحسيني. يكتب الآغا:

مساء يوم 8 من شهر نيسان (أبريل) 1908 كان مساء هادئاً في إسطنبول عاصمة الإمبراطورية العثمانية [...] كان ذلك مساء بشّر بميلاد عبد القادر الحسيني، قائد عظيم نذر حياته لوطنه. وُلد بصمت ومات بعاصفة [...] في مساء مشتعل في القدس يوم 8 نيسان 1948، ببلوغه الأربعين ربيعاً.

كلا التوصيفين مشحون بالشعارات والضبابية، وكأن الحديث يجري عن ميلاد بطل توراتيّ. أين وُلد بالضبط؟ في حي آل الحسيني في القدس؟ في إسطنبول زمن العثمانيين؟ ومتى وُلد؟ في 1910؟ أم ربما في 1908؟ في اليوم ذاته من نيسان الذي سقط فيه خلال معركة، بعد ذلك بأربعين سنة؟

للحصول على صورة أكثر وضوحاً، يكفي التمعن في تنقلاته بين المدارس التي تعلم فيها خلال سنيّ طفولته. فقد بدأ دراسته في مدرسة "الرشيدية" الابتدائية الحكومية، ثم انتقل، مثل كثيرين من أبناء العائلات المرموقة، إلى مدرسة "صهيون" التي أسسها المطران الأنجليكيّ غوبات والتي كانت تقوم في بناية تابعة للكنيسة على جبل صهيون (انتقلت المدرسة لاحقاً إلى شارع نابلس وأصبحت تُعرف باسمها الشعبي "مدرسة المطران"). من مدرسة "صهيون"، انتقل عبد القادر إلى المدرسة الوطنية "روضة المعارف" التي بادر إلى تأسيسها أبناء آل الحسيني. وكان سبب ذلك ـ كما رُوي بعد سنوات ـ نفور عبد القادر من التعليم في المؤسسة الأنجليكية المحسوبة على السلطات البريطانية (رغم أنها أقيمت قبل سنوات من تأسيس الانتداب البريطاني).

من الواضح، على أي حال، أن الفتى عبد القادر، الذي كان في العاشرة من عمره لدى عزل السلطات البريطانية والده موسى كاظم عن منصب رئيس بلدية القدس، كان واعياً تماماً للتطورات السياسية في تلك السنوات: الاحتجاجات، المظاهرات، ومُطالبة موسى كاظم الحازمة، حتى يوم وفاته، بإلغاء وعد بلفور كجزء من صك الانتداب. رافق الفتى عبد القادر والدَه في عشرات اللقاءات، الاجتماعات، المؤتمرات وجلسات القيادة التي كان موسى كاظم رئيسها بحُكم انتخابه رئيساً للجنة التنفيذية ـ الهيئة العليا لعرب البلاد.

في إحدى المرات، خلال نقاش أجرته اللجنة التنفيذية برئاسة موسى كاظم، طُرح السؤال عما إذا كان يتعين على اللجنة التنفيذية تأييد الدعوة إلى المشاركة في مظاهرة احتجاج عربية في مسألة «الحائط الغربي» (حائط البراق). كان القصد، كما يبدو، المظاهرة التي كان المجلس الإسلامي الأعلى برئاسة الحاج أمين الحسيني قد دعا إلى تنظيمها يوم 16 آب من العام 1929،

رداً على مظاهرة نظمتها حركة «بيتار» في باحة «الحائط الغربي» قبل ذلك بيوم واحد (الأحداث الدامية التي في مركزها قضية الحائط تفجرت بعد ذلك بأسبوع واحد). أبدى موسى كاظم آنذاك موقفاً معتدلاً حيال ابن عائلته، الحاج أمين، وطلب مهلة للتفكير بالأمر. وحسب إحدى الشهادات (شهادة تظهر في كتاب نبيل الأغا)، توجه عبد القادر حينذاك إلى والده وقال: «لقد بلغكَ الكِبَرُ بعدما حاربتَ، طوال حياتك، ضد ظلم الاحتلال الأجنبي وعلّمْتني أن أكون حراً [...] قِف منتصبَ القامة، الآن أيضاً، ضد المظالم".

اقتنع موسى كاظم؛ وعلمت سلطات الانتداب بالأمر فأرسلت إلى منزله وفداً في محاولة لإقناعه بالتحفظ من المظاهرة. كانت على رأس الوفد سيدة بريطانية تدعى فرنسيس نيوتون، كانت تقيم في حيفا ومعروفة بتعاطفها مع القضية العربية. وصل الوفد إلى منزل موسى كاظم فاستقبله، عند مدخل البيت، عبد القادر ابن الـ 19 عاماً. قال لها: "مع كل الاحترام الذي أكنّه لكِ، أرجو ألاّ تضغطي على والدي لإقصائه عن عمل وطني مقدس [...] فأنت تعرفين موقفنا العادل [...] في كل الأحوال، إذا وافق على طلبك، فسأكون أول من يتصدى له ويعارض، لأن عشقي للوطن يفوق حبّي لأبي". توجه موسى كاظم، الذي وصل في الأثناء وسمع ما قاله ابنُه، إلى السيدة نيوتون وقال لها: "سمعتُ ابني وليس ثمة ما أضيف". صُعق أعضاء الوفد مما سمعوا وانعقدت ألسنتهم. دعاهم موسى كاظم إلى الدخول لاحتساء القهوة، لكنهم رفضوا واستداروا مغادِرين.

وقعت أحداث الحائط في آب 1929 خلال العطلة الصيفية. كان عبد القادر وقتذاك في منزله في القدس، بعد أن قرر هجر مقاعد الدراسة في الجامعة الأميركية في بيروت، حيث لم تكن له أي مكانة رسمية "بسبب نشاطه السياسي"، كما يسجل كاتبو سيرة حياته. في السنة الدراسية التالية، كان قد أصبح في القاهرة، التي أُرسل إليها للدراسة بمساعدة العائلة، في الجامعة الأميركية أيضاً، في قسم الكيمياء. مرة أخرى، في القاهرة أيضاً، أصبح عبد القادر ناشطاً سياسياً معروفاً. دأب، في البداية، على تنظيم الطلاب الفلسطينيين فيما يشبه لجنة مستقلة عن الطلاب الآخرين. كان من بين أصدقائه الطلاب رشاد الشوا، الذي أصبح رئيس بلدية غزة فيما بعد. وصديق آخر هو أكرم الخالدي من القدس. بعد سنوات، روى كلاهما أن عبد القادر شن حملة دعائية لمقاطعة الجامعة الرسمية التي كانت تحمل اسم ملك مصر آنذاك، فؤاد الأول، لاتهامها بالتعاون مع البريطانيين.

كانت الفضيحة الكبرى التي أحدثها عبد القادر في فترة تعليمه الجامعي تلك التي حصلت خلال مراسم إنهاء دراسته لشهادة البكالوريوس، في بداية صيف العام 1932. مع انتهاء السنة الدراسية، اجتمع رؤساء الجامعة وعدد كبير من

الضيوف في حفل توزيع الشهادات الأكاديمية على الخريجين الجُدد. دُعي الخريجون بأسمائهم للصعود إلى المنصة، واحداً تلو الآخر، لاستلام شهادات الإنهاء. تولى رئيس الجامعة، تشارلز ووطسون، رئاسة الحفل وجلس إلى جانبه جميع رؤساء الأقسام في الجامعة. حين دُعي عبد القادر إلى المنصة، طلب إلقاء كلمة قصيرة أمام الحضور. لم يعترض أحد على هذا الطلب. وقف عبد القادر أمام الحاضرين المندهشين وشرع في إلقاء خطاب ناريّ ضد سياسة الدول الغربية في الشرق الأوسط. اتهم الجامعة، التي أنهى للتو دراسته فيها، بارتكاب أعمال مخالفة للأعراف والتقاليد وللدين الإسلامي وبالحضّ على التبشيرية المسيحية لزرع الشقاق والخلافات بين المسلمين والمسيحيين.

استناداً إلى الشهادات التي تصف الحادثة، جلس الحاضرون في الحفل، من ضمنهم رؤساء الجامعة والضيوف، مشدوهين فاغري الأفواه. وحين أنهى كلمته القصيرة، رفع عبد القادر إلى أعلى الشهادة التي حصل عليها وأعلن بصوت عالٍ: "ها هي شهادتكم، لا يشرّفني أن أحملها، خذوها منّي، لا حاجة لي بشهادةٍ من مؤسسة إمبريالية تبشيرية"، ثم مزّقها إرباً إرباً أمام ناظري رئيس الجامعة وجمهور الضيوف.

ثارت جلبة في المكان وتوجهت إدارة الجامعة، على الفور، إلى السلطات فقررت هذه، في المساء نفسه، طرد عبد القادر في غضون 24 ساعة، ليس من الجامعة فحسب، بل من الأراضي المصرية أيضاً. كان الميل في الجامعة نحو تخفيف حدة اللهجة بشأن ما حدث، غير أن عبد القادر استطاع، حتى لحظة مغادرته مصر، إبلاغ وسائل الإعلام بما حدث ونشره على الملأ، كما رأيه أيضاً بمدرّسي الجامعة الأميركية، الذين يستهترون بقدسية النبي محمد، يعتبرونه نبي كذب، شهوانياً حلّل الزواج من عدة نساء، مُفتِناً ومُشعلاً للحروب. "إنهم يدرّسون أن الإسلام هو دين وحشيّ وبربريّ يحضّ على العنف"، قال عبد القادر موجِّهاً كلامه إلى رئيس اللجنة، تشارلز ووطسون، "التبشيريّ بنفسه، والده كان تبشيرياً وأمه تبشيرية".

ورد في النص الكامل لبيان عبد القادر، كما نشر في الصحف، أن تشارلز ووطسون يعتقد بأن إحدى الفرائض الأساسية في الإسلام ـ الحجّ إلى مكّة ـ هي شعيرة قبيحة وبأن الكعبة هي مصدر للرذائل وقِبلة لقطّاع الطرق. ثم ندد عبد القادر، في بيانه، بالدكتور جيفري، رئيس مدرسة اللغات الشرقية و"رئيس المبشرين في الجامعة"، الذي وصفه بأنه لاهوتيّ يسعى لتعليم الأجانب اللغة العربية من أجل إعداد المبشِّرين وتأهيلهم. "الجامعة الأميركية في القاهرة تنشر أفكاراً شرّيرة في البلاد، تؤثر على الوطن العربي بأكمله ويجب محاربتها"، اختتم عبد القادر بيانه إلى وسائل الإعلام.

نُشرت القضية في البلاد أيضاً وعاد عبد القادر إلى القدس، إلى حضن عائلته التي اعتبرت ذلك تجسيداً طبيعياً لطبعه الجامح. كان الأصدقاء في سنّه متحمّسين كثيراً لأفعاله، لكنّ الجمهور الواسع لم يكن قد تعرّف على البطل، ابن آل الحسيني، بعد. لم يكتسب شهرة وطنية حقيقية إلا بعد بضع سنوات، إثر إصابته في معركة الخَضر.

بعد عودته إلى القدس، في أعقاب طرده من مصر، وحتى العام 1936، تنقّل عبد القادر، كاتباً للمقالات الوطنية ضد البريطانيين والصهاينة، بين صحف مثل الجماعة الإسلامية واللواء وأشغل منصب سكرتير الحزب الوطني الذي شكله آل الحسيني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لوحظ في النصف الأول من 1933، على خلفية صعود النازيين إلى الحكم في ألمانيا، ازدياد كبير في هجرة اليهود إلى البلاد (كانت تلك الموجة الخامسة، كما عرّفها التاريخ الصهيوني). شعر عرب البلاد بذلك فازداد قلقهم. ظهرت في الصحف العربية عناوين مثل "نحن على وشك أن نخسر الوطن". في تشرين الأول، نُظمت مظاهرة عربية حاشدة في يافا دُعي موسى كاظم، رئيس اللجنة التنفيذية، إلى التحدّث فيها. كان قد بلغ الثمانين من العمر حينذاك وخشي تلبية الدعوة. يروي أبناء العائلة في القدس أن من حثّه على التوجه إلى يافا والسير في مقدمة المتظاهرين كان ابنه الشاب، عبد القادر. "ليس ثمة ما ينبغي أن تخشاه، حتى لو متّ هناك، فالأمر يستحق"، قال له الابن. وسواء أكانت هذه الصيغة دقيقة أم لا، ليس ثمة شك في أنها تدل على أسلوب عبد القادر: أسلوب حاد وفظّ. ففي المجتمع العربي التقليدي، ليس ثمة من يجرؤ على التحدث مع أبيه بمثل هذا الأسلوب، غير أن عبد القادر لم يرتدع. كان ذلك أسلوبه في الكلام لاحقاً أيضاً، في صراعات ومعارك العام 1948.

أبدى موسى كاظم شجاعة وإصراراً ووافق على السير في قيادة المتظاهرين في يافا، رغم سنه المتقدمة وحالته الصحية الواهنة، لمعرفته الواضحة بأن ثمة احتمالاً كبيراً لأن تنزلق المظاهرة إلى مواجهات عنيفة. وهو ما حصل بالفعل. ألقى موسى كاظم خطاباً وطنياً مؤثراً جداً. حاول المستمعون المتحمسون الانطلاق في مسيرة، لكن الشرطة البريطانية أوقفتهم، بل شرعت في إطلاق النار عليهم. سقط موسى كاظم العجوز تحت حوافر الأحصنة وأصيب بجراح. بعد ذلك بخمسة أشهر، في 27 آذار 1934، توفي في القدس.

يربط المؤرخون الفلسطينيون وفاة موسى كاظم بتلك المظاهرة في يافا. وصفوه بـ "شيخ المجاهدين". في رثاء متأخر له، كتب الصحافي الفلسطيني

المعروف يوسف حنا: "ناضل الشيخ، ومعه ملايين من عرب فلسطين، حين خرج المال اليهودي من خزائن الحديد في شتاء 1933 واستولى على خزائن الضمير في (قصر) وايت هول [وزارة الخارجية البريطانية] فتُركت فلسطين العربية مستباحة أمام غزو سلاح الذهب اليهودي والعنف البريطاني". وقد حظي موسى كاظم باحترام استثنائي حين سُمح بدفنه في حجرة دفن ملاصقة للسور الغربي في المسجد الأقصى (في الحجرة التي دُفن في الطرف الآخر منها قائد مسلم من الهند). بعد فترة من الوقت سيُدفن بجواره ابنه الشاب عبد القادر، ثم بعد سنين أخرى سيُدفن الحفيد فيصل الحسيني، أيضاً.

كان موسى كاظم سياسياً قومياً عربياً، لكن كانت له طوال السنوات علاقات مع شخصيات من اليشوف اليهودي. في 1905، مثلاً، حين كان يشغل منصب قائمقام يافا، أرسل حراساً لحماية حي نفيه تسيدق الذي أقامه صديقه منذ الطفولة شمعون روكَح. وقد روى، ذات مرة، في محادثة خاصة، أنه إبان إشغاله منصب حاكم صفد وحاكم يافا، ساعد في إنشاء مستعمرات يهودية وأقام علاقات مع موظفي البارون روتشيلد.

في صور موسى كاظم العديدة، جميعها، يظهر رجل نحيف، ذو وجه حبيس، خدّين غائرين، لحية قصيرة معتنى بها، نموذجية لتلك الأيام، يرتدي بأناقة بدلة من ثلاث قطع، مع ياقة متينة مرفوعة وربطة عنق وعلى رأسه طربوش أحمر اللون. كانت صوره معلقة طوال سنوات عديدة في مكاتب فلسطينية عامة في البلاد وخارجها، وفي جميعها يركن رأسه على يده اليمنى، ملامح وجهه جدية دائماً وكل مظهره، إجمالاً، يشي بانتمائه إلى النخبة الفلسطينية ـ العثمانية. كان موسى كاظم واحداً من الفلسطينيين القلائل، أربعة تحديداً، الذين منحتهم السلطات العثمانية لقب "باشا".

بعد أن عزله البريطانيون من منصبه رئيساً لبلدية القدس بجريرة موقفه الحازم ونشاطه ضد وعد بلفور، قال موسى كاظم غير مرّة، وبصورة علنية، إنه لولا وعد بلفور لوافق على هجرة اليهود إلى البلاد واستيطانهم فيها. ثمة توثيقات عن أبناء آل الحسيني، وفيري الأموال والأراضي، تفيد بأنهم باعوا أراضي لليهود، حتى العام 1929. موسى كاظم نفسه، أيضاً، باع أرض عين الدِّلب بالقرب من أبو غوش (والتي أقيم عليها كيبوتس كريات عَنَفيم). قبل ذلك، باع ابن العائلة مساحات من أراضي قرية قالونيا، أقيمت عليها مستوطنة موتسا. ومن سخرية الأقدار أن هذه الأراضي نفسها، التي تقع حول تلة القسطل، كانت ـ بعد سنوات ـ ميداناً لإحدى المعارك الحاسمة في الحرب على مستقبل البلاد. وعلى أي حال، لم يُعثَر على أية أدلة تثبت أن أياً من أبناء آل الحسيني قد باع أراضي أخرى لليهود بعد العام 1929. وقد

تكشفت هذه الحقائق من خلال دراسات لم يجرِها عربٌ وإنما باحثون إسرائيليون وأجانب. مقابل العلاقات الشخصية والتجارية التي كان يقيمها فلسطينيون كثيرون ـ من بينهم آل الحسيني ـ مع يهود البلاد، لم يُعثَر على أي علاقات كهذه في أيّ شيء ممّا كُتب عن عبد القادر ونشاطه. لم يُعرف عن أي محادثات أجراها مع يهود ولا عن أي علاقة أخرى معهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد وفاة والده وزواجه من ابنة العائلة، وجيهة، بدأ عبد القادر العمل في دائرة التسجيل العقاري (الطابو) التابعة لحكومة الانتداب البريطاني في لواء المركز. أثارت حقيقة قبوله بإشغال منصب حكومي بريطاني رفيع، براتب دسم بلغ 37 جنيهاً (ليرة إسرائيلية) ـ بينما كان راتب الموظفين العاديين آنذاك حوالي 6 جنيهات ـ استغراب مؤرخي تاريخ الفلسطينيين. كيف يُعقل أن الشاب المتمرد، الذي أثار الاضطرابات في جامعة القاهرة وطُرد من مصر، الذي تجاسر أمام والده وطالبه بالتصدي لظلم البريطانيين بحزم وقامة منتصبة، الذي كتب مقالات وطنية ناريّة ضد الانتداب ـ كيف يمكن تفسير تغيير كهذا في سلوكه ونمط حياته؟ كان قبول عبد القادر بإشغال هذه الوظيفة بمثابة مكسب للسلطات البريطانية. عن ذلك، قال أحد المسؤولين الكبار في حكومة الانتداب، بنوع من السخرية: "نحن لم نوظّف عبد القادر، وإنما والده موسى كاظم".

يقول أحد التفسيرات إن عبد القادر كان في حاجة إلى المال بعد زواجه. لم يكن موسى كاظم، رغم مكانته الرفيعة، ربّ أسرة وفير الأملاك. مقارنة بأُسَر أخرى من آل الحسيني، لم تكن أسرة عبد القادر من التجار الأثرياء. المنزل الذي كان ينوي السكن فيه في القدس، قرب وادي الجوز، هو الذي ورثته زوجته. وفي السنوات اللاحقة، صرف عبد القادر كل ما كان يملك من المال على شراء السلاح وعلى أمور أخرى خاصة بالثورة وبالقتال. في إحدى المرثيات التي كُتبت عنه، تلك التي وضعها مؤرخ النكبة، عارف العارف، ورد أن عبد القادر، حين وفاته، لم يكن يملك قرشاً واحداً، بل كان مديناً بمبلغ 16 ألف ليرة (إسرائيلية)، تراكم كلّه من الإنفاق على الحركة الوطنية.

ثمة تفسير آخر مقبول لدى مؤرخين فلسطينيين يقول إن عبد القادر استجاب لطلب شخصيات فلسطينية من الشبان المتعلمين الانضمام إلى الجهاز الحكومي البريطاني للحيلولة دون ظلم العرب والاستحواذ اليهودي. وطبقاً لكتّاب آخرين (قاسم الريماوي، مثلاً)، كان عبد القادر يريد دراسة نمط حياة الفلاحين في القرى؛ والأمر الأساس ـ أنه وظّف في عمله جهوداً لإحباط مؤامرات بريطانية ومحاولات يهودية لامتلاك أراضٍ والاستيلاء عليها. في حالة

واحدة، على الأقل، رفض محاولة أحد أعيان بيتح تكفا (هل كان هذا الحارس أبراهام شابيرا؟) لرشيه في قضية أراضٍ.

أياً كان الأمر، فقد استقال عبد القادر من وظيفته الحكومية البريطانية عشية اندلاع الإضراب العام والثورة في نيسان 1936. من تلك اللحظة فصاعداً، أصبحت حياته مكرّسة للصراع والنضال.

في تشرين الأول 1936، بعد سنتين من وفاة والده، أصيب عبد القادر، حين كان نائباً لسعيد العاص في معركة الخضر. ثم، بعد سنتين، في تشرين الأول 1938 ـ بعد فراره من المحاكمة، تسلل إلى البلاد ثانية وشارك في معارك الثورة ـ أصيب مرة أخرى. حدث ذلك خلال معركة ضارية جرت قرب بلدة بني نعيم إلى الغرب من الخليل؛ معركة كانت لها انعكاسات سياسية وشخصية استمرت لفترة طويلة، حتى نكبة 1948 في الواقع. وقعت معركة بني نعيم على خلفية الخلاف وسفك الدماء بين المقاتلين التابعين لآل الحسيني (الحزب العربي) والمقاتلين المعارضين في "عصابات السلام" التابعة لآل النشاشيبي (حزب الدفاع الوطني).

لفهم ما حصل في بني نعيم، تنبغي العودة إلى ما حصل في منطقة جبل الخليل في المراحل المبكرة من الثورة. كانت انطلاقة الثورة في جبل الخليل في 1936 بمبادرة وتنظيم شاب يدعي عيسى البطّاط، تصفه الأدبيات العربية بأنه مقاتل شجاع ومِقدام، بينما تصفه تلك البريطانية واليهودية بأنه بلطجي أرعن ونزق. جمع البطّاط من حوله فرقة من الشبان شنت هجمات مسلحة، بالعيارات النارية، ضد منشآت حكومية وقطعت خطوط الهاتف. يوم 10 كانون الأول 1938، بالقرب من قرية بيت جبرين (التي أقيم على أراضيها فيما بعد كيبوتس "بيت جوفرين")، اصطدم البطّاط وفرقته بعالِم آثار من دائرة الآثار التابعة لحكومة الانتداب، جيمس ليسلي ستاركي، الذي كان يجري مسحاً للآثار في المنطقة، فقتلوه.

ثمة تقرير مفصل عن عملية القتل هذه في منشورات بريطانية ويهودية. كان ستاركي عالم آثار مهمّاً ذاع صيته على نطاق واسع جداً قبل ذلك بثلاث سنوات إثر اكتشافه في تل عتيق، إلى الشمال من بيت جبرين، بقايا مدينة لخيش (أو: لكيش. واسمها العربي: الدُّوَيْر ـ المترجِم) العتيقة وبضمنها 20 آنية خزفية مكتوبة بخط عبري قديم من القرن السادس قبل الميلاد. إحدى تلك الأواني الخزفية هي رسالة من قائد عسكري يهودي إلى رفيقه حول المعركة مع البابليين. ترك هذا الاكتشاف انطباعاً قوياً لدى دارسي البلاد ولدى اليشوف اليهودي عموماً: كان هذا أحد الأدلة الأثرية الأكثر دراماتيكية على أحداث توراتية من عصر الهيكل الأول. سافر جيمس ستاركي في ذلك اليوم، وكان في الخامسة والأربعين من عمره، إلى حفل افتتاح "متحف فلسطين ـ

أرض إسرائيل الأثري" المعروف باسمه الشعبي "متحف روكفيلر" (على اسم المتبرع). سافر، بالسيارة، برفقة السائق واثنين من مساعديه العرب. على الشارع، في الطريق إلى عَرْطوف (قرية فلسطينية مهجرة، تقع على بُعد 36 كم إلى الغرب من القدس ـ المترجِم)، قبل أن يحل الظلام، أوقفتهم مجموعة من العرب المسلحين. وبعد أن تعرّفوا على ستاركي وهويته البريطانية، أنزلوه من السيارة وقتلوه رمياً بالرصاص. بسبب القتل، تم تأجيل حفل افتتاح المتحف.

هرب القاتلون العرب إلى الجبال، لكن الشرطة البريطانية ألقت القبض عليهم. حُكم على البطّاط بالسجن مدى الحياة. بعد أيام قليلة، نجح في الفرار واختبأ في منزل صديق في بلدة بيت جبرين. هاجم البريطانيون المنزل، بعد تلقيهم معلومات عن مخبئه من واشٍ، وأطلقوا النار عليه فأردوه قتيلاً.

حلّ مكان البطّاط أحد رجاله، عبد الحليم الجولاني، من مواليد 1905 من الخليل، ابن لعائلة معروفة وكبيرة. تربى في طفولته لدى عمته في الكَرَك في شرق البحر الميت، ثم سافر لاحقاً إلى مصر، حيث أقام والده وجدّه الذي كان واحداً من جنود إبراهيم باشا الذي احتل فلسطين في العام 1831. كان الجد هو الذي أطلق عليه لقب "الشلف" ("السريع"، باللهجة المحلية)، وبه اشتهر في جبل الخليل إبان الثورة. كان الجولاني الوحيد من مجموعة الثوار الشبان في العام 1936 الذي كان يكبر عبد القادر سناً.

تساعد قصة نشاط الجولاني في جبل الخليل في فهم مدى زخم الثورة الكبرى في 1938، كما في فهم حجم الدمار الذي خلّفته في المجتمع الفلسطيني، أيضاً. كان الدمار هائلاً إلى درجة أن بعض الدارسين لتلك الحقبة يقولون إن قمع الثورة الكبرى في السنة ذاتها أرسى، عملياً، أسس النكبة في 1948.

قبل الثورة، في مطلع الثلاثينات، كان عبد الحليم الجولاني، الذي لم يكن متعلماً، يعمل في شركة باصات يملكها أقرباء العائلة، حارساً في بعض الأحيان وعاملاً بسيطاً في أحيان أخرى. ألقت الشرطة البريطانية القبض عليه للمرة الأولى عندما سرق بندقية من جندي بريطاني قرب بِرك سليمان إلى الجنوب من بيت لحم. وُضع الجولاني رهن الاعتقال لبضعة أشهر في سجن القشلة في القدس، بجوار باب الخليل، ثم انضم إلى إحدى مجموعات عبد القادر. في موقع الانترنت الخاص لتخليد ذكراه، ورد أنه شارك في العام 1934 في أحد المؤتمرات السرية الأولى لمجموعة "الجهاد المقدس". عُقد هذا المؤتمر في منزل أحد أبناء آل الحسيني قرب عقبة جبر، إلى الشمال من أريحا.

شارك الجولاني في النشاطات الأولى من الثورة، إبان الإضراب الكبير في صيف وخريف 1936. جنّد بضع عشرات من أبناء القرى في جبل الخليل لشن هجمات ضد البريطانيين في معركتيّ حلحول والخضر، اللتين قادهما سعيد العاص وعبد القادر. ومع تجدد الثورة في العامين 1937- 1938، تنقّل الجولاني ومرافقوه بين قرى الجبل وطلبوا من كل قرية، من كل حملة وكل مختار، رفدهم ببعض الشبان للانضمام إلى المقاتلين. كان يُفترض أن يواصل الشبان المجنّدون حياتهم العادية، في منازلهم، والاستجابة الفورية للأنشطة التي يُستَدعَون إليها. بهذه الطريقة، نجح الجولاني، بتوجيه من عبد القادر، في تجنيد نحو 500 شاب. واختار أن يكون مقرّه في منطقة جبلية فيها العديد من الوديان والمغارات تسمى شِعْب الملح، إلى الغرب من الخليل.

في الليالي، في الساعات التي لم تكن الطائرات البريطانية قادرة على كشفهم، كان الجولاني ورجاله يهبطون من الجبال، ينصبون كمائن للقوافل البريطانية ويهاجمون بالرصاص مكاتب الحكم البريطاني، مكاتب البريد، مراكز الشرطة والبنوك. كانت الذروة يوم 15 أيار 1938، عندما ضرب الجولاني والمئات من رجاله حصاراً على الخليل: فجّروا الجسور على الشوارع المؤدية إلى المدينة، استولوا على مكاتب الحكم البريطاني ومنشآت أخرى تابعة له، أحرقوا بنك باركليس ورفعوا الأعلام الفلسطينية على جميع المباني. أعلنوا الخليل مدينة محرَّرة، لنحو 24 ساعة، إلى أن حضرت قوات بريطانية كبيرة إلى المكان.

تفيد المنشورات التي صدرت لتخليد ذكرى الجولاني بأنه لم يكتف بالعمليات العسكرية، بل أقام أيضاً ما يشبه الحكم الذاتي الذي أعلن ـ على غرار أماكن أخرى في البلاد ـ عصياناً مدنياً ضد البريطانيين. من القيادة في وديان شعب الملح صدرت الأوامر بمقاطعة مؤسسات السلطة، التوقف عن دفع الضرائب، وأنشئت حتى محكمة نظرت في النزاعات المحلية، عِوضاً عن المحاكم الحكومية.

كان أحد الأوامر المثيرة جداً التي أصدرها الجولاني والثوار في الخليل، بل في سائر أنحاء البلاد عامة، منع استخدام الطربوش (الذي يمثّل الثقافة العثمانية التركية) أو أية قبّعة غربية، بل صدر أمر بتغطية الرأس بالكوفية والعقال فقط لا غير. وقد رأى دارسو تلك الحقبة أن تلك الأوامر شكّلت أحد المؤشرات على أن الثورة الكبرى كانت تُدار، في الغالب، من جانب أبناء القرى، معتمري الكوفيّات، وهو ما أكسبها أيضاً ملامح العداء لمعتمري الطربوش أبناء الطبقات المدينية الثريّة. والواقع أن أبناء القرى والطبقات الدنيا في المجتمع الفلسطيني اعتبروا أنفسهم أكثر تضرراً من الهجرة اليهودية واستيلاء اليهود على البلاد، مقارنةً بأبناء الطبقات العليا، ذوي الجاه

والمال، الذين كانت لهم، في الكثير من الحالات، روابط مصاهرة وعائلية في البلدان العربية المجاورة. كان بمقدور الأثرياء مغادرة فلسطين متى شاءوا والانتقال إلى بيوت أكثر فخامة في دمشق، بيروت، أو الإسكندرية، بينما لم يكن الفقراء وعامة الشعب قادرين على ذلك.

كما هو الحال في مثل هذه الانتفاضات في العديد من الأماكن، أصبح استخدام الطربوش قضية سياسية. أكثر من مرة، تعرض من تجرأ على اعتمار الطربوش للمضايقات والضرب والاعتداء. طولب سكان المدن بتغطية رؤوسهم بالكوفية، ولو من باب التضامن مع الثوار على الأقل وبلغت الأمور حدّ إصدار الشرطة البريطانية تعليمات تحظر استخدام الكوفية في بعض الأماكن. ومنعت إدارة المحاكم الحكومية، مثلاً، المحامين والمواطنين الوافدين إلى المحاكم من المثول أمامها بالكوفية. لكنّ ضغط الثوار كان أقوى. ظهر المحامون وقادة الجمهور في شوارع بعض المدن وهم يضعون الكوفية والعقال على رؤوسهم بصورة تظاهرية.

نفّذ الجولاني ورجاله في التاسع من أيلول 1938، إحدى أكثر عملياتهم جرأة وجسارة: الهجوم على مدينة بئر السبع، أو احتلالها لبضع ساعات بالأحرى. بعدما نصب الكمائن في الشوارع المؤدية إلى بئر السبع، هاجم الجولاني مقر الحكم والشرطة المحلي وسرق منه 250 بندقية، رشاشاً، مسدساً، قنبلة يدوية وصندوق ذخيرة، كما صادر وثائق من مكاتب الحكم وأطلق سراح الأسرى العرب من السجن البوليسي.

عزّزت السلطات البريطانية، التي عجزت عن وضع اليد على الجولاني ومجموعته، مساندتها لمعارضيه، رجال "فِرَق السلام" بقيادة فخري النشاشيبي. ازدادت قوة معارضي الثورة العنيفة كلما اشتدت قوة الثوار واتسعت الفوضى التي يشيعونها في الحياة اليومية: تضرر الاقتصاد العربي كثيراً جرّاء حظر أي اتصال مع الجمهور اليهودي؛ قلّت الحركة في الشوارع وتراجعت، بل توقفت تماماً في بعض المناطق؛ توقفت حركة القطارات، وخصوصاً في السكة الحديدة إلى القدس؛ شُلت، تماماً تقريباً، مكاتب البريد والمحاكم، وكذلك عمل الشرطة التي لم تكن قادرة على تطبيق القانون وفرض النظام وتوفير الأمن للسكان. وقف الفلاحون، في العديد من الأماكن، عاجزين تماماً حيال الصدامات الدموية بين المجموعات المختلفة. كتب أحد أبناء القرى: "الثوار يأتون إلى قرانا، يأخذون أموالنا وطعامنا، بل يقتلوننا أيضاً في بعض الأحيان [...] ثم يأتي رجال الشرطة ويطاردون الثوار، بمساعدة كلابهم، ثم يأتي دورهم هم ليقتلونا".

كانت الخليل وضواحيها في خريف 1938، تحت سيطرة حكومة شِعْب المِلح برئاسة عبد الحليم الجولاني ورجاله. في أواخر أيام حياته، عدّد رئيس بلدية

الخليل بين 1948 و1976، الشيخ محمد علي الجعبري، المرّات التي تبدلت فيها السلطة الحاكمة في مدينته: "عندما وُلدت كانت السلطة في مدينتي الخليل للإمبراطورية العثمانية؛ ثم بعد ذلك، أتت السلطة البريطانية في العام 1917؛ إبان الحرب، في النصف الثاني من سنة 1948، كان السلطة للجيش المصري الذي دخل إلى البلاد متوجهاً إلى القدس؛ من بعده، جاء الحكم الأردني الذي استمر 19 عاماً، إلى أن جاء السلطة الإسرائيلية في 1967". هكذا أراد الشيخ الجعبري، الذي وُلد سنة 1900 وتوفي سنة 1980، أن يشرح للصحافيين، من مثلي، إنه في عُمر شخص واحد فقط تعاقب على حُكم الخليل خمس جهات مختلفة: كلها جاءت وذهبت وفقط هو بقي في المدينة. وعندها، كأنما تذكّر بُرهة الثورة الكبرى فأضاف: "نسيت أنه كانت ثمة سلطة سادسة هي حكومة شِعْب المِلح سنة 1938". في وقت لاحق، في العام 1976، جرى عزل الشيخ الجعبري عن منصبه كرئيس للبلدية، ولو امتد به العمر سنوات أخرى، لكان حظي بمعايشة سلطة أخرى، سابعة، على الخليل، هي السلطة الفلسطينية.

بعد ذلك بسنوات، سألتُ مؤرخاً فلسطينياً: أي الجهات التي حكمت مدينة الخليل كانت الأفضل وأيها الأسوأ، حسب رأيه؟ "لا أعرف أيها الأفضل"، أجابني. "لكن الأسوأ، من دون أي شك، هي أنتم، اليهود". لماذا؟ "لأن جميع السابقين أتوا للسيطرة علينا والتحكّم بنا واستعبادنا. أما أنتم فأتيتم لتحلوا مكاننا".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اختلط في الاضطرابات والفوضى التي سادت أيام مجموعة شعب الملح في الخليل سنة 1938، التعصب بالشجارات بين الأفراد والعائلات، بالقتل، بجباية الضرائب لتمويل احتياجات الثورة وابتزاز رسوم الرعاية (خاوه) بصورة اعتباطية تعسفية. في منزل زكي نُسيبة في القدس الشرقية، يمكن العثور على قصاصة ورق أُرسلت في تلك السنة ذاتها من مقر قيادة الثورة إلى عائلة نسيبة الثرية، التي شارك أحد أبنائها، أحمد نسيبة، في الثورة. في تلك القصاصة، تطلب القيادةُ من العائلة، بلهجة حازمة، دفع تكاليف معيشة واحتياجات المقاتل أحمد نسيبة.

كانت معارضة الثوار إلى الجنوب من القدس تحت قيادة عائلة كبيرة وقوية من بلدة بيت جبرين، هي عائلة العَزّة. كانت لهذه العائلة سيطرة على عدد من القرى الكبيرة حول الخليل (عائلة العزّة هي، كما يبدو، العائلة الفلسطينية الوحيدة التي لديها مخيم للاجئين خاص بها يحمل اسمها ـ مخيم العزّة، على مشارف بيت لحم). فخري النشاشيبي، ابن شقيقة رئيس بلدية القدس وقائد المعارضة، راغب النشاشيبي، كان مسؤولاً عن تركيز

مجموعات المعارضة في معظم أنحاء البلاد، كما في جبل الخليل أيضاً. كانت تسمى "فِرَق السلام". كان فخري النشاشيبي يُعتبر الخصم الأشدّ مرارة لمعسكر آل الحسيني. نظّم اجتماعات في القرى بغية تجنيد الناس ضد الثوار، بما في ذلك اجتماعاً حاشداً في خريف العام 1938 في بلدة يطّا إلى الجنوب من الخليل ـ وهو الاجتماع الذي أدى، كما سنرى لاحقاً، إلى إحدى المعارك المهمة في حياة عبد القادر. لاحقاً، أصبح فخري النشاشيبي الشخصية المركزية في مجال تجنيد فلسطينيين لصفوف الجيش البريطاني مع اندلاع الحرب العالمية الثانية. توفي قَتلاً في بغداد يوم الثامن من تشرين الثاني 1941، إذ اغتاله أشخاص مبعوثون من آل الحسيني بعدما أصدرت محكمة شعبية من طرفهم حكماً بالإعدام بحقه. دُفن في مدينة القدس، وكان أحمد نسيبة إياه المشتبه به الرئيسي في القتل.

كان عبد القادر الحسيني شريكاً فعالاً في صراع الجولاني مع معارضة آل النشاشيبي في قرى جبل الخليل. تحكي المنشورات الفلسطينية عن عبد القادر والجولاني عن دعوة وصلت في بداية شهر تشرين الأول 1938 إلى عبد القادر للحضور، سوية مع رجاله، إلى منزل مختار قرية بني نعيم، "من أجل حل مشاكل بين سكان الجبل والجولاني". وصل عبد القادر إلى بني نعيم في ساعات الظهيرة من يوم 4 تشرين الأول، برفقة نحو ثلاثين من رجاله، وبينهم ابن عمه، علي الحسيني. "وُجِّهت لهم الدعوة لتناول وجبة غداء"، يكتب قاسم الريماوي في مذكراته، "إلا أن المختار، الذي كان يحيك المؤامرات مع البريطانيين ومع فخري النشاشيبي الذي رافق البريطانيين، تعمّد تأخير تقديم وجبة الطعام إلى الساعة الرابعة بعد الظهر كي تتمكن وحدة كبيرة من الجيش البريطاني كانت متوقفة في بلدة يطّا المجاورة، من تنظيم نفسها والاستعداد لإلقاء القبض على عبد القادر". لكنّ عبد القادر لاحظ الأمر فأمر رجاله بمغادرة القرية على وجه السرعة.

تقول مصادر أخرى إن عبد القادر حضر إلى قرية بني نعيم، التي كانت معقلاً للمعارضة، برفقة عشرات من رجاله، لحضّ سكان القرية ومختارها على الانضمام إلى الثوار وتهديدهم من مغبة التعاون مع المعارضة وعائلة العزّة. بكلمات أخرى، من المحتمل جداً أن يكون قد هاجم القرية ولم يُدعَ "لحل مشاكل".

أياً كان الحال، فقد خرج عبد القادر ورجاله من القرية "لتجنب حرب ودمار فيها"، وانسحبوا إلى وادٍ قريب. هناك، قام الجيش البريطاني بمحاصرتهم ووقعت معركة ضارية. استدعى البريطانيون إلى تلك المعركة طائرات ودبابات. قُتل ابن العمّ علي الحسيني وأصيب صبحي أبو غربية، أحد أقدم

رجال عبد القادر. في الحصيلة، قُتل في معركة بني نعيم 16 من رجال عبد القادر والجولاني وأصيب 30 آخرون.

هبط المساء في ذلك اليوم وظل عبد القادر مستلقياً، وهو مصاب، قرب جدار من الأحجار، تخفيه أغصان شجرة بلّوط. في ساعات الليل ومع بزوغ الفجر ـ كما تروي شهادات القرويين الذين أتوا لجمع جثامين الشهداء العرب ـ زار ميدانَ المعركة القائدُ البريطاني وجنوده، أيضاً. لم يتعرف القائد البريطاني على عبد القادر المصاب وظنّ أنه أحد الجنود. ركله وطعنه، لكن عبد القادر لم يُصدر أي ردة فعل. بعد ساعة على ذلك، مرّ من المكان بدويّ انتبه إلى أن عبد القادر مصاب "ويرتعش ما بين الحياة والموت"، كما يقول قاسم الريماوي. حمّله على ظهر ناقته ونقله إلى المستشفى الإنكليزي في الخليل.

في المستشفى، تعرفت إحدى الممرضات على "الجريح المجهول الهوية"، لكن تقرر، بالتشاور مع أصدقاء من الخليل، إخفاء هويته الحقيقية. في الأثناء، انتشر في الخليل والقرى المحيطة بها نبأ يقول إن عبد القادر قُتل في المعركة. وصل هذا النبأ إلى القدس أيضاً فخيّم حزن شديد على عائلته ورفاقه. لكنّ ذلك البدوي نفسه، الذي أنقذ عبد القادر، وصل إلى القدس بعد وقت قصير وأبلغ العائلة بأن ابنها جريح وموجود في مكان آمن.

مرّ أسبوع تحسنت في نهايته حالة عبد القادر الصحية فانتقل إلى منزل أصدقاء له في الخليل، وبقي فيه مدة أخرى حتى قام عبد الحليم الجولاني بحمله على ظهر حصان ونقله، سوية مع عدد من الرفاق، إلى مساكن عشيرة السواحرة إلى الشرق من بيت لحم. في الليلة التالية، قاموا بتهريبه إلى ما وراء نهر الأردن، إلى بلدة الشونة، حيث استأجروا سيارة نقلته لتلقي العلاج في مستشفى في دمشق. وقد بيّنت الفحوصات أن شظية اخترقت رئته اليمنى.

واحد على الأقل من رفاق عبد القادر القدامى، الذين كانوا يذكرون شائعة وفاة عبد القادر في بني نعيم ومفاجأة نجاته، روى في وقت لاحق إنه حتى في نيسان 1948 أيضاً، بعد أن رآه الشقيقان من قرية بيت فجار مصاباً في العتمة بالقرب من تل القسطل، ظل كثيرون يؤمنون بأنه لا يزال على قيد الحياة. كان مضمون نداء الاستنفار الذي شاع في القدس والقرى المحيطة بها مع بزوغ فجر يوم 8 نيسان: "يجب مساعدة عبد القادر المحاصَر في القسطل". طوال ساعات عديدة، حتى ما بعد ظهيرة ذاك اليوم، لم يتحدث أي من العرب عن وفاته؛ كانوا ينتظرون أنباء عن خلاص آخر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في ظل غيابه، واصل رجال عبد القادر، سوية مع رجال الخليل بقيادة عبد الحليم الجولاني، خوض المواجهات الدامية. بعد أيام قليلة من الهزيمة في معركة بني نعيم، ثأر الجولاني من البريطانيين، بواسطة كمين نصبه لقافلة بريطانية عند المشارف الشمالية لمدينة الخليل، إلى الغرب من بلدة حلحول. هاجم رجاله شاحنات كانت تقلّ جنوداً وفي استنفار الفَزعة حضر إلى الكمين نحو 200 من قرويّي المنطقة. اصطدمت الطائرات البريطانية التي حاولت إنجاد الجنود بنيران مكثفة من الأرض، أطلقت من الرشاشات الثقيلة التي حصل عليها الجولاني خلال اقتحامه مقر القيادة البريطاني في بئر السبع. وفقاً لموقع إحياء ذكرى الجولاني، فقد نجح رجاله في إسقاط ثلاث طائرات. هبط اثنان من الطيارين: قتل العرب أحدهما حال وصوله إلى الأرض؛ بينما اختبأ الثاني في محجر تابع لأحد وجهاء المنطقة، عثمان التكروري، الذي رفض تسليمه لرجال الجولاني الذين كانوا يريدون قتله. في النهاية، سلّم التكروري الطيارَ للجيش البريطاني "لضمان ألا يمسّ البريطانيون بالأسرى العرب".

حفّز النجاح في مهاجمة القوافل البريطانية الجولاني ورجاله على الانخراط في المعارك في القدس. بعد فترة قصيرة، في 15 تشرين الأول 1938، تحديداً، نفّذت مجموعات من الثوار عملية منسّقة سيطر الفلسطينيون من خلالها على القدس القديمة (باستثناء الحي اليهودي)، أغلقوا بوابات المدينة، أحرقوا محطة الشرطة المركزية في سجن القشلة المحاذي لباب الخليل ورفعوا الأعلام على البرج في باب العامود، قبالة مقر قيادة الجيش البريطاني.

جمعت مجريات النضال الفلسطيني ونشاطاته عبد الحليم الجولاني بعبد القادر الحسيني، مراراً وتكراراً. ظل الجولاني أحد أنصار عبد القادر الحسيني المقربين طوال السنوات كلها، منذ المعارك الأولى في حلحول والخضر وحتى المعركة الأخيرة، معركة القسطل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الجولاني الوحيد من رجال عبد القادر الذي ذُكر اسمه في سياق عمليات ضد إسرائيل في السنوات اللاحقة أيضاً. في صيف 1967، بعد أسابيع قليلة من حرب الأيام الستة، تسلل ياسر عرفات، أحد مؤسسي حركة "فتح"، من الأردن إلى الضفة الغربية. لم يكن اسمه معروفاً في تلك الأيام. كان ينوي إنشاء خلايا سرية وقام بتنظيم حركة مقاومة شعبية للاحتلال الإسرائيلي. وصل إلى جبل الخليل واختبأ هناك، في منزل الجولاني. بعد مغادرته، جنّد الجولاني مجموعة من الفتيان في الخليل، وزّع عليهم قنابل يدوية وأمرهم بإلقائها على جنود الجيش الإسرائيلي. بعد فترة من الزمن، نجحت المخابرات

الإسرائيلية في اقتفاء آثاره، لكنها لم تستطع إلقاء القبض عليه. نجح الجولاني، الذي كان قد بلغ الستين من العمر، في الانتقال من مخبأ إلى آخر إلى أن قرر رجال المخابرات الإسرائيلية إعداد صفقة ـ ربما كان ذلك استجابة لمبادرة من عائلته ـ تنتهي بتسليمه ثم طرده من البلاد.

في إطار عملي الصحافيّ، زرتُ الخليل مراراً وخلال فترات متقاربة. حاولتُ، في تلك الأيام، دراسة تفاصيل الصفقة التي جرى إعدادها، بمبادرة من عبد الحليم الجولاني نفسه كما يبدو. رئيس البلدية، الشيخ الجعبري كان يرفض التحدث مع الصحافيين حول صفقة الجولاني؛ ومثله صمتَ، أيضاً، زميلي على مقاعد الدراسة غدعون عزرا، الذي كان يركّز عمل المخابرات الإسرائيلية في الخليل. مرّت فترة قصيرة، وذات يوم، وصل الجولاني خفيةً، مصحوباً بوجهاء من أبناء عائلته، إلى مكتب الشيخ الجعبري، في الطابق الثاني من بناية البلدية. وكما يليق بالمراسم الرسميّة، انحنى الجولاني وسلّم الشيخ رشّاش كلاشنيكوف كان يحمله بيده. لم يتبادل الرجلان الحديث فيما بينهما، كما قيل لي. خرج الجولاني إلى السيارة التي كانت في انتظاره عند مدخل البناية فنقلته، بمرافقة أبناء العائلة أيضاً، إلى جسر اللنبي، ومن هناك إلى شرق الأردن.

أمضى الجولاني في عمّان ما يزيد عن عشرين سنة. كان ناشطاً في حركة "فتح"، وفقط في أعقاب اتفاقيات أوسلو وإقامة السلطة الفلسطينية في العام 1994 سمحت له الحكومة الإسرائيلية بالعودة إلى حضن عائلته في الخليل والقدس. رأيته مرة أو اثنتين يجلس بصحبة قدامى المدينة بجانب كشك الصحف الذي كان يمتلكه الحاج عمير دعنا (أبو سلام) مقابل باب العامود. لم نتبادل الحديث. توفي في القدس سنة 2002، وقد بلغ من العمر نحو مائة عام. نشرت الصحف الفلسطينية إعلانات نعي تعلن وفاة "المجاهد الكبير"، "الشَلَف".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان من المفاجئ اكتشاف كيف أن الكراهية، الغضب والخصومة من زمن الثورة الكبرى ما زالت تلعب دوراً فاعلاً في السياسة المحلية في الخليل ما بعد 1967، تحت قيادة الشيخ محمد علي الجعبري. كان الشيخ الجعبري، المولود في العام 1900، قد درس في القاهرة وشقّ طريقه في سنوات الثورة كمؤيد للحاج أمين ومعسكر آل الحسيني. ذُكر اسمه في تلك السنوات كعضو فعال في حزب آل الحسيني (الحزب العربي). ومع نشوب الحرب العالمية الثانية، بدّل رأيه: أصبح من معارضي آل الحسيني، على ضوء الفهم بأنّ البريطانيين على وشك تحقيق الانتصار في الحرب، على ما يبدو. انضمّ إلى الأمير عبد الله، الحاكم برعاية البريطانيين في شرق الأردن وأقام له،

مرتين خلال فترة الحرب، استقبالاً ملكياً في جبل الخليل. خلال سنوات الحرب العالمية الثانية، تعززت كثيراً مكانة الشيخ، ليس كرئيس لبلدية الخليل فحسب، وإنما كحاكم قادر على كل شيء في جميع قرى وبلدات الجبل الجنوبي، أيضاً. كان السكان يتوجهون إليه في أي مسألة وأي شأن. كان ولاؤه للحكم الهاشمي في الأردن مطلقاً، حتى أن الملك حسين عيّنه وزيراً، وهو لقب بقي محفوظاً له، حتى في منصبه كرئيس للبلدية أيضاً.

كان محمد الجعبري قصير القامة، لحيته مرتّبة بعناية، يرتدي ملابس رجل دين تقليدية وعمامة دائرية على رأسه. كان معظم الذين يتوجهون إليه ينحنون أمامه ويقبّلون يده الممدودة. كثيراً ما كانوا يتوجهون إليه بصيغة الغائب وبلقب "سماحة الشيخ" دائماً. كان يتحدث بطريقة هادئة، لكن حازمة.

كان يستجيب، بكل ترحاب، لأي طلب لإجراء مقابلة معه ويسمح بحضور صحافيين في اجتماعات أعيان ورؤساء العائلات الكبيرة، والتي اعتاد على تنظيمها وعقدها في قاعة البلدية كل بضعة أسابيع [...].

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استمرت الذكريات المريرة من العداوة العشائرية والسياسية منذ بداية عهد الانتداب البريطاني وبلغت أوجها أيام الثورة الكبرى (معركة بني نَعيم). استمرت باغتيال الملك عبد الله وبقيت تطارد المجتمع الفلسطيني لعشرات أخرى من السنوات، بما فيها خلال الحرب الأهلية في "أيلول الأسود" (1970). في الحقيقة، استمر هذا الخلاف حتى صيف 1988 عندما أعلن ملك الأردن، حسين، فك الارتباط مع الفلسطينيين في الضفة الغربية. تولّت الحركة الوطنية المتجددة، "م. ت. ف"، تمثيل الفلسطينيين، وبعد سنوات من الصراعات الدامية اعترفت بها إسرائيل في إطار اتفاقيات أوسلو فأخذت على عاتقها استلام زمام الأمور في السلطة الفلسطينية وإدارتها. انتهى النزاع الدموي الذي شقّ صفّ المجتمع الفلسطيني على مدى عشرات السنين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



4

من الشيخ علي حتى القدس

وضع العديد من الباحثين الفلسطينيين توثيقاً تفصيلياً لمئات القرى، المدن، البلدات ومضارب العشائر البدوية التي أُفرغت ودُمّرت في العام 1948. في حرب استقلال دولة إسرائيل؛ أي النكبة الفلسطينية، فقدَ نحو نصف سكان البلاد العرب الـ 1,3 مليون بيوتهم، ممتلكاتهم، كل عالمهم وأصبحوا لاجئين، من بينهم سكان قرية القسطل الصغيرة التي دارت فيها المعارك الحاسمة في بداية نيسان 1948، وإحداها المعركة التي قُتل فيها عبد القادر الحسيني.

أحد هؤلاء الباحثين هو مصطفى مراد الدباغ، ابن يافا، الذي شرع سنة 1948 في توثيق البلدات العربية في البلاد. وهو التوثيق الذي انتهى بـ 11 مجلداً من موسوعة بلادنا فلسطين، بدأ نشرها في بيروت في العام 1966. منذ ذلك الحين، صدرت طبعات مختلفة من هذا الدليل الذي هو، في الحقيقة وفي معظمه، ليس دليل الأماكن القائمة في البلاد، وإنما دليل الأماكن التي لم تعد قائمة ـ دليل الـ "لا مكان". ينهي الدليل توصيفه لقرية مدمَّرة، عادة، بالكلمات التالية: "دمّر الأعداء قرية ... وأجْلوا سكانها". أما في وصف قرية القسطل، فكلمات النهاية مختلفة: "وقد جرت في القرية معركة القسطل [...] رحم الله عبد القادر يوم ولد ويوم مات ويوم يُبعث حياً". وهكذا يصف الدباغ القرية:

كانت القسطل قرية صغيرة بلغت مساحتها 5 دونمات. ترتفع 808 أمتار عن سطح البحر، على بعد نحو عشرة كيلومترات إلى الغرب من القدس. قالونيا أقرب قرية إليها. كانت قلعة Castellum في العهد الروماني تقوم على بقعة القسطل اليوم، وفي عهد استيلاء الفرنجة على البلاد في العصر الوسيط أقيمت في موقعها قلعة صغيرة يرجح أنها هُدمت من قبل صلاح الدين الأيوبي، و"القسطل" كلمة افرنجية (Castle) تعني الحصن.

للقسطل أراض مساحتها 1,446 دونماً، منها 17 للطرق والوديان و7 دونمات من أملاك لليهود. بها 50 دونماً مغروسة بالزيتون. كان عدد سكان هذه القرية عام 1922 م 43 نسمة وفي عام 1931 م بلغوا 59 نسمة لهم 14 بيتاً. بين السكان مسيحيان ومسيحيتان.

كلمة Castellumاللاتينية التي يستخدمها الدباغ هي صيغة تصغير لكلمة Castra، والحصن حقاً، كحال القرية ذاتها، كان صغيراً.

بعد 1948، هُدمت القرية. لم يبق فيها سوى بناية كبيرة واحدة فقط تقع على قمة الجبل، هي بيت المختار. حوّلت السلطات الإسرائيلية قمة الجبل شديدة الانحدار إلى حديقة وطنية تجتذب أعداداً كبيرة من الزائرين، وخصوصاً من

طلاب المدارس الذين يدرسون تاريخ المعركة على القدس والطريق إليها. يرفرف على سطح بيت المختار علم إسرائيل، بصورة دائمة، ويُرى من مسافة بعيدة.

في الطريق الترابية التي تقطع الحديقة وتؤدي إلى قمة الجبل، يمكن حتى يومنا هذا رؤية الثكنات المحصَّنة والخنادق الدفاعية. بقي بعضها منذ 1948 وبُني بعضها الآخر بدلاً من تلك الأصلية، لتجسيد مدى أهمية الموقع والمعارك الضارية التي دارت هناك. حول بيت المختار، أسفل منحدرات الجبل، أشجار زيتون، تين وبلوط، بقايا من أيام غابرة. هنالك، أيضاً، أشجار صنوبر وقليل من أشجار الأرز التي زُرعت بعد الحرب، لراحة زوار الحديقة. ثمة، هنا وهناك، جُزر متناثرة من حواجز الصبّار وحجارة البناء القديمة تشهد على القرية العربية الصغيرة التي كانت في المكان. وينتصب بينها، أيضاً، عامود دائري قديم، ربما كان أحد المعالم التي دلّت على الطريق التي كانت تمر من الجبل في أزمان قديمة.

في العديد من الممرات في الحديقة، يافطات إرشادية تشرح سير المعارك التي دارت في المكان. وصف دقيق للغاية، يستند إلى شهادات المحاربين اليهود. ثمة نصب تذكاري لتخليد الذين سقطوا وثمة خرائط أيضاً، إحداها قالب من الحديد المصبوب، منقوشة عليه خارطة طوبوغرافية فيها قائمة القرى العربية التي دارت حولها المعارك في شتاء وربيع العام 1948: خُلدة (بجانب كيبوتس مشمار دافيد اليوم)، دير محيسن (بكوع، اليوم)، بيت جيز (قرب كيبوتس هرئيل)، دير أيوب (شاعر هجاي) وساريس (شورِش وشوئيفا اليوم) في الغرب، حتى أبو غوش، بيت نقوبا (بيت نكوفا)، صوبا (تصوبا)، بيت سوريك وقالونيا (مستدير موتسا) ـ القرى المحيطة بالقسطل.

انتبه فيصل الحسيني، نجل عبد القادر، الذي زار المكان من أجل إعداد برنامج تلفزيوني مشترك مع ميرون بنفنيستي، إلى أن الخارطة الطوبوغرافية لا تشمل اسم قرية غير بعيدة إلى الغرب، تبدو واضحة تماماً من القمة: دير ياسين ـ من المؤكد، تقريباً، أنها القرية الأشهر في قائمة جميع القرى العربية التي دُمّرت في المنطقة التي أصبحت، منذ ذلك الحين، دولة إسرائيل. كذلك في خارطة أخرى أيضاً، في الجهة الغربية من الحديقة، ترد أسماء القرى المحيطة ويبدو فيها بوضوح أن شخصاً ما قد حرص جيداً على الفَرْك بقوة ومحو ما كان مكتوباً على الإشارة إلى مدخل القدس من الجهة الغربية. مرة أخرى، إنه الاسم المشهور ـ دير ياسين. سبب المحو واضح: كما أسلفتُ في المقدمة، بعد ساعات قليلة من وفاة عبد القادر في القسطل، هاجمت وحدات من "إيتسل" و"ليحي"، لم تكن خاضعة لقيادة الييشوف

اليهودي المنظّم، قرية دير ياسين ونفّذت فيها مجزرة، قُتل فيها كثيرون من سكانها.

المنظر من قمة القسطل إلى جهات الريح الأربع هو منظر ساحر. في الغرب، وادي الخليل والبحر؛ في الجنوب، بيت جالا وأطراف بيت لحم؛ في الشمال، مشارف رام الله ومئذنة مسجد النبي صموئيل (قبر النبي شموئيل في الموروث اليهودي)؛ وفي الغرب، مشارف القدس.

أقيمت في الفترة الأولى من عمر دولة إسرائيل، في سنة 1951، "معبراه" (جمعها "معبروت" ـ مخيمات لاستيعاب اليهود المهاجرين إلى إسرائيل في خمسينيات القرن العشرين ـ المترجِم) على أراضي القرية، عند السفوح الشرقية والجنوبية لقمة القسطل. كان ذلك مخيماً مؤقتاً من التخشيبات وأبنية الصفائح المعدنية الصغيرة لإسكان مهاجرين يهود، كان معظمهم من كردستان وإيران. الاسم الجديد الذي أطلق على المكان هو "معوز تسيون" (حِصن صهيون ـ المترجم). أقيمت في العام 1956 على السلسلة الجبلية الشمالية، مقابل القسطل، على أراضي قرية قالونيا، بلدة جديدة لمهاجرين جدد من المغرب ـ "مفَسّيرِت يروشلايم" ("بَشيرة القدس"، من سفر إشعياء 9:40 ـ المترجِم). جرى في العام 1964 توحيد المكانين معاً في بلدة يهودية واحدة أطلق عليها اسم "مفَسّيرِت تسيون" ("بَشيرة صهيون"، من سفر إشعياء 9:40 ـ المترجم) التي أصبحت مدينة يسكن فيها نحو 30 ألف شخص. وهي، في الواقع، ضاحية ثريّة مزدهرة من ضواحي القدس، بل وتل أبيب و"غوش دان" إلى حدّ ما، المركز الاقتصادي والثقافي في دولة إسرائيل.

تحيط منازل مفسيرت تسيون بقمة القسطل من جميع الجهات. من الجنوب والغرب، تلامس المنازل سياج الحديقة الوطنية؛ من الشمال، يمكن بسهولة رؤية مركز تجاري كبير، مدرسة، ومؤسسات عامة أقيمت حولها. في الحيز الممتد حتى مشارف البلدات اليهودية والقرى العربية المجاورة، ثمة بيوت خاصة متناثرة تابعة لمفسيرت تسيون، غالبيتها من الفيلّات الفاخرة؛ ومن الشرق، يمكن من الجبل رؤية تعرجات الشارع الهابط من القدس نحو "موتسا" وبقايا ما كان ذات مرة بيوت قرية قالونيا. في نهاية النزول من القدس، يمر الشارع عبر جسر كبير بُني فوق أحد جداول وادي الصَّرار (ناحَل سوريك) ـ جسر موتسا بالعبرية، أو جسر قالونيا بالعربية. بالقرب من الجسر، بناية قديمة فيها مصنع للقرميد الأحمر، ومنها تؤدي طريق رومانية إلى ما أصبح لاحقاً حيّ "هار نوف" المقدسي، وهو حي يهودي مقام على أراضي قرية دير ياسين وأنقاضها.

إلى الغرب من الجبل، بعد الخروج من نفق هَرئيل، يهبط الشارع نحو قرية أبو غوش العربية الكبيرة والبلدة اليهودية الملاصقة لها، بيت نقوفا، التي

أقيمت على أراضي قرية بيت نقوبا العربية. من الجهة الجنوبية للشارع، الحديقة الوطنية "عين حيمِد" التي تحدّها قريتان عربيتان إسرائيليتان، جديدتان نسبياً، هما عين نقوبا وعين رافا. وتظهر فوقهما، بشكل بارز، قمة قلعة صليبية عتيقة فيها آثار من قرية صوبا العربية. وعند السفح، كيبوتس تصوبا (اسمه الكامل: بلماح تصوبا).

إلى الشمال من قرية أبو غوش كيبوتسان هما "كريات عَنَفيم" و"معاليه هحميشا" وفوقهما بلدة "هار أدار" التي أقيمت في الموقع الذي كانت فيه، أيام الانتداب البريطاني، محطة إرسال مهمّة كانت تُعرف باسم "الرادار".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تم خلال السنوات، ترميم شارع القدس ـ تل أبيب السريع وتطويره بضع مرات. في عهد الانتداب البريطاني، حتى العام 1943، كان شارعاً ضيقاً يصبح متعرجاً عند باب الواد (شاعَر هَجاي). كانت على جانبه استراحة للمسافرين وسائقي العربات الصاعدين من الساحل إلى القدس. كان سليم الحسيني، والد جدّ عبد القادر، الذي كان رئيساً لبلدية القدس في أواخر القرن التاسع عشر، شريكاً في إدارة الاستراحة، سوية مع إسحق روكَح، من يافا. استمرت هذه الشراكة منذ العام 1877 ولأكثر من عشرين سنة، حتى بدأ عمل خط القطار من يافا إلى القدس. في طريق الطلوع إلى جبل القسطل من الجهة الغربية، بمحاذاة قرية أبو غوش، تم تعبيد الشارع القديم والمتعرج إلى الجنوب من مساره الحالي. قرب قمة الجبل، يتجه الشارع القديم جنوباً، مرة أخرى، في التواءات حادة وشديدة الانحدار ـ "الشقيقات السبع" هو الاسم الذي أطلقه البريطانيون على هذه الالتواءات التي لا تزال تُستخدَم، منذ ذلك الوقت حتى اليوم، شارعاً داخلياً مؤدياً إلى بلدة "موتسا عيليت" ولا تزال تثير خوفاً شديداً لدى السائقين والركاب، حتى يومنا هذا. جرى في وقت لاحق ترميم الشارع وتطويره، بما في ذلك توسيعه بدرجة كبيرة ليشمل مسارات جديدة إضافية، أنفاقاً وجسوراً على طول الطريق من مشارف قرية لفتا العربية (مي نِفتوح، اسمها العبري الرسمي) وحتى شاعَر هَجاي (باب الواد). تغيرت معالم المنطقة التي دارت فيها المعارك إبان حرب التحرير بصورة كلّية.

من منزل المختار على قمة الجبل، بالإمكان تبيُّن مدى أهمية السيطرة العسكرية على المكان. كان الشارع الرئيسي الذي كان يمرّ عند سفوح الجبل حتى العام 1948، ثم لأكثر من نصف القرن التالي (حتى تدشين نفق هَرئيل)، يشكل الطريق الرئيسية التي تربط القدس بالتجمعات السكانية اليهودية ويمكن السيطرة عليه، بصورة مطلقة، من قمة القسطل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تمرّ الطريق من باب الواد عبر جدول من وادي الشيخ علي، الذي يحمل اسم بناية صغيرة فيها ضريح وليّ صالح من المسلمين بقيت صامدة لردح من الزمن، على الرغم من أنه من غير الممكن الانتباه إليها وتبيّنها وقت السفر بسرعة مرتفعة. كنت قد أعددتُ تقريراً عن قبور الأولياء في البلاد، والتي تعرض الكثير منها إلى التخريب والتدمير فتلاشت واختفت خلال النهضة العمرانية. أحد القبور التي بقيت صامدة هو قبر الشيخ زيتون الذي بالإمكان تمييزه على سلسلة جبلية شماليّ الشارع الهابط من رام الله إلى موديعين. طلبتُ من أحد معارفي، ابن عائلة فلاحين من بلدة بيتونيا القريبة من القبر، أن يأخذني إليه كي أستطيع التمعن بأحد هذه القبور القليلة التي بقيت قائمة في البلاد. ردّ باستغراب: "لماذا تحسَب أن ما بقي منها قليل فقط؟". هو يعتقد بأن جميع قبور الأولياء، تقريباً، بقيت قائمة في أماكنها. وعندئذ أخبرني بأن والده كان يعمل، قبل سنوات، في شق الشارع الرئيسي من تل أبيب إلى القدس وأن المهندس أصدر تعليمات لسائق جرافة ضخمة بأن يهدم البناية الصغيرة التي كانت تضم ضريح الشيخ علي. اقتربت الجرافة من القبر، لكنها توقفت فجأة جراء كسر حصل في الحاوية الكبيرة. بعد ذلك، حاولت جرافة أخرى، لكن ما أن اقتربت من القبر حتى توقف محرّكها عن العمل. أصيب العمال بالذهول ورفضوا مواصلة العمل في هدم الضريح. غضب المهندس وصعد بنفسه على الجرافة. وعندئذ ـ "لن تصدّق، لكنه أصيب بنوبة قلبية". "هل تصدّق هذه القصة؟"، سألته. "ليست مسألة إيمان وتصديق، إنها حقائق"، ردّ ابن الفلاحين. بروفسور يورام بيلو، الأستاذ في جامعة القدس (الجامعة العبرية في القدس ـ المترجِم) والمختص بثقافة قصص الأولياء والقديسين، جمع سلسلة من القصص المشابهة التي ترد فيها، كلها، طرق مختلفة يقوم الوليّ من خلالها بحماية ضريحه والحيلولة دون المس به.

بحثتُ عن قصة الشيخ علي فوجدتُها. كان يعيش في الرملة في الأيام الخوالي. ذات مرة، وهو يمشي في السوق، رأى طفلة صغيرة تقف جانباً وتبكي. سألها عن سبب بكائها فقالت إن أمّها أرسلتها لشراء الحليب وها هو الحليب قد سقط وانسكب على الأرض. أشارت الطفلة الباكية بحرقة إلى المكان الذي انسكب فيه الحليب. انحنى الشيخ علي، جمع الرمل الرطب، عصَر منه حليباً نقياً وأعاده إلى دلو الطفلة. حين توفي الشيخ علي، دفنوه في الرملة. لكن في صباح اليوم التالي رأوا جثمانه خارج القبر. دفنوه مرة أخرى. وفي اليوم التالي، كان الجثمان خارج القبر، مرة أخرى. أيقن الجميع: تراب أرض الرملة يرفض احتضانه، لأنه أوجعها حينما عَصَر التراب وأخرج الحليب منه. أخذوه للدفن في الأقصى في القدس. في تعرجات الطريق إليها، انقلبت العربة وسقط جثمان الشيخ. أدرك المرافقون أن هذا هو المكان المعدّ لراحته الأبدية فأطلقوا اسمه على الوادي، وادي علي، وهو الاسم المستخدَم

في جميع الأدبيات الفلسطينية منذ ذلك الوقت. لدى توسيع الشارع الموصل إلى القدس، بين 2014 و2016، لم ينجح الشيخ الوليّ علي في حماية ضريحه، فتمّ هدمه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في حديقة القسطل الوطنية، كما في عشرات أخرى من الحدائق ومواقع تخليد الذكرى في إسرائيل، تُروى قصة حرب التحرير وإرثها. الكثير من هذه الحدائق والمواقع مقام على أراضي قرى عربية مدمَّرة. شهد بعضها تنفيذ مشاريع لحفظ المواقع الأثرية، التي هي، في غالبيتها، يهودية من عهد الهيكل الثاني، إضافة إلى مواقع مسيحية، بيزنطية وصليبية. القليل منها مواقع إسلامية من فترة صدر الإسلام ومن الحقبتين المملوكية والعثمانية. كلها، تقريباً، لا تذكر ما حلّ بالعرب الذين زاد عددهم عن 700 ألف كانوا يعيشون في القرى والبلدات التي دُمّرت في حرب استقلال إسرائيل. من هم؟ إلى أين هربوا؟ ما الذي حلّ بهم خلال عشرات السنين التي مرت منذ ذاك اليوم؟ ما الذي يعرفونه ويتذكرونه هم وأحفادهم عن أحداث الحرب والفقدان في 1948؟ تورد الباحثة الإسرائيلية نوجا كَدْمان، التي أجرت بحثاً شاملاً حول ما حدث في المناطق التي كانت فيها القرى العربية التي تدمرت في 1948، في كتابها على جنبات الطريق وفي هوامش الوعي معلومات تفصيلية واسعة عن أبنية القرى ومصيرها تحت الحكم الإسرائيلي، لكن كتابها هذا أيضاً لا يتطرق إلى ما حلّ بالسكان بعد ضياع القرى.

ماذا حصل للعرب من القسطل والقرى المحيطة بها منذ 1948؟ الغالبية الساحقة من أهالي قرية أبو غوش المجاورة بقيت فيها خلال الحرب ولم تشارك في المعارك. في حزيران 1948، أصدر إسحق رابين، الذي أشغل آنذاك منصب قائد المنطقة العسكرية برتبة عقيد، أمراً بإخلاء قرية أبو غوش والقرية الجارة بيت نقوبا من سكانهما العرب. كانت لهاتين القريتين علاقات صداقة مع البلدات اليهودية المجاورة ولم تُعتبرا مصدر خطر. بعد مفاوضات، بقي سكان أبو غوش في بيوتهم، بينما غادر العديد من سكان بيت نقوبا ووجد بعضهم ملاذاً لدى جيرانهم في أبو غوش.

لم تكن أبو غوش القرية العربية الوحيدة التي بقي معظم سكانها فيها عقب الحرب. ثمة عشرات البلدات العربية الأخرى التي بقيت على حالها ضمن مناطق دولة إسرائيل في 1948، من ضمنها مدينتان، هما الناصرة وشفاعمرو. كان ذلك بسبب الظروف المحلية ومنحى سير المعارك. أحياناً، كانت الصدفة هي السبب، مثل تدخل مسؤول إسرائيلي رفيع أو جيران متعاطفين من البلدات اليهودية. وفي أحيان أخرى، كانت تلك نزوة قائد ميداني اتخذ قراراً تعسفياً. بقيت تجمعات عربية صغيرة أيضاً في المدن

العربية حيفا، يافا، اللد والرملة، كما بقيت مجموعة العشائر البدوية في النقب. وفي العام 1949، في أعقاب اتفاق وقف إطلاق النار بين الحكومة الإسرائيلية والمملكة الهاشمية الأردنية بقيادة الملك عبد الله، انتقل إلى السيطرة الإسرائيلية عدد من القرى العربية في شمال السامرة (القسم الشمالي من الضفة الغربية ـ المترجم). بعد عشرات السنين على إنشاء دولة إسرائيل، أصبح العرب الفلسطينيون يشكلون نحو 20 بالمائة من مواطني الدولة، يتمتعون، بصورة رسمية على الأقل، بمساواة تامة في الحقوق في إطار دولة يهودية ديمقراطية.

في الرواق الجبلي على الطريق صعوداً من منطقة وادي الخليل إلى القدس، كانت أبو غوش القرية الوحيدة التي بقيت مكانها. إنها ظاهرة فريدة: في جميع المؤلفات الفلسطينية عن المعارك التي دارت خلال أشهر الخريف والربيع من عام 1948، لم يرد ذكر اسم قرية أبو غوش، إطلاقاً تقريباً. كتّاب المذكّرات، وهم من المقاتلين العرب الذين حاربوا في الشارع الطالع من باب الواد إلى مشارف القدس، كأنما يتجاهلون سكان القريتين، أبو غوش وبيت نقوبا، الذين تمكنوا من البقاء في بيوتهم بفضل سلوكهم إبان المعارك ولقاءَه. بعد عقود من إنشاء دولة إسرائيل، تبدو قرية أبو غوش، من الخارج على الأقل، مثل ضاحية حضرية ثرية. يمكن من السيارة المسافرة على الشارع السريع بين القدس وتل أبيب، رؤية بيوت كبيرة وفخمة، حدائق فيها أشجار حمضيات وشوارع داخلية مرتّبة. يعتاش كثيرون من أهل القرية من المطاعم والمحال التجارية التي تمتلئ تماماً بالزوار من اليهود وغيرهم في نهايات الأسابيع. مع بداية القرن الـ 21، بلغ تعداد سكان أبو غوش نحو 6,000 نسمة.

كان مصير سكان قرية بيت نقوبا المجاورة، الذين اضطروا إلى إخلاء بيوتهم في 1948، مختلفاً. فقد دخل إلى بيوتهم الخالية يهود هاجروا إلى إسرائيل وغيّروا اسم القرية فجعلوه بيت نقوفا. سكان بيت نقوبا، الذين تفاوضوا مع السلطات الإسرائيلية على مدى سنوات، وافقوا في نهاية المطاف على التنازل عن بيوتهم وعن الجزء الأكبر من أراضيهم مقابل الحصول على أراضٍ وبيوت إلى الجنوب من الشارع السريع، قرب الحديقة الوطنية المقامة على تلة عين حيمِد. كان جزء من الأراضي التي "حصل عليها" أهالي بيت نقوبا من أملاكهم هم أصلاً، بينما كان جزء آخر، أكبر، من أملاك أهالي قرية صوبا التي كانت تقع فوق قريتهم، على قمة الجبل. هجر أهالي صوبا قريتهم في 1948 وأصبحت جميع ممتلكاتهم، بموجب القانون الإسرائيلي، "أملاك غائبين"، أي ـ مُلكاً للحكومة الإسرائيلية، فعلياً.

بقي قبول أهالي قرية بيت نقوبا بالحصول من الحكومة الإسرائيلية على أراضي جيرانهم العرب، أبناء شعبهم، من قرية صوبا، الذين فرّوا شرقاً، جرحاً مفتوحاً في تاريخ الفلسطينيين في إسرائيل. قرر السكان العرب في القرية الجديدة التي أقيمت بيوتها على أراضي بيت نقوبا، بمساعدة الحكومة الإسرائيلية، إطلاق اسم عين نقوبا على قريتهم هذه، لتمييزها عن القرية الأصلية بيت نقوبا. واستناداً إلى إحصائيات إسرائيلية لاحقة، ازداد عدد سكان عين نقوبا إلى 2,000 نسمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قصة فريدة أخرى من قصص النكبة هي قصة قرية صوبا، الواقعة إلى الجنوب الغربي من القسطل. استعان مقاتلو الجهاد المقدس بقيادة عبد القادر الحسيني، الذين صعدوا نحو القسطل في مطلع نيسان 1948، بسكان قرية صوبا. صعد هؤلاء من جنوبيّ القدس، في طريق ترابية جانبية من قرية عين كارم الكبيرة، مروراً بقرية صطاف الصغيرة وصولاً إلى قرية صوبا ومحجر مجاور كان يعمل بآليات جديدة أحضرها إلى المكان أبناء عائلة اليشار اليهودية. في ذاك المحجر كان مقر القيادة التابع لعبد القادر في ليلة المعركة، بينما اتخذ أحد قادته المخضرمين، عبد الحليم الجولاني، مقرّه في قرية صوبا المجاورة.

تم بعد معركة القسطل بثلاثة أشهر، في ليلة 12 تموز، وقد أصبح في إسرائيل جيش منظم، احتلال قرية صوبا. أصبح سكانها لاجئين وتشردوا، فيما ظلت عائلة صغيرة من حمولة بَرهوم في المكان: كانت تمتلك أراضي وبيتين صغيرين في الوادي الهابط نحو أبو غوش، قرب عين ماء صغيرة، اسمها عين رافَه، وكان عددهم نحو 20 نفراً. ازداد هذا العدد تدريجياً وانضم إليهم، بعد 1967، كثيرون من أهالي صوبا الذين كانوا يعيشون، حتى ذلك الحين، في القدس الشرقية ومحيطها. وربما يكون من المبالغة، إلى حد ما، اعتبار أن قرية صوبا العربية قد حققت حق العودة، إلا أنّ كثيرين من لاجئي القرية قد عادوا إلى العيش فيها حقاً وفعلاً ـ إن لم يكن في القرية نفسها تماماً، فبالقرب منها، على أراضيها. ما زالوا يطلقون على القرية الجديدة ـ العتيقة اسم عين رافه. ازداد عدد سكان صوبا في عين رافه على مرّ السنين وتجاوز ألف شخص. طلب معظم لاجئي صوبا العائدين لمّ شمل عائلاتهم واستجيبت طلباتهم حقاً، بينما نقل آخرون، يحملون هويات مقدسية تمنحهم حق الإقامة الدائمة في إسرائيل، مكان سكناهم إلى القرية الجديدة. هكذا، إذن، توزع أهالي قرية صوبا: انتقل بعضهم إلى شرق الأردن، فاز آخرون بالعودة إلى أراضي قريتهم، بينما بقيت عائلات معدودة متناثرة في ضواحي القدس.

وضع محمد سعيد رمان، ابن القرية، دراسة بعنوان صوبا، قرية مقدسية في الذاكرة ضمّنها معلومات وفيرة عن حياة القرية، عن أحداث معارك القسطل وعن ليلة وفاة عبد القادر الحسيني. وهو يكتب بغضب عن أهالي بيت نقوبا الذين توطنوا على أراضي صوبا: "وطّنهم اليهود هناك وأطلقوا على القرية اسماً جديداً، عين نقوبا، ليمحوا عن وجه الأرض اسم بيت نقوبا، ففقدت القرية العربية اسمها وهويتها من مئات السنين". يندد هذا النص، عملياً، بسكان بيت نقوبا على تعاونهم مع الحكومة الإسرائيلية في ما يعتبره تنكراً لنكبة قريتهم. بالنظر من الشارع السريع جنوباً، ليس في الإمكان التمييز بين عين نقوبا وعين رافه وملاحظة حقيقة أنهما قريتان منفصلتان، لأن بيوتهما متلاصقة تماماً، لكنّهما في الواقع مجتمعان منفصلان، بل يقاطع أحدهما الآخر حتى. أحد الأدلة على هذا هو وجود مسجدين مستقلين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

توزّع سكان قرية القسطل بين القرى المجاورة بعدما احتلّت وحدات الهاغناه قريتهم. انتقل القسم الأكبر منهم إلى قرية بيت سوريك، إلى الشمال من قريتهم (ضمن حدود الضفة الغربية، على حدود مفسيرت تسيون) ثم واصلوا من هناك إلى القدس الشرقية. يقول نبيل عَدوان، مدير مدرسة ثانوية في العيزرية، إن عدد سكان القرية كان 150 نفراً حين هجروا بيوتهم. إضافة إلى عائلته، حمولة عَدوان، كانت في القرية حمولتان أخريان: مْطَيِّر ومَطَر. تدخلت منظمات إغاثة مختلفة، ثم وكالة غوث وتشغيل اللاجئين التابعة للأمم المتحدة، وساعدتهم في إيجاد مساكن لهم في بلدة العيزرية. بالقرب منهم، تم إسكان لاجئين آخرين من صوبا وكذلك بعض العائلات من قالونيا ومن قرية دير آبان، البعيدة في الجنوب.

خلافاً لأهالي صوبا، الذين انتقلوا في غالبيتهم إلى شرق الأردن أو عادوا إلى عين رافه، وأهالي قالونيا، الذين تفرقوا في كل الاتجاهات، بقي لاجئو القسطل مجمّعين في حي صغير في العيزرية. يبلغ عددهم فيها اليوم نحو 600 شخص. هذا الحي، في الواقع، هو شارع صغير يتفرع عن الشارع الرئيسي في العيزرية. فيه حوانيت وورش وتتفرع عنه أزقة وساحات لبيوت عائلات من لاجئي القسطل. ليس من الصعب الوصول إليهم: "هل تبحث عن الكَسْتِلْفِيا؟"، سألني سائق سيارة الأجرة في إحدى الزوايا عند مدخل بلدة العيزرية ثم أرشدني إلى الشارع الصغير ومنزل المختار.

وُلد نبيل عَدوان بعد مغادرة القسطل بعشرين عاماً، لكنه يعرف جيداً تاريخ قريته ما قبل ولادته. يصف، بدقة، انحناءات الشارع القديم الذي كان يمرّ عند أطراف القرية تحت قمة الجبل. كان هناك مقهى يملكه أحد سكان القرية المسيحيين، أبو جورج، الذي كان يعرفه الجميع وبجانبه مناضد وضعها

فلاحون، غالبيتهم من قالونيا، لبيع الخضروات والفواكه. كان المسافرون والسائقون، قبل أو بعد السَّفرة التي تثير الخوف عند انحناءات الشقيقات السبع الحادة، يتوقفون لأخذ قسط من الراحة عند أبي جورج ولشراء الخضروات والفواكه الطازجة من الفلاحين. كما يجيد عدوان، أيضاً، وصف الموقع الذي أطلق فيه الرصاص على عبد القادر الحسيني وحيث سقط "بجانب سياج منزل أحمد سعيد مطَيِّر في الزاوية الجنوبية الشرقية من القرية". ويقول: "نحن هنا في العيزرية نعيش في ظروف بالغة القسوة. أنا أتلقى راتباً زهيداً من وزارة التعليم في السلطة الفلسطينية، حتى أنني لا أستلم هذا الراتب بصورة دائمة ومنتظمة. في فترة معينة، كنت أعمل في داخل إسرائيل، قريباً من القسطل، لكنني ممنوع من الدخول اليوم، لا يُصدرون تصاريح".

كيف حصل أن بقي سكان أبو غوش في بيوتهم وقريتهم الآن مزدهرة، بينما فقد سكان القسطل كل شيء؟ على هذا السؤال، يجيب عدوان بإحباط جليّ: "ذنْبُنا أن قريتنا كانت على رأس جبل وشكلت موقعاً عسكرياً استراتيجياً. لولا ذلك، لكان بإمكاني العيش اليوم في بيت كبير وبحبوحة، كما يعيشون في أبو غوش". يبدو الانفعال عليه لبرهة فينادي أحد أبنائه المتواجدين في البيت ويسأله: من أين أنت؟ فيجيب الولد: من القسطل. نبيل عدوان: "ها هو الولد، لم أقل له أي كلمة ولم يقل إنه من العيزرية، بل من القسطل. أنا وُلدت هنا وعائلتي هنا منذ 1948؛ أي منذ عشرات السنين، أنا مدير مدرسة والجميع في العيزرية يعاملونني باحترام، لكن عندما أدير ظهري للحظة، يقولون: من هو أصلاً؟ إنه غريب هنا، فهو ليس من هنا [...] أنا مع العودة، يجب أن نعود، يجب أن نعود". ينكسر صوته فجأة وتترقرق الدموع في عينيه: "أنظر ماذا حصل، لم يبق أحد من القسطل هناك، أي أحد".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لكن الحقيقة أن واحداً من سكان القسطل، على الأقل، يعيش مع عائلته في إسرائيل. كان اسمه معروفاً في جميع قرى المنطقة، بل عرفه يهود كثيرون أيضاً: كان اسمه الأصلي أحمد مطَر وكان كثيرون يلقبونه بـ "الزوط" (البلطجي) ـ لقب تحقيريّ أصبح مع الزمن اسمه الثاني. اعتنق اليهودية في وقت لاحق وبدّل اسمه ليصبح شلومو عمير. كان والد أحمد، عبد الله مَطَر، رجلاً ضخماً وقوياً: "فتوّة البلد"، كما يلقبه لاجئو القسطل، الذين يروون كيف ربّى ابنه على عدم الاستقامة. راجت شائعات وقصص نميمة ربطت أحمد الزوط بمقتل عبد القادر الحسيني. من المعروف أن عائلته، في القسطل، كانت على علاقة مع استخبارات الهاغناه استمرت سنوات عديدة، منذ أيام الانتداب البريطاني. غادر أحمد نفسه القسطل في العام 1948 واستقر لاحقاً

في العيزرية، سوية مع أبناء القرية الآخرين. تزوج من إحدى فتيات العائلة وأنجبا ثلاث بنات.

يذكره أحد معارفه من تلك الأيام، إلياهو (إيلي) مزراحي، رجلاً طويل القامة ذا طلعة لافتة وعينين مائلتين قليلاً. منذ كان فتى، عمل أحمد لدى عائلات يهودية في بلدة موتسا. يروي مزراحي، المولود في موتسا سنة 1932، أن أحمد، الذي يكبره ببضع سنوات، كان يعمل أيضاً في المزرعة التابعة لعائلته، في ما كان يسمى "بيوت البغداديين" في منحدرات موتسا، وكعتّال لدى بنيامين إيدلمان الذي كان صاحب حق امتياز لتشغيل خط للباصات بين القدس وموتسا. كبر أحمد وترعرع في القسطل، لكن أمّه كانت من قالونيا. سكن اثنان من إخوته في بيوت قالونيا الملاصقة لموتسا. وقد روى سكان موتسا، منذ أواخر العام 1948، أن أحمد شوهد يتجول في المنطقة ويتجاوز الحدود حول المنطقة التي نشأ فيها. يبدو أنه أصبح عميلاً للاستخبارات الإسرائيلية منذ تلك الأيام.

درج أحمد مطر في الخمسينيات على الجلوس في مقهى صغير في القدس الشرقية تملكه عائلة خاروف، وهي عائلة صغيرة قدِمت إلى القدس من منطقة نابلس. كان المقهى، الذي كان أشبه بحانوت صغير أيضاً، ملاصقاً لمسجد سعد وسعيد، في الجانب الشرقي من بوابة مندلباوم، التي كانت المعبر الرسمي الوحيد بين إسرائيل والضفة الغربية الخاضعة لسيطرة المملكة الأردنية. يروي معارف أحمد من تلك الأيام إنه كان متسكعاً، متهوراً، حاد الطباع سريع الغضب، أحبّ لعب الورق ويبدو أنه كان يعمل في التهريب بين إسرائيل والأردن. الزوجة الثانية التي تزوج منها، مريم، كانت ابنة صاحب المقهى الصغير.

تم في موعد ما بعد حرب 1948 تجنيد أحمد لمهمات استخبارية لصالح المخابرات الإسرائيلية في دول عربية (في اليمن، حسب ما يقول نبيل عدوان). إسحق نافون، الرئيس الخامس لدولة إسرائيل، الذي كان في تلك الفترة مسؤول استخبارات في القدس، روى إنه زار عدَن بعد 1948، في الفترة التي كانت فيها عدن مستعمرة بريطانية وعبرَها جاء يهود اليمن إلى إسرائيل. من المحتمل، إذن، أن يكون أحمد ضالعاً في هذه العملية أيضاً. لدى عودته إلى البلاد، كان واضحاً أنه لن يستطيع العودة إلى عائلته أو إلى لاجئي القسطل في العيزرية التي كانت تحت الحكم الأردني، فكان في حاجة إلى التأهيل في إسرائيل. حصل لقاء خدماته تلك، على شاحنة وبيت في الحي الألماني في القدس. لم تسر أعمال النقليات بالشاحنة بصورة مُرضية وتمكن في وقت لاحق من الحصول على حق امتياز من دولة إسرائيل لتشغيل محطة للوقود عند مدخل نفيه إيلان، ليس بعيداً عن القسطل. تعرف عليه

كثيرون من الإسرائيليين والفلسطينيين لدى زيارتهم محطة الوقود التابعة له، التي اشتهرت بفضل كثرة تماثيل إلفيس بريسلي، صوره ورسوماته التي كانت تملأ المكان. بعد اعتناقه اليهودية سوية مع أفراد عائلته التي تعلّم أبناؤها اليهود في المدارس الإسرائيلية، اتخذ لنفسه اسماً جديداً هو شلومو عمير.

على هذه الخلفية، وحين تشكلت في الضفة الغربية والقدس الشرقية، في آذار 1968، خلايا سرية تابعة لحركة "فتح"، لتنفيذ عمليات عسكرية في إسرائيل، أخذت إحدى الخلايا على عاتقها مهمة اغتيال شلومو عمير وإحراق محطة الوقود التي يملكها. لماذا قتله؟ "لأنه خائن من قرية أبو غوش أطلق النار على عبد القادر من الخلف وقتله في معركة القسطل، بعدما نجح عبد القادر في استعادة القسطل من أيدي اليهود وطردهم من هناك"ـ كما أوضح قائد الخلية، المهندس كمال النمري، الناشط في معارضة النظام الأردني، لنائبه وليام نصار (نصار قطع نهر الأردن سراً في إحدى ليالي كانون الأول 1967 من أجل تنظيم خلايا "فتح" في منطقة القدس). هذا التوصيف مشوش بعض الشيء، لأن شلومو عمير (أحمد مطر) ليس من أبو غوش، بل من القسطل، ومن المؤكد أنه لم يطلق النار على عبد القادر من الخلف "بعد أن أعاد القسطل إلى أيدي العرب".

يظهر هذا الوصف لهذه الحادثة الغريبة، بصورة موسعة، في كتاب المذكرات الذي ألّفه وليام نصار. وهذا دليل إضافي آخر على أنه بعد مضيّ عشرات السنين، لا يزال سائداً بين الجمهور الفلسطيني الاعتقاد بأن عبد القادر الحسيني لم يُقتَل جراء نيران أطلقها عليه يهودي، وإنما عربي خائن.

ولد وليام نصار في القدس سنة 1946 لأم يهودية من أصل لبناني وأب عربي مسيحي. كان والده مدرّساً في مدرسة "فريندز" المرموقة التابعة لمنظمة "كويكرز" في رام الله وعمل سنوات عديدة عالِم آثار في متحف روكفيلر في القدس. منذ سن مبكرة، كان نصار عضواً في منظمات سرية، وطنية عربية فلسطينية، وفي العام 1965 كان بين طلائع وقادة المتجندين لقوات "العاصفة" التابعة لحركة "فتح" في سورية والأردن. وفي أعقاب سلسلة من التدريبات، انتدبه عرفات لتأسيس خلايا حرب العصابات في الضفة الغربية، وخصوصاً في منطقة القدس، فجاء للقاء المهندس كمال النمري. كان يتعين على الرجلين جمع معلومات استخبارية عن شلومو عمير وعن محطة الوقود التي يملكها. اقترح نصار على النمري تقديمه في الجولات الاستخبارية بأنه ابن عمّه القادم إلى البلاد في زيارة. قال النمري إن الأمر سيكون صعباً لأن عائلته، حمولة النمري، معروفة جيداً في المدينة ولن يفهم أحد لغز ابن العمّ الجديد الذي ظهر الآن فجأة. إذن، قال نصار، قدِّمني بأنني ابن خالك. "هذا

غير ممكن بالتأكيد، لأن أمي يهودية"، قال النمري. انفجر كلاهما بالضحك: شابان فلسطينيان والدتاهما يهوديتان (وبالتالي، فهما يهوديان، حسب الشريعة اليهودية) يخططان لقتل عربي أصبح يهودياً.

كانت والدة كمال النمري يهودية تدعى ييطي كلاينر. تزوجت من عربي في العام 1938 وتنقلا بين القدس، الكويت ومصر. في العام 1965، عاد كمال النمري إلى القدس الشرقية، وبعد حرب العام 1967 أجرى اتصالات مع عائلة والدته، عائلة كدرون، في القدس الغربية. من دون أن يعلم أبناء عائلة كدرون، استغل كمال النمري هذه العلاقات لجمع معلومات استخبارية من أجل عملية اغتيال شلومو عمير، بل خطط للذهاب، بعد تنفيذ العملية، لزيارة ابنة خاله التي تقطن في كيبوتس في منطقة المركز.

جمعت الخلية أسلحة، أقامت معسكرات في رام الله وقرية رامون، شرقي المدينة. زرع رجالها الألغام الصغيرة في المنطقة التي شُرع فيها آنذاك في بناء حي رمات أشكول. في ليلة يوم الجمعة، الأول من آذار 1968، انطلقت الخلية لتنفيذ عملية أبو غوش. كان أعضاؤها يرتدون زياً عسكرياً، مزودين بالأسلحة وفي أمتعتهم مواد متفجرة. نصبوا كميناً منتظرين قدوم شلومو عمير إلى محطة الوقود. حسب المعلومات التي كانت في حوزتهم، كان شلومو عمير معتاداً على القدوم إلى محطة الوقود في ساعة متأخرة من مساء كل يوم جمعة. لكنه لم يأت في تلك الليلة. قاموا بعملية استطلاع من حرش صغير مقابل للمحطة، لكنّ مصباحاً أضاء المكان فجأة: وقف مقابلهم حارس متقدم في السن كان يحرس موقفاً رُكنت فيه آليات ومعدات ثقيلة كانت تعمل في شق شارع التفافي لقرية أبو غوش. كان الحارس درزياً. كبّلوه وربطوه بإحدى الجرافات، عطّلوا المعدّات، أخذوا سلاحه وانصرفوا. اختنق الحارس ومات (يقول نصار في كتابه إن الحارس مات جراء نوبة قلبية، لأنه أصيب بذعر شديد).

بعد أيام قليلة، تم إلقاء القبض على أعضاء الخلية، نتيجة وشاية، وحكم عليهم بالسجن لفترات طويلة قبل أن ينجحوا في تنفيذ عمليات أخرى كانوا قد خططوا لها، من بينها إطلاق صواريخ على الكنيست وفندق الأمبسادور، الذي كان فيه مقر القيادة العسكرية المركزية للحكم العسكري الإسرائيلي. أفرج عن وليام نصار في شباط 1980 بعد أن قضى في السجن في إسرائيل 12 سنة. أفرج عنه وأُبعِد إلى قبرص في إطار اتفاقية لتبادل الأسرى مع حركة "فتح". أعادت "فتح" إلى إسرائيل جاسوسة إسرائيلية تدعى أمينة المفتي قامت ـ حسبما ورد في كتاب نصار ـ بجمع المعلومات الأساسية التي أتاحت اغتيال مسؤولي "فتح" الثلاثة الكبار في بيروت، كمال عدوان، كمال ناصر ويوسف النجار، خلال اقتحام الجيش الإسرائيلي لمعسكرات "فتح" في لبنان،

ضمن العملية العسكرية التي أطلق عليها اسم "ربيع الشباب" في العام 1972. في أعقاب ذلك، أشغل وليام نصار مناصب مختلفة في م. ت. ف. ثم عاد إلى رام الله إثر اتفاقية أوسلو.

يبقى السؤال مطروحاً: ما علاقة أحمد مطر، الزوط، شلومو عمير، بمعركة القسطل؟ هل كان على الجبل في ليلة المعركة إياها، فجر يوم الثامن من نيسان 1948، الليلة التي قُتل فيها عبد القادر؟ أم هل قام هو وآخرون، حقاً، بتزويد الهاغناه بمعلومات استخبارية وساعدوا في تحقيق الانتصار اليهودي والهزيمة الفلسطينية، في نهاية المطاف؟ يعرف نبيل عدوان هذه الشائعات، بالطبع. مصدرها، في رأيه، هو حمولة مْطَيِّر التي كانت على خلاف طويل مع عائلة مطر، عائلة أحمد. كان هذا النزاع على خلفية قروية معروفة ـ من يكون مختار القرية. وعلاوة على ذلك، كان لدى عائلة مطيِّر غضب شديد على أحمد لأنه ترك زوجته الأولى، ابنة العائلة، من أجل زوجته الثانية، المقدسية.

يعرف نبيل عدوان جيداً، أيضاً، قصة أحمد مطر نفسه. بعد إنهاء تعليمه الثانوي، كان نبيل يبحث عن عمل في داخل إسرائيل حين وجد ابن قريته، أحمد، باسمه الجديد شلومو عمير، في محطة الوقود. هو نفسه بدأ العمل هناك في العام 1982 وعمل في مطعم محطة الوقود لبضع سنوات، سوية مع آخرين من أبناء قرية القسطل. "لم يزعجكم العمل عند أحمد/ شلومو، رجل الموساد الإسرائيلي؟". يتردد عدوان لحظة كأنه لم يكن يتوقع هذا السؤال. منذ 1967، لا يعتبر الفلسطينيون العمل في داخل إسرائيل خيانة وطنية. ولا حتى العمل في بناء مئات المستوطنات الإسرائيلية في المناطق الفلسطينية، والتي قام عمال ومقاولون فلسطينيون ببناء الجزء الأكبر منها. يجيب: "لا، لا. كان أحمد مطر قد أصبح إنساناً آخر، إسرائيلياً، يهودياً. حتى أنني ذهبت وشاركت في جنازته. وقد دُفن كيهودي في القدس".

في جعبة الجيران، قرب مسجد سعد وسعيد، حيث كان أحمد/ شلومو يجلس في مقهى عائلة خاروف في الخمسينيات، جواب بسيط على السؤال عن سبب الشائعات التي سرت بأنه هو المتهم بقتل عبد القادر: "هو نفسه كان يباهي بذلك. سمعتُ هذا منه شخصياً بعد سنة 1967 وتعرفت عليه حين كنت فتى. فقد علّمني لعب الورق"، قال صاحب حانوت بقالة صغير محاذٍ للمسجد. تنسجم هذه الرواية تماماً مع وقائع حياة شلومو عمير. في أعقاب حرب 1967، عاد إلى القدس وساعد جهاز المخابرات والشرطة الإسرائيليين في إلقاء القبض على شبان عرب والتحقيق معهم، للاشتباه بهم في تنظيم عمل إرهابي. كان متماهياً حتى النهاية مع هويته اليهودية والإسرائيلية وعلى هذه الخلفية يمكن فهم مباهاته بأنه هو الذي تسبب بموت عبد القادر.

لدى نجل فيصل الحسيني (حفيد عبد القادر الذي يحمل اسمه) تفسير آخر، ليس مقنعاً بشكل خاص: "يقال في العائلة إنه من الواضح أن أحمد لم يطلق النار على عبد القادر، لكن يُروى أنه التقاه في نهار اليوم ذاته أو في مساء ذلك اليوم وحثّه على الخروج إلى القسطل. ولهذا اعتقد كثيرون، حقاً، بأن أحمد دفع بعبد القادر إلى حتفه، رغم معرفته بأنها معركة خاسرة".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان مصير لاجئي القسطل كمصير لاجئي القرى المدمَّرة المجاورة ـ قالونيا، لفتا، دير ياسين، صطاف، عين كارم، ساريس وبيت محسير: الشتات. من الصعب أحياناً على المراقب الغريب، وخصوصاً إذا كان يهودياً، فهم سبب كون الارتباط بمسقط الرأس، القرية التي وُلد فيها الشخص، وثيقاً إلى هذه الدرجة في المجتمع الفلسطيني، حدّ كونه مصيرياً في بعض الأحيان، وحدّ خلق واقع مختلف تماماً لدى سكان كل واحدة من قرى فلسطينية تحدّ بعضها بعضاً: القسطل، قالونيا، القريتان اللتان هُجِّرتا، مقابل أبو غوش، بيت نقوبا وصوبا، القرى التي بقيت مكانها، أو عاد بعض لاجئيها. يقوم هذا الواقع المختلف على أن هوية أي عربي في البلاد مرتبطة بوشائج وثيقة جداً من الموروث والتقاليد إلى جانب مزايا قبلية خاصة لقرية معينة، لحيّ ما، لبيت أو لحمولة. تفصل هذه الهوية، ظاهرياً، ما بين الإنسان، ابن قرية ما، والقرية المجاورة، الحمولة المنافسة. تميز هذه الروابط المجتمعات التقليدية، الفلاحية، القروية في غالبيتها الساحقة، التي لا تزال ذكريات الانتقال إلى بيوت دائمة تطاردها، من خلال صور البدو المتناثرين في المحيط القريب على الدوام. في مجتمع كهذا، لا تزال شتيمة "يخرب بيتك" هي الأقسى وليس من قبيل الصدفة أن مفتاح البيت الذي ضاع قد أصبح رمزاً لـ "عودة" اللاجئين.

يشعر نبيل عدوان، ابن اللاجئين من القسطل، الذي طُرد من بيته الكائن على بعد كيلومترات قليلة إلى الشرق، بأنه مُحتقَر ومُهان في حياة الشتات. تملؤه الغيرة، لا الغضب، تجاه الجيران من أبو غوش الذين استطاعوا البقاء في بيوتهم وعلى أرضهم. يشعر الفلسطينيون من أمثاله، الذين اضطروا إلى إخلاء منازلهم والانتقال إلى مكان آخر، ولو على بعد مسافة قصيرة، بأنهم قد اقتُلعوا من جذورهم. غير مرة، شعر المنتقلون من حي ما في القدس إلى آخر، أو حتى من أحد جانبي الشارع إلى جانبه الآخر، بأنهم مقتَلَعون. في المدن، كما في القرى، كان المسكن، ولا يزال إلى حد ما أيضاً، في نطاق حيز الحمولة. هكذا تم تقسيم كل مدينة عربية في البلاد إلى أحياء عائلية. وحتى حين ينتقل السكان إلى موقع حديث ومتطور، تُبذل محاولات للمحافظة على المبنى التقليدي. في غرب القدس، على سبيل المثال، هنالك حي القطمون الكبير، الذي أقيم أيام الانتداب البريطاني كحيّ مخصص لأبناء

الطبقة الوسطى العليا من عرب المدينة. لكن فيه أيضاً بقيت آثار التقسيم الداخلي: قطمون النمامرة (مساكن عائلة النمري) وقطمون الدجانية (عائلة الدجاني) وهكذا ـ بيوت عائلة بركات، عائلة الخطيب، عائلة عويضة. هذا هو الحال أيضاً في حي البقعة، في الجهة الشرقية من خط السكة الحديدية: نجد هناك حي الوَعرية (عائلة وَعري) وغيرها.

ظاهرياً، بقي لاجئو القسطل المقتَلَعون في الوطن الفلسطيني، في بلدة العيزرية، التي انتقلت، بموجب اتفاقية أوسلو (1993) لتكون تحت سلطة مدنية، هي السلطة الفلسطينية؛ إلا أنهم يعتبرون أنفسهم أبناء جيل ثانٍ، ثالث ورابع من اللاجئين، كأن لا جذور لهم ولا وطن.

لم ينفرد العرب سكان المنطقة القروية في غرب القدس، كما العرب سكان المناطق الأخرى من البلاد كلها، بلغة عربية خاصة بهم، ولا بدين أو ذكريات وطنية تميزهم عن أشقائهم العرب. فهم، مثل جيرانهم، أبناء الأمة العربية الكبيرة ـ أولئك المقيمين "من المحيط الهادر في الغرب إلى الخليج الثائر في الشرق"، على حد تعبير أحمد سعيد، المذيع الشهير في إذاعة "صوت العرب" أيام ازدهار الوحدة العربية تحت حكم جمال عبد الناصر في مصر. عليه، كان البيت، بيت العائلة في أبو غوش، في بيت نقوبا، في القسطل، في صوبا، كان ـ وما زال، إلى حد كبير ـ المركّب الأساسي في هوية الفلسطيني. كان الشعور بوحدة المصير والتضامن بين أبناء القرى والمدن في البلاد مشوشاً، مقارنةً بالرابطة الواضحة والعميقة مع أبناء الحمولة.

يقول الباحث فوزي التركي، الذي كان في 1948 طفلاً يسكن في بلد الشيخ عند مشارف حيفا (تل حنان، اليوم)، إنه لم يعرف أنه فلسطيني، إطلاقاً، سوى بعد هروبه مع عائلته إلى بيروت في لبنان، حيث كان الأولاد اللبنانيون يسخرون منه لأنه باع وطنه للصهاينة.

على الرغم من جميع التحولات التي طرأت على تطور الوعي الوطني الفلسطيني على مر السنوات، لا يزال كثيرون من عرب البلاد يواصلون اعتبار أنفسهم أبناء مدينة معينة، أبناء قرية معينة، أو عائلة معينة؛ هويتهم وروابطهم المميزة هي للمكان المحدد ـ للقلعة الصليبية في صوبا، للمحاجر في دير ياسين، لكروم الزيتون والمصاطب الزراعية في ساريس ـ وهذه ذات أهمية بالنسبة لهم، إلى جانب هويتهم الوطنية الفلسطينية.

هذه سمات نموذجية للمجتمع المحافظ حيث لجميع المقيمين في حي عائلي أو قرية تقاليد واضحة وروابط دم، بل ولهجات مميزة، أيضاً، في كثير من الحالات. حين كنت أتعلّم اللغة العربية المحكية في الجامعة العبرية في القدس، دخل إلى الصف التعليمي ذات يوم طالب عربي وسأل المدرّس

العريق، بروفسور موشيه بيامِنتا، بالعربية، ما إذا كان يسمح له بالانضمام إلى الحصة التعليمية. نظر بروفسور بيامنتا إليه وقال: "تفضّل، أنت من بلدة بيرزيت بالتأكيد، لكن من البيوت الشمالية على الأرجح". أكّد الطالب هذه المعلومة، فيما أصيب الطلاب جميعاً بالدهشة. روى بيامِنتا إنه حين كان فتى، كان الطالب اليهودي الوحيد في مدرسة ثانوية في رام الله وتعلّم، آنذاك، التمييز بين اللهجات المختلفة لدى سكان قرى المنطقة، إلى درجة أنه يستطيع تحديد مسقط رأس كل عربي في هذه البلاد، مثلما استطاع بروفسور هيغينز تحديد مسقط رأس إليزا دوليتل في مسرحية بجماليون.

يمكن على هذه الخلفية أن نفهم بصورة أفضل مدى اختلاف مكانة اللغة لدى متحدثي العبرية عن مكانة العربية لدى الفلسطينيين. إحياء اللغة العبرية ـ الإنجاز الأبلغ أثراً الذي حققته الحركة الصهيونية ربما والعامل المركزي في صقل الهوية الإسرائيلية ـ جعلها وطناً، بيتاً لإسرائيليين كثيرين. ليس ثمة مكان آخر في العالم تعيش فيه مجموعة سكانية تتحدث العبرية وتكتب بها. من كانت العبرية لغته الأم سيشعر، في كثير من المرات والحالات، بأنه غريب في أي مكان آخر في العالم عدا إسرائيل. ليس هذا هو حال الفلسطينيين: اللغة العربية ليس فقط أنها لا تميّزهم وتجعلهم متميّزين، بل العكس تماماً هو الصحيح، فهي تربط بينهم وبين مئات ملايين العرب في المحيط وتلغي تفرّدهم، إلى حد كبير. أما ما يميّزهم حقاً، ما يعرّف عليهم، فهو لهجة الحديث الفريدة والمميزة لمنطقة محددة في وطنهم، لطبقة اجتماعية، مدينية، قروية، بدوية، أو حتى لحمولة معينة أحياناً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يبدو، في بعض الأحيان، أن الحدود السياسية ليست ذات شأن في نظر أهالي القسطل، صوبا، بيت نقوبا وأبو غوش. ما يهمهم، أكثر من أي شيء آخر، هو السؤال عمّا إذا كانوا يقيمون في منازلهم على أراضيهم الأصلية، حقاً. أية هوية وطنية تلك التي يمكن تشكيلها وبناؤها طالما أن حب الوطن مخصوص لبيت واحد، قرية واحدة، ويجري، بدرجة معينة من الغربة والاغتراب، فصل العربي ابن قرية ما عن القرى الأخرى، أو الأحياء الأخرى؟ والمفارقة أن الانتماء المحلي والولاء القبلي، اللذين ثمة قوة كبيرة فيهما من دون شك، قد أصبحا مصدراً أساسياً للوهن الفلسطيني في 1948، بل قبل ذلك حتى، إبان الثورة الكبرى 1936- 1939.

في غياب التكافل الوطني الواسع، لم يعرف أبناء المدن والقرى الفلسطينية كيف يدافعون عن بيوتهم وعن عائلاتهم بصورة أفضل. كانت تتنازعهم خيارات مختلفة: هل ينضمون إلى المقاتلين في الثورة، التي كان ثمة مَن وصفها خلال الانقسام الداخلي في ثورة 1938 بثورة آل الحسيني وليس الثورة

الفلسطينية؟ هل يساعدون المتطوعين الأغراب، مثل سعيد العاص، بطل معركة الخضر سنة 1936، وأولئك الذين أتوا في أعقابه، مثل جنود جيش الإنقاذ بقيادة فوزي القاوقجي في شتاء العام 1948؟ أم هل من الأجدى، ربما، التخلي عن الكفاح، محاولة التوصل إلى تسويات جزئية، محلية، بل الاستسلام لليهود حتى، مقابل الحفاظ على البيت والأرض فقط؟ كم من المتعاونين، على شاكلة أحمد مطر/ الزوط، كان بين الفلسطينيين في 1948 وماذا كان دورهم في النكبة؟

كان السؤال الذي أثار قلق سكان كل واحدة من القرى المجاورة للبلدات اليهودية، منذ بداية الأحداث العنيفة التي أعقبت قرار التقسيم في تشرين الثاني 1947، هو التالي: هل نسمح لمقاتلين ليسوا من أبناء المنطقة بالدخول إلى القرية؟ كان هذا طلب جنود وقادة وحدات المتطوعين في جيش الإنقاذ، الذي أرسلته اللجنة العسكرية التابعة لجامعة الدول العربية، حيناً، وطلب رجال "الجهاد المقدس" بقيادة عبد القادر في منطقة القدس، حيناً آخر. نشبت خلافات بين عائلات مختلفة في قرى عديدة حول السؤال: هل نسمح بدخول الغرباء؟ ذلك أن اليهود، رجال الأجهزة الأمنية والاستخبارية، اعتبروا أي قرية تسمح بدخول الغرباء قرية معادية تجوز، بل تجب، مهاجمتها. وكان من شأن هذه المعضلات والخلافات إرباك الكفاح الوطني الفلسطيني وإضعافه جداً.

لماذا لم يهاجم المقاتلون الفلسطينيون، ولم يعاقبوا، سكان أبو غوش الذين وقفوا على الحياد متفرجين فأعاقوا جهود الجهاد المقدس قرب القسطل؟ يوضح د. محمد جاد الله من بيت صفافا، الذي يذكر والده المقاتل في منطقة القدس، فيقول: "لم يكن هذا ممكناً إطلاقاً، لأن أهالي أبو غوش، وعلى رأسهم الشيخ موسى، كانوا أقوياء جداً. كانوا يحظون بدعم متين من الملك عبد الله في شرق الأردن وأنصاره المعارضين للمفتي الحاج أمين بين الفلسطينيين، إلى جانب دعم الإنكليز واليهود أيضاً. كيف بالإمكان محاربة هؤلاء كلهم، إذن؟".

كان المحامي أنور نسيبة مؤيداً لآل الحسيني قبل 1947. عُيِّن رئيساً للجنة الوطنية في القدس إبان الحرب وزار القسطل يوم المعركة التي قُتل فيها عبد القادر الحسيني. بعد ذلك، في 15 أيار، أصيب بجراح بالقرب من نفيه يعقوب، على الشارع المؤدي إلى رام الله. وخلال تماثله للشفاء، كتب مذكراته حول المعركة. وهو يصف هناك الخلافات والشروخ التي فتكت بالمجتمع الفلسطيني الذي تحطم في الثورة الكبرى، قبل ذلك بعشر سنوات. لم تُنشر يوميات نسيبة كاملة وقام المؤرخ د. موسى البديري، الذي يدرّس في جامعة القدس، بتحرير مقاطع منها. كان أنور نسيبة، لفترة قصيرة خلال

المراحل الأخيرة من الحرب عام 1948، سكرتيراً للحكومة الفلسطينية في غزة. ثم عاد إلى القدس بعد ذلك وأشغل، لاحقاً، مناصب رفيعة ومهمة في المملكة الأردنية، من بينها سفير الأردن في لندن ووزير الدفاع. في سنوات لاحقة، أشغل نجله، سري نسيبة، منصب رئيس جامعة القدس وكان ناشطاً في منظمة التحرير الفلسطينية.

يكتب أنور نسيبة في مذكراته أن المفتي الحاج أمين الحسيني، الذي كان القائد الأعلى لعرب البلاد إبان الحرب، أدار المعركة كأنها استمرار للصدامات الدامية التي حصلت بينه وبين خصومه خلال سنوات الثورة. "كان المفتي يخشى أنه إذا ما حصل خصومه من معسكر المعارضة على السلاح فسيحاولون الانتقام منه على ما حصل خلال الثورة" (القصد هنا موجة القتل والإرهاب الداخلي). كما شعر، أيضاً، بأنه إذا ما وثق بنشاط المعتدلين (أي، المعارضة) فسيخيب أمله مرة أخرى، كما حصل في السابق (حين قبلت المعارضة، فعلياً، باقتراح التقسيم الذي عرضه اللورد بيل سنة 1937 وتخلّت عن الثورة). ولهذا، قرر المفتي عدم تزويد أحد بالسلاح، باستثناء الموالين له، أعضاء الجهاد المقدس بقيادة عبد القادر الحسيني. "كان يُنظر إليه بوصفه رئيس حمولة لا يمكن الوثوق به"، كتب نسيبة، "غارق عميقاً في تقاليد الروابط العائلية الوثيقة. كان يميل إلى دعم أبناء عائلته، آل الحسيني، الذين كان يعتبرهم الموالين".

بمثل هذا الرأي يكتب، أيضاً، موسى العلمي، أحد السياسيين الفلسطينيين البارزين إبان الانتداب البريطاني، في كتابه عِبرة فلسطين: "قاتلنا على جبهات متفرقة، كل مدينة قاتلت لنفسها، بدون تنسيق، بدون نظام، بدون تنظيم وبدون تعاون".

موقع القسطل الاستراتيجي هو الذي جلب عليها الخراب، كما يقول المختار نبيل عَدوان. أصبحت القسطل حديقة وطنية إسرائيلية، بينما عادت الحياة في أبو غوش المجاورة إلى طبيعتها بعد عام 1948. عاد أبناء بيت نقوبا، أيضاً، إلى حياتهم الروتينية، إلى حد كبير، وكذلك كثيرون من لاجئي صوبا الذين أقاموا قراهم الجديدة على أرض آبائهم. هذا فرق غنيّ الدلالة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا يزال بالإمكان بعد عشرات السنين من معارك 1948، رؤية بعض بيوت قالونيا العربية التي ظلت قائمة قرب جسر موتسا الكبير، عند منعرج الشارع الصاعد إلى القدس. يمكن من شرفة منزل إلياهو مزراحي، في الحي الصغير الذي كانوا يسمونه "بيوت البغداديين" في السابق، رؤية عدد قليل من البيوت إلى الجنوب من الجسر، بصورة واضحة. إنها بيوت أهالي عين كارم. هنا لا يزال قائماً منزل أحد أشقاء أحمد مطر، الذين كانت والدتهم من قالونيا. أبعد

من ذلك قليلاً، في بداية الشارع الداخلي المؤدي إلى "موشاف بيت زايت" (الموشاف هو أحد أشكال الاستيطان اليهودي في فلسطين، وهو مصطلح عبري يشير إلى أحد أشكال القرى التعاونية ـ المترجِم)، ثمة منزل عربي مهجور، كان معروفاً جيداً في عهد الانتداب البريطاني بوصفه مقر اللقاءات لدى مدام منيرة ـ كانوا يسمونه "كيلو سيفِن"، لأنه يقع عند الكيلومتر السابع عن القدس، وإليه كان يأتي جنود وضباط بريطانيون للتسلية والترفيه مع الفتيات اللواتي كانت تُحضرهن مدام منيرة.

منيرة هذه كانت لبنانيةً جميلة جداً قَدِمت إلى القدس في العشرينيات بهدف الزواج من ابن إحدى العائلات العربية المرموقة في المدينة. غير أن الزواج لم يكن موفقاً. فقد كان زوجها مدمناً على شرب الخمر حتى الثمالة فتركته وغادرت. طبقاً لأحكام الشريعة الإسلامية، تركت منيرة لدى زوجها ابنهما الفتى الذي تكفلت جدته برعايته. حين بلغ سن الشباب، تجند الابن في صفوف الجيش السوري وأصبح قائداً لكلية الضباط. في العام 1948، كان أحد المرشدين في معسكر التدريبات التابع لجيش الإنقاذ بقيادة القاوقجي. عاد إلى القدس قبل فترة قصيرة من حرب العام 1967 ولم يعرف سوى قلة من الفلسطينيين القدامى في المدينة أنه ابن مدام منيرة، المدام من بيت اللقاءات "كيلو سيفِن".

قريباً من منازل عائلة مزراحي، هنالك ما كان يسمى ذات مرة "مسكن الأولاد"، وهو مؤسسة صغيرة للفتيان كانت تؤوي في العام 1943 أولاد اللاجئين من الهولوكوست، يتعلمون فيها ويعملون في الزراعة. احتلتها مجموعة حسني جْبارة من رام الله في 6 نيسان ثم جرى تفجيرها. يشير إلياهو مزراحي إلى النقطة التي وصل إليها العرب في حديقة منزل طبيب العيون المعروف د. أبراهام طيخو، الطبيب الأسطوري الذي خلّد شايكه أوفير ذكراه في سكتش فكاهي. زوجته، الرسامة آنا طيخو، وثقت منظر الجبال المكشوفة في منحدرات المصاطب الزراعية المدمَّرة والصخور مع النباتات وأشجار الزيتون. تم توثيق المنظر بالرسومات فقط. في المنطقة ذاتها، لم يبق الكثير مع مرور الوقت: الجبال المكشوفة امتلأت بالبيوت، بالأحراش والحدائق، وفي الوديان شُقَّت شوارع سريعة. ينبغي الإصرار على النظر بعناية فائقة والبحث جيداً للتمكن من رؤية ما تبقى مما كان ذات مرة نسيج الحياة في القرى العربية هنا قبل 1948.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

5

شـــتـات

أمضى عبد القادر الحسيني الأسابيع الأخيرة من سنة 1938 في دمشق، حيث تماثل للشفاء من الإصابة خلال معركة بني نعيم (4 تشرين الأول 1938). كان محاطاً بالعشرات من أبناء عائلته، معارفه وأصدقائه، النشطاء السياسيين ورجال المجموعات المقاتلة الذين كانت السلطات البريطانية تلاحقهم ففرّوا من البلاد هاربين إلى سورية ولبنان. كان بين هؤلاء، أيضاً، أعضاء القيادة، في مقدمتهم المفتي المقدسي الحاج أمين الحسيني، الذي واصل من شتاته قيادة وتوجيه مجريات الثورة. لم يكن هؤلاء الوحيدين الذين هربوا، بل المئات، وربما الآلاف، غيرهم من أبناء عائلات النخبة الفلسطينية، مسلمين ومسيحيين، رجال الأعمال، أصحاب المهن الحرة والعديد من العائلات المقتدرة، الذين كان بمقدورهم العثور على مساكن وأعمال مؤقتة في العواصم العربية المجاورة ـ بيروت، دمشق والقاهرة ـ بعيداً عن بؤر العنف والإرهاب الخطيرين. كانت لكثيرين منهم علاقات عائلية، تجارية واجتماعية في الدول المجاورة: فقبل ذلك بـعشرين سنة فقط، حتى الحرب العالمية الأولى وطوال أربعمائة سنة، كانت فلسطين جزءاً لا يتجزأ من النسيج العربي في المشرق العربي، أو "بلاد الشام" ضمن الإمبراطورية العثمانية.

في الأثناء، تعززت في البلاد قوة الجماعات المعارضة التي لُقّبت بـ "عصابات السلام". في البداية، في مطلع العام 1938، كانت تلك مجموعات صغيرة بدأت في تنظيم نفسها في المناطق القروية المختلفة بهدف الدفاع عن القرى والعائلات وحمايتها في وجه اعتداءات مجموعات أخرى. لكن فيما بعد، استطاع فخري النشاشيبي ـ "الخائن الأكبر"، كما كان يصفه رجال عبد القادر ـ توحيد هذه المجموعات ووضع هدف سياسي لها، أيضاً.

بدأ فخري النشاشيبي طريقه ضابطاً في الشرطة وعمل، لفترة ما، معاوناً للمندوب السامي البريطاني هيربرت صموئيل. وحين أشغل عمّه، راغب النشاشيبي، منصب رئيس بلدية القدس، كان فخري ساعده الأيمن، نائبه وسكرتيره. كما كان، أيضاً، الروح النابضة في عملية تنظيم حزب الدفاع التابع لآل النشاشيبي، المعارض لآل الحسيني. ورغم أنه كان مؤيداً للثورة في مرحلتها الأولى، سنة 1936، وكان فاعلاً فيها، إلا أنه غيّر موقفه في العام 1937 وأيد، عملياً، قرار تقسيم البلاد بين اليهود والعرب، وفقاً لاقتراح اللجنة الملكية برئاسة اللورد بيل. لا بل، اعتمد طريق التعاون مع الحكم البريطاني وحكم الأمير عبد الله في شرق الأردن، الذي كان يعزز ويدفع فكرة تأسيس المملكة الهاشمية الكبرى بحيث تشمل فلسطين، أيضاً. صور الخصوم من آل

الحسيني النشاشيبي بأنه خائن، وخصوصاً على خلفية دوامة الدم الشرسة جراء أعمال القتل والثأر بين جماعات الثوار، من جهة، و"عصابات السلام" من جهة أخرى.

مع ازدياد وتعاظم الأصوات المعارضة للثورة، قرر الحاج أمين الحسيني وقيادة الثورة في دمشق إصدار أمر لعبد القادر بالعودة إلى البلاد ومواصلة الكفاح. استدعى عبد القادر إلى دمشق 15 شخصاً من رجاله، من منطقة القدس، وتدارسوا معاً خطواتهم التالية. انطلقوا، في القطار، نحو النقطة الحدودية مع شرق الأردن، في درعا، ومن هناك سافروا، سرّاً عبر معبر الأردن إلى أريحا، حتى وصلوا إلى مناطق البدو من عرب السواحرة في أطراف الصحراء الممتدة بين شرقي القدس والبحر الميت ("مدبار يهودا"/ صحراء يهودا، كما تسميها إسرائيل ـ المترجم)، بين بلدتي أبو ديس وبيت ساحور. فيما بعد، انتقل عبد القادر ورجاله إلى قرى منطقة عرقوب، بيت عطاب، علّار (موشاف بار غيورا وموشاف مطاع، اليوم) ومن هناك انطلقوا لتعطيل خط السكة الحديدية إلى القدس ونصبوا الكمائن للقوافل البريطانية على شارع الخليل ـ القدس.

جرت هذه الأنشطة خلال أشهر الربيع والصيف من عام 1939، فيما شهدت الثورة خفوتاً وتراجعاً. على عتبة نهاية الصيف، وبينما كان عبد القادر وجماعته لدى البدو من عشائر التعامرة إلى الشرق من بيت لحم، بلغهم نبأ الغزو الألماني إلى بولندا، بداية الحرب العالمية الثانية. كان الوضع الاقتصادي بين عرب البلاد آنذاك سيئاً جداً. فخلال الثورة، تدهور الوضع من جرّاء قطع العلاقات التجارية مع الييشوف اليهودي ـ التوقف عن العمل مع اليهود، التوقف عن البيع لليهود ـ ومن جرّاء القمع البريطاني العنيف، أيضاً. في تلك المرحلة، أصدرت اللجنة العربية العليا أمراً بوقف العمليات العدائية. هكذا انتهت الثورة الفلسطينية الكبرى، فعلياً، واتخذ شكل الكفاح قالباً جديداً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت سنوات الثورة الثلاث، في منظور عبد القادر الحسيني، بمثابة فترة تأهيل جرى خلالها تصميم صورته ومكانته كقائد عسكري وسياسي ذي كفاءة وأهلية وشهرة بين عرب البلاد. بدأ نشاطه في الثورة في صيف العام 1936 حين كان شاباً في السادسة والعشرين من العمر معروفاً في منطقة القدس بصورة أساسية، بفضل انتمائه العائلي، ابن القائد المعروف موسى كاظم الحسيني باشا. بعد سنوات قليلة على ذلك، عشية الثورة، كان اسمه قد أصبح معروفاً في مختلف أنحاء البلاد.

أقيم في الثالث عشر من أيلول 1938، قبل ثلاثة أسابيع من إصابة عبد القادر في بني نعيم، اجتماع كبير وفريد من نوعه لقادة ومقاتلي الجماعات المختلفة

في بلدة دير غسانة، إلى الغرب من رام الله. حظي عبد القادر هناك باحترام مميَّز. كان عدد الحضور 1,500 شخص: رؤساء مختلف جماعات الثوار، كل منهم برفقة المئات من رجاله، جميعهم دون استثناء شخصيات معروفة كانت صورهم قد نُشرت كمطلوبين للسلطات البريطانية. استقبلهم سكان البلدة والقرى المجاورة بحفاوة بالغة، رفعوا الأعلام، ودوّى صوت الرصاص الاحتفاليّ في مشارف البلدة. وكما يليق بمثل هذه المناسبة، أقيمت حلقات الرقص ونُظّمت سباقات الخيول واستمرت الاحتفالات طوال ساعات الليل.

ظهر عبد القادر مع بزوغ الفجر، مصحوباً برجاله. طبقاً لتوثيقات الهاغناه والاستخبارات البريطانية، "جميعهم، وفي مقدمتهم القادة المختلفون، وقفوا إجلالاً له"، كما يليق بمكانته وحَسَبه. انفضّ الاجتماع وتفرق المجتمعون عندما قصفت طائرات بريطانية مكان الاجتماع، فقُتل عدد كبير من الحضور. كان واضحاً منذ ذلك اليوم، أن عبد القادر الحسيني اكتسب مكانة وإعجاباً من المشكوك فيه أن يكون لهما مثيل في المجتمع الفلسطيني وفي النضال الوطني الفلسطيني. ومع ذلك، كان لقيادته، في جوانب عديدة منها، طابع قـَبَليّ، مثلما اصطبغت الثورة بمجملها، بعد سنة 1937، بألوان الوطنية الحسينية (نسبة إلى آل الحسيني).

ليس فقط أن الثورة فشلت في معركتها ضد البريطانيين والييشوف اليهودي، وإنما كانت أضرارها جسيمة إلى حد بعيد، أيضاً. أصيب الاقتصاد العربي في البلاد بالشلل لفترات من الزمن؛ تحطم المجتمع الفلسطيني نتيجة الانقسام السياسي، الذي جرّ المجتمع الفلسطيني إلى حرب أهلية مغرقة بالدم، بالكراهية والنزعات الانتقامية؛ سقط آلاف القتلى وأصيب كثيرون بجراح؛ تهدّمت قرى وأحياء مدينية بأيدي البريطانيين؛ أُعدِم أكثر من مائة من النشطاء؛ هرب عشرات ومئات القادة والنشطاء من البلاد؛ سُجن آخرون أو هجروا إلى أماكن بعيدة تنفيذاً لأوامر الحكومة البريطانية.

في مقابل ذلك، تعززت وتعاظمت قوة الييشوف اليهودي المنظَّم. أضيفت إليه مجموعة سكانية كبيرة من اليهود الذين هاجروا من ألمانيا وأوروبا الوسطى على خلفية صعود النازية إلى سدة الحكم. أحضر المهاجرون الجدد معهم، إلى البلاد، أموالاً ومعرفة استُثمرت في الصناعة والتجارة. كان كثيرون بينهم أكاديميين وأصحاب مهن حرة فحسّنوا، بدرجة كبيرة، جودة حياة الييشوف اليهودي، وخصوصاً مستوى التعليم ـ سواء في المدارس أو في التخنيون ("معهد الهندسة التطبيقية" في حيفا ـ المترجِم) أو في الجامعة العبرية في القدس، والتي كانت قد تأسست قبل ذلك بنحو عقد من الزمن. كما ساعد هؤلاء، أيضاً، في إنشاء بلدات جديدة وفي ـ ما هو مهمّ في سياق موضوعنا ـ تنظيم الييشوف اليهودي في مواجهة الاعتداءات العربية.

على الرغم من ذلك، كانت للثورة في نظر الفلسطينيين نتائج سياسية إيجابية معينة: "الكتاب الأبيض" الذي نشرته الحكومة البريطانية في 1939 ـ الوثيقة التي وضعت تقييدات على هجرة اليهود وتملّك الأراضي وتعهدت بإقامة دولة ثنائية القومية. لكنّ المفتي الحاج أمين الحسيني ورجاله لم يعتبروا الكتاب مكسباً فرفضوه. دفعت القيادة الفلسطينية ذاتها التي تجرأت في العام 1936 على التمرد ضد الإمبراطورية البريطانية العظمى، والتي بذلت في تلك السنوات جهوداً حثيثة من أجل تشكيل وصقل هوية عربية ـ فلسطينية، لقاء ذلك ثمناً فظيعاً: ثمن اجتماعي من النزاعات الدموية والانقسامات، فقدان القيادة، التفكك الاقتصادي، العزلة والعجز. بعد عقد من الزمن، كانت هذه كلّها من بين الأسباب التي أدت إلى الانهيار والنكبة.

يبدو من الصعب، بنظرة إلى الوراء، فهم كيف تجرأ مجتمع قرويّ، ضعيف وقبليّ البنية، على التمرد على الدولة العظمى التي اعتُبرت آنذاك الأقوى في العالم كله. في وقت لاحق، فسّر موسى العلَمي كيف حدث ذلك: كانت سياسة الانتداب البريطاني تضمن لعرب البلاد احتضاراً متواصلاً وموتاً بطيئاً، وهم فضّلوا التضحية بأنفسهم والموت في محاولة يائسة لمقاومة الأعداء. في كل النضالات الفلسطينية ـ سواء في حرب 1948 أو حتى في الانتفاضات التي حصلت بعدها بعشرات السنين ـ لم يكن تمرد بمثل قوة وزخم الثورة الكبرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وصل عبد القادر إلى بيروت في تشرين الأول 1939، منهَكاً، مطارداً ومطلوباً من قبل السلطات البريطانية والفرنسية. يروي طالب مشتاق، الذي كان قنصلاً للعراق في بيروت لدى نشوب الحرب العالمية الثانية:

ذات يوم في خريف 1939، دخل إلى مكتبي صديق من دمشق، المحامي أبو الهدى اليافي، وبرفقته شاب قصير القامة، وسيم، ذو نظرة حادة وذكية. سألني أبو الهدى: "هل تعرفه؟". قلت: "كلا، للأسف". فقدّمه إليّ: "عبد القادر الحسيني، نجل المرحوم موسى كاظم الحسيني باشا". قلت، على الفور: "أهلاً وسهلاً. هذا الشبل من ذاك الأسد". واصلَ المحامي: "أتيناك طالبين المساعدة". قلت: "سأبذل من أجلكم كل ما في استطاعتي إن شاء الله". أوضح: "أنت تعرف أن البريطانيين حكموا على عبد القادر بالإعدام وهم يلاحقونه الآن. كذلك الفرنسيون، يحاولون إلقاء القبض عليه لتسليمه لأعدائه". لم أتردد للحظة. قال إنه ينبغي إنقاذ حياة عبد القادر بأي ثمن. كان عليّ تجاوز صلاحياتي وخرق تعليمات حكومتي، لكن ما قيمة الوظيفة والتعليمات أمام القدرة على خدمة الوطن وأي خدمة أجلّ من وقف اليد التي كانت تريد سفك دم طاهر؟ [...] "تعال، يا فتي"، أخذت القلم في يدي

وشرعت في تسجيل التفاصيل في تأشيرة دخول على اسم يوسف الصايغ [...] "أنت تفهم، يا عبد القادر، يوسف الصايغ. أنت ابن 35 عاماً ومكان ولادتك هو حيّ الأعظمية في بغداد".

صحيح أن عبد القادر كان مطلوباً للبريطانيين، لكن ليست ثمة قرائن على أنهم حكموا عليه بالإعدام، كما يقول القنصل العراقي. على أي حال، أصبح عبد القادر مواطناً عراقياً في غضون أقل من ربع الساعة. وساعَده القنصل، أيضاً، في السفر إلى العراق وبعد يومين كان عبد القادر ـ يوسف الصايغ ـ يتجول في شوارع بغداد، بعيداً عن ملاحَقات الإنكليز وتهديدات الفرنسيين.

أدت الفترة التي قضاها عبد القادر في بغداد، وكذلك معلّمه المفتي الحاج أمين، إلى تطرف مسار الوطنية الفلسطينية السياسي المعادي للبريطانيين، بقيادة آل الحسيني. وهي السياسة ذاتها التي دفعت الحاج أمين إلى تأييد ألمانيا النازية، أيضاً. صحيح أنه لم تكن قد تبلورت في البلاد آنذاك حركة منظمة مؤيدة للنازية، كما حصل فعلياً في عدد من الدول العربية مثل العراق، إلا أن تعاطف الحاج أمين ورجاله مع ألمانيا إبان الحرب العالمية، أضعف ـ عقب انتهاء الحرب ـ قيادة آل الحسيني، لأنها كانت جزءاً من المعسكر المهزوم. وقد أحسنت الحركة الصهيونية، بالطبع ـ كما دائماً ـ استغلال هذا الأمر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مرّت دولة العراق في فترة ما بين الحربين العالميتين بعملية انتقالية ـ من دولة تحت رعاية الانتداب البريطاني إلى دولة مستقلة بقي فيها لبريطانيا بعض الامتيازات العسكرية، الاقتصادية والسياسية. أصبحت المحافظات العثمانية التي شكلت العراق، بعد الحرب العالمية الأولى، منطقة خاضعة للاحتلال البريطاني، ثم أصبحت دولة مستقلة نظرياً، توجهها بريطانيا بموجب تفويض من عصبة الأمم المتحدة. في العام 1921، نصّب البريطانيون ملِكاً على العراق الأمير الهاشمي فيصل (الأول)، ابن الشريف حسين من مكة، الذي قاد الثورة العربية ضد الإمبراطورية العثمانية. كان البريطانيون قد نصّبوا فيصل هذا نفسه، حاكماً في دمشق، من قبل، لكن الفرنسيين طردوه، وهكذا أصبح ملكاً على العراق، برعاية البريطانيين. كانت التسوية في العراق، إذن، دمجاً ما بين الانتداب البريطاني، من جهة، والدولة المستقلة ذات السيادة، من جهة أخرى ـ دولة مكبّلة بعقد إنكليزي ـ عراقي منذ 1922. سادت بين أوساط النخبة العراقية معارضة للتسوية، فعلاً، لكنها لم تكن معارضة عنيفة إجمالاً. أقيمت في أنحاء الدولة، على تعدد الانتماءات فيها وتنوعها (سنّة، شيعة، أكراد، الطوائف المسيحية المختلفة، والطائفة اليهودية

العريقة) مديرية منظمة تحت إرشاد "مستشارين" بريطانيين، كما أقيم برلمان وحكومة وجيش وطني عراقي.

مارست الأوساط الوطنية العراقية ضغوطات منذ 1922 من أجل تغيير العقد مع بريطانيا بغية بلورة معاهدة جديدة تمنح العراق استقلالاً كاملاً وتاماً. وتم في نهاية الأمر، التوقيع سنة 1930 على اتفاقية جديدة تنهي الانتداب البريطاني وتعلن العراق دولة مستقلة. بل تم قبول العراق عضواً في عصبة الأمم، بمساعدة بريطانية.

كانت هذه العملية، التي انتقلت فيها العراق من رعاية الانتداب البريطاني إلى الاستقلال مع امتيازات للبريطانيين، ملهمة لقيادة العرب الفلسطينيين. ففي مناقشات عديدة أجراها العرب حول مستقبل البلاد، وفي مظاهرات كثيرة نظموها ضد الحكم البريطاني في فلسطين، طالبوا الانتداب البريطاني بالتعامل مع عرب فلسطين كما تعامل مع عرب العراق. كانت ثمة فروق بين تسويات الانتداب البريطاني في العراق وبين الترتيبات في فلسطين، وفي مقدمتها بالطبع وعد بلفور من العام 1971 بشأن التطلع إلى إنشاء وطن قومي لليهود، والذي تجسد في صك الانتداب البريطاني على البلاد. صحيح أن كفاح عرب فلسطين كان ضد الانتداب البريطاني عموماً، لكن ضد ذلك البند الذي منح اليهود وطناً قومياً، بصورة خاصة وأساسية. تكررت الادعاءات الفلسطينية، مراراً، بشأن ما كان يبدو لهم غبناً كبيراً: وزير بريطاني يمنح ما ليس له (فلسطين) لمن لا يستحق (اليهود). ومع ذلك، عادت المقايسة مع العراق وإنهاء الانتداب فيها لتظهر في المطالب الفلسطينية.

كان تاريخ العراق السياسي عشية الحرب العالمية الثانية حافلاً بالأزمات. معارك وصراعات يومية ودائمة بين القبائل والطوائف المختلفة أحدثت انقسامات في الحكم المركزي في بغداد أيضاً. إحدى تلك الأزمات الحادة تمثلت في تمرد أبناء الطائفة المسيحية الآشورية والمذبحة التي تعرضوا لها في العام 1933. توفي الملك فيصل سنة 1933 وكان من الصعب على ابنه، غازي، السيطرة على الوضع وفرض حكمه فأحدث فراغاً هائلاً قاد إلى نظام أشبه بالدكتاتورية العسكرية. توفي الملك غازي في حادثة طرق في العام 1939، وبما أن ابنه، فيصل الثاني، كان صغير السنّ، فقد تم تعيين ابن العائلة، عبد الإله، وصياً على العرش.

وَجد عبد القادر الحسيني عندما وصل إلى بغداد، في أواخر العام 1939، وجد الجيش والقيادة العراقيين ممزقين بين توجهين متناقضين: الأول، قومي وطني، يقوده ضباط كبار طالب أربعة من بينهم ("المربع الذهبي") بإلغاء الامتيازات الممنوحة للبريطانيين. وعلى هذه الخلفية، اختاروا تأييد الأعداء الألدّ للبريطانيين ـ أي، الألمان والإيطاليين. التوجه الثاني كانت تقوده

مجموعة ضمّت الأوساط الموالية لبريطانيا، وفي مقدمتها القصر الملكي، الحاكم عبد الإله، والسياسي العريق نوري السعيد، الضابط العثماني السابق. كان نوري السعيد أحد قادة تمرد الشريف حسين وابنيه فيصل وعبد الله ضد الأتراك، وأصبح الآن رئيساً للحكومة. كما وقفت إلى جانب العائلة المالكة، أيضاً، مجموعة من ضباط الجيش الموالين لبريطانيا، خصوم ضباط "المربع الذهبي".

عندما عُرفت هوية عبد القادر الحسيني، استقبله بالترحاب عدد من ضباط الجيش العراقي الذين نمت إلى مسامعهم معلومات حول بطولاته في الثورة الكبرى ضد البريطانيين. وسرعان ما أصبح ضيف شرف لدى جهات رسمية في الحكومة والجيش العراقيين. استأجروا له بيتاً في حي الكَرادة الشرقية (الحي الكردي) وعيّنوه مدرّساً للرياضيات والعلوم في مدرسة "التفيض" الأهلية. الضيافة الكريمة والراحة في بغداد مكّنتاه من إحضار زوجته وجيهة وولديهما ــ الابنة هيفاء، التي وُلدت في القدس، والابن موسى، الذي وُلد في دمشق. خلال سنوات إقامتهم في بغداد، وُلد فيصل (تموز 1940)، الذي سيلعب لاحقاً دوراً مهماً في منظمة التحرير الفلسطينية وفي النضال الفلسطيني في القدس بعد عام 1967، والابن الأصغر غازي.

في تلك الأيام، استقبلت الأوساط الوطنية العراقية، كما يُستقبَل الملوك، ضيفاً فلسطينياً آخر: المفتي المقدسي الحاج أمين الحسيني، ومعه مجموعة كبيرة من الناشطين الفلسطينيين. كان المفتي في بيروت في اليوم الذي اندلعت فيه الحرب العالمية الثانية، وبإيحاء من المبعوثين الفرنسيين في لبنان، وُضع رهن الحبس المنزلي على الفور. كان واضحاً أن الحاج أمين، العدو اللدود لبريطانيا، حليفة فرنسا، سيواجه مستقبلاً غير مريح على الإطلاق في المناطق الخاضعة للتأثير الفرنسي. لكنه هرب متخفيّاً، مرة أخرى، مثلما هرب من القدس قبل ذلك بسنتين.

كانت دمشق وجهته هذه المرة، ومنها إلى بغداد. فيها، كانت في انتظاره القوى الوطنية المعادية للبريطانيين، بقيادة السياسي العراقي رشيد عالي الكيلاني، الذي أشغل سنة 1939 منصب رئيس ديوان الحاكم عبد الإله. صحيح أن الحاج أمين التقى، أيضاً، رئيس الحكومة، نوري السعيد، صديق بريطانيا، لكنه كان لقاء مجاملة فقط. أما الأوساط الوطنية فقد كان موقفها منه متعاطفاً وحاراً، لأنهم اعتبروه شريكاً للنضال ضد البريطانيين وضحية لهذا النضال كذلك، إذ اضطر إلى الهجرة من وطنه. صبّ الاستقبال الحماسي الذي حظي به المفتي في خدمة مصالح الجهات المؤيدة للألمان، إذ أضاف لنضالها الداخلي بُعداً إيديولوجياً وقيادة حازمة. وقد وصفت الصحف البغدادية المفتي بأنه "بطل العالم العربي" ورأت به "الشخصية الأكثر نزاهة في العالم

العربي". وإضافة إلى الاحترام الشديد الذي كانوا يكنّونه له، وضعوا تحت تصرفه مبالغ كبيرة من المال من خلال "دائرة شؤون المُهجَّرين الفلسطينيين". في أعقاب المفتي وعبد القادر، وصل إلى بغداد مئات المُهجَّرين الفلسطينيين، جميعهم من الناشطين في الثورة.

قُدّر عدد المُهجَّرين الفلسطينيين في بغداد مع بداية الحرب العالمية بنحو 300 شخص، بينهم مقربو الحاج أمين، وبضمنهم كثيرون من أبناء العائلة. تروي ابنة العائلة سيرين الحسيني شهيد، في مذكراتها، كيف وجد المُهجَّرون الفلسطينيون صعوبة في التأقلم مع المشهد الصحراوي الممتد حول بغداد، والذي كان مختلفاً تماماً عن منظر الجبال وشواطئ البحر المتوسط في فلسطين. وكان صعباً عليهم، بوجه خاص، حرّ الصيف الشديد الذي اضطرهم إلى النوم على أسطح المنازل.

أما مع المشهد السياسي العراقي، فقد استطاع الفلسطينيون التأقلم بسرعة فائقة. فمن تشرين الثاني 1939 حتى أيار 1941؛ أي خلال سنة ونصف السنة، وبينما كانت تدور في الخلفية رحى حرب عالمية فتاكة تهدد بالوصول إلى المشرق العربي أيضاً، كان الفلسطينيون بقيادة الحاج أمين، عبد القادر ورجالهما، ضالعين في الأزمات الحكومية التي عصفت، مرة تلو أخرى، بالعمل السياسي الداخلي في العراق. بنظرة إلى الوراء، من الصعب تصديق مدى أهمية ومصيرية تلك الفترة بالنسبة للحرب على فلسطين، للمعارك ولنكبة 1948، بل ولمعركة القسطل بصورة مباشرة. وجد المشاركون في الثورة الفلسطينية الكبرى، مقاتلين وسياسيين على حد سواء، مكانهم في العراق في تلك الأيام، بصورة طبيعية للغاية. كانت تلك دولة مستقلة نظرياً، استطاعت القوى العربية القومية فيها العمل ضد البريطانيين، بشكل علني وحر ودون أية عوائق تقريباً. وفر الواقع العراقي للنشطاء الفلسطينيين فرصة لمواصلة الثورة ضد البريطانيين، تلك الثورة التي خبت في بلدهم عقب قمعها بوحشية.

أكثر من هذا: فتحت الحرب العالمية، ظاهرياً، الطريق أمام الحاج أمين ليتحوّل من قائد محلي في فلسطين إلى قائد عربي مسلم، يتطلع إلى ضرب أعدائه البريطانيين واليهود، بواسطة ألمانيا النازية. حاول الحاج أمين قبل ذلك بعشر سنوات، احتلال مكانة القائد العربي والإسلامي. بادر في كانون الأول 1931، إلى تنظيم مؤتمر إسلامي في القدس بمشاركة شخصيات من الدول العربية، صدرت منه الدعوة إلى تشكيل لجنة عمل للدفاع، لإنقاذ أراضي البلاد من أيدي اليهود ولإقامة جامعة عربية إسلامية في القدس. حتى أن المفتي عرَض نفسه وسيطاً في النزاعات التي كانت دائرة في سورية، وفي الحرب التي نشبت في 1934 بين الملك ابن سعود ويحيى ملك اليمن.

زادت النجاحات العسكرية التي حققتها ألمانيا في بداية الحرب في شمال أفريقيا ودول البلقان، وسيطرة حكومة فيشي على النظامين في سورية ولبنان، طموح الحاج أمين ـ الذي يبدو، بنظرة إلى الوراء، وهمياً إلى حدّ كبير ـ لأن يغدو الشخصية المركزية في تجنيد العرب والمسلمين للحرب ضد الإمبريالية البريطانية. لكن فكرة تأييد ألمانيا لم تكن وهمية البتّة في تلك الأيام؛ كانت تقوم على أساس منطقي بالتأكيد ـ الانضمام إلى معسكر ألمانيا المنتصرة.

لم يكن التعاطف مع ألمانيا خلال الحرب، على خلفية الكراهية والعداء لبريطانيا، حكراً على الحاج أمين الفلسطيني ورشيد عالي الكيلاني وضباط "المربع الذهبي" العراقيين. كان لهم ثمة شركاء عرب آخرون في الشرق الأوسط، مثل الجماعات القومية في مصر وفي أنحاء أخرى من العالم. في أيرلندا، مثلاً، أعلن القوميون المتعصبون تعاطفاً مع ألمانيا، بل حاولوا العمل الفعلي من أجلها، وكذلك فعلت جماعات قومية متعصبة من أصل أفريكاني (المستوطنون من أصل هولندي) في جنوب أفريقيا. حتى أن نهرو، الزعيم الهندي المعروف، الذي لم يكن مؤيداً للألمان بالتأكيد، تعرض للاعتقال من قبل البريطانيين لأنه دعا إلى عدم اشتراك الهند في المجهود الحربي البريطاني. كذلك في تاريخ تصدي البيشوف اليهودي في فلسطين لحكم الانتداب البريطاني، كانت ثمة حادثة هامشية حاول أعضاء "ليحي" السرية ("عصابة شتيرن"، كما أسماها البريطانيون) خلالها إنشاء علاقة مع مندوب نازي، بهدف ضرب المحتل البريطاني.

كلما اشتدت وطأة القمع البريطاني، كما حصل إبان الثورة الفلسطينية، ازداد تعاطف الجماهير الفلسطينية مع ألمانيا النازية. وكان "أبو علي" لقب التحبب الذي أطلق على أدولف هتلر في الشارع الفلسطيني. كان بالإمكان العثور، هنا وهناك، على فلسطينيين مؤيدين لألمانيا منحوا مواليدهم أسماء مثل رومل، تيمناً باسم الجنرال الألماني الذي تقدم مع قواته في شمال أفريقيا باتجاه مصر وفلسطين. وكان هنالك فلسطينيون قلائل تجندوا في البلاد خدمةً للاستخبارات الألمانية، مثلما كان أيضاً فلسطينيون ـ شيوعيون قلائل تجندوا، قبل ذلك بعشر سنوات، للدفاع عن الجمهورية في إسبانيا. وكان هناك، أيضاً، آلاف الفلسطينيين (نحو اثني عشر ألفاً) الذين تجندوا في خدمة المجهود الحربي البريطاني. كان هذا التجند بمباركة وتشجيع من القوى المعارضة لآل الحسيني، بقيادة فخري النشاشيبي وبدعم من الأمير عبد الله الذي كان آنذاك حاكماً لإمارة شرق الأردن، برعاية بريطانية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حصلت خلال فترة السنة ونصف السنة التي كان فيها المفتي الحاج أمين على رأس المُهجَّرين الفلسطينيين في بغداد، تقلبات حادة في السياسة الداخلية العراقية. وقد لعب المُهجَّرون الفلسطينيون دوراً مركزياً في هذه الأحداث، من خلال دعمهم ومساعدتهم للنشاطات المعادية لبريطانيا والمؤيدة لألمانيا. بذل المفتي جهوداً كبيرة لإنشاء علاقات مع الفاشيين الإيطاليين ومع رؤساء النظام النازي في برلين. أوْفدَ مبعوثين ووجه رسائل. ويجد الدارسون لتلك الحقبة تعابير تدل أيضاً على أن المفتي قد تبنى أسلوب الكلام النازي. في إحدى الرسائل التي وجهها إلى هتلر، ويصف خلالها ظلم الكولونيالية البريطانية والفرنسية في المنطقة، يكتب أن يهود العالم هم "أعداء خطيرون، المال والفساد والمؤامرات هي سلاحهم السري"، ولذا، كما كتب، "القضية الفلسطينية توحّد البلدان العربية في كراهية مشتركة للبريطانيين واليهود".

بينما كان الحاج أمين مشغولاً بالنشاط السياسي المكثف، تسجّل عبد القادر لدورة ضباط كبار في الجيش العراقي. قبل ذلك بثلاث سنوات، في شتاء 1937، اجتاز دورة تعليمية حول المواد التفجيرية وحرب الكوماندو في ألمانيا. هذه المرة، في بغداد، كانت دورة بمستوى عالٍ حول إدارة ميدان القتال، اجتازها عبد القادر بموازاة عمله مدرّساً في ثانوية التفيض المسائية. يذكر يهود بغداد تلك المدرسة، التي تعلم فيها الشباب اليهود للحصول على شهادة إنهاء تمنحهم، أيضاً، إعفاءً من الخدمة العسكرية. استمرت دورة المواد التفجيرية نصف سنة في مخيم الرشيد في بغداد بإرشاد ضباط عراقيين كبار، حصل عبد القادر في نهايتها على رُتب عسكرية رفيعة. يبدو أنه كان متفوقاً في الدورة، إذ طلب مرشدون منه، في ختامها، البقاء في القاعدة العسكرية ليكون مرشداً.

كان عبد القادر طوال تلك الأشهر من سنة 1940، على صلة وثيقة مع الحاج أمين ومع نشطاء الثورة المُهجَّرين في العراق، وبينهم كثيرون من رفاقه المقاتلين في معارك الثورة في منطقة القدس. وقد تبنى، هو أيضاً، أسلوباً مماثلاً لأسلوب المفتي ـ هذا، على أي حال، ما يمكن استخلاصه من مقالة، واحدة من مقالات كثيرة، نشرها في صحيفة المدرسة الثانوية، يحذر فيها الشعب العراقي من "الخطر اليهودي". وهو ما قوبل باحتجاج من جانب طلاب يهود في المدرسة، وربما معلمين أيضاً، فقامت إدارة المدرسة بإغلاق الصحيفة.

في منزلهما في بغداد، كثيراً ما كان عبد القادر وزوجته وجيهة يستضيفان ضباطاً من الجيش العراقي، إضافة إلى أصدقائهما الفلسطينيين، مثل صبحي أبو غربية وفوزي القُطُب، والذين اجتاز بعضهم أيضاً تدريبات وتأهيلاً في

معسكرات الجيش العراقي. كان العداء لبريطانيا وللسياسيين والعسكريين العراقيين المؤيدين لبريطانيا القاسمَ المشترك الموحِّد لضيوف عبد القادر.

كأن التاريخ كان يغرّر بالفلسطينيين في بغداد. فقد انقلب عليهم نشاطهم المعادي للبريطانيين في تلك الفترة من الحرب العالمية الثانية وانتقم منهم مع انتهاء الحرب. من الصعب القول إنهم راهنوا على الورقة غير الصحيحة في دعمهم، المعنوي والعملي، لألمانيا النازية. إنما الأصحّ الجزم بأنهم انجرّوا إلى ذلك بتأثير المواجهات الدامية التي وقعت في سنيّ الثورة وعلى خلفيتها. فقد عاد موقف المفتي الحاج ورجاله هذا بضرر كبير على السياسيين وضباط الجيش العراقيين الذين أيّدوا بريطانيا، ولم ينسَ لهم هؤلاء ذلك حينما اندلعت المعارك على فلسطين، بعد سبع سنوات من ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في مساء يوم 28 آذار 1941، في منزله الجميل في منفاه، في بغداد، التقى المفتي الحاج أمين الحسيني، سرّاً، عدداً من الضباط والسياسيين العراقيين: صلاح الدين الصباغ، فهمي سعيد، محمود سلمان، رشيد عالي الكيلاني، يونس السبعاوي وناجي شوكت. أقسموا يمين الولاء لبعضهم بعضاً، على القرآن الكريم، أمام المفتي، وعيّنوه رئيساً لهم، لأنه كان أمين مجموعة ضباط "المربع الذهبي"، بل كان صلة الوصل بين رشيد عالي الكيلاني والضباط.

قرر المشاركون في اللقاء السري توجيه إنذار إلى رئيس الحكومة طه الهاشمي، الذي كان عُيّن لهذا المنصب قبل ذلك بأقل من شهرين. كان بعض المطالب التي طرحوها ذا طابع سياسي، مثل عدم قطع العلاقات الدبلوماسية مع إيطاليا تنفيذاً لإملاءات البريطانيين (قبل ذلك بفترة وجيزة تم قطع العلاقات بين العراق وألمانيا)؛ فيما كانت المطالب الأخرى إدارية، مثل إلغاء حظر التجول والأمر الحكومي القاضي بإبعاد أحد الضباط من بغداد إلى وظيفة في منطقة نائية.

حاول طه الهاشمي في تلك الأيام إيجاد تسوية ما بين موقف "المربع الذهبي" الوطني والسياسيين المعادين لبريطانيا برئاسة رشيد عالي الكيلاني، من جهة، وبين موقف الحاكم الفعلي عبد الإله ونوري السعيد المؤيد لبريطانيا. كان طه الهاشمي آنذاك في الرابعة والخمسين من العمر، أكبر سناً من ضباط مجموعة "المربع الذهبي" ومن قدامى القادة في الجيش العثماني. كان الضباط العراقيون الشباب من بين طلابه ومقربيه وكان هو شريكاً لأفكارهم الداعية إلى تحويل الجيش العراقي إلى جيش قومي عربي وتكليفه بدور تاريخي بغية تحقيق وحدة العالم العربي. إلا أن طه الهاشمي كان، أيضاً، صديقاً مقرباً لنوري السعيد ولعبد الإله، الذي كان الضباط يضمرون له

الكراهية والعداء، إذ اعتبروه حاكماً مفروضاً عليهم بالإكراه من قبل الإمبريالية البريطانية.

حين أيقن ضباط "المربع الذهبي" أن طه الهاشمي لن يستجيب لمطالبهم، أعلنوا حالة الطوارئ وإقامة "حكومة إنقاذ وطني" برئاسة رشيد عالي الكيلاني. كان ذلك، عملياً، انقلاباً عسكرياً خالصاً: أرغِم طه الهاشمي على تقديم استقالته واستولى جنود موالون لضباط الانقلاب على محطة البث الرسمية، مراكز البريد والتلغراف والهواتف. أدرك الحاكم عبد الإله أن حياته قد أصبحت في خطر ففرّ هارباً عبر مرآب قصره إلى منزل عمته الأميرة صالحة، ومنه إلى قاعدة جوية بريطانية نُقل منها، جواً، إلى مدينة البصرة في الجنوب العراقي. بعد ذلك، هرب عبد الإله على متن بارجة حربية بريطانية، عبر شط العرب، وصولاً إلى عمان حيث نزل في ضيافة عمّه، الأمير عبد الله، حاكم شرق الأردن. ما من شك في أن طه الهاشمي المعزول كان يذكر هذه التطورات جيداً حين لعب، بعد سبع سنوات، دوراً مركزياً في المعركة على مصير فلسطين عامة، ومعركة القسطل خاصة.

هربت من بغداد، أيضاً، مجموعة أخرى من السياسيين العراقيين الموالين لبريطانيا، من بينهم نوري السعيد نفسه. وجد بعضهم ملجأ لفترة قصيرة، برعاية البريطانيين، في فلسطين التي خيم عليها الهدوء والازدهار الاقتصادي في فترة ما بعد انتهاء الثورة، بفضل الاستثمارات الكبيرة التي وظفها البريطانيون في بناء منشآت عسكرية أعِدّت للجم الغزو الألماني.

من شبه المؤكد أن ولاية حكومة رشيد عالي الكيلاني القصيرة في بغداد كانت فترة العزّ والمجد ـ الأخيرة ربما ـ في حياة الحاج أمين الحسيني. فقد أسس حزباً أسماه "الأمة العربية" لمناهضة الإمبريالية وكان مفعماً بالحماسة إزاء ما كان يرى به تحقق حلم: منذ الآن، لم يعد قائداً محلياً، فلسطينياً ـ مقدسياً، فقط، له أعداء من بين أبناء شعبه وخصوم في كل مكان، مثل الأمير عبد الله؛ بل أصبح الآن شخصية قومية عربية ذات تاج ديني أيضاً ـ "مفتي القدس الأكبر" ـ تقيم علاقات تحالفية بين العالم العربي والإسلامي، من جهة، وبين ألمانيا وجيشها وحلفائها المنتصرين في أوروبا، من جهة أخرى.

بقي هذا الحلم قائماً في العراق لبضعة أيام، أو لأكثر من شهر واحد بقليل، على الأصح. أحضر البريطانيون إلى قواعدهم في العراق قوات عسكرية شملت جنوداً وطائرات وبعد 26 يوماً من القتال أجهزت هذه القوات على وحدة الثوار المتمردين. قاتَلَ عبد القادر الحسيني إلى جانب الثوار العراقيين ضد البريطانيين بأساليب حرب العصابات التي كان يعرفها: نظّم حوله بضع عشرات من رجاله، غالبيتهم الساحقة من الفلسطينيين، هبوا "للدفاع عن أشقائهم العراقيين في وجه الظلم والاضطهاد البريطانيين"، على حدّ تعبير

إحدى المرثيات المستقبلية التي ستمجّد عبد القادر بعد وفاته. يصف قاسم الريماوي، صديق عبد القادر وأحد المعجبين به، المعارك التي دارت في أبو غريب والفلوجة، على بعد 60 كيلومتراً إلى الغرب من بغداد: دارت في المكان معارك ضارية على مدار يومين، استطاع عبد القادر ورجاله خلالها لجم تقدم الجنود البريطانيين. ولاحقاً، وصف جميل بركات، أحد رجال عبد القادر، كيف أشاد الجميع ببطولة المقاتلين الفلسطينيين.

لكنّ بطولتهم هذه لم تؤت ثماراً. فقد تغلب الجيش البريطاني عليهم واضطر عبد القادر إلى الهرب، سوية مع مجموعة كبيرة من رجاله. فرّوا إلى الحدود مع تركيا بداية، ثم توجهوا إلى إيران. أعلن جنود حرس الحدود الإيراني إنهم سيسمحون لعبد القادر بالدخول، لكن دون رجاله. رفض عبد القادر وانطلق، سوية مع ثلاثين من رجاله، في مسيرة طويلة استمرت نحو شهر، كان الجزء الأكبر منها مشياً على الأقدام، عائدين إلى بغداد. في طريقهم، تلقوا مساعدات من زعماء القبائل في شمال العراق. ومع وصولهم إلى بغداد، توجه بعض منهم نحو الحدود مع سورية بغية التسلل إلى سورية ولبنان؛ بينما اختبأ آخرون، برئاسة عبد القادر نفسه، في منزله في حي الكرادة الشرقية، حيث اعتنت بهم زوجته. بعد بضعة أيام، انكشف أمرهم فسلّموا أنفسهم للأجهزة الأمنية العراقية. توصلوا فيما بعد إلى تسوية قضت بوضعهم رهن الحبس المنزلي بعيداً عن بغداد، في بلدة زاخو عند الحدود مع تركيا. كما وُضعت وجيهة الحسيني، أيضاً، رهن الاعتقال المنزلي الذي استمر نحو سنة ونصف السنة، بتهمة مساعدة الثوار.

حضر إلى بغداد في الأثناء، ومع إعادة تشكيل النظام العراقي المؤيد لبريطانيا، برئاسة عبد الإله ونوري السعيد، أيضاً "الخائن الأكبر"، فخري النشاشيبي. ونظراً لأنه كان يُعتبر موالياً صريحاً للبريطانيين إبان الحرب الأهلية ـ المرحلة الثانية من الثورة الكبرى ـ فقد حاول آل الحسيني اغتياله، مرات عديدة. في 8 تشرين الأول 1941، وبينما كان يسير في شارع الرشيد، الشارع الرئيسي في بغداد، أطلق فلسطيني النار عليه وأرداه قتيلاً.

أثار قتل الخصم الأشد مرارة لآل الحسيني إبان فترة النزاعات الدموية بين الفصائل الفلسطينية بين عاميّ 1938 و1939، موجة من الانفعال والتوتر الشديدين بين الجمهور الفلسطيني: شكّل الحدث دليلاً آخر على أن الحسابات الدموية بين الفرقاء الفلسطينيين لم تنته بعد، ولا حتى بعد انتهاء الثورة. قبل بضعة أيام من عملية الاغتيال، كان عبد القادر في بغداد لتلقي علاج طبي. ورغم الخصومة بينهما، التقى فخري النشاشيبي وطلب منه مساعدة في نقل زوجته، وجيهة، وأولادهما إلى مكان آمن، يمكن فيه ضمان الحماية والمساعدة لهم. وبينما كان عبد القادر في طريق عودته إلى الحبس

المنزلي في زاخو، جرى اغتيال فخري النشاشيبي. أرادت الشرطة البريطانية التي حققت في القتل استيضاح بعض التفاصيل من عبد القادر فأعيد إلى بغداد. كان القاتل أحمد نسيبة من القدس، من أتباع آل الحسيني، أحد المتطوعين في الثورة الكبرى ثم قاتَل في صفوف "الجهاد المقدس" في العام 1948، أيضاً. كان واضحاً تماماً أنّ لخلفية القتل صلة ليس فقط بأحداث الماضي، وإنما بأمر آنيّ أيضاً، إذ كان فخري النشاشيبي ناشطاً مركزياً في تجنيد فلسطينيين للمجهود الحربي البريطاني.

من قبيل الصدف، ربما، أن الضابط الذي أجرى التحقيق مع عبد القادر كان أحد قادة المعركة في أبو غريب وعلى جسر الفلوجة، قبل ذلك ببضعة أشهر. بحسب قاسم الريماوي، سأل الضابطُ عبدَ القادر: "كم مئة مقاتل كان معك في المعركة إياها؟"، فضحك عبد القادر لدى سماعه السؤال. "16 رجلاً، بصعوبة"، أجاب فأصيب الضابط بالصدمة، ضرب بخفة على جبينه مستهجناً وقال: "لو كنا نعرف هذا، لأجهزنا عليكم في الحال. فقد كانت بحوزتنا دبابات ومدافع وطائرات".

قصص من هذا القبيل هي سمة مميزة لموجات التقدير والإعجاب التي أحاطت بعبد القادر منذ ذاك الوقت ووصفته بأنه مقاتل صلب وعنيد. وقد روى المقربون الفلسطينيون منه في تلك الأيام (صبحي أبو غربية، فوزي القطب وأحمد نسيبة) أنه لم يكن يصدّق أن التمرد العراقي ضد البريطانيين يمكن أن ينتهي في غضون أيام معدودة.

سارع الحاج أمين إلى الفرار باتجاه إيران، برفقة مجموعة من المُهجَّرين الفلسطينيين، خشية إقدام النظام الموالي لبريطانيا، الذي عاد إلى الحكم في العراق، على الانتقام منهم. كانت الهزيمة السريعة قد فجّرت موجة من الغضب الذي تم توجيهه ضد الطائفة اليهودية. خلال أيام التمرد القليلة، أطلقت عناصر قومية عراقية، سوية مع المفتي الحاج أمين، دعوة إلى الجهاد. في الأول من حزيران، وبينما كان الجيش البريطاني يستعد لاقتحام بغداد التي شاعت فيها أجواء الاضطراب والفوضى، هاجم جنود عراقيون ومجموعة من الرعاع العرب منازل أبناء الطائفة اليهودية. قُتل 179 يهودياً في اضطرابات "الفرهود" سيئة الصيت ونُهبت بيوت اليهود. كان ذلك الحدث الأقسى في تاريخ المجتمعات اليهودية في العالم العربي في العصر الحديث.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان عبد القادر معتقلاً في بغداد سنة كاملة بشبهة الضلوع في قتل فخري النشاشيبي. في سجنه في العراق، أصبح عبد القادر، كما هو متوقع، زعيماً للسجناء. ولكونه الأكثر ثقافة منهم جميعاً، فقد ألقى عليهم محاضرات ودرّس الرياضيات والكيمياء. وفي السجن تدهورت حالته الصحية جرّاء الشظية التي

كانت اخترقت صدره في معركة بني نعيم، فنقل إلى المستشفى ومكث فيه بضع مرات. على عتبة العام 1944، بعد نحو أربع سنوات في العراق، وعلى خلفية طلب لتسليمه إلى الشرطة البريطانية في فلسطين، قررت السلطات العراقية التخلص منه بإرساله إلى دولة عربية تقبل باستقباله، أياً كانت. وفي نهاية المطاف، استقر الرأي على السعودية. غادر عبد القادر العراق في طريقه إلى مكّة، التي استقبله فيها الملك عبد العزيز بن سعود بحفاوة بالغة وحيّاه بكونه نجل "شيخ القضية" (الفلسطينية) موسى كاظم باشا، الذي "كان صديقاً شخصياً حميماً لي"، كما قال الملك. يبدو أنهما تعارفا حقاً حين كان موسى كاظم حاكماً على اليمن مندوباً عن الإمبراطورية العثمانية.

خضع عبد القادر لسلسة من العلاجات الطبية في السعودية، في محاولات للشفاء التام من الجراح التي أصيب بها خلال الثورة. كان يقضي جل وقت الفراغ في إنشاء علاقات مع أمراء ومسؤولين رسميين كبار في المملكة، لكي يقدموا الدعم اللازم، بالمال والسلاح، للمعركة التي توشك على الاندلاع في فلسطين. ثم انضم إليه أفراد عائلته. روى ابنه الأصغر، غازي، الذي وُلد في العراق، في مقابلة مع قناة "الجزيرة"، أنه يذكر أن والده انتظرهم لاستقبالهم لدى وصولهم إلى الميناء: "كنتُ في الثالثة من عمري وأذكر ذلك جيداً. قال لي أشخاص كانوا إلى جانبه "هذا أبوك". سألتُه: "أأنت عبد القادر الحسيني؟ أنت والدي"، فردّ قائلاً: "نعم، أنا والدك". الفترة الزمنية الأطول التي قضيناها معاً كانت في السعودية: نحو سنتين".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



6

متـعـاون

لم يتوجه عبد القادر نفسه إلى ألمانيا إبان الحرب، ربما لأنه كان معتقلاً في العراق. أما الذين وصلوا إلى ألمانيا وإيطاليا، بطرق ملتوية، فهم المفتي الحاج أمين وأفراد حاشيته، رئيس المتمردين العراقيين، رشيد عالي الكيلاني، والضابط العثماني السابق فوزي القاوقجي، بطل الكفاحات الوطنية في سورية والثورة في فلسطين.

اتسمت العلاقة بين القاوقجي والقيادة الفلسطينية بتناقض المصالح، بالمنافسة بين شخصيات عربية وبشبكة معقدة من العلاقات الشخصية. وُلد القاوقجي في طرابلس، لبنان، سنة 1890، وبعد تفكك الإمبراطورية العثمانية، أصبح رجلاً عسكرياً في خدمة الحركات الوطنية العربية، كثائر ضد الفرنسيين في سورية أولاً (1925)، ثم واضع أسس الجيش السعودي الذي أقامه عبد العزيز بن سعود. وفي 1932، استجاب لعرض قدمه له فيصل، ملك العراق، للحضور إلى العراق والتدريس في الأكاديمية العسكرية في بغداد. وفي 1936، تطوع القاوقجي لمساندة الثورة الفلسطينية الكبرى ولقّب نفسه بـ "القائد العام للثورة في سورية الجنوبية"، وهو اللقب الذي أثار، بالطبع، تحفظاً شديداً لدى الحاج أمين وأنصاره: فقد كانوا يعتبرون أنفسهم، وقتها، كياناً وطنياً مستقلاً يقاوم الاحتلال الأجنبي. ثم أثار القاوقجي غضب المفتي ورجاله، بدرجة أكثر حدة، عندما نشر تصريحات تتضمن استهتاراً بجماعات الثوار الفلسطينيين واستهزاء بها لعدم مصداقيتها، إذ وصف مقاتليها بأنهم "ينفعلون بسرعة، غير منضبطين ومن غير الممكن تفعيلهم في إطار قتال منظم" ـ وهي أقوال مميزة لرجل عسكري نظاميّ يستهتر بمقاتلي "الفزعة" الشعبية.

قضى القاوقجي أقل من ثلاثة أشهر في فلسطين الثائرة، بين آب وتشرين الثاني 1936. كانت قد سرت بين الفلسطينيين آنذاك شائعات تقول إنه يقيم علاقات مع الأمير عبد الله في شرق الأردن. عاد القاوقجي بعد الفترة القصيرة التي قضاها في البلاد، إلى بغداد وانضم هناك إلى مجموعة السياسيين والعسكريين المعارضين للبريطانيين. ويبدو أنه أقام في تلك الفترة، أيضاً، علاقات مع المخابرات الألمانية وكان شريكاً في التخطيط لثورة رشيد عالي الكيلاني. لكنه أصيب خلال الثورة ونُقل إلى ألمانيا لتلقي العلاج.

رغم أن الحاج أمين الحسيني وفوزي القاوقجي كانا في ألمانيا ونشطا في أوروبا خلال سنوات الحرب، لتحقيق هدف مشترك، إلا أن عداوة شخصية

شرسة قد نشأت بينهما. عمل كلاهما لتحقيق النصر الألماني على عدة جبهات وفي عدة مجالات، مثل الدعاية وجهود التجنيد، واعتبر كل منهما نفسه ممثلاً للأمة العربية المتحررة التي تبرم تحالفاً مع دول المحور. لكن هذا كله لم يقلل ـ بل ربما عمّق ـ الخصومة بينهما.

ما هو النشاط الحقيقي الذي كان يقوم به الحاج أمين الحسيني وفوزي القاوقجي في ألمانيا النازية؟ تنقّل كل منهما على حدة، مع رجاله، قرابة ثلاث سنوات، بين ألمانيا، إيطاليا ودول البلقان باحثين عن سبل لاستثمار السنوات الأولى من الحرب في مصلحة ما كانت تبدو لهما أنها التطلعات القومية للعرب. وصل القاوقجي إلى ألمانيا أولاً. في تموز 1941، حاول تنظيم مؤتمر عربي عام، برعاية ألمانية، منطلقاً من رغبة في تقليد الثورة العربية التي قادها الشريف حسين وأبناؤه ضد الإمبراطورية العثمانية إبان الحرب العالمية الأولى. في الأثناء، قطع المفتي الطريق من إيران إلى تركيا، رفقة قلة من أنصاره المقربين، متخفياً وبجوازات سفر مزورة، أغلب الوقت. ولدى وصوله إلى إيطاليا فقط عاد وأرخى لحيته ولبس العباءة التقليدية.

اعتبرت الحكومة الفاشية الحاج أمين الحسيني ضيفاً رسمياً وتعاملت معه على هذا الأساس: خصصت له مسكناً ورصدت له الميزانيات. ثم انضم إليه بعض مقربيه. التقى عدداً من رؤساء النظام الحاكم، كما التقى الزعيم بنيتو موسوليني، الذي ترك لديه انطباعاً قوياً. ويستدل من الوثائق والشهادات الموثقة عن تلك الأيام أن الحاج أمين واصل اعتبار نفسه ـ كما كان في بغداد ـ شخصية قادرة على قيادة الأمة العربية بأسرها في حرب تحرر من الإمبريالية، وليس مجرد سياسي فلسطيني فئوي لا يعنيه سوى وطنه هو.

كان موسوليني الشخص الذي رتّب للحاج أمين لقاءه مع هتلر؛ في تشرين الثاني 1941 وصل المفتي إلى برلين. فور وصوله إليها، زف إليه أحد رجاله، موسى عبد الله الحسيني، نبأ اغتيال فخري النشاشيبي، خصمه الأمرّ في فلسطين، في بغداد. التُقطت للمفتي وهتلر صورة مشتركة من اللقاء ـ نُشرت الصورة على نطاق واسع ـ الذي تحدثا خلاله عن التزام النازية تجاه القومية العربية. أوضح هتلر للحاج أمين أن القضاء على الشعب اليهودي هو جزء من المعركة العامة التي تخوضها ألمانيا، وذلك لأن اليهود يحيكون مؤامرات تهدف إلى القضاء على دول العالم. بعد سنوات من ذلك اللقاء، حاول المفتي إخفاء حقيقة ما قيل خلاله. عقب اللقاء، زار الحاج أمين "مركز الأبحاث" النازي في فرانكفورت ويبدو أنه أبدى تفهماً لكُرْه اليهود، على الرغم من أنه تبنى بعد الحرب الادعاء بأن الكراهية كانت تجاه الصهيونيين فقط. ومع السنوات، طُرح في إسرائيل أيضاً الرأي القائل بأنّ المفتي كان أحد المبادرين الرائدين لإبادة اليهود إبان الحرب العالمية الثانية، وهو الرأي

الذي يعتبره دارسو الهولوكوست سخيفاً؛ وقد كان بنيامين نتنياهو، رئيس الحكومة الإسرائيلية، أحد الذين جهروا بهذا الرأي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أوضح الحاج أمين في أحد تصريحاته التي تلت الحرب، أنه في أعقاب سيطرة البريطانيين على إيران، التي هرب إليها إثر فشل محاولة الانقلاب التي قادها رشيد عالي الكيلاني في بغداد، أعلنت السلطات البريطانية رصد جائزة بقيمة 25 ألف جنيه إسترليني لمن يلقي القبض عليه. وفقاً لهذه الرواية، لم يكن لديه، إذن، أي خيار سوى مغادرة إيران متخفياً: "لم أكن أستطيع العثور على ملجأ لي في أفغانستان أو في تركيا أو أي دولة إسلامية أخرى، ما أرغمني على السفر إلى ألمانيا بصحبة بعض إخوتي من المقاتلين في صفوف الجهاد المقدس، وبقيت هناك حتى انتهت الحرب"، كما قال لصحيفة مصرية.

كان الجزء المركزي من نشاط الحاج أمين في ألمانيا وإيطاليا مخصصاً لإدارة البث الدعائي في القسم العربي من إذاعة برلين، والتي أدارها شاب عراقي يدعى يونس بحري، وكذلك في الإذاعة الإيطالية الشعبية، راديو باري. ابتداء من منتصف الثلاثينيات، كانت إذاعة باري تبث لجميع الدول العربية، وكانت تخدم بذلك سياسات إيطاليا الفاشية التي كانت تعتبر حوض البحر المتوسط منطقة خاضعة لتأثيرها (أقيمت إذاعة "صوت القدس" التابعة لحكومة الانتداب البريطاني سنة 1936، كردّة فعل على شعبية إذاعة باري).

يبدو شبه مؤكد أن المفتي كان يعتبر النصف الأول من سنة 1942 الفترة الأفضل التي قضاها في أوروبا المحتلة: حققت جيوش الجنرال رومل آنذاك انتصارات مدهشة في شمال أفريقيا واقتربت من الحدود المصرية. سوية مع رشيد عالي الكيلاني، أعدّ المفتي آنذاك خططاً شاملة لمستقبل الأمة العربية الكبيرة التي سوف تتحرر من قيود الإمبريالية البريطانية والفرنسية. لكن ثمة شك كبير في ما إذا كانت لتلك الخطط، منذ البداية، أي قيمة جدية، سيما أن الخلاف قد دب بين الرجلين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هرب اثنان، على الأقل، من العسكريين الفلسطينيين الذين شاركوا في ثورة رشيد عالي الكيلاني في بغداد، إبان الحرب إلى تركيا وكانا، آنذاك، على علاقة مع المفتي. توجها من تركيا إلى إيطاليا، ألمانيا ودول البلقان. كان أولهما الشيخ حسن سلامة (أبو علي)، من قرية "قولة" في قضاء اللد، أحد قادة الثورة القدامى؛ وثانيهما هو ذو الكفل عبد اللطيف، من القدس، الذي كان يدرس في الأكاديمية العسكرية في العراق في العام 1936، بفضل منحة حصل عليها بطلب من الحاج أمين.

يشرح ذو الكفل عبد اللطيف في كتاب المذكرات الذي ألّفه، كيف أصبح المظليّ الفلسطيني الأول. بدأت رحلته حين غادر العراق، عقب فشل ثورة رشيد عالي الكيلاني سنة 1941. "غادرت إلى تركيا، وكنت أفكر في حمل السلاح والعودة إلى فلسطين لإنقاذها. هذا ما كنت أفكر به عندما التقيت إسحاق درويش وحسن أبو سعود في إسطنبول. نظما لي لقاء مع المفتي الحاج أمين الحسيني الذي روى لي أنه قد أنشأ علاقات صداقة ودية في ألمانيا كي تهب هذه لمساندته".

عرّف المفتي ذو الكفل عبد اللطيف على بعض المسؤولين الألمان. وهكذا، وصل ذو الكفل إلى برلين في منتصف 1943 وأُدرج في تدريبات الكوماندوس والسلاح. بعد ذلك، نُقل إلى مدينة صغيرة على الحدود مع تشيكيا، بعيداً عن القصف والغارات، كي ينخرط في تدريبات كوماندوس إضافية، سرّية، إلى جانب تدريبات الهبوط بالمظلات. وهذا ما كتبه في مذكّراته:

كانت المهمة تنظيم حملة في فلسطين هدفها تهيئة الأرضية بين عرب البلاد لعودة المفتي إلى فلسطين، تدريب وتأهيل فلسطينيين ضد البريطانيين والصهيونيين. المكتب العربي في حكومة الرايخ الألمانية هو الذي نظم كل شيء. كنت برفقة حسن سلامة الذي تعرفت عليه في العراق، خلال مشاركتنا معاً في تدريبات الكلية العسكرية في بغداد. كنا نسكن في فندق سوية مع سليم الحسيني وكنا معاً دائماً. كان المفتي يحب حسن سلامة ويثق به ثقة تامة.

شارك في التدريبات وفي حملة الهبوط بالمظلات ثلاثة ضباط ألمان من أبناء المستعمرات الألمانية في فلسطين: كورت فيلاند من يافا والملقّب بـ "هيشت"، فيراند فرانك من القدس والملقب بـ شميدت" وداينجر من حيفا الملقب بـ "شيفر".

ما الذي يدفع الألمان إلى إرسال جنود للهبوط بالمظلات في فلسطين في مرحلة متأخرة جداً من الحرب؟ من المنطقي الافتراض بأن الأمر كان بمثابة مكافأة ودعم للمفتي على ما بذله من أجل الرايخ الثالث، وليس خطوة عسكرية ذات صلة بالحرب. هذا ما كتبه ذو الكفل:

في الأسبوع الأول من سنة 1944، كنا على متن طائرة من اليونان إلى فلسطين. وصلت الطائرة إلى وادي القلط، في المنطقة ما بين دير حَجْلة وأريحا والبحر الميت. كان ذلك في الواحدة قبل الفجر وحلقت الطائرة وفوق منطقة زراعية. كانت الرؤية محدودة جداً. قالوا لنا إن المنطقة مفتوحة وليست فيها مزروعات أو كروم [...] لكن حصل خطأ في الطريق. هبطنا، بالمظلات، في منطقة مزروعة بالنباتات وبكروم الموز. بسبب النباتات، لم

يستطع أحدنا رؤية الآخر، كانت ثمة مسافة تفصل بين المظليين ولم يعثر أحدنا على الآخر، كما لم نعثر على المعدات التي تم إنزالها بالمظلات، وكان معها مال وسلاح، أيضاً.

روى ذو الكفل، أيضاً، أنه كان لوحده بعض الوقت ثم التقى شميدت. حاول كلاهما، معاً، العثور على حسن سلامة والألمانيَّيْن الآخرَيْن، لكن دون جدوى. مرت ساعات، طلعت الشمس وامتلأت المنطقة بالرعاة. "بقينا هناك حتى الظهر نبحث عن المظليين الآخرين. مرت من هناك دورية تابعة للشرطة البريطانية وبعض العرب، دلّنا أحدهم على منزل محيي الدين الحسيني، وسيطنا ودلّالنا الذي كان يمتلك بيتاً في المنطقة".

توجه ذو الكفل في المساء التالي للهبوط لمقابلة الوسيط. بقي شميدت في إحدى المغارات في المنطقة. "التقيتُ هناك نافذ، ابنَ الرجل الوسيط، وفهمت منه أن حسن سلامة وهيشت كانا عنده وهما في طريقهما الآن إلى ينابيع راس العين [روش هعاين]. نصحني بالانتظار. عدتُ إلى المغارة، انتظرتُ حتى الليلة التالية لالتقاء محيي الدين".

اصطدم في اللقاء مع محيي الدين، بمعاملة فيها تحفظ واضح، بل عدائية حتى. ليس فقط أن محيي الدين رفض مساعدته، إنما طلب منه مغادرة المنطقة أيضاً: "لا تحسبني مجنوناً"، قال له، "اتفقنا مع الإنكليز على وقف الهجرة اليهودية والحصول على استقلال بعد انتهاء الحرب ونحن الآن في تعاون تام معهم". أصيب ذو الكفل بالصدمة والذهول حين تبين له أن الوضع في فلسطين الآن مختلف عما كان يراه ويفهمه وهو في ألمانيا. لم يستطع حتى جمع المعدات والأموال التي أهبِطت معهم.

توجه شميدت وذو الكفل بعد اللقاء مع محيي الدين، نحو رام الله حتى وصلا، مع قليل من السلاح، إلى حظيرة مواشٍ قرب قرية مِخماس، إلى الجنوب الشرقي من رام الله. أحضر لهما عربٌ محليون بعض الغذاء. وبينما كانا يجلسان يتناولان الطعام شاهدا طائرة استطلاع يبدو أنها كانت تبحث عنهما. ظهر بعد ذلك بوقت قصير، جنود بريطانيون، أمرا الرجلين برفع أيديهما، واقتادوهما إلى التحقيق في سجن عسكري في حي الطالبيّه في القدس. خلال التحقيق، سأله الضابط: من أنت؟ وماذا تفعل؟"، فردّ ذو الكفل: "أنا ذو الكفل من القدس. كنت في ألمانيا لمساعدة شعبي في وجه جرائم الصهيونيين". سأله المحقق: "كم عددكم؟"، أجاب ذو الكفل، الذي كان يريد حماية حسن سلامة الذي نجح في الفرار: "كنا ثلاثة ـ هيشت وشميدت وأنا". "من أرسلك؟" ـ "المكتب العربي". "من هو رئيس المكتب؟" ـ "الحاج أمين". "كم من المال كان بحوزتكم ولأية غاية؟" ـ "كان معنا عشرة آلاف ليرة ذهبية للدفاع عن العربِ".

كان ذلك تحقيقاَ مدنياَ، يكتب ذو الكفل، تبعه تحقيق عسكري أجراه ضابط كان يتكلم العربية بلهجة عراقية:

قال لي: "أنت عراقي، كنت في الجيش العراقي، والآن أنت جاسوس ألماني". قلت له: "هذا غير صحيح. أنا ذو الكفل عبد اللطيف من القدس. لستُ عراقياً ولا جاسوساً. أنا ضابط في الجيش الألماني".

أبلغتُه التفاصيل التالية: "هبطنا يوم الجمعة، 10 تشرين الأول 1944. كنا ثلاثة: هيشت، شميدت وأنا. غادرنا برلين قبل ذلك بيومين. من مطار تمبلهوف إلى أثينا. ومن هناك، في الليلة ما بين الخميس والجمعة، إلى فلسطين. تلقينا مساعدة من راعيين: أبو المحمود وأبو العزّ". "ليس من شخص كنت تعرفه من قبل؟" ـ "لا (لم أرغب في ذِكر آل الحسيني). "الرعاة هم الذين أعطونا الخبز، البندورة والبصل".

في 20 تشرين الأول 1944، أُقلّ شميدت وذو الكفل بسيارة عسكرية ترافقها سيارة جيب، انطلقا في اتجاه الخليل. توجهوا جنوباً في منطقة صحراوية أولاً، ووصلوا في نهاية المطاف إلى الإسكندرية في مصر، حيث وُضعوا رهن الاعتقال في مقرّ مركز الاستخبارات البريطانية في الشرق الأوسط. وفيه خضعوا للتحقيق، مرة أخرى.

سألني المحقق: "من هو أبو علي؟" [كنية حسن سلامة]. مارسوا عليّ الضغط. لم يسمحوا لي بالنوم ولا بالجلوس. سألوني كل الوقت من هو أبو علي. لم يقدموا لي الطعام ولا الشراب. في النهاية قلت: "أبو علي هو أنا". قدموا لي ورقة وكان عليّ أن أقسم بأنني لا أعرف من هو أبو علي، بأننا كنا ثلاثة فقط وليس أكثر، بأن المفتي لم يكن معنا ولم يزودنا بتعليمات وأسماء وبأنني لم أتصل مع أي شخص في فلسطين، بعد الهبوط.

يروي ذو الكفل بأنه خضع للتحقيق بصورة متقطعة، ابتداء من كانون الثاني 1945 وحتى أيلول 1945؛ أي بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية أيضاً.

أعيد إلى فلسطين، إلى القِشلة في القدس، في منتصف آذار 1946. هناك، كان سعيداً بالتقاء أصدقاء مقدسيين أحضروا له مأكولات وحلويات من مخبز زلاطيمو ومقلوبة مقدسية. من القدس، نُقل إلى سجن عسكري في صرفند (تسريفين)، حيث سمع أحاديث باللغة العبرية بين "إرهابيين من عصابة شتيرن". من هناك، اقتادوه إلى سجن نابلس، القائم في قلعة عثمانية قديمة. وهذا ما كتبه عن تلك الفترة:

زارني شقيقي عادل وتصادقت مع مدير السجن. في أيلول 1947، مددوا فترة اعتقالي مرة أخرى وفي تلك الأثناء صدر قرار التقسيم وتصاعد الإرهاب

اليهودي. أعلن الإنكليز أنهم سيغادرون فلسطين في 15 أيار، فأبلغوني بأنهم سوف ينقلونني إلى سجن في كينيا في أفريقيا. قررتُ الهرب. ساعدني شبان وطنيون من نابلس، بينهم مأمون القُطُب، صاحب مكتبة. في كانون الأول 1947، ابتلعتُ مادة تسبب الإسهال وارتفاع درجة حرارة الجسم. ولأن وباء الكوليرا كان منتشراً في مصر آنذاك، فقد أصيب مسؤولو السجن بالذعر واستطعت الهروب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صدر في عمّان بالتزامن مع اندلاع الانتفاضة الثانية في العام 2000، كتاب مذكّرات ذو الكفل عبد اللطيف، بعنوان مذكراتي: قصة كفاحي من الثورة الفلسطينية الكبرى إلى حرب 1948. بعد وقت قصير من صدروه، وصل هذا الكتاب إلى المكتبات في القدس الشرقية، وحين قلّبتُ صفحاته وجدتُ اسم مأمون القُطُب، الذي وصفه الكاتب بأنه شاب وطني ساعد ذو الكفل بالهرب من سجن نابلس.

استغربتُ الأمر. كنت أعرف مأمون القُطُب جيداً، لكننا لم نتحدث، مطلقاً، عن مساهمته في الكفاح الوطني الفلسطيني. كنت معتاداً، لسنوات عديدة جداً، على زيارة كشك الصحف والقرطاسية الذي كان يملكه في وسط مدينة نابلس والاستماع إلى أخبار "جبل النار". كان مأمون القُطُب قصير القامة، ودياً ومضيافاً، مُلمّاً بكل ما يحدث في المنطقة، وكان يجيب على أسئلة صحافي مزعج مثلي، بكل سرور وأناة.

حدثت معي قبل ذلك بسنوات عديدة، في حانوت القُطُب حادثة غير لطيفة. كانت تلك الأيام الأولى من الانتفاضة الأولى، في شتاء 1988. دخلتُ إلى الحانوت بينما كان مأمون مشغولاً مع بعض الزبونات، طالبات في المدرسة الثانوية. وقفتُ في زاوية الحانوت الصغير، بانتظار أن يفرغ. كنت في الأثناء أتصفح إحدى الجرائد. فجأة، اقتحم الحانوت شابان ملثمان وقالا إنهما يريدان استخدام ماكينة التصوير التي كانت بجانبي، لتصوير 50 نسخة من منشور. لم تكن الحواسيب والطابعات موجودة في تلك الأيام، بعد، وكان إعلام الانتفاضة، وخصوصاً القرارات والنداءات بشأن الإضرابات والمظاهرات، يجري من خلال المناشير التي يتم توزيعها في الشوارع. "قِف عند الباب لمنع دخول اليهود"، قال أحد الشابين لرفيقه. كان يقصد جنود الجيش الإسرائيلي الذين كانوا يتجولون في المدينة. سارعت الطالبات إلى الخروج وسمعتُ مأمون القُطُب يقول للشابين: "أنجِزا مهمتكما بسرعة" وهو يرسل إليّ نظرات مذعورة. دفنتُ رأسي في الصحيفة واسترقتُ النظر خفية إلى ماكينة التصوير: لم يكن الشاب يتخيل أن أحد "اليهود" يقف لصقه في داخل

الحانوت. كانت تلك مناشير حركة "حماس". تنفسنا، مأمون القُطَب وأنا، الصعداء حين غادر الشابان.

بعد ذلك بسنوات، عندما رأيت اسم مأمون القُطُب في كتاب مذكّرات ذو الكفل، أسرعتُ إلى الاتصال بمأمون، في حانوت القرطاسية في الساحة المركزية في نابلس، مقابل معمل الصابون العتيق التابع لعائلة طوقان. لم يُجب مأمون. قال لي ابنه إن والده قد توفي، قبل ذلك ببضعة شهور. لم يكن يعرف أي شيء مما قصصتُه عليه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت مسألة هبوط حسن سلامة وذو الكفل عبد اللطيف بالمظلات في أريحا، مبعوثين في مهمة من قبل الألمان، حدثاً عابراً وثانوياً في تاريخ العلاقات بين النشطاء الفلسطينيين وألمانيا النازية. كان نشاط الحاج أمين في أوروبا المحتلة في تلك السنوات أكثر أهمية بكثير بالطبع. في أواخر الحرب العالمية، تدهورت أكثر فأكثر العلاقة بين الحاج أمين الحسيني والضابط فوزي القاوقجي. ربما كان الأمر عائداً، أيضاً، إلى بعض الغيرة والمنافسة الشخصية. غضبَ القاوقجي بسبب تدخل المفتي في أمور عسكرية هي ضمن تخصصه هو، مثل "حملة هانيبعل" ـ عملية الهبوط بالمظلات في أريحا ـ أو نشاطه الواسع لإنشاء لواء إسلامي في البلقان وتنظيم المسلمين في شمال القوقاز لمساندة الألمان. وفي ألبانيا، نجح المفتي حقاً في تنظيم وتشكيل وحدة إس. إس محلية ساعدت في إبادة يهود البلقان.

لعبت الخصومة والعدائية، الشخصيتان والسياسيتان، بين المفتي الحاج أمين الحسيني وفوزي القاوقجي، دوراً مهماً، وربما حاسماً، في الاستعدادات العربية لحرب في البلاد، لمعارك 1948، ولمعركة القسطل أيضاً. فخلال الحرب، اشتعلت بين الرجلين حرب وشاية وتشهير متبادلة. في مرة واحدة على الأقل، وصلت "رسالة وشي" كهذه، بعد الحرب، إلى أيدي استخبارات الهاغناه. وفي وثيقة وجهها إلى الألمان، يصف المفتي القاوقجي بأنه عميل، لا أقلّ، و"جاسوس لليهود". هذه الوثيقة عرضها مسؤول الدائرة العربية في الهاغناه، يهوشواع لبلمون، على القاوقجي خلال لقاء بينهما في العام 1948، في قرية قرب طولكرم (بلمون كشف عن ذلك في مقابلة أجراها معه قسم التاريخ الشفوي في جامعة تل أبيب، سنة 1980. يمكن أن نفهم من المقابلة أن العلاقة بينهما كانت قائمة من قبل ذلك أيضاً).

لم يكن القاوقجي جاسوساً لليهود خلال سنوات الحرب في أوروبا، بالطبع. أما في سنوات ما بعد الحرب، فبالإمكان تصنيفه ضمن تلك المجموعة من السياسيين العرب، غالبيتهم الساحقة من الموالين لبريطانيا، الذين كانوا على استعداد للتوصل إلى تسوية مع الييشوف اليهودي؛ السياسيين الذين لم

يقبلوا بموقف "الكل أو لا شيء" الراديكالي الذي تشبث به الحاج أمين وشركاؤه في المعسكر الوطني الفلسطيني. كان من بينهم من اتخذ هذا الموقف على خلفية مصالح سياسية، منافع شخصية، أو بتأثير خلافات ونزاعات داخلية في المجتمع العربي. كان في مقدمة هؤلاء الملك عبد الله، من شرق الأردن، وحلفاؤه الفلسطينيون من الجماعات المعارضة الذين كانوا محسوبين على معسكر آل النشاشيبي. كان آخرون كهؤلاء في سورية، بما في ذلك في معركة الضباط، مثل أديب الشيشكلي الذي نشط في فلسطين تحت إمرة القاوقجي. وكان ثمة آخرون مثلهم في لبنان ومصر أيضاً.

كان المفتي والقاوقجي، في نظر كثيرين من دعاة ونشطاء القومية العربية والفلسطينية، بمثابة بطلين، حتى بعد هزيمة ألمانيا وحلفائها في الحرب، لكنهما كانا، وخصوصاً المفتي، عكس ذلك تماماً في نظر المنتصرين، وفي أعين اليهود بالتأكيد. كان أسلوب المفتي اللاذع ضد اليهود، والذي اشتهر به منذ بدايات تأسيس سلطات الانتداب البريطاني ومنذ أحداث 1929، ثم تطور وتصاعد في العراق إزاء الدعوة إلى الجهاد، تجسيداً للدعم الذي قدمه لماكينة الحرب والإبادة النازية في أوروبا. أصبحت مقاومة المفتي ورجاله، وبضمنهم عبد القادر، في نظر اليهود، حرباً أخلاقية من الدرجة الأولى ـ جزءاً من المعركة ضد المتعاونين مع النازية. ولذا، كانت الوثائق والصور التي وثقت علاقات المفتي مع هتلر وسفاحيه سلاحاً مهماً جداً، ناجعاً ومقنِعاً، في المعركة السياسية التي خاضها اليشوف اليهودي والحركة الصهيونية سنة 1948.

في ضوء هذا كله، وفي السياق التاريخي لأحداث النكبة، كان من الصعب على المجتمع الدولي إبداء أي شفقة أو رحمة حيال ضائقة الفلسطينيين في الوقت الذي يتصدر فيه قيادتهم شخص خادم للنازيين، هو الحاج أمين الحسيني. لم تُبد أوروبا، التي شهدت إبان الحرب وعقبها فظائع لا نهائية، عمليات طرد وتهجير ملايين اللاجئين من ضحايا الحرب، أي تعاطف مع مصائب الفلسطينيين الذين فقدوا بيوتهم وممتلكاتهم في الحرب التي اشتعلت في فلسطين بعد الحرب العالمية بثلاث سنوات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



7

«إمّا نحن وإمّا هُم"

كان عبد القادر الحسيني في مساء يوم 29 تشرين الثاني 1947، في القاهرة. كان قد حطّ هناك، مع أفراد عائلته، قبل ذلك بنحو سنتين، في الأول من كانون الثاني 1946. فور انتهاء الحرب العالمية، مباشرة، أجرى مقربوه الترتيبات اللازمة ليحصل على تأشيرة دخول إلى مصر، بعد أن كان طرد منها حين كان طالباً جامعياً متمرداً في العام 1932. أغلق عبد القادر بذلك دائرة كاملة في الدول العربية المحيطة بفلسطين ـ لبنان، سورية، العراق، السعودية، ومصر الآن ـ دائرة بدأها بعد إصابته مرتين، في 1936 و1938، في معارك الثورة الكبرى ضد البريطانيين.

تغيب دولة واحدة عن هذه القائمة أعلاه: أمارة شرق الأردن، التي كان يحكمها الأمير ـ ثم الملك، ابتداء من 1946 ـ عبد الله. عقب الحرب العالمية الأولى، كانت شرق الأردن أمارة صحراوية ضعيفة لم يكن فيها، تقريباً، أي مجال أو إمكانية للعمل السياسي والعسكري. كان استقلالها محدوداً جداً والتأثير البريطاني فيها وعليها كان واضحا في مختلف مجالات الحياة، بما في ذلك في جيشها الصغير الذي كان تحت قيادة ضباط بريطانيين، يترأسهم غلوب باشا الذي لقّبه العرب بـ "أبو حْنيك" ("أبو حناك"، تعبيراً عن التشويه الكبير الذي خلّفته إصابة في فكّه السفلي).

في المقابل، أصبحت مصر إبان سنوات الحرب مركزاً سياسياً وعسكرياً مهماً. في تشرين الثاني 1943، عقد في القاهرة لقاء قمة جميع بين رئيس الولايات المتحدة، روزفلت، رئيس الحكومة البريطانية، تشرتشل، وزعيم الصين آنذاك، الجنرال يسمو تشانغ كاي شِك، الذين تداولوا سبل الاستعداد في وجه اليابان. وأنشئت بعد سنتين، في تشرين الثاني 1945، في القاهرة جامعة الدول العربية، بإيحاء من بريطانيا. كذلك، كان في القاهرة في تلك الفترة جنود ووحدات يهودية من الجيش البريطاني، كانوا يخدمون في القاهرة والإسكندرية، وفي القواعد العسكرية البريطانية الكبيرة الممتدة على طول قناة السويس. وفي آذار 1945، أُعدِم في القاهرة أعضاء الخلية السرية التابعة لمنظمة "ليحي"، إلياهو حكيم وإلياهو بيت تسوري، بعد أشهر قليلة على قتلِهما الوزير البريطاني لشؤون الشرق الأوسط، اللورد موين، رمياً بالرصاص. وفي مطلع 1946، بدأ يتوافد إلى القاهرة، تدريجياً، أعضاء القيادة الفلسطينية في الشتات ونشطاء الثورة الذين هجروا البلاد. وهكذا، وصل المفتي الحاج أمين الحسيني إلى القاهرة، في آذار 1946؛ أي بعد نحو شهرين من وصول عبد القادر إليها.

كان الحاج أمين يبحث له عن ملجأ عقب الحرب العالمية، التي كان خلالها متعاوناً مع ألمانيا النازية ومسؤولاً عن بث الدعاية المناوئة لبريطانيا باللغة العربية. لم يكن في مكانة بارزة بما يكفي لتقديمه إلى المحاكمة كمجرم حرب، فاستطاع الهرب إلى باريس، بمساعدة بعض الأصدقاء. وهناك، اعتُقل في البداية، لكن أفرج عنه بعد وقت قصير. وبعد ذلك، نجح في الوصول إلى القاهرة عبر إيطاليا واليونان. رحب الملك المصري فاروق بقدوم المفتي إلى مصر الآن، بعدما واجه نظامه فترة من التوتر الشديد بسبب معارضة القوى الوطنية المصرية جعلَ مصر قاعدة مركزية لجيوش بريطانيا ودول الحلفاء. وضع الملك تحت تصرف المفتي قصر أنشاص، ثم قصر المعمورة، ونشرت الحكومة المصرية بيان تحية وترحيب بـ: "بطل الأمة العربية الذي يحل ضيفاً على القاهرة". فقد أراد الملك أن يثبت لأبناء شعبه أنه ملك عربي قومي مخلص وأن يؤكد أمام الحكومة البريطانية أنه حاكم ليس بمنّة من الأغراب ولا بفضلهم.

تعرض المفتي في وقت لاحق لاعتداء بادعاء أنه لم يكلف نفسه عناء الوصول إلى وطنه خلال المعركة السياسية والعسكرية على مستقبل فلسطين. كذلك لم يعد غالبية رفاقه أعضاء اللجنة العربية العليا (التي غيّرت اسمها بعد الحرب إلى "المجلس العربي الأعلى"، لكن ما زال متّبعاً استخدام اسمها الأول) إلى الوطن من منافيهم إبان الحرب. وكان التفسير الذي قدمه هؤلاء جميعاً، بمن فيهم المفتي نفسه، أن السلطات البريطانية منعتهم من الدخول إلى فلسطين. والحقيقة أن البريطانيين منعوا الحاج أمين من الدخول إلى فلسطين، لكنهم سمحوا لأعضاء آخرين من اللجنة بالعودة، غير أنهم فضلوا الامتناع عن ذلك. الوحيد الذي عاد إلى البلاد وبقي مقيماً دائماً فيها هو رئيس بلدية القدس سابقاً، د. حسين الخالدي، الذي وجه نقداً حاداً لرفاقه في هذه المسألة الحساسة.

استقبل عبد القادر، الذي استأجر له شقة في حي شُبرا الشعبي في وسط القاهرة، الحاج أمين بإعلان ولاء: "أنت عمي المحترم، عاشق الوطن، أنت قائدي. سأبذل كل شيء تحت قيادتك، دون خوف، مجنّداً إلى الأبد وجندياً مستعداً للموت من أجل الأمة، وهكذا أيضاً زوجتي وأولادي". ردّ عليه الحاج أمين بشعارات مشابهة: "أنت المقاتل الشجاع، أنت مثل ابنٍ لي، مثل أخٍ صغير".

قُدّر عدد النشطاء الفلسطينيين الذين التفوا حول المفتي وعبد القادر في القاهرة بالعشرات، وربما المئات. جاء كثيرون من بينهم استجابة لدعوة عبد القادر، وبينهم معارف من أيام الثورة في منطقة القدس: رجل الشرطة البريطانية السابق كمال عريقات ومعه رشيد عريقات، من العائلة الكبيرة من

بلدة أبو ديس؛ عبد الحليم الجولاني؛ قاسم وصلاح الريماوي من قرية بيت ريما في محافظة رام الله؛ إبراهيم أبو دية، الذي برز بشجاعته إبان الثورة؛ الشقيقان صبحي وبهجت أبو غربية؛ الشيخ حسن سلامة (أبو علي). كما حضر أيضاً خليل منون، رئيس شباب عين كارم، وحافظ بركات أبو الفيلات. سيتولى جميع هؤلاء بعد ذلك بعامين، مواقع مركزية في معارك القدس وفي قيادة معركة القسطل. أحد الشبان الذين انضموا إليهم هو عوض تُرمُسعاوي، ابن قرية ترمسعيا، الذي أصبح فيما بعد الحارس الشخصي لعبد القادر، وهو أحد آخر الأشخاص الذين رأوا عبد القادر ليلة وفاته بين بيوت قرية القسطل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان بين المجتمعين حول المفتي وعبد القادر، أيضاً، فتى في السابعة عشرة من عمره، طالب في المرحلة الثانوية، يدعى عبد الرحمن عبد الرؤوف عرفات القدوة الحسيني ـ الذي كان قد أصبح معروفاً، باسمه المختصر: ياسر عرفات. كان خاله، الشيخ المقدسي حسن أبو سعود، الذي كان إلى جانب المفتي في القاهرة، هو الذي أحضره إلى الساحة الفلسطينية في القاهرة. كان والدا عرفات قد هاجرا إلى القاهرة قبل ذلك بسنوات وقد وُلد هو هناك في العام 1929. توفيت أمّه، زهوة أبو سعود، وهو في الثالثة من العمر فأرسله والده، وهو من خانيونس في الأصل، إلى بيت عائلة أمّه في القدس. عاد الفتى ياسر عرفات إلى الدراسة في مدرسة في القاهرة وكان يقيم، أكثر الوقت، في منزل شقيقته إنعام. لكنه كان يشعر بأنه غريب في مصر فأخذ يبحث عن طرق للتقرب من الجالية الفلسطينية. بعد ذلك بسنوات، انتاب عرفات شعور بعدم الارتياح إزاء حقيقة ولادته في القاهرة، حتى أنه حاول إخفاء هذه الحقيقة وإنكارها. لكنه لم يستطع التخلص من اللهجة المصرية الواضحة، حتى حين أصبح إنساناً بالغاً يُطلب منه، أحياناً كثيرة، إلقاء كلمة أمام الجمهور. وقد عبّر مؤسسو حركة "فتح" الذين التقوه للمرة الأولى عن استغرابهم: كيف يمكن لشخص يريد أن يكون رئيساً للحركة الوطنية الفلسطينية أن يكون مولوداً خارج الوطن أصلاً؟ ثار هذا السؤال، أيضاً، على خلفية الادعاء الوطني بأن الفلسطينيين هم أصحاب البلاد "الأصلانيون"، على عكس اليهود، "المهاجرين الأغراب".

كان عبد القادر الحسيني أكثر من جذب انتباه عرفات من بين المهجرين الفلسطينيين جميعاً. وكان عرفات يتردد إليه في منزله، كثيراً. وحسب ما روى، فقد كان يلعب مع ابنه فيصل، ابن السنوات الست، ويقرأ معه آيات من القرآن الكريم. وروى عرفات، لاحقاً، أنه انخرط في تلك الفترة في فعاليات مجموعة عبد القادر من المقاتلين القدامى في القاهرة. بعد سنوات عديدة، بعد إقامة السلطة الفلسطينية في رام الله، ساءت العلاقة بين عرفات وفيصل الحسيني، الذي كان مسؤولاً عن ملف القدس في منظمة التحرير

الفلسطينية. فقد ادعى فيصل الحسيني بأنّ عرفات يظلمه في المخصصات المالية التي وعد بها سكان القدس العرب، وكان بين القلائل جداً الذين تجرأوا على انتقاد عرفات بسبب الخروقات المالية التي ميّزت القيادة في رام الله.

لم يكن عرفات، منذ صغره، يستسيغ تذكيره بانتمائه إلى عشيرة الحسيني الكبيرة في غزة، والتي تقيم علاقة بعيدة وغير مباشرة مع العائلة في القدس. حين كان طالباً في الجامعة، أسقط عرفات اسم "الحسيني" من بطاقة هويته مكتفياً باسم القدوة. أحد التفسيرات التي طُرحت لذلك هو أن عرفات أراد التنصل من عشيرة الحسيني، إذ كان كثيرون من الفلسطينيين اتهموا، بعد 1948، الحاج أمين والقيادة من آل الحسيني بالمسؤولية عن مأساة النكبة. ومن نافل القول إنه كانت ثمة فوارق طبقية بين فيصل الحسيني ـ من النخبة المقدسية ـ وياسر عرفات، ابن صاحب حانوت بقالة من خانيونس، هاجر إلى مصر بغية البحث عن ميراث جدته المصرية التي كانت تملك قطعة أرض في القاهرة. وكما سلف، فإن حقيقة مغادرة والده البلاد لدواعٍ اقتصادية وولادته هو نفسه في القاهرة، أثارت قلقاً لدى عرفات الذي حاول حجبها طيلة سنوات نشاطه السياسي، خشية أن تمسّ بمكانته كقائد أصيل وذي أحقية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان عبد القادر يقوم إلى جانب النشاط السياسي الذي كان يقوم به المفتي الحاج أمين وزملاؤه من اللجنة العربية العليا، بنشاط عسكري مكثف، أيضاً، في صلبه محاولة لدمج الشبان وتجنيدهم حوله في إنشاء هيكل ما لقيادة تقبض على زمام الأمور عند اندلاع المعارك. أقيمت أقسام للقتال، قسم للاتصال، قسم للاستخبارات، وكذلك قسم سياسي للتنسيق مع اللجنة العربية العليا. ثمة شك في ما إذا كانت لهذا الهيكل القيادي قيمة كبيرة. ما يجري التشديد عليه في جميع المذكرات من تلك الفترة هو الجهد الذي بُذل لشراء الأسلحة وجمعها.

كانت الصحراء الغربية المصدر المركزي للحصول على السلاح بطرق غير رسمية. خلال سنوات الحرب، كانت الصحراء على الحدود المصرية ـ الليبية ميداناً لمعركة كبيرة بين وحدات بريطانية مسلحة جيداً وقوة التدخل الألمانية. مع انتهاء المعارك، بقيت في الصحراء كميات هائلة من الأسلحة، من أنواع مختلفة، وكميات هائلة من الذخائر. انقض البدو من المناطق الحدودية على هذا المخزون وبدأوا يبيعون محتوياته، لكل من يدفع سعراً أعلى. وصل جزء من هذه الأسلحة والذخائر إلى أيدي تجار خبأوه في القاهرة، لكنّ السوق المركزي للوسائل القتالية ـ السلاح الخفيف، الراجمات والمدافع الخفيفة،

القنابل اليدوية، الألغام والمواد المتفجرة ـ كان في بلدة مرسى مطروح، قريباً من ميدان المعركة المعروف بهذا الاسم.

أرسل عبد القادر رجاله إلى سوق السلاح المذكور. استأجروا شاحنة صغيرة مع سائقها السوداني، محمود دياب، الذي كان أيضاً دليلاً لهم في الطرق الصحراوية، كما استعانوا بثلاثة جنود الألمان هربوا من المعارك. نقلوا الأسلحة التي اشتروها إلى ثلاثة مخابئ في القاهرة، حوّلوها إلى مخازن لاحقاً. كان من بين الناشطين في جمع السلاح عبد الله مهنا من بلدة مَسْمِية في الجنوب (بجانب «جديرا»)، عبد الرحمن شحادة من لِفتا (عند مشارف القدس) وخليل الغوري من بيت عور (إلى الغرب من رام الله). في شهاداتهم المفصلة التي أودعها الثلاثة لدى قاسم الريماوي، رووا أنهم توجهوا إلى تجار السلاح البدو باستخدام مبرر ديني مؤثر: «نحتاج إلى السلاح للدفاع عن قدسية الأقصى». هبّ لمساعدتهم، أيضاً، الناشط الفلسطيني ابن صفد الجليلية، صبحي الخضرا، الذي كان عضواً في اللجنة العربية العليا، ثم شارك لاحقاً في أعمال اللجنة العسكرية التي شكلتها جامعة الدول العربية. ويتحدث الثلاثة أيضاً عن وكلاء يهود كانوا يحاولون الحصول على السلاح من المصادر ذاتها.

كان ينبغي تنظيف السلاح، تصليحه والأهمّ: إيجاد سبل لنقله إلى فلسطين. إحدى الطرق كانت بواسطة قوارب كبيرة كانت تبحر من الإسكندرية إلى صيدا في لبنان. ومن هناك تم تهريب السلاح إلى قرى الجليل. لكنّ المسار المركزي كان عبر شبه جزيرة سيناء، مروراً برفح وخانيونس وصولاً إلى المخازن في منطقة القدس. اضطلع إبراهيم أبو دية، ابن عائلة الفلاحين المعروف لنا من قرية صوريف في جبل الخليل، بدور مهم في عمليات نقل السلاح إلى منطقة القدس. في العام 1946، حينما وصل إلى الحلقة المحيطة بعبد القادر في القاهرة، أخبره أبو دية بأنه قد جهّز مكاناً مناسباً لتخزين السلاح، في أقبية بيته الكبير في مركز صوريف القديم. وبالفعل، تم نقل كمية غير قليلة من الأسلحة التي تم تهريبها من الصحراء الغربية إلى تلك المخازن في القرية ـ ليس إلى منزل أبو دية فحسب، وإنما إلى بيت أحد الجيران، جمال أبو فاره، وإلى بناية مطحنة القمح الكبيرة المهجورة، أيضاً. في لقاء لي مع ابن أخت إبراهيم أبودية، أحمد عبد العزيز عثمان، في صوريف في تموز 2012، أخبرني بأن ثلاثاً من شقيقات إبراهيم ـ عائشة، مريم وعزيزة، سوية مع زوجة أبو دية نفسه، الشابة معزوزة، هن اللواتي تولّين مهمة تنظيف السلاح ومراقبته.

قررت مجموعة المقاتلين القدامى في القاهرة أن يُطلق على الوحدة العسكري الفلسطينية اسم «الجهاد المقدّس»، وهو الاسم الذي كان قد

استُخدم خلال الثورة الكبرى. تم تبني ها الاسم من جديد في القاهرة لعدة أسباب، أبرزها أن رئيس الحركة هو شخصية دينية بارزة ـ مفتي القدس ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى. إلى جانب قسم الاستخبارات وشبكة الاتصال، التي شملت محطة إرسال صغيرة أيضاً، أنشئ في القاهرة مختبر لإنتاج المواد المتفجرة، منظومة للنشر وطباعة البيانات، وجهاز لمعالجة قضايا السلاح وتدريبات المقاتلين.

لاحقاً، وفي مقابلة مع صحيفة المصري في العام 1954، وصف الحاج أمين نشاطه في القاهرة بأنه تنظيم وتسيير منظومة معقدة وشاملة: «أقمنا في مصر عدداً من المعامل، الدورات والمخازن، لغرض تصليح السلاح، صيانته وتخزينه، لأن معظمه كان من بقايا ما خلّفته الجيوش أو كان مدفوناً تحت الأرض ومرمياً في الصحراء [...] وبالرغم من شح الموارد المالية التي كانت متوفرة لنا، استطعنا امتلاك كمية كبيرة من السلاح والمعدات من أصناف مختلفة تم نقلها إلى فلسطين، وسط مصاعب ومخاطر جمّة، على طول مئات الكيلومترات من الصحارى والحدود".

لم يكن وجود عبد القادر في القاهرة مريحاً له أو سهلاً. كان يتعرض لمضايقات من موظفي الحكومة، وذلك بضغط من البريطانيين الذي كانوا يطالبون بطرده من مصر. كانت تلك أيام توتر شديد: كان النشطاء الفلسطينيون ينتظرون، بقلق، قرار تقسيم البلاد. وحين صدر القرار في الجمعية العمومية للأمم المتحدة، أيقن عبد القادر ورجاله، على الفور، أن عليهم التحرك على وجه السرعة. كان معنى ذلك واضحاً: أن الحرب على مستقبل البلاد قد بدأت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المُقتبَس الأكثر رواجاً بشأن المعارضة الفلسطينية للتقسيم هو من الحاج أمين. فقد أعلن: "الأمة التي تريد الحياة لا ترضى بتقسيم وطنها". كان، ورجاله، يؤمنون بأن التقسيم هو "السلاح الأكثر خسّة الذي تمزق الكولونيالية بواسطته قلوب الشعوب المستَضعَفَة والمظلومة". وبحسب المستشرق تسفي إلـبيلغ، عرض المفتي لاحقاً نماذج عن جميع الأمم التي رفضت الموافقة على تقسيم أوطانها: مصر لم تقبل بأن تُقتطع منها قناة السويس؛ سورية لم تقبل بإخلاء لواء الإسكندرونة لصالح تركيا؛ اليمن لا تقبل بالتنازل عن إمارة عدن؛ إيرلندا لا تقبل بالتنازل عن الجزء الشمالي منها؛ إسبانيا تطالب باستعادة جبل طارق؛ وغيرها.

رفضت جميع الدول العربية "مخطط النهب" وأعلنت، تجاه الخارج على الأقل، أنها ستتخذ كل التدابير ـ أي، ستلجأ إلى استخدام القوة والسلاح، أيضاً ـ

لإجهاضه. وكان عبد القادر الشخص الذي أوضح ذلك بكلمات أكثر فظاظة، إذ قال:

حاولنا بالطرق الدبلوماسية إقناع دول الأمم المتحدة بعدم إصدار قرار كاذب وغير منصف، لكنها لم تُصغ للكلام. ولهذا، قررنا القتال. نحن مصرون على القتال حتى النهاية؛ نحن، أبناؤنا وأصدقاؤنا؛ كل ما نطلبه هو العيش بسلام، إلا أن الدول العظمى لا تريد ذلك.

لم تكن المعارضة الفلسطينية لقرار التقسيم نابعة من مبررات إيديولوجية مبدئية بشأن الأمة التي لا تقبل بتقسيم وطنها، فقط، وإنما أيضاً من أسباب عملية أيضاً. فطبقاً لحدود التقسيم، كان يُفترض أن يبقى في الدولة اليهودية نحو 400 ألف عربي، مقابل نحو 600 ألف يهودي. وقد ساد بين أوساط واسعة من الجمهور الفلسطيني شعور بأن هذا الترتيب غير عمليّ، إذ لن يوافق اليهود فعلياً على أن تكون ضمن حدود دولتهم أقلية عربية تشكل نحو 40٪ من مجمل عدد السكان وأنهم سيفعلون كل شيء من أجل إبعاد العرب وطردهم من الدولة اليهودية.

كان عبد القادر يخشى خلال الأيام التي تلت صدور قرار التقسيم ـ وهو ما عبر عنه جهاراً ـ من أن يضطر الفلسطينيون للقتال وحدهم ضد تقسيم وطنهم وأن تكون معارضة الدول العربية بمثابة ضريبة كلامية فقط، ليس إلا. في الحقيقة، كان عبد القادر مقتنعاً بأن الدول العربية موافِقة على التقسيم. لم يكن عبد القادر مخطئاً، ولو فيما يتعلق بمملكة شرق الأردن على الأقل. ويبدو من شبه المؤكد أنه قد صدق فيما يتعلق بزعماء عرب آخرين، وافقوا على التقسيم، بالتزام الصمت أو بالتلميح. ومع مرور السنين، اتضحت الصورة أكثر فأكثر وتكرس في الرأي العام الفلسطيني الرأي الواضح بأن الحكومات العربية قد باعتهم في 1948، خانتهم وتخلت عن فلسطين.

تعزز هذا الرأي بين الفلسطينيين، على مرّ السنوات، وخصوصاً على خلفية معاهدة السلام التي وقعتها إسرائيل ومصر في العام 1979. فقد أصرت مصر، في تلك الاتفاقية، على أن تستعيد إلى سيادتها شبه جزيرة سيناء، بينما اكتفت في الموضوع الفلسطيني بوعد ضبابي بإقامة حكم ذاتي في الضفة الغربية وقطاع غزة. لم يُخرج السلام بين مصر وإسرائيل من دائرة المواجهة الجيش المصري وحده فقط، بل الجيوش العربية عامة. وعمّقت هذه المعاهدة شعور الفلسطينيين بأن الخلاص لن يأتي من مواجهة عسكرية تخوضها الدول العربية ضد إسرائيل، وإنما من خلق وتصعيد معارضة شعبية. لكن تجاهل مشكلة اللاجئين والشتات الفلسطيني برز في اتفاقيات أوسلو أيضاً، التي أقيمت بموجبها وفي أعقابها السلطة الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة، وهو ما نحّى ذاكرة الفقدان من 1948 جانباً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دخل عبد القادر إلى فلسطين بعد صدور قرار التقسيم بثلاثة أسابيع، في 22 كانون الأول 1947 تحديداً، وعلى خلفية المداولات والقرارات في اللجنة العربية العليا وفي جامعة الدول العربية بشأن سبل مقاومة التقسيم. وصل إلى جبال الخليل بداية، إلى منزل إبراهيم أبو دية في قرية صوريف.

تحكي التوثيقات الفلسطينية عن ذلك اليوم من فصل الشتاء، في أواخر شهر كانون الأول، حين سرى في شوارع القدس والقرى المجاورة لها النبأ: "أبو موسى عاد". أصبح اسمه على كل لسان. وعلى الرغم من أنه كان لا يزال بمثابة مطلوب للسلطات البريطانية، إلا أنها لم تحاول اعتقاله. قطعت سيارته حدود سيناء وجنوب البلاد، صعدت في اتجاه بلدة بيت جبرين، ومن هناك إلى الخليل. في ساعات الظهيرة المتأخرة، وعبر طريق ترابي مهترئ، وصل عبد القادر إلى قرية صوريف الصغيرة.

أقيم له في صوريف، حفل استقبال تخللته وجبة غداء احتفالية. احتشد جمهور غفير من الناس لرؤيته. لم يكن عبد القادر موجوداً في فلسطين نحو ثماني سنوات. حين غادر البلاد كان ابن أقل من ثلاثين عاماً. الآن، في نهاية كانون الأول 1947، وبينما هو على عتبة الأربعين من عمره، أصبح جسمه أكثر امتلاءً. يظهر في صورة من تلك الأيام واقفاً بين نائبه، كامل عريقات، وحارسه الشخصي، عوض ترمسعاوي، قصير القامة، مستدير الوجه أسود الشاربين. في الصور التي التُقطت له من غير كوفية، يمكن رؤية «فُرق» واسع وفوقه ذؤابة. وفي معظم الصور التي التُقطت له في شتاء 1947 ـ 1948، يبدو رأسه مغطى بكوفية قرية تقليدية وهو يرتدي سترة عسكرية عيلها حزامان متقاطعان لوضع رصاصات البندقية فيهما، كأفضل أزياء المقاتلين في تلك الأيام.

كان بإمكان عبد القادر الإطلال من مشارف صوريف، على المنطقة الجبلية المحيطة، التي كان يعرفها جيداً: كما في أيام الثورة، كذلك الآن أيضاً ـ قرى عربية، بعضها على حدود الصحراء من الشرق. كان سكان القرى يتعيّشون على الزراعة التقليدية، وخصوصاً كروم العنب، الزيتون أشجار الفواكه. أما في المدن الكبيرة، في المقابل، فكانت ثمة ورش ومشاغل تقليدية مختلفة، منها أحياناً ما هو تخصص محلي: معالجة الجلود ونفخ الزجاج في الخليل، الحَفر على الخشب والصَّدف، هدايا للحجاج المسيحيين الوافدين إلى بيت لحم وغيرها. كانوا في المدن يعملون أيضاً في استخراج أحجار البناء والنحت عليها. انتقل كثيرون من سكان منطقة جبل الخليل الذين وجدوا صعوبة في توفير لقمة العيش إلى السكن في القدس، عاصمة الانتداب البريطاني، على أمل العثور على عمل.

كان بإمكان عبد القادر، أيضاً، ملاحظة التغيرات التي حصلت خلال سنوات غيابه. فقد أقيمت بلدات يهودية على حدود قرية صوريف بالضبط. وبمحاذاة الشارع الرئيسي الواصل بين بيت لحم والخليل، على تلال قريبة من مبنى قديم ومهجور كان ديراً روسياً صغيراً أقيم في نهاية القرن التاسع عشر لخدمة الحجاج المسيحيين، أقيمت أربعة كيبوتسات يهودية: كفار عتصيون، عين تسوريم، ماسوؤوت إسحق ورفاديم. إن كان عبد القادر في حاجة لأي إثبات آخر على أن الخطر الذي يحدق بالوطن ويهدد بضياعه قد تفاقم خلال فترة غيابه في الدول المجاورة، فها هو البرهان شاخص أمام عينيه الآن: أنا موجود في صوريف قرب قالونيا [مستعمرة] واسمها كفار عتصيون"، كتب لزوجته وجيهة في القاهرة، بعد أيام قليلة من عودته إلى البلاد. "أصيب اليهود بالجنون حين سمعوا أنني قد أصبحت قريباً منهم وأرسلوا إلى بلدتهم تعزيزات قوامها ثمان وثلاثون شاحنة وثماني سيارات صغيرة، على متنها أشخاص ومعدات وأسلحة. فقد امتلأوا خوفاً". الرسالة قصيرة جداً والكتابة فيها بخط غير واضح، يبدو أنها كُتبت على عجل: "حبيبتي وجيهة [...] أنا بخير وصحتي جيدة. انقلي سلامي إلى الأولاد"، يختتم رسالته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يبدو على هذه الخلفية، أن قرار عبد القادر مهاجمة بلدات غوش عتصيون فور عودته إلى البلاد لم يكن محض تسرع. فبعد وصوله إلى صوريف بنحو ثلاثة أسابيع، نفّذ رجاله حملتهم الأولى الكبيرة ـ الهجوم على البلدة اليهودية كفار عتصيون.

في 25 كانون الأول، بعد أيام قليلة على وصوله إلى صوريف، تنظمت في القرية وحدة المقاتلين النظامية الأولى في "الجهاد المقدس". ثم تنظمت أيضاً وحدات مماثلة، تحت الاسم نفسه، في مناطق عربية أخرى من البلاد. كانت الوحدة الأولى، في صوريف، تضمّ 25 شاباً، 18 منهم من أبناء القرية والآخرون من قرية لِفتا، الواقعة عند المدخل الغربي لمدينة القدس، ومن قرى سفوح جبل الخليل ـ زكريا، بيت أولا ودورا. حصلوا على السلاح والذخيرة بصورة منظمة، من العتاد العسكري الذي هرّبه إبراهيم أبو دية من مصر، كما خضعوا لتدريبات عسكرية أساسية. المنظمة العسكرية الأولى في صوريف ومكانة إبراهيم أبو دية كانتا في غاية الأهمية في كل ما يخص تحركات عبد القادر وخطواته، منذ الأيام والأسابيع الأولى لوصوله إلى البلاد حتى يومه الأخير. وطبقاً للشهادات التي جمعها عارف العارف، كانت تلك مجموعة صغيرة نسبياً تضم بضع عشرات من أبناء صوريف والقرى المجاورة، مزودين بسلاح قديم ومعطوب. أما المعلومات التي أدلت بها مصادر أخرى، وخصوصاً استخبارات الهاغناه، عن معسكر كبير للتدريبات أقامه عبد القادر في صوريف ـ يضم، حسب الادعاء، ألف رجل، 200 مرشد،

بينهم ضباط سوريون، أسلحة ومدافع ـ فقد كانت معلومات عارية عن الصحة وتنضح بالمبالغة، وفق كل الدلائل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من الواضح تماماً أن عودة عبد القادر إلى البلاد وقدومه إلى جبل الخليل لم يمرّا من دون توترات سياسية. فخلال السنوات الثماني التي أمضاها خارج فلسطين، غالبيتها هي سنوات الحرب العالمية الثانية، حصلت تغيرات في ميزان القوى الفلسطيني الداخلي. نزح الحاج أمين والمئات من القادة والنشطاء المركزيين في المعسكر الوطني، بقيادة آل الحسيني، من سنيّ الثورة الكبرى. كان قلائل منهم فقط مع الحاج أمين في ألمانيا، فيما اعتُقل آخرون من قبل البريطانيين وأُبعِدوا إلى أماكن نائية. وجد كثيرون ملجأ لهم في الدول العربية المجاورة ـ سورية، لبنان، مصر وأبعد حتى.

بدا معسكر آل الحسيني مهزوماً، على خلفية هزيمة ألمانيا وحلفائها في الحرب، ولهذا، كان من الطبيعي أن تتعزز قوة المعارضين ـ معسكر المعارضة، بقيادة أبناء عائلة النشاشيبي من القدس. كان هؤلاء يحظون بدعم عبد الله، من شرق الأردن، الذي رفع البريطانيون مكانته بعد الحرب، من أمير إلى ملك. وقد جرى تتويجه في حفل فخم جداً، إلى درجة أنه أصبح موضوع تندّر ونميمة في القدس آنذاك، دون أن يخلو الأمر من المبالغة بالطبع، إذ تناقل الناس ـ على سبيل المثال ـ أنه كان في الحفل سبعة أسياخ عملاقة من الجمال المشوية، كل واحد منها محشو بسبع شِياه في كل واحدة منها سبع دجاجات.

هدأت الخلافات والصراعات الدموية بين آل الحسيني وخصومهم، خلال فترة الحرب، كما هدأت بين اليهود والعرب أيضاً. وظفت ماكينة الحرب البريطانية جهوداً كبيرة وأموالاً طائلة في تجهيز فلسطين لمواجهة غزو ألماني محتمَل. أقيمت منشآت عسكرية، معسكرات، مطارات، إلى جانب تطوير شبكات الكهرباء، المياه والاتصالات. عبّد البريطانيون شوارع جديدة وأجروا أعمال صيانة وتطوير في ميناء حيفا الجديد وفي منظومات تكرير البترول. قادت أعمال التطوير البريطانية هذه إلى ازدهار اقتصادي غير مسبوق في البلاد انعكس في تحسين أوضاع الجمهورين العربي واليهودي، على حدّ سواء. أضيفت عشرات آلاف فرص العمل الجديدة وانخرط مقاولون وأصحاب مهن مختلفة في العمل في أذرع ومؤسسات الحكومة البريطانية، إضافة إلى الجيش والشرطة البريطانيين أيضاً. وعلاوة على ذلك، أوقفت الحرب في أوروبا، وكذلك نتائج الهولوكوست الرهيبة بالطبع، تدفق الهجرة اليهودية إلى البلاد وخفت العِداء العربي للحكومة البريطانية، إلى حدّ كبير. وهكذا، وجد عبد القادر، لدى عودته إلى البلاد، معسكراً كبيراً قد يكون غير مؤيد ومناصر

للحكم البريطاني بوجه خاص، لكنه غير معادٍ له بالطبع، كما كان من قبل، إبان فترة الثورة.

ساد في صوريف، خاصة، وفي منطقة جبل الخليل عامة، توتر بين رجال عبد القادر والشيخ محمد علي الجعبري، الذي كان زعيماً بارزاً في المنطقة. تعمّد عدد من ممثلي قرى الخليل، بإيحاء من الشيخ الجعبري كما يبدو، تذكير عبد القادر بأمور من فترة الثورة، فاشتعلت صدامات دموية بين مؤيدي آل الحسيني وبين المعارضة. كان الجميع يذكر أعمال التهديد والابتزاز التي كان يقوم بها عبد القادر ورجاله، وكذلك المعارضون أيضاً، والمواجهات العنيفة، وفي مقدمتها الكمين الذي نصبه لعبد القادر معارضوه العرب، حين استدعوا الجيش البريطاني. وقد انتهت هذه الحادثة، كما ذُكر، بمعركة بني نعيم التي أصيب عبد القادر فيها بجراح خطيرة.

لم يكن التوتر مع الشيخ الجعبري عائداً إلى أحداث الماضي فقط. فمنذ الأسابيع الأولى التي أعقبت صدور قرار التقسيم، بدأت عشرات الوفود والشخصيات، من القرى والمدن، تتوجه إلى كل من كان بالإمكان الوصول إليه، في المراكز العربية داخل البلاد وفي المنطقة، لطلب الدفاع عن بيوتهم وحمايتها. وصل هؤلاء إلى العواصم العربية الأربع ـ القاهرة، عمّان، دمشق وبيروت ـ طالبين المساعدة. برزت بين هؤلاء شخصيات من الأحياء، البلدات والقرى العربية المجاورة للبلدات اليهودية، والذين شعروا بأنهم يواجهون الخطر بشكل خاص. لكن هؤلاء لم يكونوا وحدهم. فقد كان بين المتوجهين لطلب المساعدة الشيخ الجعبري نفسه، أيضاً، إذ وصل إلى القاهرة في كانون الثاني 1948 ومعه مبلغ كبير من المال لشراء السلاح. طلب منه الحاج أمين أن يعطيه الأموال، لأنه كان يعتبر نفسه مسؤولاً عن أمن السكان، لكنّ الجعبري رفض.

نشب خلاف سياسي آخر، وإنْ كان بحدة أقلّ، بين عبد القادر والخلايا الصغيرة التابعة للحزب الشيوعي الذي حظي آنذاك بتأييد وتعاطف ما في منطقة جبال الخليل أيضاً. يكتب محمود عبد القاضي، ابن قرية صوريف، في يومياته التي أسماها «شيء ما من الذاكرة» ـ موجودة في مكتبة مدرسة صوريف ـ أنه لم يكن جميع أهالي القرية بين المرحبين بقدوم عبد القادر إليها. نُظمت في تلك الأيام مظاهرة صغيرة في الخليل بمبادرة من «عصبة التحرر الوطني» ـ اسم الحزب الشيوعي الفلسطيني آنذاك ـ جرى خلالها توزيع منشورات تدعو إلى تأييد قرار التقسيم. كان هذا الموقف بمثابة خيانة عظمى في نظر عبد القادر الذي تحدث عن ذلك علناً وبغضب شديد. وقد شرح الكاتب إميل حبيبي، أحد الشيوعيين الشباب في تلك الفترة، بتفصيل واسع، كيف جاء إلى منزله في رام الله، في شتاء العام 1948، جنديان، من

إحدى وحدات الجهاد المقدس ربما. أمراه بـ «قُم، أيها الخائن» وأرادا اقتياده إلى محكمة عسكرية. رفض الامتثال لإرادتهما، صرخ عليهما وألقى حذاءه نحوهما فانصرفا. بعد ذلك، مباشرة، هرب حبيبي من البلاد إلى لبنان، عَبر الأردن.

من الواضح تماماً أن الأحزاب الشيوعية في الدول العربية أيدت قرار التقسيم، بتأثير الاتحاد السوفييتي، الذي كان، بنفسه، مؤيداً للتقسيم. لم يكن عبد القادر الوحيد الذي اعتبر هذا الموقف خيانة، بل اعتبرته كذلك أيضاً الوحدات الأولى من «جيش الإنقاذ» بقيادة فوزي القاوقجي، التي دخلت إلى البلاد في شتاء العام 1948 وطاردت الشيوعيين الفلسطينيين في الجليل، حتى أن بعضهم وُصم بالخيانة والتجسس وتم إعدامه.

كان من المحظور، في نظر عبد القادر، التشكيك في موقف الحاج أمين ومعسكر آل الحسيني الحازم. هذا الموقف الذي أكد: "لا يمكن أن تكون فلسطين للعرب والصهاينة معاً ـ إما نحن وإما هم [...] إنها حرب حياة أو موت؛ إما أن نخرج من الحرب منتصرين وإما أن نموت جميعاً". بل إن عبد القادر يؤكد، أيضاً، في مقابلة لصحيفة النداء المصرية في كانون الثاني 1948، أن إنشاء دولة يهودية في فلسطين هو تهديد واضح للعروبة وللعالم العربي بأسره، "ذلك أن [وجود] الدولة اليهودية يعني الاعتداء على استقلال الدول العربية جميعها، قريبة أم بعيدة على حد سواء".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت تلك الأسابيع الأولى من حرب الاستقلال الإسرائيلية والنكبة الفلسطينية؛ وفي صحيفتي فلسطين والدفاع الفلسطينيتين، تجسد بوضوح الشعور بأن القدس العربية تحت الحصار. كان عدد السكان اليهود في القدس آنذاك نحو 100 ألف نسمة، مقابل 70 ألفاً من العرب، نصفهم مسيحيون، وبينهم بضعة آلاف من الأرمن، اليونانيين، ورجال كنيسة غرباء، ليسوا عرباً. كان اليهود يشكلون الأغلبية ضمن حدود مدينة القدس، بينما كانوا أقلية صغيرة في المناطق الريفية المحيطة بالمدينة: 2500 نسمة فقط مقابل نحو 20 ألفاً من العرب؛ وقد سكن هؤلاء في سلسلة من القرى التي كانت تشكل، عملياً، صواحي مدينة القدس. أكبرها كانت: بيت صفافا، صور باهر، سلوان، أبو ديس، العيزرية، شعفاط، بيت حنينا، لِفتا، دير ياسين، الجورة، الولجة، عين كارم والمالحة. إضافة إليها، كان العرب يعدّون نحو 270 ألف نسمة في الضواحي الريفية لمدينة القدس في منطقتي الخليل ورام الله.

كان أعضاء اللجنة العربية العليا يترددون على القدس أحياناً، لكنهم كانوا يقضون جلّ أوقاتهم في الدول العربية المجاورة. في الأيام الأخيرة من سنة

1947 وبدايات سنة 1948، انشغل هؤلاء ومعاونوهم بمحاولات تنظيم الجمهور العربي في المدينة استعداداً للمعركة. عُقدت اجتماعات للمنظمات الشبابية، الإسلامية والمسيحية؛ قُسّمت الأجزاء العربية من المدينة إلى مناطق شُكّلت في كل منها لجنة لمتابعة المجالات المختلفة، مثل الحراسة والعيادات الصحية وغيرها، وعُيّن على رأس كل منها قائد.

كانت نجاعة هذه اللجان موضع شك. وصلت من أحياء عديدة شكاوى عن الحراس الذين استأجرتهم لجنة الحي (بتمويل من تبرعات سخية قدمها أثرياء المنطقة) ـ شكاوى بأنهم لا يؤدون وظيفتهم ولا يقومون بواجبهم. وقيل، أيضاً، أنهم يقومون بسرقة ممتلكات من البيوت التي هجرها أصحابها. قيل عن عبد النور جنحو، الشاب المسيحي الذي كان في السابق رقيباً في الشرطة في سجن القدس، إنه يقضي الوقت ـ مع رجاله ـ في البحث عن مشروبات كحولية في البيوت المهجورة في حي البَقعة، الذي كان من المفترض أن يكونوا حراساً عليه.

نشرت الصحف العربية، في تلك الأسابيع الأولى نفسها، مراراً وتكراراً، عن الاعتداءات التي كان ينفذها اليهود الذين يسدّون المعابر في داخل القدس، وحولها بالأساس. وصفت صحيفة فلسطين، في أحد تقاريرها، شعور العرب بالحصار، بصورة تفصيلية: إلى الشمال من المدينة، كتبت الصحيفة، هنالك بلدتا عطاروت ونفيه يعقوب اليهوديتان وحيّا نحلات شمعون (الصدّيق) وبيت يسرائيل الملاصقان للشيخ جراح، والتي يمكن منها الإطلال على الشارع الرئيسي الواصل بين رام الله ونابلس، مراقبته والتحكم به؛ من الجنوب ـ كفار عتصيون، رمات راحيل وحيّا تلبيوت ومَكور حايين تشرف على الطريق إلى الخليل؛ من الشرق ـ مستشفى "هداسا" والجامعة العبرية، اللذان يمكنهما مضايقة العرب المسافرين إلى أريحا (في القائمة التفصيلية الواردة في التقرير، تظهر في الشرق أيضاً بلدة تدعى "هكيبوتس"، والمقصود هو ـ كما يبدو ـ بيت هعرابا)؛ ومن الغرب ـ أحياء غبعات شاؤول، بيت هكيرم وبايت فَجان وبلدات موتسا، كريات عنفيم ومعاليه هحميشا، مع محجر عائلة إلْبَسار (بمحاذاة صوبا). شعور بالحصار، حقاً.

وعبرت الصحف العربية، أيضاً، عن جانب إضافي آخر مرتبط بضائقة السكان: الجيش البريطاني لا يحميهم، فيضطرون إلى السفر عبر طرق كثيرة ملتوية، مثل الشارع الضيق نحو الساحل ويافا؛ الشارع النازل من رام الله إلى اللطرون، عبر بيت عور (أصبح لاحقاً الجزء الشرقي من شارع رقم 443).

كانت في القدس، في 1948، أحياء يهودية، أحياء عربية وعدد قليل من الأحياء المختلطة. في الخارطة هنا، يمكن الملاحظة، بوضوح، بأن الأحياء اليهودية قد غطت الجزء الأكبر من القسمين الغربي والشمالي من المدينة، بينما امتدت

الأحياء العربية على القسمين الجنوبي والشرقي من المدينة (بما في ذلك أحياء أصبحت اليوم يهودية، مثل: طالْبيَّه، القطمون والبَقعة).

غير أن أكثر ما أزعج العرب هو حيّ يهودي واحد: يمين موشيه، الذي يسمى في التقارير العربية "حي مونتفيوري". بإمكان الشخص العارف بجغرافية مدينة القدس، ولو في الحد الأدنى، أن يلاحظ، فورا وبسهولة، أن هذا الحي، القائم على منحدر الجبل ويطل على السور الغربي للبلدة القديمة، كان مثل سكين في حلق السكان العرب. فقد سدّ المعبر من التجمعات العربية إلى البلدة القديمة والأحياء العربية الكبيرة الجديدة ـ طالبيّه، قطمون، الحي الألماني، البَقعة الفوقا والتحتا وأبو طور. كانت الجداول والوديان العميقة في بركة السلطان وغاي بن هينوم، التي تمتد ما بين السور والحي اليهودي، تضطر الخارجين من البلدة القديمة جنوباً إلى قطع الوادي عبر جسر بركة السلطان (قرب "سينماتِك" المقدسي اليوم) ومن الانتقال، من هناك، إلى سفوح يمين موشيه. على هذا، كان سكان يمين موشيه يستطيعون، بسهولة نسبية، قطع الأحياء العربية في جنوب غرب القدس عن التجمعات العربية في البلدة القديمة. وبالفعل، قام هؤلاء، أحياناً، بدحرجة صخور كبيرة إلى الشارع الضيق، إلقاء قنابل يدوية على المارة أو قنصهم.

تؤكد لائحة الأحداث المفصّلة التي أعدّها إسحق ليفي (لويتسه)، في كتابه تسعة أقواب: القدس في معارك حرب الاستقلال، إلى حدّ ما، أن العرب كانوا يعيشون ضائقة حقيقية في تلك الأسابيع. يورد ليفي، بإيجاز، الأحداث التي وقعت في كل واحد من أيام المعركة في القدس. في تلخيص شهر كانون الأول 1947، الشهر الأول من المواجهات العنيفة، اتضح أن 29 يهودياً قد قُتلوا، مقابل 58 عربياً ـ أي، الضعفين تقريباً. معظم الأحداث التي تم توثيقها كانت عمليات إطلاق نار وقنص، إحراق حوانيت ومصالح تجارية، إغلاق شوارع بالحرائق وإلقاء قنابل يدوية. أما الأحداث الأبرز فكانت اقتحام وحدة من "إيتسل" عدداً من البيوت في شعفاط يوم 11 كانون الأول، تخلله إطلاق النار وإلقاء القنابل اليدوية ما أسفر عن عدد غير معروف من المصابين. بعد ذلك بيوم واحد، في 12 كانون الأول، وضع رجال "إيتسل" عبوة ناسفة عند باب العامود وأدى انفجارها إلى سقوط 20 قتيلاً عربياً. عبوة ناسفة أخرى ألقاها رجال "إيتسل" في المكان نفسه يوم 29 كانون الأول أسفرت عن مصرع 12 عربياً. كما شنت وحدات "إيتسل" حملات مداهمة واقتحام في لِفتا الفوقا (حي روميما في منطقة محطة الباصات المركزية، اليوم) وقتلوا خمسة من سكانها العرب. سقط معظم القتلى اليهود خارج القدس ـ في شارع باب الواد (شاعَر هَجاي) وفي هار طوف. قُتل في الطريق إلى غوش عتصيون يوم 11 كانون الأول عشرة مسافرين يهود كانوا في قافلة من أربع سيارات تعرضت للهجوم قرب بيت لحم.

نفذ الهجمات الأولى على المواصلات اليهودية في طلعات القدس، في تعرجات شارع وادي علي ـ بين المضخات التحتا عند مدخل الوادي وعند مشارف قرية وادي علي العربية ـ جابر أبو طبيخ، بموجب التعليمات التي تلقاها من عبد القادر. أبو طبيخ، أحد قدامى الثورة، من مواليد قرية خربة اللوز الصغيرة (قريبة جداً من صَطاف، إلى الغرب من عين كارم)، كان مسناً، مقارنة بالمقاتلين الآخرين، وغنيّ التجربة. تولى تنظيم مجموعة من 20 شاباً كانت تغلق الشارع من حين إلى آخر وتطلق النار على سيارات اليهود.

لكن، لم يكن الجميع مؤيداً لهذه الهجمات. لم يسمح أهالي أبو غوش لرجال أبي طبيخ بالاقتراب من قريتهم. وفي قريتي ساريس وبيت محسير ("همسريك"، اليوم)، وحتى في القسطل، جرت جدالات بين أبي طبيخ وأهالي القرى. فقد أبدى هؤلاء أمامه تذمرهم من مهاجمته اليهود قريباً من بيوتهم فيردّ اليهود عندئذ باعتداءات على القرى، يطلقون النار ويفجرون البيوت حتى، بينما هم لا يملكون إمكانية الدفاع عن أنفسهم. قال أحد رجال ساريس لأبي طبيخ: إذهَب وهاجِم سيارات اليهود التي تسافر قرب قريتك، فأجابه: لكن سيارات اليهود لا تمرّ قرب خربة اللوز. طالبت تلك القرى بتوفير الرجال والسلاح من أجل الدفاع عنها وحمايتها: أبو طبيخ يهاجم اليهود ونحن نتعرض للعقاب، قالوا. تم في إحدى عمليات الرد الانتقامية اتي نفذتها "الهاغناه" (يوم 22 كانون الثاني)، تفجير مقهى أبي جورج، نقطة اللقاء المعروفة، بجانب المكان الذي تبدأ فيه تعرجات الشقيقات السبع، عند منحدر الشارع القديم من القسطل إلى موتسا (لاحقاً، أقيمت هناك محطة وقود "ديلك" وإلى جانبها فرع كبير لشبكة "رامي ليفي" التجارية). دفع هذا التفجير أهالي قرية القسطل إلى مغادرة منازلهم.

شهدت قرى عربية أخرى، كانت مجاورة للأحياء اليهودية، ظواهر مماثلة: لِفتا، بيت صفافا، صور باهر، دير ياسين، مالحة ـ عمّ الارتباك في هذه القرى جميعها. لم يعرف السكان، كما يكتب المؤرخ الضليع إيتمار رداي، ممّن يجب أن يخافوا أكثر: أمِن رجال عبد القادر أم من اليهود؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم توقف التحفظات على نشاط عبد القادر خلال الأيام الأولى بعد قدومه إلى صوريف مساعيَ التنظيم العسكري في القرية. جرى تسجيل المقاتلين، ثم توزيع وجبات غذائية ومصروف جيب ضئيل لكل واحد منهم. وكما كتب لزوجته في القاهرة، شعر عبد القادر، كما شعر رجاله أيضاً، بأن اليهود يلاحظون نشاطهم في القرية. بل إن طائرتين استطلاعيتين تابعتين للهاغناه قد حلقتا فوق قرية صوريف ذات يوم، لكنهما لم تكتشفا أي نشاط غير عادي في القرية. لا شك في أن رجال عبد القادر رأوا الطائرتين. عشرات مقاتلي

الجهاد المقدس الذين كانوا يتدربون في القرية سارعوا إلى الاختباء في الخيام وفي المغارات، كما في بيوت السكان أيضاً.

أجرى عبد القادر بعد استكمال التنظيم في صوريف، جولة سريعة في الأحياء والقرى المحيطة بالقدس. كان يجند فيها أشخاصاً، ويشكل لجاناً وحرساً وطنياً. كانت في حوزته الأموال التي منحه إياها أعضاء المجلس العربي الأعلى بقيادة قريبه العائلي، الحاج أمين، والتي كان حصل عليها من الحكومة المصرية، من خلال صندوق الجيش المصري. هكذا أتيحت لعبد القادر إمكانية إنشاء مقر للقيادة وجهاز منظم، نوعا ما، لدفع رواتب زهيدة لبضع مئات من المجنَّدين، وتوزيع بعض المعونات والأسلحة على المتطوعين الكثيرين الذين كانوا جاهزين للانطلاق لتنفيذ العمليات، عند الحاجة.

يروي عارف العارف، مؤرخ النكبة، بشيء من الغضب والإحباط، كيف حصلت فرق الجهاد المقدس في أشهر خريف 1948 على المساعدات، المال والعتاد، وكذلك على الأوامر، من المجلس العربي الأعلى (أي المفتي في القاهرة)، بينما حصلت فرق المتطوعين العرب الأخرى الذين دخلوا إلى البلاد ("جيش الإنقاذ" ومجموعات متطوعين من حركة "الإخوان المسلمون") على مساعدات وأوامر أخرى، متناقضة أحياناً، من اللجنة العسكرية التي شكلتها جامعة الدول العربية من مقرها في دمشق. ويختم بالقول: "كم كان الأمر [هذا الإرباك] مميزاً لمعركة القسطل"، التي دارت في وقت لاحق، كما هو معروف.

نظم عبد القادر، خلال وقت قصير، جميع الهجمات ضد التجمعات اليهودية في حي سنهدريا في شمال القدس وقرب قرية بيت صفافا في جنوب المدينة. كما وقعت حوادث إطلاق نار عديدة في داخل البلدة القديمة، حيث تم هناك تعيين حافظ بركات أبو الفيلات والشيخ ياسين البكري قائدين للهجمات التي كانت لا تزال محدودة.

أصيب صبحي أبو غربية في إحدى حوادث تبادل إطلاق النار مع الحي اليهودي، برصاصة في رأسه، وهو الذي كان يعتبر أحد المقاتلين المخضرمين وأكثرهم شجاعة، أحد الموالين لعبد القادر ومرافقيه منذ الثورة. يصف شقيقه، المربي بهجت أبو غربية ـ الذي تشكل مذكراته أحد المصادر العربية الأكثر موثوقية عن معارك القدس ـ تفصيلياً، الإصابة الدماغية التي عانى منها صبحي، الذي توافد كثيرون من قادة الجمهور المقدسي لعيادته في المستشفى الفرنسي، حيث كان يتلقى العلاج. ورغم إصابته التي خلّفت لديه تشوشاً، واصل صبحي مرافقة عبد القادر حتى معركة القسطل.

تعرف كثيرون بعد سنوات، في شرقي القدس، التي كانت تحت الحكم الأردني، على صبحي، ابن العائلة الخليلية الأصل، إحدى العائلات المحترمة جداً. كان مصدر فخر هذه العائلة واحترامها نشاطَ بهجت السياسي الوطني والعمل التربوي الذي كان يقوم به شقيق آخر، أكبر منه سناً، هو نهاد أبو غربية، الذي أسّس في القدس الكلية الإبراهيمية للمعلمين. كان الأشقاء أبو غربية قصار القامة، ذوي بشرة فاتحة اللون، وقد أشغلوا، وكذلك أقارب آخرون لهم، مهامّ رفيعة في حركة "فتح" وفي السلطة الفلسطينية التي أقيمت في العام 1994.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تبرز التوثيقات العربية، بشكل خاص، عملية نفذتها وحدة الهاغناه في القدس بعد أسبوعين من عودة عبد القادر إلى البلاد: تفجير فندق سميراميس في حي قطمون (كان الفندق في زاوية شارع "هحيش" وشارع "محَلْكي هَمايِم" اليوم)، في ليلة شتاء ماطرة وعاصفة بين الرابع والخامس من كانون الأول 1948. أسفرت هذه العملية عن 18 قتيلاً، عربياً وأجنبياً من نزلاء الفندق، من بينهم نائب القنصل الإسباني في القدس، وعشرات الجرحى. تذكر المصادر المختلفة، العربية واليهودية، عدداً أكبر من القتلى. فبحسب لويتسه، مثلاً، كان هنالك 26 قتيلاً. أثار هذا التفجير صدمة وغضباً شديدين بين الجمهور العربي في القدس، يفوقان ربما ما أثارته عملية تنظيم "إيتسل"، قبل ذلك بنحو شهر واحد ـ تفجير عبوات ناسفة في الأسواق العربية وقتل عشرات المواطنين، غالبيتهم من المارة الأبرياء من عامة الشعب.

كان سبب الصدمة والغضب، كما يبدو، موقع الفندق وهوية القتلى والجرحى. فقد كان سميراميس فندقاً فخماً وجديداً نسبياً. كان يقع بجانب دير سان سيمون، بالقرب من طرف الشارع الذي كان يسمى آنذاك "طريق قطمون" وأصبح يسمى لاحقاً "شارع بلماح" ـ أي، في قلب الأحياء العربية الراقية في جنوب غرب القدس. وكان القتلى أبناء عائلة صاحب الفندق وضيوفهم، من العرب والأجانب ذوي المكانة والشأن.

ما الذي دفع "الهاغناه" في القدس إلى تنفيذ عملية الكوماندوز الجسورة هذه؟ ضد ماذا كانت موجَّهة وضد من؟ يدّعي المبادر إلى هذه العملية، قائد الهاغناه (اللواء في الجيش الإسرائيلي، لاحقاً)، ميشائيل شاحَم، إن الفندق كان يُستخدَم قاعدة ومقر قيادة لعرب القطمون. "لكن هذه المعلومات كانت مغلوطة، على ما يبدو"، يكتب مئير أفيزوهَر في كتابه موريا في القدس. ويكتب عارف العارف، في المقابل، إنه سمع من صديق له أن عبد القادر عقد في الفندق، فعلاً، لقاء مع مجموعة من الأشخاص وغادر الفندق قبل وقت قصير من تفجيره.

تُكثر المصادر العربية في وصف عملية تفجير سميراميس بأنها كانت نقطة تحول، باعتبارها عملية إجرامية ضد مواطنين وفرت لعبد القادر والجهاد المقدس مبرراً لتنفيذ سلسلة من عمليات التخريب والتفجير في مركز مدينة القدس اليهودية، رداً على تلك العملية. خلال عشرات السنوات التي مرّت منذ ذلك الوقت، لا يزال استهداف المواطنين نهجاً ثابتاً ودائماً لدى الأطراف المتحاربة، ليس في الشرق الأوسط وحده، بل في أرجاء العالم قاطبة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



8

بين المطرقة والسندان

على الرغم من انتصار دول الحلفاء في الحرب العالمية الثانية وهزيمة ألمانيا، إلا أن بريطانيا العظمى أيضاً، الإمبراطورية التي "لا تغيب الشمس عنها، أبداً"، دفعت ثمناً باهظاً. اضطرت بريطانيا على خلفية التغيرات الدراماتيكية التي حصلت في أعقاب الحرب، ومع بدء مسيرة إنهاء الاستعمار في أنحاء العالم، إلى الانسحاب خلال سنوات قليلة من غالبية مناطق/ مستعمرات الإمبراطورية، وفي مقدمتها الهند، "درة التاج البريطاني". وانعكس كفاح الحركات الوطنية من أجل الاستقلال في أنحاء الإمبراطورية وفي فلسطين أيضاً: لم يتبقّ في الخمسينيات أي حكم بريطاني شرق قناة السويس أو جنوبها.

بدأت وحدات "جيش الإنقاذ" (كتائب اليرموك)، بقيادة فوزي القاوقجي العمل في مطلع كانون الثاني 1948. وكما سنفصل لاحقاً، فقد قرر طه الهاشمي وإسماعيل صفوت، رئيسا اللجنة العسكرية في جامعة الدول العربية، في العام 1947، تعيين القاوقجي على رأس جيش المتطوعين الذي أقامته الجامعة العربية من أجل فلسطين. تصاعدت حدة الخصومة والضغينة ما بين القاوقجي والحاج أمين الحسيني الآن، حيال تقرب القاوقجي المتجدد من رؤساء النظام الهاشمي في العراق، ومن نظام الملك عبد الله الهاشمي في شرق الأردن؛ علماً بأن بدايات هذه الخصومة والضغينة بينهما تعود إلى أيام الثورة الكبرى، ثم استمرت في بغداد وألمانيا لاحقاً.

تبيّن محاولة ترسيم الخارطة السياسية، الفلسطينية والعربية، خلال الأشهر الأولى من الحرب (شتاء 1947 ـ 1948)، مرة أخرى، انقساماً واضحاً إلى معسكرين، عربيين وفلسطينيين، متنازعين، كانت له خلفية واضحة من قبل بالطبع: في الجهة الأولى، ائتلاف الجامعة العربية الواقع تحت تأثير غير ضئيل من جانب الملك عبد الله والبريطانيين، ائتلاف تعاون مع المعارضة الفلسطينية وأقام علاقات مع شخصيات في الييشوف اليهودي أيضاً؛ ومن الجهة الأخرى، معسكر معزول تماماً، هو معسكر آل الحسيني بقيادة الحاج أمين، رئيس المجلس العربي الأعلى للفلسطينيين ـ هيئة ضعيفة، ينهشها الانقسام والصراع، كان لها شركاء في العالم العربي حقاً، مقابل عدد أكبر بكثير من الأعداء الألدّة.

كان (عبد الرحمن) عزام باشا، الأمين الأول العام لجامعة الدول العربية، وعبد الله ملك شرق الأردن، على رأس أعداء المفتي والمعسكر الوطني برئاسة

آل الحسيني. وكان الجنرالان العراقيان إسماعيل صفوت وطه الهاشمي، رئيسا اللجنة العسكرية التابعة لجامعة الدول العربية، منفّذيّ إرادتهما، إلى حد كبير. وكانت لهذين الأخيرين، أيضاً، ثمة حسابات سياسية، وشخصية أيضاً كما يبدو، مع الحاج أمين، منذ انقلاب رشيد عالي الكيلاني في بغداد، قبل ذلك بسبع سنين. من المؤكد أن رؤساء جامعة الدول العربية الذين عيّنوا هذين الجنرالين رئيسين للجنة العسكرية، كانوا يعرفون هذه المعلومة، حق المعرفة؛ مثلما أن الجنرالين، نفسيهما، كانا يعلمان، من دون شك، عمق الكراهية التي يكنّها فوزي القاوقجي، الذي عيّناه قائداً لجيش الإنقاذ، للمفتي الحاج أمين وأنصاره.

«القاوقجي ليس جديراً بالقيادة في فلسطين»، قال الحاج أمين للرئيس السوري شكري القوتلي في تشرين الثاني 1947، «لا يتمتع بالكفاءة العسكرية المناسبة، ليس ضابط قيادة ولا يعرف فلسطين».

يشهد طه الهاشمي، الذي كتب في تلك الأيام مذكرات يومية شخصية، أن القوتلي سأل الحاج أمين: «ومن هو المناسب، برأيك؟»، فأجاب الحاج أمين: «عبد القادر هو المناسب». «لكن عبد القادر لا يملك التأهيل العسكري الملائم»، أصرّ الرئيس السوري. لكن الحاج أمين لم يتنازل: «عبد القادر يمتلك خبرة عسكرية وهو ابن البلاد».

استمرت الجدالات وتواصلت، فيما كان الحاج أمين يصعّد من لهجته وتصريحاته، حتى أنه هدّد:

عليكما أن تعلما [القوتلي وطه الهاشمي] أن الفلسطينيين لن يرضوا بالقاوقجي [...] سيبيع نفسه لعبد الله وللبريطانيين [...] ممنوع منحه الثقة، فمنذ 1941 في بغداد [فترة ثورة رشيد عالي الكيلاني] كان على علاقة مع ضباط بريطانيين كانوا يطاردون الثوار [...] وحتى قبل ذلك، إبان الثورة الكبرى في فلسطين، حصل على 12 ألف جنيه [مبلغ كبير جداً في تلك الأيام] من أجل ماذا ولقاء ماذا؟ لقاء 38 يوماً قضاها في فلسطين [...]

إلا أن رؤساء جامعة الدول العرب أصروا على موقفهم: القاوقجي هو الأكثر ملاءمة. اعتبروه بطلاً، أسطورياً تقريباً، أحد قدامى المعارك ضد الفرنسيين والتي أسقطت الملك فيصل سنة 1920. قاد الثورة في الحمّة والانتفاضة المتواصلة في السنوات 1925 ـ 1927 ضد الفرنسيين. تذكروا له تطوعه لمساندة الفلسطينيين، طموحه بقيادة الثورة الفلسطينية الكبرى بين 1936 و1939 ومساندته لانقلاب رشيد عالي الكيلاني المعادي لبريطانيا في بغداد سنة 1941.

يبدو أن القاوقجي لم يفوّت أي فرصة لمحاربة ما اعتبره كثيرون في أنحاء المنطقة ظلماً تسبب به غرباء للأمّة العربية. كان رؤساء جامعة الدول العربية ينظرون بعين الرضى إلى مكوثه في ألمانيا إبان الحرب العالمية، حيث كان يرغب في مساندة الألمان، حتى أنه تزوج امرأة ألمانية. وبعد الحرب، انتقل القاوقجي، بهوية مزيفة، إلى القاهرة ومنها إلى دمشق التي استُقبل فيها بحفاوة بالغة من جانب القيادة السورية التي رأت فيه القائد الأمثل لجيش المتطوعين المُعدّ لإنقاذ فلسطين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تنقّل وسطاء عديدون في تلك الأيام بين المعسكرين المتنازعين، الفلسطيني والعربي، في محاولات لإصلاح ذات البين بينهما. وقد أدركت شخصيات فلسطينية عديدة مدى الضرر الذي تسببه الانقسامات والنزاعات للجهود السياسية والعسكرية ضد العدو المشترك. وانضم إليهم، في محاولات الوساطة، سياسيون عرب سوريون، لبنانيون ومصريون. حاول الوسطاء الكثيرون التقريب بين الطرفين، لكنهم أخفقوا. ولم يكن الإخفاق نابعاً من عمق الكراهية والعداوة الشخصية فحسب، بل من اختلاف المصالح السياسية أساساً.

كان معسكر الجامعة العربية، ومعه أيضاً المعارضة الفلسطينية والملك عبد الله، مستعداً ـ بالسرّ، إجمالاً ـ للتوصل إلى تسوية ما مع الييشوف اليهودي. أجرى إلياهو (الياس) ساسون، رئيس الدائرة العربية في الوكالة اليهودية، ونشطاء آخرون من الييشوف اليهودي، بضمنهم قادة مثل غولدا مئير، محادثات ومفاوضات مع الملك عبد الله، تطرق الحديث خلالها إلى ما وصفه ساسون، في كتابه طريقي إلى السلام، "الفصل والضم". وكان المقصود بذلك أن الموافقة العربية على تقسيم البلاد والفصل بين الشعبين ستؤدي إلى ضم الجزء العربي من البلاد إلى مملكة شرق الأردن، وهو ما حصل فعلياً في نهاية الحرب.

في المقابل، أصرّ المفتي، المعسكر الوطني الحسينيّ، وأنصارهم في مختلف أنحاء البلاد، على الموقف التقليدي المتمثل في "كل شيء أو لا شيء". غضب المفتي من الاعتدال، أو التسامح النسبي، لدى بعض الدول العربية تجاه الييشوف اليهودي، وهو ما أدى ـ في رأيه ـ إلى تعميق العناد البريطاني وصلف اليهود وغطرستهم. ووفقاً للرؤية التي تبلورت لدى الحاج أمين آنذاك، كان بإمكان عرب فلسطين تجشم أعباء القتال بأنفسهم، شريطة حصولهم على الدعم ـ بالمال، السلاح والمتطوعين ـ من الدول العربية، من دون الحاجة إلى دخول الجيوش العربية إلى البلاد.

ادعى المفتي، في عدد من المذكرات والمقابلات التي أدلى بها في وقت لاحق، بأن اختلاف المصالح السياسية وحده هو الذي فرّق بينه وبين الملك عبد الله. "شخصياً، لم تكن لدي أية مشاعر صداقة أو مودة تجاهه"، قال، "لكن سياسياً، كنا خصمين مرّين". هذه الخصومة الشديدة أضعفت النضال الفلسطيني كثيراً وشكلت في نهاية المطاف أحد الأسباب المركزية للهزيمة. ولفهم عمق الخصومة بين الحاج أمين ومعارضيه، ينبغي أولاً الإشارة، بإيجاز، إلى محاولات الجامعة العربية مقاومة مشروع التقسيم واحتمال قيام دولة يهودية.

التأم خلال الأشهر الأخيرة من سنة 1947 ومطلع سنة 1948، مجلس الجامعة العربية في سلسلة من الجلسات عُقدت في القاهرة، لبنان وسورية. وكان من الواضح تماماً، فيها جميعها، عمق الفجوة ما بين توجهات اللجنة العربية العليا بقيادة الحاج أمين، من جهة، وبين توجهات الجامعة العربية وقادة اللجنة العسكرية التي شُكّلت من أجل فلسطين. طالب الحاج أمين بإقامة حكومة فلسطينية مؤقتة تكون مسؤولة عن كل ما يحدث في البلاد، حتى قبل الانسحاب البريطاني، الذي كان مقرراً تنفيذه في منتصف أيار. طالب بالحصول على المال والسلاح وأضاف شرطاً فحواه أن يكون هذا كله تحت إمرة القيادة الفلسطينية. لكن رؤساء الجامعة العربية رفضوا.

أقر الجنرال إسماعيل صفوت، رئيس اللجنة العسكرية، في التقارير الأولى التي قُدّمت إلى الجامعة العربية، بالتزامن مع قرار التقسيم وقبل التدهور في الصدامات العنيفة، بأنّ لدى البيشوف اليهودي في فلسطين قوات عسكرية وقدرات تنظيمية ومالية كبيرة تمكّنه من هزم الوحدات الفلسطينية، وربما وحدات المتطوعين في جيش الإنقاذ أيضا، بسهولة. وكان تقديره دقيقاً بشأن عدد المحاربين الذين يستطيع اليهود تجنيدهم على وجه السرعة، وبعضهم جنود مدرَّبون منذ الخدمة العسكرية التي أدوها في الحرب العالمية. كما قدّر بشكل دقيق، أيضاً، عدد الشبان اليهود الناجين من الإبادة النازية الذين على وشك القدوم إلى البلاد والانضمام إلى المحاربين اليهود. كما توصل إلى استنتاجات دقيقة تماماً بشأن تفوق وسائل المواصلات لدى اليهود، والتي تتيح لهم نقل قواتهم من منطقة إلى أخرى بسهولة. ورأى بوضوح، بالتأكيد، الأفضليات التي يتمتع بها اليهود في كل ما يخص الوسائل القتالية.

ماذا كان يملك عرب فلسطين، مقابل هذا كله؟ يورد شموئيل صباغ، في كتابه من خلف الستار، أقوالاً أدلى بها رئيس اللجنة العسكرية لشؤون فلسطين: صحيح أن عدد العرب في فلسطين أكبر (مليون و300 ألف عربي مقابل 600 ألف يهودي)، وأن لدى العرب شعوراً وطنياً عميقاً وكراهية

متأججة للصهاينة وأنهم مستعدون للكفاح وبذل التضحيات، لكن هذه كلها ليست قادرة على تحقيق النصر لهم: "لا يمكن انتصار فرق حرب العصابات العربية على اليهود المدرَّبين والمسلحين جيداً"، جزم صفوت.

كان الاستنتاج الذي خلص إليه صفوت منذ التقارير الأولى التي قدمها في نهاية العام 1947 وحتى التقارير الأخيرة، التي كتبها عشية غزو الدول العربية، أن لا أمل، على الإطلاق، في انتصار الفلسطينيين واللجنة برئاسة الحاج أمين. وما عليهم فعله هو التحلي بالصبر وانتظار الجيوش العربية النظامية القادرة، وفقط هي، على مواجهة اليهود. بالإمكان مقارنة موقفه المهني، كعسكري محترف، والنقاش بينه وبين الحاج أمين ـ بقليل من المبالغة ـ مع الجدالات التي خاضها دافيد بن غوريون مع قيادة "بلماح" بشأن تفوق الجيش النظامي المنظم جيداً على مقاتلي وحدات حرب العصابات (بلماح)، مهما بلغت درجة شجاعتهم واستعدادهم للتضحية.

أيقن معظم أعضاء اللجنة العربية العليا، ومنهم الحاج أمين وعبد القادر أيضاً، في قرارة أنفسهم، أنه لن يكون بمقدورهم، حقاً، الصمود أمام تفوق القوات اليهودية. لكنهم، مع ذلك، كانوا متخوفين، وبحق، من أن يتأخر كثيراً دخول الجيوش العربية إلى فلسطين؛ أي أنهم كانوا متخوفين من أنه خلال الفترة الزمنية التي ستمر بينما الدول العربية تنتظر انتهاء الانتداب البريطاني وخروج البريطانيين، سيلحق اليهود بعرب البلاد أضراراً لن يكون بالإمكان إصلاحها. وهذا ما كان، فعلاً.

لكن ما برز أكثر من ذلك هو خشية الحاج أمين من أن يكون دخول جيش عربي نظامي إلى فلسطين بمثابة دخول سلطة عربية "أجنبية" إلى المناطق الوطنية الفلسطينية. حين يدخل جيش نظامي ما، فهو يُدخل السلطة معه أيضاً، قال الحاج أمين في إحدى جلسات اللجنة العربية العليا. كان يقصد بذلك، بصورة أساسية، جيش الملك عبد الله الذي كان قد تم وضع بعض وحداته، بقيادة بريطانية، في بعض المواقع في البلاد، لكنها أحجمت عن التدخل بصورة مباشرة في الصدامات العنيفة التي اندلعت في أشهر ذاك الشتاء. وجد الحاج أمين نفسه، إذن، ما بين المطرقة والسندان: كان يدرك أنه في حاجة ماسة إلى دعم جدي من الدول العربية، لا أمل له بدونه، بينما كان متخوفاً في الوقت نفسه من أن يكون ثمن هذا الدعم فقدان السيطرة على البلاد. وقد رأى أن هذا الدعم بمثابة عناق دبّ.

كان عبد القادر، الذي كان المفتي الحاج أمين يعتبره أقرب مقربيه وأراده بمثابة رئيس الأركان الفلسطيني، حازماً تماماً وتصرف كأن لا شكوك ولا مخاوف لديه، إطلاقاً. في جميع الشهادات التي توثق ما قاله وما كتبه في تلك

الأيام، تبرز لديه نزعة انتحارية: لا مناص، هي حرب شاملة لا هوادة فيها حتى النهاية، ومرة أخرى ـ إما نحن وإما هم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حصلت في 14 كانون الثاني، طوال ساعات النهار كله، إلى الشمال الشرقي من قرية صوريف، إحدى الهجمات الكبيرة التي شنها الجهاد المقدس سوية مع قرى المنطقة. كان كيبوتس كفار عتصيون المتدين، البلدة اليهودية الأكبر بين بلدات غوش عتصيون الأربع، الهدف الذي اختاره عبد القادر. هاجمت مجموعات كبيرة من مئات المقاتلين الكيبوتس، إلا أن الهجوم باء بالفشل وسقط عشرات المقاتلين العرب قتلى. وفقاً للتقارير العربية، كان سكان كفار عتصيون كثيري التعدي بالرصاص على وسائل النقل العربية على شارع بيت لحم ـ الخليل، وكان الدافع المباشر لشن الهجوم على الكيبوتس إطلاق النار في صباح اليوم نفسه على سيارة القنصل العراقي الذي كان مسافراً من القدس إلى بئر السبع عبر الخليل، فأصيب سائقه بجراح. كان هذا القنصل متزوجاً من إحدى بنات الملك عبد الله ويبدو أنه كان على صداقة مع عبد القادر.

استخلص عبد القادر من فشل الهجوم على غوش عتصيون أنه يتعين عليه تبني استراتيجية أخرى لمواجهة القوات اليهودية. لا هجمات مباشرة على بلدات بعد اليوم، لأنها محمية جيداً. خلافاً للقرى العربية التي تتوزع بيوتها عشوائياً حول مركز القرية، البناء في البلدات اليهودية منظم: البيوت محاطة بالأسلاك، قنوات الاتصال، أبراج المراقبة والمواقع المحصَّنة. لم يكن في حوزة مقاتلي وحدات الجهاد المقدس بقيادة عبد القادر أي أسلحة ثقيلة، لا مدافع ولا دبابات ولا عربات مصفَّحة، وإنما القليل من الراجمات والرشاشات الثقيلة، فقط. ولهذا، لم يكن بمقدورهم مهاجمة البلدات اليهودية المحصَّنة بصورة ناجعة وناجحة.

وفقاً لما يسجله نبيل الأغا، فقد قرر عبد القادر، بناء على ذلك، اعتماد طريقة قتالية أخرى، جديدة: ضرب حصار على البلدات اليهودية وعلى الأحياء المختلفة في القدس. تجسد هذا الحصار في إغلاق الطرق، إزعاج الناس بإطلاق النار على البلدات والأحياء اليهودية، وهو ما أسموه: "اضرُب واهرُب". كانت الفكرة، في نهاية المطاف، فرض حصار كامل وتام على القدس اليهودية وعلى سكانها الـ 100 ألف وقطعهم عن المراكز اليهودية في الساحل. كما شمل الحصار، أيضاً، تفجير أنابيب المياه الموصلة إلى القدس ومنع تزويد المدينة المحاصَرة بالغذاء والدواء.

لم تكن الهزيمة العربية هي الصورة المرتسمة، في الأشهر الأولى التي تلت قرارِ التقسيم، وبينما اتسعت الحرب في البلاد بين اليهود والعرب، بل العكس

تماماً ـ النجاح والانتصارات. وقد بلغت هذه النجاحات ذروتها في نهاية آذار 1948، حسب انطباع عبد القادر حقاً (كما كتب في رسالة إلى عزام باشا). لكن هذه النجاحات انقطعت في فجر يوم الثامن من نيسان، وهو اليوم الذي يمثل انقلاباً في معارك القسطل وفي الصراع على القدس.

لكن، ما هي النجاحات العربية التي تحققت حتى ذلك الصباح؟ في النصف الأول من كانون الثاني 1948، سُجّل في منطقة القدس عدد ضئيل نسبياً من القتلى اليهود: 3 قتلى جراء نيران أطلقها عربي على حي بيت يسرائيل، 3 قتلى في الحي اليهودي في البلدة القديمة؛ و 3 قتلى من أعضاء "إيتسل" لدى انسحابهم، بعد وضعهم عبوة ناسفة في شارع مأمن الله، قرب باب الخليل (قُتل جراء هذه العبوة الناسفة 14 عربياً، حسب ما يكتب لويتسه، بينما يتحدث عارف العارف عن 19 قتيلاً ويضيف، أيضاً، أنه أُلقي القبض على ثلاثة من رجال "إيتسل" كانوا في سيارة تحت عمارة جنرالي، ثم تم قتلهم بالرصاص). وكان ثمة قتلى آخرون، متفرقون، أصيبوا بنيران قناصة طالت أحياء يهودية.

لم يكن الحال كذلك في المعركة على بلدات غوش عتصيون. فالهجوم العربي الفاشل على هذه البلدات أنهك المدافعين اليهود ويبدو أنه أرعبهم أيضاً. طلب قائد المنطقة، عوزي نركيس، إمداده بتعزيزات، من مقاتلين وذخيرة ومواد طبية. استجابت له القيادة اليهودية في القدس وشُكّلت مفرزة عسكرية معزَّزة تقوم بنقل الحمولة الثقيلة والحيوية إلى منطقة غوش عتصيون، مشياً على الأقدام. انطلقت هذه المفرزة من حي بيت هكيرم في القدس في الليلة ما بين 14 و15 كانون الثاني في طريقها إلى غوش عتصيون، لكنّ الضباب الكثيف والخطأ في التوجيه اضطرا رجال المفرزة إلى العودة على أعقابهم. عادوا وانطلقوا، مرة أخرى، في الليلة التالية، بين 15 و16 من الشهر نفسه، من هارطوف، عبر وادي السنط، في اتجاه الوديان بين قريتي صوريف وجبع اللتين كانتا تحاصران غوش عتصيون من الغرب.

انكشفت المفرزة مع بزوغ الفجر. سدّ العرب الطريق أمامها. نشبت معركة بين الطرفين قُتل خلالها رجال المفرزة الـ 35 جميعاً. لم ينج منهم أحد.

يمكن الاستدلال عن هول الضربة التي تلقاها اليشوف اليهودي ـ وعن عظمة النجاح الذي حققه عبد القادر ورجاله، في المقابل ـ من عشرات المنشورات التي صدرت عمّا أصبح "أسطورة مفرزة الجبل". على اسمهم سُمّي كيبوتس "نتيف هالاميدهي" في وادي السنط وشارع في القدس (في حي قطمون، شارع يحدّ موقع أنقاض فندق سميراميس). أقيمت نصب تذكارية لتخليد ذكرى القتلى في هذه المعركة وكُتبت عنهم كتب ودراسات. وعنهم أيضاً، عن "مفرزة الجبل الخرساء"، نظم الشاعر حاييم غوري قصيدته بعنوان "ها هي

مُلقاةٌ جثثنا"، التي يعرفها كل طفل يهودي في إسرائيل، من مراسم الاحتفال بذكرى الاستقلال. هذه القصيدة مهداة إلى "داني ورفاقه": قائد المفرزة كان داني مَس، زميل غوري في دورة الضباط في موقع التدريبات التابع للهاغناه في الجوعَرَة، عند سفح جبل الكرمل.

كان لقصيدة غوري هذه دور مركزي في صقل أسطورة البطولة المأساوية التي كانت من نصيب المحاربين اليهود في 1948. قبل ذلك بستة أسابيع فقط، في 19 تشرين الثاني 1947، رقصت الجماهير في شوارع المدن العبرية احتفالاً بقرار هيئة الأمم المتحدة بشأن تقسيم البلاد وإنشاء دولة لليهود، ثم فجأة تقع مصيبة كهذه. سقط خلال تلك الأسابيع الستة، غير قليل من الضحايا في الصدامات الدموية التي نشبت بين اليهود والعرب. كانت حكومة بريطانيا والجيش البريطاني لا يزالان يسيطران على الوضع في البلاد، نظرياً. في الكثير من الحالات، كان اليهود، والعرب أيضاً، مرغمين على إخفاء السلاح الذي في حوزتهم وكانت الصدمات تتخذ طابعاً محلياً محدوداً، في الغالب. لكنّ "مفرزة الـ ٣٥" هي قصة مختلفة تماماً:

إنها الوحدة العسكرية التي يمكن وصفها، بحسب المصطلحات اللاحقة، بأنها "وحدة نخبة"، رجال مدرَّبون ومجهَّزون بأسلحة ومعدات كثيرة، وحدة معظم رجالها هم من قدامى الهاغناه والبلماح.

نشر سقوط محاربي المفرزة الـ 35 جميعاً جواً من الحزن الشديد جداً في الييشوف اليهودي. بقيت قصة المعركة لغزاً في أعين اليهود، لأنهم لم يعرفوا تفاصيل حقيقية واضحة عما حدث هناك. كانت تلك المفرزة تعتبر في تلك الأيام قوة كبيرة. هل يُعقل ألا ينجو منها أحد؟ هل يُعقل ألا يبقى منهم أحد على قيد الحياة؟ كان في صفوف مفرزة الـ ٣٥ شبان معروفون في الييشوف اليهودي الصغير عامة، وفي القدس خاصة. كان بعضهم طلاباً في الجامعة العبرية في القدس وكانوا يتوقعون لهم مستقبلاً زاهراً: "سقط جيل كامل ممن كان يُفترض أن يكونوا باحثين وأساتذة جامعيين"، كما ورد في إحدى المرثيات لهم. نُشرت قائمة بأسماء الشهداء في وسائل الإعلام الفلسطينية أيضاً، وكذلك في توثيقات عارف العارف ـ وهذه ظاهرة فريدة من نوعها ونادرة، تدل على مدى الأهمية التي أولاها الفلسطينيون لهذه المعركة ونتائجها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

التقارير العربية عما حدث، وما أطلقوا عليه اسم "معركة صوريف" أو "معركة ظهر الحَجّة" (على اسم التلة التي وقع فيها الاشتباك وتبادل النيران)، هي قليلة العدد وجزئية. بحسب تلك التقارير، دخلت إلى قرية صوريف في صباح يوم المعركة دورية من الجيش البريطاني، بعد بلوغها أنباء عن صوت إطلاق

نيران قرب القرية. وانتشرت في المحيط شائعات بأن اليهود قادمون لمهاجمة صوريف، لوضع اليد على مخازن الأسلحة التي خبأها في القرية عبد القادر وأمين سرّه، ابن القرية إبراهيم أبو دَيّة.

تحدثتُ في زيارة إلى قرية صوريف في تموز 2011، مع أحمد عبد العزيز عثمان، ابن الـ 80 عاماً. والدة عثمان كانت شقيقة أبو دية، ومنه حصلتُ على التصديق والتأكيد للرواية التي تقول إن عدداً من الرعاة والنساء الذين كانوا مشغولين، فجراً، بجمع الحطَب في أطراف القرية، لاحظوا قافلة اليهود وهم الذين استدعوا أبو دية ورجاله.

تحدثَت صحيفة الدفاع اليافيّة، يوم 18 كانون الثاني، عن مجموعة من الإرهابيين اليهود الذين اقتربوا من قرية صوريف، صباح يوم 16 كانون الثاني، فاصطدموا بفلاحين من أهل القرية. ألقى اليهود التحية على الفلاحين باللغة العربية "السلام عليكم"، فأسرع هؤلاء، الذين لم يفهموا ما الخطب، إلى القرية وأبلغوا المجموعة التي التقوا بها. ونشرت صحيفة فلسطين أن مجموعة من نساء القرية هي التي التقت المفرزة اليهودية، فعادت النسوة إلى القرية وأبلغن إبراهيم أبو دية ورجاله بالأمر، وهم الذين كانوا مختبئين في أماكن سرية في القرية، خوفاً من الجيش البريطاني. أسرع هؤلاء إلى التوجه نحو "عصابة اليهود" وإغلاق الطريق عليهم. هذا الإغلاق اضطر المحاربين اليهود الـ 35 إلى تغيير مسار مشيهم في اتجاه غوش عتصيون والابتعاد شمالاً. وهناك اختبأوا لبضع ساعات، بانتظار حلول العتم. اتضح فيما بعد أن هذا كان خطأ. الدورية البريطانية، التي تم استدعاؤها إلى صوريف ظهراً، لم تسمع ولم تر شيئاً فعادت أدراجها. في الأثناء، توافد سكان المنطقة لتلبية نداء الفَزعة الشاملة. وتروي شهادات عربية أنه خلال ساعات الصياح والظهر من يوم الجمعة، يوم المعركة، دارت اشتباكات محدودة جداً بين مفرزة الـ ٣٥ والسكان العرب، الذين أحكموا حصارهم حول التلة، رويداً رويداً. فقط في ساعات ما بعد الظهر أصبح تبادل النيران كثيفاً، فتعرض المحاصَرون إلى وابل شديد ومتواصل من النيران والقنص، حتى قُتلوا جميعاً.

تحدثت الصحيفتان الفلسطينيتان عن سقوط 50 قتيلاً يهودياً، قُتلوا الواحد إثر الآخر خلال المعركة التي استمرت من ساعات الصباح حتى الخامسة بعد الظهر. كما نشرتا، أيضاً، معلومات متشابهة عن الأسلحة والمعدات العسكرية التي أخذها الفلسطينيون غنيمة من اليهود. وكتبت صحيفة فلسطين أن أحد اليهود نجح في الفرار ووصل إلى قرب كفار عتصيون، إلا أن بعض القرويين من بيت فجار رأوه فأطلقوا النار عليه وأردوه قتيلاً.

كم عربياً قُتل في تلك المعركة التي استمرت ساعات طويلة؟ كانت مفرزة الـ ٣٥ وحدة نخبة مجهزة بكمية كبيرة من السلاح. لا تكشف الكتابات

التأريخية الإسرائيلية تفاصيل دقيقة عن ذلك، بل تورد معلومات عامة فقط. يكتب لويتسه، مثلاً، عن 17 قتيلاً عربياً، بينما يدعي آخرون أن العدد أكبر من هذا. يتحدث العرب، في المقابل، عن أعداد أقل بكثير. يقول بهجت الغنيمات، وهو مدير مدرسة في صوريف بحث موضوع المعركة، إن عدد القتلى العرب في معركة صوريف كان 12 شخصاً. معظم المصادر الأخرى (مذكرات بهجت أبو غربية، على سبيل المثال) يتحدث عن سقوط 4 قتلى عرب فقط في هذه المعركة.

تفيد الصورة المرتسمة من جمع وملاءمة جميع التفاصيل من المصادر العربية بأن مفرزة الـ ٣٥ لم تصطدم بمجرد مجموعة من الفلاحين يحملون سلاحاً قديماً، وهو ما كان متوقعاً حدوثه في غالبية القرى العربية في البلاد؛ بل اصطدمت بمجموعة، صغيرة حقاً، من المقاتلين المنظَّمين والمدرَّبين والمجهَّزين جيداً بالسلاح وكان على رأسهم قائد موهوب: إبراهيم أبو دَيّة. هو الذي قاد المعركة وأدارها. في البداية، أغلقوا الطرق على مفرزة الـ ٣٥، ثم استدعوا فزعة من القرى المجاورة. انقض سكان القرى من كل صوب على محاربي المفرزة، الذين كانوا منهَكين من ليلة طويلة قضوها في رحلة مشي على الأقدام وعلى ظهورهم حمولة ثقيلة. أطلق العرب النيران عليهم طوال ساعات عديدة فقتلوهم، جميعاً. أما العرب، فلم يتكبدوا خسائر جدية.

كان هذا المصير المُرّ الذي لاقته مفرزة الـ ٣٥ نتيجة اصطدامها بوحدة شبه عسكرية من تنظيم الجهاد المقدس، أقامت معسكرها التدريبي الأول في قرية صوريف. وكما رأينا من قبل، كانت صوريف القاعدة الأولى التي حط بها عبد القادر الحسيني، لدى قدومه من مصر قبل ذلك بثلاثة أسابيع. استدعى رجاله، من قدامى الثورة الكبرى، إلى صوريف وفيها شكّل، سوية معهم، الوحدة القتالية الأولى في تنظيم الجهاد المقدس. كان من الممكن مقارنة مصير مفرزة الـ ٣٥ بالمصير الذي كانت ستلاقيه مجموعة من العرب يحملون السلاح ويصلون، خطأ، إلى قاعدة تدريب، أو دورة ضباط، تابعة للهاغناه.

يشكك البحث العبري الأخير والدقيق الذي أجري على قضية مفرزة الجبل، كتاب يوحنان بن يعقوب مفزرة الـ ٣٥ (2011)، في الموروث القتالي الإسرائيلي، الذي يقول إن المفرزة اصطدمت براعٍ عربي، تجنبت المسّ به، تعبيراً عن قيم طهارة السلاح، وهو الذي استدعى رجال القرية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يعترف عوزي نركيس، قائد منطقة غوش عتصيون، في كتابه جندي من القدس، بأنه كان يخشى، كثيراً، استمرار الهجوم العربي يوم 14 كانون الثاني على كفار عتصيون و"قصَف" قيادة الهاغناه ببرقيات تطالبها بإرسال تعزيزات. كان ذلك سبب إرسال مفرزة الجبل. فيما بعد، في حزيران 1967، وقد أصبح

قائد المنطقة العسكرية الوسطى، أصدر نركيس أوامره إلى وحدة الاحتياط التي كنت أخدم فيها بالخروج الفوري، مع انتهاء المعارك، إلى صوريف وتفجير بيوت القرية ـ لتصفية الحساب التاريخي مع سكان القرية، الذين مثّلوا بجثث محاربي مفرزة الـ ٣٥، طبقاً لما أوردته التقارير اليهودية.

وصلنا إلى صوريف في ساعات الصباح، عبر الشارع المتعرج الخارج من بيت أمّر. كانت القرية خالية. على الجبال المحيطة، كان سكان القرية المذعورون مختبئين في البساتين والمغاوِر. كانوا يراقبون من بعيد ما يجري تحتهم. وضعنا مواد متفجرة في البناية الأولى، الكبيرة، عند مدخل القرية. لحقت به أضرار جسيمة. كان واضحاً أن تفجير جميع البيوت يحتاج إلى كميات هائلة من المتفجرات. بعد ساعة، انصرفنا من هناك. لم نستطع تنفيذ أمر قائد المنطقة الوسطى، وبذلك انتهت عملية الرد الانتقامية ضد صوريف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم ترفع معركة صوريف معنويات مقاتلي الجهاد المقدس وتزيد فخرهم فقط، بل أشهرت اسم إبراهيم أبو ديّة، للمرة الأولى. تصفه عشرات المنشورات الفلسطينية التي كُتبت عنه بـأنه "فلاح بسيط ذو رأس جنرال". في معركة صوريف «سطع نجمه»، كتب عنه الباحثون الفلسطينيون وهم يصفون شخصيته. وفي القصيدة التي نظمها إسماعيل حجازي وكرّسها لتلك المعركة، جاء عن ذلك:

في يوم وادي السرّ قد // سقطوا كأوراق الخريف

لمّا مضت صوريف بالأب // طال في زحف عنيف

لمع خلال الأسابيع التالية اسم إبراهيم أبو دية بوصفه بطلاً في معارك القدس عامة، وفي معركة القسطل خاصة. المربي والباحث الفلسطيني المعروف خليل السكاكيني، الذي كتب يوميات شهيرة وصف فيها، أيضاً، الأيام الأخيرة من المعارك قرب بيته في حي قطمون، جمع مواد لتأليف كتاب عن إبراهيم أبو دية، قائد الحي. لم يُكتب هذا الكتاب في نهاية المطاف. يتحدث نشطاء فلسطينيون آخرون، بمن فيهم كل من ترك فصولاً من الذكريات عن المعركة في القدس (مثل بهجت أبو غربية) عن بطولة إبراهيم أبو دية الذي أصيب عدة مرات في المعارك لكنه كان يعود إلى القتال.

لا يمكن من وجهة النظر الفلسطينية، حقاً، وصف معارك القدس في 1948 من دون إفراد حيز مهمّ لإبراهيم أبو دية. فقد أدى، أيضاً، الدور المركزي في الانقضاض على القسطل يوم 7 نيسان. والتوثيق الذي تركه هو نفسه، شفهياً، لما حدث في تلك الليلة ـ كما يظهر في مذكرات بهجت أبو غربية ـ يكشف معلومات مهمة عن المعركة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غيّرت قرية صوريف، كحال معظم القرى العربية، صورتها ووجهها خلال العقود الأخيرة. فقد كبرت واتسعت منذ 1948 وأصبحت بلدة. شُيّدت فيها بيوت كبيرة، فخمة، حوانيت ومشاغل مختلفة. للوصول إليها، ينبغي المرور في شارع ضيق يقسم بلدة بيت أمر إلى الشمال من الخليل. لا تزال أجزاء من النواة القديمة في قرية صوريف التقليدية على حالها. وهذه تشمل ساحة ومسجداً صغيراً ملاصقاً لمنزل أبي ديّة ومعزوزة، التي تزوجها عشية الحرب. في زاوية الساحة، ثمة قوس من الأحجار، نصفه مدفون في الأرض، يشير إلى قبو كان في البناية القديمة. إنه مكان المخزن الذي خُبئت فيه الأسلحة التي هرّبها عبد القادر من مصر. إلى هنا جاء عبد القادر في أواخر كانون الأول 1947 وهنا أشرف على تدريب الوحدة التي قتل رجالُها أعضاء مفرزة الـ ٣٥ وأهدوا المنطقة نصرهم الكبير الأول.

عرضوا عليّ في مكتبة المدرسة، في قرية صوريف، بعض المنشورات عن ابن القرية المعروف. أحدها هو كتاب ألّفه نُهيل عادل عويضة عن معارك القدس في سنة النكبة و"قصة البطل إبراهيم أبو دية". على غلاف الكتاب، الأحمر اللون، صورة وجه إبراهيم أبو دية: عينان سوداوان لامعتان، خدود غائرة بعض الشيء، شعر أجعد، كثيف. "رجل قصير القامة عظيم البطولة"، كُتب عليها. تصف المنشورات الطريق التي أصبح أبو دية من خلالها قائداً لـ "الوحدة الضاربة" في جيش الجهاد المقدس وتحكي عن تعيينه قائداً لحي قطمون وعن إصابته في القسطل: مصاباً من المعركة أُحضِر أبو دية للمشاركة في جنازة عبد القادر وألقى فيها كلمة رثاء أثارت مشاعر الجميع. بعد انتهاء الجنازة، نُقل إلى عيادة الجهاد المقدس التي أقيمت في منزل / قصر إسماعيل الحسيني؛ وهو المنزل الذي أصبح لاحقاً فندق أورينت هاوس (بيت الشرق)، مقر ممثلية م. ت. ف. في القدس، بقيادة فيصل الحسيني، نجل عبد القادر.

بعد وقت قصير، تماثل إبراهيم أبو دية للشفاء وعاد إلى القتال على الجبهة التي يعرفها جيداً، في جنوب القدس. وقف على رأس بضع عشرات من المقاتلين الفلسطينيين، الذين هاجموا سوية مع وحدة أخرى كبيرة، شبه عسكرية، من متطوعي "الإخوان المسلمين" من مصر، واحتلوا، لوقت قصير جداً، كيبوتس رمات راحيل (22 ـ 24 أيار 1948). في الهجوم اليهودي المضاد، أصيب أبو دية مرة أخرى، لكن إصابة بالغة هذه المرة، تركته مشلولاً. بعد سلسلة من العلاجات في مستشفيات القدس وبيت لحم، نُقل إلى العلاج في بيروت، سنة 1949.

كان اثنان من رفاقه المقاتلين، محمد نمر عودة ومحمد أبو خليفة، مرافقين ملازمين له في بيروت، نهاراً وليلاً. حملاه أيضاً على أكتافهما في زياراتهم إلى مخيمات اللاجئين في لبنان. "اصبروا حتى يوم التحرر، سنعود كلنا"، قال أبو دية للاجئين. كانت زوجته إلى جانب سريره في مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت، حيث زاره جورج حبش ووديع حداد، اللذان أسسا في ذلك الوقت منظمة "القوميون العرب"، التي تحولت فيما بعد إلى "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين" و"الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين"، اللتين انضمتا إلى صفوف م. ت. ف. لاحقاً.

توفي أبو دية متأثراً بإصابته وهو في الثانية والثلاثين من عمره، في آذار 1952. دُفن "الفلاح البسيط ذو رأس الجنرال" في مقبرة الباشورة في بيروت، في جنازة مهيبة بمشاركة حشد غفير، وأبّنه فيها إميل الغوري، نائب الحاج أمين الحسيني في اللجنة العربية العليا: "كنتَ حلقة في سلسلة الشهداء الأبطال في فلسطين، مكمّل طريق عز الدين القسام وسعيد العاص".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أنهى عبد القادر في تلك الأيام من شهر كانون الثاني، التي جرت فيها معركة مفرزة الـ ٣٥، جولة في قرى محافظة الخليل ثم انتقل إلى محافظة رام الله. ومن هناك، واصل الطريق نحو منطقة نابلس وبلدة طوباس، ثم توجه غرباً إلى القرى في منطقة طولكرم وقلقيلية ـ الطيبة، الطيرة، قلنسوة، دير الغصون، شويكة، زيتا، عنبتا وبَلعا. أمضى ساعات قليلة فقط في كل قرية، حيث استقبله بحفاوة بالغة مخاتير القرى ورؤساء العائلات الكبيرة. اختار من بينهم أشخاصاً عيّنهم مسؤولين عن الحراسة، أعدّ قوائم بالأسلحة التي في حوزتهم؛ بعضها أسلحة رسمية كان يحملها رجال شرطة عرب كانوا لا يزالون يخدمون في الشرطة البريطانية. كانت تلك محاولة ـ باءت بالفشل ـ لتوسيع مجالات مسؤوليته، خارج حدود القدس، رام الله والخليل.

في تلك الأيام، قرر عبد القادر تشكيل قيادة مركزية للجهاد المقدس، واختار أن يكون مقر القيادة المركزية في بلدة بيرزيت المسيحية، إلى الشمال من رام الله. وقع اختياره على بيرزيت لأن البلدة كانت تبدو معزولة وبعيدة عن مركز الحكم البريطاني في القدس، فهي تقع على تجمع المياه، في أعلى التلال التي يمكن الإطلال منها على البلاد كلها.

إلى الشمال منها ـ "بين بيرزيت وعَطارَة"، كما تقول كلمات حكاية شعبية محلية ـ هنالك غابة من أشجار السنديان القديمة وفي وسطها قبر الشيخ القطرواني، الوليّ الصالح المشهور، من إحدى قرى منطقة غزة. ذات ليلة،

حمل الملائكة الشيخ وأحضروه إلى قمة الجبل. "هنا يجب أن أموت"، قال الشيخ للفلاحين الذين أطعموه وأسقوه طوال أربع سنوات.

وجدت هذه القصة طريقها إلى كتاب تعليمي للغة العربية المحكية، وهو كتاب للمبتدئين ألّفه المدرّس يسرائيل بن زئيف للمدارس اليهودية، في عهد الانتداب البريطاني. حفظت مثل الأولاد الآخرين أبناء جيلي، كل الوقت، عن ظهر غيب، الجمل الأولى عن القبر بين بيرزيت وعطارة، "أقرب إلى عطارة"، ثم شرعتُ بعد حرب الأيام الستة مباشرة، أبحث عن المكان حتى وجدته. علاوة على كونه موقعاً ساحر الجمال مليئاً بأشجار السنديان العتيقة، يشكل القبر، الذي بُني على أنقاض كنيسة بيزنطية، نقطة مراقبة فريدة من نوعها في جنوب السامرة. يمكن منها رؤية جبال نابلس إلى الشمال، سفوح جبال القدس إلى الجنوب، وكل السهل الساحلي ـ من الخضيرة شمالاً حتى أشدود (أسدود) وأشكلون (عسقلان) في الجنوب. ليس بعيداً عن هناك، اختيرت قبل بضع سنوات المنطقة التي أقام فيها المستثمر الفلسطيني بشار المصري ـ بأموال إمارة قطر ـ مدينة روابي الفلسطينية الحديثة.

أقامت عائلة ناصر المسيحية في بيرزيت، في أواخر عهد الانتداب، مدرسة ثانوية خاصة حظيت بسمعة ممتازة، ثم تحولت بعد سنوات إلى جامعة فلسطينية معروفة ومعترف بها. في أيام الحرب، كانت تتوفر في بيرزيت غالبية الخدمات الحيوية: كهرباء وماء وشوارع توصل إلى رام الله، نابلس، القدس والسهل الساحلي. وفوق هذا: لم تكن قرب بيرزيت أي بلدة يهودية. كانت هذه أفضلية مهمة جداً في اعتبارات عبد القادر. وليس أقل أهمية من ذلك، حقيقة أن عائلة الحسيني كانت تمتلك بيتاً وعزبة في قرية صغيرة مجاورة، هي قرية عين سينيا، حيث كان بإمكان عبد القادر أن يتخذ لنفسه هناك مقر قيادة مصغرة ونقطة للقاءات السرية، إضافة إلى مخزن للأسلحة ومأوى شخصياً. وهاكم معلومة مثيرة لمحبي تصفية الحسابات التاريخية: تم تأجير تلك العزبة نفسها في العام 1906 لعائلة يعقوب شرتوك (والد موشيه شاريت) الذي أقام في المكان مزرعة، إلا أن آماله في بناء بلدة يهودية هناك قد خابت وانتقلت عائلته إلى القدس، بعد سنتين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تبدد الشعور العربي بالضائقة، الذي سبق معركة مفرزة الـ ٣٥، في الأسابيع والأشهر التالية واستُبدل بشعور النصر. كان عدد القتلى اليهود يزداد باستمرار. يمكن عزو جزء من تعاظم قوة الجانب العربي إلى تنظّم عبد القادر ورجاله. كذلك تُكثر المصادر اليهودية، أيضاً، من كيل المدائح لقدرات قائد العدو ومهارته. وهذا ما كتبه لويتسه، وفق مصادر استخبارات الهاغناه:

يتمتع عبد القادر بمزايا القائد منذ الولادة وأبدى إخلاصاً واجتهاداً في منصبه [...] قائد منذ الولادة، تميز بشجاعة فائقة [...] ذو ثقافة، بقي راسخاً لديه الوعي والشعور السليقي بأفضليات أبناء شعبه الفلاحين ونواقصهم [...] يتمتع بجاذبية سحرت أبناء شعبه القابلين للتأثر بسهولة. لن يكون بعيداً الوقت الذي تتقاطر فيه، من الأسواق والقرى الجبلية، مئات وآلاف المزارعين يحملون بنادقهم، مستعدين لتنفيذ أوامره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



9
آذار الرهيب

يكتب مؤرخون عرب وفلسطينيون عن حادثة وقعت في تشرين الأول 1947 في بلدة عاليه السياحية، على شارع بيروت ـ دمشق، حيث اجتمع مجلس جامعة الدول العربية. كانت تلك أيام التحضيرات لاجتماع الهيئة العمومية للأمم المتحدة، الذي كان مزمَعاً أن يعقد بعد ذلك بشهر واحد، في نهاية تشرين الثاني، وكان من المُنتظَر أن يقرّ ويتبنى مشروع تقسيم فلسطين إلى دولتين، يهودية وعربية. عقد مجلس الجامعة العربية اجتماعاً خاصاً للبحث في تطورات القضية الفلسطينية، دون إرسال دعوة رسمية إلى المفتي الحاج أمين الحسيني لحضور الاجتماع. وعلى الرغم من أنه لم يُدعَ، وصل الحاج أمين إلى مكان انعقاد الاجتماع، تلبية لمبادرة سورية، ودخل إلى قاعة الاجتماع بصورة مفاجئة. رآه الجميع وخيّم اضطراب شديد. تحدث رئيس الحكومة العراقية، سيّد صالح جبر، أولاً فتوجه إلى رياض الصلح، رئيس حكومة لبنان، الدولة المضيفة، طالباً منه إخراج الحاج أمين من القاعة. حرّك عدد من الزعماء، بينهم أمين عام جامعة الدول العربية، المصري عزام باشا، رؤوسهم موافقين. لكنّ رياض الصلح رفض قائلاً: أصول الضيافة العربية تمنعني من فعل هذا.

تعبر هذه الحادثة عن علاقات الضغينة، السياسية والشخصية، التي سادت آنذاك بين القيادة الفلسطينية برئاسة الحاج أمين، وبين كثيرين من الزعماء العرب، الذين كانوا يستعينون بالمعارضة الفلسطينية من أوساط آل النشاشيبي. وكما رأينا من قبل، كان الشرخ الداخلي العميق في المجتمع الفلسطيني، الذي بدأ أيام الانتداب البريطاني، قد تعمق وتفاقم في أواخر ثورة 1936 ـ 1939 واتخذ شكل وحجم الحرب الأهلية. ثم أضيف إليها عامل سياسي حاسم خلال الحرب العالمية الثانية. كان الحاج أمين ورجاله يحظون بتأييد وشعبية واسعين بين عرب البلاد، وفي أوساط واسعة من العالم العربي عموماً، كما يبدو. أصبح المفتي بطلاً قومياً بفضل مواقفه الوطنية والقومية، الفلسطينية والعربية، بفضل كفاحه وتمرده ضد البريطانيين في البلاد، سلوكه في بغداد سنة 1941، والمساعدة التي قدمها لألمانيا وإيطاليا إبان الحرب العالمية.

لكن المفتي كان في نظر معارضيه خصماً خطيراً، بل عدو حقيقي. كان هذا رأي غالبية الزعماء العرب المشاركين في الجامعة العربية التي أسّسَت برعاية بريطانية في أواخر الحرب العالمية، بدعم وتأييد من رؤساء النظام الهاشمي في العراق وفي شرق الأردن، ومسؤولين رسميين كبار في سورية

ومصر، إضافة إلى المعارضة النشاشيبية بالطبع. عمل هؤلاء جميعاً ضد المفتي، بشتى الطرق والوسائل التي أتيحت لهم. وكما سيتضح لاحقاً، كان لهذه البغضاء دور حاسم في الساعات الأخيرة من حياة عبد القادر وفي المعركة الأخيرة في القسطل. ويرى معظم الكتاب العرب أن هذه الخصومة الشديدة في العالم العربي وفي المعسكر الفلسطيني هي التي حسمت، في نهاية المطاف، ورجّحت الكفة في مسألة مصير فلسطين.

قرر مجلس الجامعة، في نهاية آذار 1947، نظراً لأن الفلسطينيين لم ينجحوا في تشكيل وفد مشترك إلى اجتماع مجلس الجامعة العربية، الذي انعقد في سورية في حزيران 1946، تخويل نفسه "حق وصلاحية اختيار ممثلي فلسطين في الجامعة". بذلك، صادرت الدول العربية، عملياً، مسؤولية معالجة القضية الفلسطينية من أيدي "أصحاب القضية" ـ وهو تعبير احتجاجي أصبح دارجاً على ألسن ممثلي م. ت. ف. في سنوات لاحقة.

اتفقت الفصائل الفلسطينية في خضم التحضيرات لتأسيس الجامعة العربية، على اختيار موسى العلَمي ممثلاً لها في مجلس الجامعة. العلمي، ابن عائلة مقدسية عريقة، أشغل منصب المدعي العام في جهاز القضاء الانتدابي وكان مقرباً من الحاج أمين. وكانت تربطه علاقة قرابة عائلية، من الدرجة الأولى، مع آل الحسيني: كانت شقيقته متزوجة من جمال الحسيني، الذي كان يعتبر ثاني أهم شخصية في آل الحسيني، بعد الحاج أمين، وكانت عائلتاهما تسكنان في البيت نفسه (البيت لا يزال قائماً حتى اليوم في حي مصرارة). وكان قد أمضى فترة من الزمن برفقة الحاج أمين إبان منفاه في العراق. لكن، لأنه لم يتماثل مع أي من المعسكرين الفلسطينيين المتنازعين، إبان الحرب العالمية، اعتُبر موسى العلَمي جديراً بأن يكون مندوباً فلسطينياً وحيداً في مؤسسات جامعة الدول العربية. في نهاية الحرب، ومع استئناف نشاط اللجنة العربية العليا (باسم "المجلس العربي الأعلى"، الآن) بقيادة آل الحسيني، توقف موسى العلمي عن تمثل الفلسطينيين في الجامعة العربية وكرّس نفسه، كلياً، لإنشاء منظومة إعلامية فلسطينية، ثم ـ لاحقاً ـ لمعالجة وتأهيل اللاجئين من 1948.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

التقيتُ موسى العلَمي في المزرعة التي أقامها إلى الشرق من أريحا، بعد حرب العام 1973 بأيام. استقبلني، كصحافي إسرائيلي، بعدم رضى واضح. لم أحدد موعداً مسبقاً، لمعرفتي أنه سوف يرفض؛ كنت أرغب جداً في رؤية المزرعة المشهورة، على الأقل، إن لم أره هو. استعنتُ بوساطة صرّاف من أريحا كانوا يلقبونه في المدينة، باستهزاء، بـ "داود البرِينس" ("الأمير")، لأنه كان دائم التفاخر بأنه كان رجلاً ثرياً قبل 1948 وكان يمتلك بناية تجارية في

شارع الأميرة ماري في القدس. عمل هذا الرجل، داود اللفتاوي، سنوات طويلة في مزرعة العلَمي التي تضررت كثيراً سنة 1967 وكادت تتوقف عن العمل نهائياً. اصطحبني "الأمير" إلى هناك، كما نجح في إقناع موسى العلمي باستقبالي لمحادثة قصيرة في مكتبه.

التقيتُ رجلاً طويل القامة، شعره أبيض، وكذلك شارباه، يرتدي بدلة وربطة عنق ويبدو مثل أرستقراطي بريطاني. تهرّب من الإجابة على أسئلة حول الوضع الراهن، من نوع الأسئلة التي يطرحها الصحافيون عادة. الموضوع الذي كان يحتل العناوين آنذاك هو الذي سُمّي "فصل قوات" مع المملكة الأردنية، بمعنى انسحاب إسرائيل من منطقة غور الأردن وإعادتها إلى السيادة الأردنية. قام وزير الخارجية الأميركية آنذاك، هنري كيسنجر، بجولات مكوكية في المنطقة، متنقلاً بين القدس وعمان، وكان عدد من الصحافيين الإسرائيليين يرافقه حتى جسر اللنبي. إلا أن اتفاقيات فصل القوات، التي تحققت وخرجت إلى حيز التنفيذ بين إسرائيل ومصر وبين إسرائيل وسورية، لم تنجح بين إسرائيل والأردن. الجملة الوحيدة التي دوّنتُها على لسان كيسنجر آنذاك كانت التي عبر فيها عن صدمته لرؤية نهر الأردن للمرة الأولى. فقد وصل إلى النهر المعروف من الكتب المقدسة، ربما أحد الأكثر شهرة في العالم، لكن ما رأت عيناه إلى الشرق من أريحا لم يكن نهراً على الإطلاق، وإنما بركة صغيرة من المياه الضحلة، الراكدة والملوثة، بعرض بضعة أمتار. نظر كيسنجر إلى الماء ملياً ثم قال: "لا يمكن تصديق ما يمكن للعلاقات العامة الجيدة أن تفعله لبركة الماء هذه".

وافق موسى العلمي أن أكتب، على لسانه، بضع جُمل نقدية للسلطات الإسرائيلية التي هدمت مزرعته، سدّت آبار المياه واقتلعت أشجار الحمضيات. حذّرني داود من طرح أسئلة عائلية، على خلفية قصة النميمة التي شاعت آنذاك ومفادها أن موسى العلمي عاد إلى بيته، في المزرعة، ذات يوم، فلم يجد زوجته، سعدية. تبين أنها هربت وتزوجت من وصفي التل، الذي أصبح فيما بعد رئيساً للحكومة الأردنية.

لكنني استطعت تذكير العلمي، خلال الدقائق القليلة التي أتيحت لي، بأمر لقاءاته مع دافيد بن غوريون في آب 1934 ـ حدث وحيد جرى خلاله لقاء بين زعيم صهيوني من الدرجة الأولى وشخصية فلسطينية اعتبارية. عُقد اللقاء الأول في المزرعة العائلية التي اشتراها والد موسى العلمي في قرية شَرَفات الصغيرة بجانب القدس، على الحد الغربي لقرية بيت صفافا. ابتسم موسى العلمي، تمتم شيئاً ما يبدو أنه كان من قبيل "كان ذلك مثيراً، مثيراً جداً"، ثم سألني إن كنت قد زرتُ قرية شرفات. وحين أجبتُ بالنفي، أرشدني إلى كيفية الوصول إلى هناك. وبالفعل، سافرتُ بعد ذلك بفترة ما إلى قرية

بيت صفافا، ومنها إلى حرش محاط بسور في داخله منزل عائلة العلمي القروي. تحول البيت، مع مرور الوقت، إلى حضانة للأطفال معروفة جيداً في المنطقة، بفضل شجرة البلوط العتيقة الشامخة في ساحته.

مما دوّنه بن غوريون، يمكن أن نتخيل كيف جلس هو وموسى العلمي، في صيف 1934، على مقعد حجريّ أحاط بجذع شجرة البلوط الواسع. ادعى موسى العلمي أمام ضيفه بأنها شجرة البلوط الأقدم والأكبر في البلاد. وكما فعل مع الزوار الآخرين، البريطانيين على وجه الخصوص، الذين زاروا حديقة البيت في شرفات، كذلك أشار العلمي إلى الشجرة وقال لبن غوريون: هل ترى شجرة البلوط هذه؟ جذور البلوط قديمة وعميقة، لكن جذوري في هذه البلاد ليست أقلّ قِدَماً وعمقاً.

غيّرت أعمال البناء الإسرائيلية في جنوب القدس وجه المنطقة كلياً في السنوات اللاحقة. قرية شَرَفات الصغيرة، الحرش، حضانة الأطفال وشجرة البلوط المعروفة ـ أصبحت كلها محاطة من الجنوب بحي «غيلو» اليهودي الكبير، ومن الشمال بمناطق سكنية وصناعية، بإستاد لكرة القدم وبمركز تجاري من الأكبر في إسرائيل ـ جميعها مقامة على ما كان ذات مرة أراضي قرية المالحة العربية. والشجرة المشهورة كأنها هرمت، أغصانها لم تعد كثيفة ومتشابكة، والمقعد الحجري الذي أحاط بها أزيل في محاولة للحفاظ على الشجرة النادرة بواسطة منظومة حديثة للري. لم يعد موسى العلمي إليها. توفي سنة 1984.

لم يحضر موسى العلمي ذلك اللقاء في بلدة عاليه اللبنانية، في تشرين الأول 1947. في الحقيقة، لم يكن في الجامعة العربية آنذاك أي تمثيل فلسطيني رسمي. أما الذين حضروا فهم، كما ذكرنا، المفتي الحاج أمين وحاشيته، علماً بأن الفلسطينيين لم يتلقوا أي دعوة رسمية. يمكن الاستدلال من خلال التقارير عن جلسة مجلس الجامعة العربية تلك (قبل أسابيع معدودة من التئام الجمعية العمومية للأمم المتحدة)، على الظروف السياسية التي دفعت عبد القادر ورجاله، لاحقاً، إلى وضع عسكري غير معقول.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان عبد القادر من الناحية السياسية، على وشك فشل معروف مسبقاً. كان قد رافق المفتي في رحلاته من القاهرة إلى لبنان، ومن المرجح أنه حضّ الحاج أمين على التشبث بآرائه بحزم. ومن المنطقي، أيضاً، الافتراض بأن عبد القادر هو الذي حثّ المفتي على الدخول إلى الجلسة في عاليه على الرغم من أنه لم يكن مدعواً، كما حثّ والده، موسى كاظم المسنّ، على الوقوف على رأس المظاهرة في يافا في العام 1933، والتي قرّبت وفاته. صحيح أن طبع عبد القادر المستفِز، المتمرد والمتعجرف، والذي تجسد في

تصرفه خلال حفل توزيع شهادات التخرج في الجامعة الأميركية في القاهرة في صيف 1932، قد جعله قائداً محبوباً بين الشباب والفلاحين من عامة الشعب، الذين ساروا خلفه، لكن الأمور بدت على نحو مختلف في نظر القادة العرب المسنين، الذين اجتمعوا في جلسة الجامعة العربية. فقد رأى هؤلاء في هذا المسلك وقاحة وغطرسة من جانب الحاج أمين ومرافقه الشاب.

حاول المفتي الحاج أمين أن يشرح للمجتمعين في عاليه أن النضال الفلسطيني هو كفاح عرب البلاد، أولاً وبالدرجة الأولى، وأن دور الأشقاء العرب والجامعة العربية يقتصر على مد يد العون لهم، لا إملاء الأمور عليهم أو اتخاذ القرارات بدلاً منهم. رفض قادة الجامعة العربية تقبل هذا الرأي. رفضوه بازدراء بائن وأوضحوا أن المعركة في فلسطين كبيرة وشاملة بسبب تفوق اليهود البارز، ولذلك فهي غير متناسقة مع ما لدى عرب فلسطين، ولدى آل الحسيني بالـتأكيد، من قدرات محدودة، حتى لا نقول بائسة.

تشكل الحادثة في عاليه سمة مميزة للعلاقات المعقدة بين العالم العربي، الكبير والقوي، وبين الجمهور الفلسطيني الصغير والضعيف، وهو ما شكل مبعث قلق دائم لدى القيادة الفلسطينية لسنوات عديدة، خلال حرب العام 1948، قبلها وبعدها. كانت المشكلة، ولا تزال، دائمة الحضور على جدول الأعمال الفلسطيني طيلة السنين كلها: كان من الواضح أن الفلسطينيين وحدهم غير قادرين على الصمود في وجه القوة الهائلة، نسبياً، المتوفرة لدى البيشوف اليهودي، ثم في وجه دولة إسرائيل لاحقاً. على هذه الخلفية، تبنت الحركة الوطنية الفلسطينية المتجددة، ما بعد النكبة، والممثَّلة في حركة «فتح» ومنظمة التحرير الفلسطينية، شعار «استقلالية القرار الفلسطيني». ومعناه: نحن، الفلسطينيين، نطلب ونطالب بمساعدة الدول العربية، إلا أن القرار بشأن مصيرنا هو لنا نحن فقط. نحن الفلسطينيين، فقط، الذين نقرر ونحدد، بصورة مستقلة، طريقنا. كان شعار «استقلالية القرار» استمراراً لموقف الحاج أمين التقليدي.

رفض ممثلو الجامعة العربية المجتمعون في عاليه في تشرين الأول 1947 طلب الحاج أمين الاعتراف به رئيساً للمجلس العربي الأعلى الذي يمثل عرب فلسطين، حسب رأيه. أوضح عزام باشا، أمين عام الجامعة العربية، أن مجرد حضور الحاج أمين في الاجتماع يعود بالضرر على الكفاح الفلسطيني، لأنه يعيد إثارة ترسبات هدّامة من علاقاته في الماضي مع خصومه الفلسطينيين ومع البريطانيين. كما أن حضوره في الاجتماع يولّد، أيضاً، جفاءً مع القيادة العراقية الموالية لبريطانيا، التي نشط المفتي ضدها في ثورة 1941، ومع خصمه الملك عبد الله، ملك شرق الأردن، الحاكم الموالي، هو

أيضاً، للبريطانيين الذين أقاموا جيش مملكته وتولوا قيادته. «أنت، الحاج أمين، كنت على علاقة مع متمردي رشيد عالي الكيلاني»، قال له طه الهاشمي (هي الثورة نفسها التي طردت طه الهاشمي من منصبه رئيساً للحكومة في العراق). وحسب ما كتب في مذكراته، يبدو أن طه الهاشمي لم يغفر له. وحين عاد المفتي للتعبير، في ذاك الاجتماع نفسه، عن عدم رضاه من تعيين القاوقجي، تعامل طه الهاشمي مع رأي الحاج أمين وموقفه باعتبارهما شأناً شخصياً خاصاً به، بينما تعيين القاوقجي هو شأن كل الدول العربية وموضع قرارها.

كان على القادة العربk مقابل عدم قبولهم بالمفتي ورجاله، إنشاء أطر أخرى، بديلة، للكفاح في فلسطين. الإطار الذي وقع الاختيار عليه، منذ الجلسة إياها في تشرين الأول؛ أي قبل صدور قرار الأمم المتحدة بشأن التقسيم، كان تشكيل لجنة عسكرية عليا تكون المسؤولة عن تحويل المال والسلاح إلى الفلسطينيين، لمنع إنشاء الدولة اليهودية.

اختير لرئاسة هذه اللجنة العسكرية، آنذاك، شخصيتان عراقيتان: المفتش العام ـ طه الهاشمي؛ والقائد الأعلى للوحدات في فلسطين ـ الجنرال إسماعيل صفوت. بالإضافة إليهما، كان في عضوية اللجنة كل من: محمود الهندي من سورية، شوكت شقير من لبنان، بهجت طبارة من شرق الأردن (لم يحضر أياً من الجلسات، على الإطلاق) وصبحي الخَضرا من فلسطين. كما شارك في الجلسات، أيضاً، أحمد الشرباتي من سورية والسياسي المعروف رياض الصلح من لبنان، الذي كان يشغل منصب رئيس الحكومة اللبنانية أيضاً.

تشير المنشورات الفلسطينية، بجفاف لافت، إلى أن قدم أي من مسؤولي اللجنة لم تطأ أرض فلسطين. اتخذت اللجنة مقرّ قيادة لها في قُدسَيّا، إحدى ضواحي دمشق، ومعسكراً لتدريب المتطوعين، بإرشاد ضباط سوريين، في قاعدة القطنة القريبة من العاصمة السورية. أما الجزء الأكبر من جلساتها، فقد عقدته اللجنة في مكاتب وزارة الدفاع السورية.

أدرك رؤساء الجامعة العربية والدول العربية وأعضاء اللجنة العسكرية، على الفور، أن عليهم التحرك الفعلي على وجه السرعة، لأن الوضع في فلسطين قد يصبح حرجاً، في غضون وقت قصير. كان تقييمهم صحيحاً للمستوى العالي من التضامن، التنظيم والعمل في اليشوف اليهودي، والذي يفوق كثيراً مستواه في المجتمع الفلسطيني القروي، الفقير، غير المتعلم، الذي تنهشه الصراعات الداخلية، الذي هاجرت غالبية قيادته من البلاد وتفككت. كان الحاج أمين وعبد القادر، في نظرهم، متطرفين، باحثين عن السلطة، يخدمان مصالح قبلية خاصة بآل الحسيني ومثيرين للمشاكل. مع اندلاع الصدامات

العنيفة في شتاء 1948، انتبه رؤساء الجامعة العربية واللجنة العسكرية إلى أن مكانة الحاج أمين وعبد القادر تتعزز بين عرب فلسطين، إذ كان "الجهاد المقدس" أول من انخرط في القتال. ولهذا، توصل هؤلاء إلى قناعة بأن لا خيار أمامهم سوى تقديم المساعدة لهما، لكن ليس تكليفهما بقيادة المعركة كلها، بأي حال من الأحوال.

واصل الحاج أمين، في معرض المداولات التي أجرتها الجامعة العربية واللجنة العسكرية في لبنان، ثم في سورية، خلال الأسابيع الأخيرة من سنة 1947، محاولاته لإقناع القادة العرب بتعيين عبد القادر قائداً عاماً للمعركة العسكرية في فلسطين، وتعيينه هو قائداً أعلى بحكم منصبه رئيساً للمجلس العربي الأعلى في فلسطين. كما طُرح خلال المداولات، مراراً وتكراراً، مطلب المفتي باعتبار الفلسطينيين مسؤولين عن مصيرهم وتخويلهم قيادة المقاتلين، مقابل اقتصار دور الأشقاء العرب على توفير وتقديم المساعدات المالية، العسكرية والسياسية بالطبع، لا غير.

قررت اللجنة العسكرية، في بداية كانون الأول، تقديم معونات بالمال والسلاح لجماعات المقاتلين في فلسطين (مثل "الجهاد المقدس" الذي كان المفتي قد حصل من الجامعة العربية على مبالغ من المال لصالحه)، لكنها قررت إناطة ضباط عرب آخرين بقيادة المعركة. ونظمت اللجنة وحدات من المتطوعين في جميع الدول العربية، على أمل أن يكونوا تحت إمرتها. كما أقيمت في الدول المختلفة دوائر تجنيد ولجان "لإنقاذ فلسطين"، كانت الاستجابة لها واسعة، فتجند الآلاف. أطلق على وحدات المتطوعين هذه اسم "جيش الإنقاذ العربي" ووُضعت تحت قيادة وإمرة فوزي القاوقجي، الذي كان ذا شهرة واسعة كعسكريّ محترف، بعيد عن السياسة متحرر منها ومخلص لانتمائه القومي العربي. كان القاوقجي يُكثر من التقاط الصور لنفسه خلال المعارك في شتاء 1948. في إحدى تلك الصور، من بداية نيسان، يظهر واقفاً على سطح أحد البيوت في قرية المَنسي (قرب كيبوتس مشمار هعيمق)، مركز تجمع قبائل التركمانيين الذين استوطنوا سفوح الكرمل في نهايات الحكم العثماني (انتقل كثيرون منهم إلى مخيم جنين، بعد العام 1948). في تلك الصورة، ظهر القاوقجي، ذو الجسم الممتلئ، البشرة الفاتحة اللون، بكامل أناقته، يعتمر الكوفية والعقال ويرتدي معطفاً عسكرياً طويلاً، يحمل في يده عصا وهو ينظر إلى حشد من العرب المتجمعين تحت البناية وأنظارهم شاخصة إليه.

خلافاً لتوصية الجنرال صفوت، لم يُقَم لجيش الإنقاذ مقر قيادة عامة منظم؛ ولم تف الحكومات العربية بجميع تعهداتها المالية، بينما كانت أعداد المتطوعين تتزايد باستمرار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تشكلت، في الأسابيع الأخيرة من 1947 وشتاء 1948، ثمانية أفواج من جيش الإنقاذ، كان تعدادها الكلي نحو 5,000 مقاتل. أُطلقت على هذه الأفواج أسماء من التراث الإسلامي: ثلاثة أفواج "يرموك" (الأول، الثاني والثالث)، فوج "حطين" وفوج "القادسية" ـ في هذه جميعها كان المتطوعون سوريين، لبنانيين، أردنيين وفلسطينيين؛ وفوج "الحسين" مقاتلوه من المتطوعين العراقيين، كما شُكل "فوج جبل الدروز" وشمل أيضاً المتطوعين الشركس، ثم أضيف إليهم لاحقاً متطوعو "الإخوان المسلمون" من مصر، الذين لم يكونوا مشاركين في جيش الإنقاذ، ومتطوعون من السعودية والسودان. في الإجمال، كما قال إسماعيل صفوت، تجند نحو 3,000 متطوع سوري، 800 متطوع عراقي، 800 متطوع فلسطيني، 300 متطوع لبناني وعدد قليل من المتطوعين الأردنيين والمصريين. وكانت ثمة مجموعة أخرى، صغيرة لكنها مثيرة ومهمة، هي مجموعة المتطوعين المسلمين اليوغسلافيين (البوسنيين) الذين كان عددهم 34 متطوعاً وكانوا، في غالبيتهم، من ذوي الاحتراف العسكري، فيما انضم بعضهم إلى وحدة "الأجانب" التي تمركزت في مقر قيادة عبد القادر، في بيرزيت.

قررت اللجنة العسكرية، أيضاً، تقسيم فلسطين إلى أربع مناطق قتال: المنطقة الشمالية، أقضية عكا، الناصرة وجنين، كانت تحت قيادة جيش الإنقاذ. كان على رأس قيادة هذه المنطقة الضابط السوري أديب الشيشكلي. وتبين التوثيقات الإسرائيلية أن الضابط السوري كان يقيم علاقات مع الهاغناه. في وقت لاحق، قاد الشيشكلي انقلاباً عسكرياً في سورية وظل حاكماً لها حتى الإطاحة به بانقلاب آخر، في شباط 1954، ففر هارباً إلى خارج سورية. المنطقة الثانية هي منطقة المركز والقدس ـ أقضية رام الله، أريحا، بيت لحم والخليل. كان على رأس قيادة هذه المنطقة عبد القادر الحسيني، الذي حاول توسيع مجالات قيادته ومسؤوليته، لكنه لُجم بسبب التوترات والخصومات في المعسكر الفلسطيني. شملت المنطقة الغربية أقضية يافا، اللد والرملة وكان تحت قيادة الشيخ حسن سلامة، من قدامى الثوار في فلسطين. كان سلامة ينتمي، رسمياً، إلى "الجهاد المقدس" وحظي بمكانة شبه مستقلة في العلاقة مع عبد القادر، الذي حصل على لقب "قائد الجهاد". المنطقة الرابعة، الجنوبية، شملت أقضية غزة ورفح وكانت تحت قيادة محمد طارق الأفريقي.

كان تعيين عبد القادر مسؤولاً عن قطاع القدس تسوية توفيقية بين مطلب الحاج أمين بتعيينه قائداً أعلى للمعركة برمّتها وبين الموقف العربي الذي حاول إقصاءه. وهكذا، ففي المعركة على فلسطين، تسلم الفلسطينيون

قيادة القتال بأنفسهم في منطقة القدس والمركز فقط لا غير، وحتى هناك كان الملك عبد الله، من شرق الأردن، واقفاً لهم بالمرصاد.

دخلت وحدات جيش الإنقاذ إلى البلاد بعد خضوع أفرادها لتدريبات قصيرة فقط في معسكر القطنة التابع للجيش السوري قرب دمشق. أرسلت اللجنة العسكرية هذه الوحدات إلى فلسطين بصورة تدريجية ونشرت غالبيتها في مناطق الجليل الأسفل، جبال نابلس وحيفا، فيما نشرت القليل منها في أقضية المركز، يافا والقدس. أقام القاوقجي مقر قيادته الرئيسي في قرية جبع، إلى الجنوب من جنين. وقررت اللجنة العسكرية وضع الجيوش العربية على حدود فلسطين لشد عضد الوحدات المقاتلة في الميدان. وإضافة إلى الدعم المالي، تعهدت الحكومات العربية أيضاً بمساندة العمليات القتالية نفسها ومدّ المقاتلين بالأسلحة المختلفة. وقد تبين من اللوائح التي أعدها باحثون عرب وفلسطينيون، مثل عارف العارف، أن معظم السلاح الذي أعطي للمقاتلين كان بنادق قديمة ـ المانية، إنكليزية، فرنسية، تركية، روسية وقليل منها أميركي ـ الأمر الذي خلق بلبلة كبيرة وصعوبات جمة في تسليح المقاتلين. وانعكس التوتر بين جنود جيش الإنقاذ ومقاتلي الجهاد المقدس في سلسلة من الحوادث التي وقعت في أماكن مختلفة: في يافا وطولكرم، في قرى في الجليل، وحتى في القدس أيضاً، حيث لم يسمح رجال عبد القادر لجنود القاوقجي بالدخول إلى بعض المواقع.

يسهب المؤرخون المختلفون، وفي مقدمتهم الفلسطينيون، في توصيف مدى تدني مستوى المتطوعين في جيش الإنقاذ. كان هؤلاء، في غالبيتهم، عاطلين عن العمل؛ سوريين، ولبنانيين وعراقيين، يبحثون عن مصادر دخل ومغامرات. كما كان قادتهم من اللاهثين خلف الشهرة، متغطرسين وفاسدين، حسبوا أنه ينبغي على الفلسطينيين استضافتهم ومكافأتهم، بكل ما لذ وطاب وبالمال أيضاً، على أنهم ارتضوا المشاركة في القتال من أجلهم.

أما المتطوعون المقاتلون في صفوف "الجهاد المقدس"، بقيادة عبد القادر، فكانت صورتهم مختلفة تماماً، عكسية تماماً، في كتابات هؤلاء المؤرخين أنفسهم. فقد كانوا مخلصين تماماً لمهماتهم، يكنون احتراماً شديداً لقادتهم عامة، ولعبد القادر على وجه الخصوص. بل كثيراً ما كانوا يرفضون الحصول على أجرة مالية. وقد روى قاسم الريماوي، رئيس مديرية الجهاد المقدس، عن أحد المتطوعين الذي قال له إنه يعتبر نفسه مجاهداً؛ أي مقاتلاً في سبيل غاية مقدسة، لا يستطيع مواجهة ربه والوقوف بين يديه إنْ حصل على المال لقاء تطوعه.

مقابل هذا التوصيف الوطني الذي يورده الكتاب الفلسطينيون، وصف القنصل اللبناني في القدس، في رسالة وجهها إلى حكومته، الوضع في

القدس بأنه حالة من الفوضى العارمة، لا مثيل لها في العالم قاطبة. قطع السلاح، من كل الأنواع، تنتقل من يد إلى أخرى؛ الحياة العامة مشلولة؛ للعصابات العربية زعماء كثر، زعيم هنا وآخر هناك، يعملون من دون أي تنسيق بينهم. الصحافيان دومينيك لابيير ولاري كولينس، اللذان أجريا عشرات المقابلات مع سكان القدس تحضيراً لكتابة كتابهما القدس، القدس (1972)، سمعا قصصاً عديدة عن مشاجرات دائمة بين سكان الأحياء العربية والمقاتلين الذين أُرسلوا لحمايتهم والدفاع عنهم ـ سواء أكانوا عراقيين، سوريين، مصريين أم فلسطينيين من متطوعي جيش الإنقاذ، أم كانوا جنوداً في الجهاد المقدس، الذين هم في غالبيتهم من عامة الشعب وفقرائه، أو شباناً من عائلات فلاحية من القرى المجاورة ومن جبل الخليل. كان هؤلاء وأولئك يتصرفون مع سكان المدن بعنجهية واستعلاء وكانوا يشعرون بأنهم مرتزقة "يستحقون": كانت تنشب بينهم شجارات دائمة، كانوا يجبون "الخاوة"، يسطون ويسرقون. ويذكر الطبيب محمد جاد الله من قرية بيت صفافا، الذي كان فتى في تلك الأيام، أغنية للأطفال تعج بالكلام البذيء في وصف حقارة المتطوعين الغرباء في القرية. خلّف انتهاء الانتداب البريطاني وراءه عشرات آلاف العاطلين عن العمل بين عرب المدينة والمنطقة المحيطة بها، والذين كانوا يعملون من قبل في الخدمات الحكومية المختلفة. زاد هذا الوضع الاقتصادي المتردي الذي أصبح يعاني منه آلاف الفلسطينيين من حدة التوتر، القائم أصلاً، بين السكان والمتطوعين الغرباء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان عدد متطوعي الجهاد المقدس أقل من ألف جندي شبه نظاميّ. كان نحو 600 منهم مقاتلين ذوي قدرات قتالية محدودة وعتاد عسكري ضئيل. حصلوا على أجر زهيد على نحو غير منتظم. توزع هؤلاء المقاتلون، أتباع عبد القادر، في آذار 1948 حسب القطاعات المختلفة: تم وضع 125 رجلاً منهم في حي قطمون، بمن فيهم وحدة عراقية من جيش الإنقاذ، تحت قيادة إبراهيم أبو دية؛ 123 مقاتلاً في مقر القيادة في روضة المعارف، مدرسة المجلس الإسلامي برعاية آل الحسيني، في طلعة الشارع من باب الأسباط إلى طريق الآلام ـ قادتهم في الميدان كانوا الشيخ ياسين البكري، حافظ بركات أبو الفيلات والضابط العراقي فاضل رشيد، من جيش الإنقاذ، الذي كان محسوبا على رجال المفتي الحاج أمين، لأنه تصادق معهم أيام الثورة في بغداد سنة 1941؛ 40 مقاتلاً أرسِلوا إلى وادي الجوز بقيادة محمد عادل النجار؛' 50 مقاتلاً إلى البَقعة؛ 35 مقاتلاً في المصرارة وسعد سعيد (بجوار بيت ألبينا، الذي كان يُستخدَم مقراً للقنصلية الأميركية)، بقيادة بهجت أبو غربية؛ 40 مقاتلاً في الشيخ جراح، بقيادة عادل عبد اللطيف وموسى موسوَس؛ 30 مقاتلاً آخرين من الجهاد المقدس تكفلوا بحراسة مكاتب اللجنة العربية العليا (بناية في

شارع عيمق رفائيم، قرب زاوية شارع هتسفيرا) وعلى مكاتب الوقف في الحرم الشريف، بقيادة الحاج عبد المجيد المدني؛ بضع عشرات من المقاتلين أرسِلوا إلى مأمن الله وكانوا تابعين لموقعين قياديين في باب الخليل والبلدة القديمة؛ وأقل من 20 مقاتلاً وُضعوا في حي أبو طور، حيث كان القتال خفيفاً، بعد أن غادر اليهود القلائل الذين أقاموا هناك (من بينهم بروفيسور مارتن بوبر). كما أرسل عدد قليل من المقاتلين إلى أحياء صغيرة أضيفت إليهم مجموعات من الشبان من قرى كانت بمثابة الضواحي للقدس العربية. وإلى هؤلاء جميعاً، يجب إضافة نحو 4,000 شاب، غالبيتهم من القرى، انضموا إلى القتال، حسب الحاجة. جاء بعضهم إلى المعارك مزوداً بالسلاح والعتاد الذي أحضروه من بيوتهم.

في مقابل هذه المعطيات، يمكن التساؤل: أي وزن عسكري يمكن أن يكون لهذه الوحدات الصغيرة من الجهاد المقدس في حرب شملت البلاد كلها وشارك فيها عشرات الآلاف من اليهود والعرب؟ لكن يتضح أن وزنها كان كبيراً، بل حاسماً إلى حد ما، لأنها كانت تقاتل في القدس، مدينة العاصمة المقدسة، الرمز الوطني ـ التاريخي، التي لم تخصصها الأمم المتحدة لا للدولة اليهودية ولا للدولة العربية. فقد نص القرار على أنّ للقدس مكانة دولية. على هذا المكان، المثقل بالرمزية والحساسية، كان على عبد القادر ورجاله أن يحاربوا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كاان يبدو منذ بداية المواجهات بين اليهود والعرب، أن مصير القدس قد يحسم مصير المعركة في البلاد بأسرها. وعلى الرغم من هذا، لم تخصص القيادة اليهودية برئاسة بن غوريون خلال الأشهر الثلاثة الأولى من العام 1948 جهوداً أساسية للقدس، وإنما لقطاعات أخرى فقط. يعود سبب هذا إلى التردد بشأن العمليات العسكرية التي كانت تنفذها الوحدات العسكرية اليهودية خارج حدود الدولة اليهودية، كما رسمها قرار التقسيم. ذلك أن اليهود قد أيدوا التقسيم وفرحوا به كثيراً، بينما عارضه العرب ورفضوه جملة وتفصيلاً. ولهذا، أراد بن غوريون إبداء تشبث اليهود بقرار التقسيم كما صدر عن الأمم المتحدة فرفض، المرة تلو الأخرى، الاستجابة لنداءات رفاقه بتوظيف مزيد من الجهود في القدس ومن أجلها.

استشعر عبد القادر ورجاله الأمر وقرروا استغلال ما بدا لهم أنه فرصة. ولهذا، كان لمستوى تنظيم مئات متطوعي الجهاد المقدس وقادتهم، قدراتهم وعزيمتهم، دور مركزي في المعركة. وقد أثار هذا الموقف والأداء إعجاب المراقبين من الخارج، مثل ضابط الفيلق الأردني عبد الله التل، الذي قال في مدحهم:

عرفتُ منهم عبد القادر الحسيني، حسن سلامة، إبراهيم أبو دية، بهجت وصبحي أبو غربية، قاسم الريماوي، محمد النجار، حافظ بركات وفوزي القُطُب. لم يكونوا يمتلكون شيئاً، إلا أنهم كانوا مفعمين بالشجاعة، بالجرأة وبشغف الدفاع عن وطنهم العزيز. قاتلوا في ظروف قاسية للغاية. كانوا يقاتلون اليهود، لكنهم كانوا مكشوفين لطعنات من الخلف.

يلمح التل في مذكراته ليس فقط إلى الاتهامات بأن البريطانيين كانوا يعملون لصالح اليهود، وإنما أيضاً إلى العدائية التي أبداها عبد الله ملك الأردن ورؤساء الجامعة الدول العربية واللجنة العسكرية تجاه تنظيم الجهاد المقدس وقائده الحاج أمين.

أشرف عبد القادر ورجاله على إدارة المعركة في القدس من مقر صغير، يشمل ست بنايات، في بلدة بيرزيت الجبلية، تم استجارها في كانون الثاني 1948 بأموال المجلس الإسلامي الأعلى. شملت البناية المركزية طابقين، في الأول كراج سيارات وسكرتارية أدارت تسجيل الوافدين والخارجين، وفي الثاني غرفة القائد. لم يسمح حراس البناية بدخول الضيوف، إلا بتنسيق مسبق، إذ كان العشرات يؤمون المكان يومياً لمقابلة عبد القادر، يطلبون مساعدات بالمال والسلاح وتعزيزات في الحراسة. وللتخلص من ضغط المتوجهين إليه، كان عبد القادر يهبط شرقاً، نحو قرية جفنا المسيحية، حيث عزبة عائلته في عين سينيا. لكن، ثمة شك فيما إذا كان قد وجد هناك مخبأه أيضاً.

يروي بهجت أبو غربية في مذكراته أنه ذات يوم في شباط 1948، بعد إطلاق سراحه من معتقل الشرطة البريطانية، الذي قضى فيه بضعة أيام، سافر إلى بيرزيت لمقابلة عبد القادر وليطلب منه السلاح والذخيرة للمجموعة التي كان يتولى قيادتها في منطقة باب العامود. أصيب بالذهول لرؤية مئات الأشخاص يتدافعون على بوابة البناية، في مقر القيادة، يريدون الدخول. كان كامل عريقات، نائب عبد القادر، واقفاً عند مدخل الساحة يحول دون دخول المتدافعين. تعرف على بهجت أبو غربية، الذي كان يعرفه منذ أيام الثورة الكبرى، فأفسح له المجال ليدخل، على الفور.

كان هناك على الدرجات إلى الطابق الثاني، حراس أيضاً. كانت في الطابق الثاني خمس غرف وقاعة صغيرة. في غرفة عبد القادر بعض قطع أثاث متواضعة: طاولة وست كراسٍ ورفوف عليها كتب إرشادية لكيفية استخدام السلاح والمواد المتفجرة. عُلّقت على الحائط خرائط كبيرة لمنطقة القدس والمناطق الأخرى من البلاد. بجوار تلك الغرفة، كانت غرفة نائبه، كامل عريقات، وغرفة ثالثة لرئيس مديرية الجهاد، قاسم الريماوي. في سنوات لاحقة، انضم هذان الأخيران إلى مؤسساتِ الحكم الأردني؛ أي إلى معسكر

الخصم الذي كان في العام 1948 معادياً للحركة الفلسطينية بقيادة الحاج أمين وعبد القادر.

كان د. قاسم الريماوي من مواليد قرية بيت ريما في محافظة رام الله، الذي يصغر عبد القادر سناً، من المعجبين به، الموالين له، ثم أمين سرّه إبان الثورة الكبرى. في أعقاب حل جيش الجهاد المقدس، بقرار من الحكومة الأردنية التي ضمت الضفة الغربية إلى سلطتها، انتقل الريماوي للخدمة في الحكومة الفلسطينية التي أقيمت في قطاع غزة، ومن هناك غادر إلى الولايات المتحدة للدراسة. عاد إلى الأردن سنة 1963 وهناك تصالح مع النظام الهاشمي وانضم إلى الجهاز الحكومي الأردني، فأصبح وزيراً في حكومات أردنية مختلفة، بل عيّنه الملك حسين في العام 1908 رئيساً للحكومة لفترة قصيرة.

قطع كامل عريقات، المولود في بلدة أبو ديس، طريقاً مماثلة، لكن بسرعة أكبر، في الانتقال من النشاط الوطني الفلسطيني في خدمة آل الحسيني إلى الخدمة في الجهاز الحكومي الأردني. عقب ضم الضفة الغربية إلى المملكة الأردنية، أصبح عريقات، نائب عبد القادر سابقاً، ناشطاً سياسياً في عمّان. أشغل عضوية البرلمان الأردني، ثم رئاسته، حيث عبّر مراراً عن مواقف قومية عروبية حازمة. صائب عريقات، من كبار السلطة الفلسطينية اليوم، هو ابن عائلة كامل عريقات.

كانت غرفة أخرى في طابق القيادة، الطابق الثاني، في بيرزيت، تستخدم مكتباً أداره سليم ربيع، وإلى جانبه ثلاثة موظفين. كانوا مسؤولين عن تسجيل التفاصيل الشخصية لكل مقاتل من جنود الجهاد المقدس، بما في ذلك تصريح تطوعه للوحدة، تقرير عن حالته الصحية، أهليته العسكرية، السلاح الذي في حوزته وخبرته القتالية. وكانت في المكتب، أيضاً، ملفات شخصية لأعضاء القيادة، إضافة إلى ملف خاص لكل قرية يحتوي على معطيات حول المتطوعين الذين يمكن تجنيدهم عند الحاجة. كما كانت هناك ملفات لتسجيل محتويات مخازن الأسلحة والحضور اليومي واحتياطي الذخائر.

كانت تتمركز في البنايات المجاورة، قيادات السرايا المختلفة، بما فيها قيادة وحدة المتفجرات التي كانت تعتبر وحدة نخبة. كان لقائد هذه الوحدة، فوزي القُطُب، دور مهم في ما اعتُبر، ذاك الشتاء، نجاحاً كبيراً للمقاتلين الفلسطينيين. على غرار مجموعة المقربين التي كانت تحيط بعبد القادر الحسيني، كان فوزي القطب أيضاً من مجموعة القدامى التي عملت إلى جانبه منذ بداية ثورة 1936. كان القطب، المولود سنة 1917، ابناً لعائلة مقدسية معروفة: كان والده موظفاً في المالية العثمانية في دمشق. ترك

فوزي مقاعد الدراسة الثانوية في كيلة تيراسنطة الكاثوليكية في القدس وانتقل إلى العمل متدرباً في المطبعة الحكومية.

انضم فوزي القطب في بداية الثورة، إلى وحدة متطوعي القاوقجي التي كانت تحارب في غرب جبال نابلس، في معارك بَلعا، وادي عارة وعصيرة الشمالية. وبعد مقتل صديقه المقرب سامي الأنصاري خلال محاولة لاغتيال ضابط تحقيقات بريطاني قرب متحف روكفيلر، شكّل فوزي القطب، سوية مع صديقيه صبحي أبو غربية وداود العلَمي، خلية نفذت عمليات هجومية ضد أهداف يهودية وبريطانية. من بين تلك العمليات: إلقاء قنبلة على مطعم الهستدروت في شارع الملك جورج وعلى حافلة ركاب على الخط رقم 7، إضافة إلى إحراق مصانع ومشاغل وحوانيت يهودية في باب الخليل وفي سوق محنيه يهودا. وإثر إطلاقه النار، هو ورفاقه، على شرطيين بريطانيين وقتلهما قرب باب العامود، شنت الشرطة البريطانية حملة مطاردة له، لكنه هرب إلى دمشق. من هناك، سافر في وقت لاحق إلى ألمانيا للمشاركة في دورة تدريبية على استخدام المواد المتفجرة، ثم عاد إلى بغداد للمشاركة في ثورة رشيد عالي الكيلاني، إلى جانب عبد القادر. وبعد فشل الثورة، تعرض للاعتقال في سورية لكنه نجح في الهرب إلى تركيا، ثم انضم إلى الحاج أمين في إيطاليا وألمانيا. بعد انتهاء الحرب العالمية، عاد إلى القدس وأصبح قائداً لوحدة المتفجرات في الجهاد المقدس.

ثمة في كتب المذكرات الفلسطينية صور متفرقة لمجموعة المقاتلين في بيرزيت. في إحدى هذه الصور، من شتاء 1948، يظهرون جميعهم يرتدون ملابس دافئة. كانت أشهر الشتاء الثلاثة في تلك السنة الفترة الوحيدة التي استطاع فيها عبد القادر التواجد في فلسطين، منذ هجرته منها في 1939، في أواخر الثورة الكبرى. قدِم إلى البلاد في نهاية كانون الأول 1947 وقُتل في بداية نيسان 1948. في الصف الثاني، في الصورة، يمكن رؤية عبد القادر الحسيني نفسه في المركز: ذو شاربين، مثل غالبية الآخرين في الصورة، قصير القامة مقارنة بالرجلين اللذين يقفان على جانبيه، يضع الكوفية والعقال ويرتدي بزة الميدان وعلى صدره جراب للرصاص. إلى يمين عبد القادر يظهر نائبه كامل عريقات، أطولهم قامة، جسمه ممتلئ وعيناه واسعتان، حول خاصرته حزام جلديّ عريض وعلى صدره ناظور معلق. وإلى يسار عبد القادر، الشخص الذي كان يُعتبر حارسه الشخصي، عوض ترمسعاوي، الذي رافقه منذ أيام جمع السلاح في القاهرة. هو، أيضاً، طويل القامة ذو وجه شبابي. في أعقاب معارك 1948، هاجر مع عائلته إلى الولايات المتحدة، مثلما فعل آخرون كثيرون من أبناء القرى في منطقة شمال ـ غرب رام الله. في إحدى زياراته إلى البلاد، أبلغ عائلة الحسيني بتفاصيل عن سير المعركة في القسطل. إلى جانبه قاسم الريماوي، الأمين العام لوحدة الجهاد، الوحيد

من بين أعضاء المجموعة الذي لا يعتمر الكوفية والعقال. أمامهم، على الأرض، فوزي القُطُب، الذي تخفي الكوفية الشيب في شعر رأسه، وإبراهيم أبو دية، قصير القامة ذو الخدين الغائرين. في مقدمة الصورة ثلاثة رشاشات مثبتة كأنها جاهزة للإطلاق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اكتسبت استراتيجية عبد القادر الجديدة في ضوء النجاح الذي تحقق في معركة صوريف ضد مفرزة الـ ٣٥، تأكيداً مجدداً على حيويتها وفاعليتها: لا هجمات مباشرة على بلدات يهودية بعد اليوم، وإنما إغلاق سبل المواصلات اليهودية، ضرب الحصار على البلدات والأحياء اليهودية المعزولة، والإزعاج الدائم برصاص القناصة، لتشويش الحياة فيها، تنغيصها وبث الرعب. لكن مقاتلي الجهاد المقدس لم يُستقبَلوا بترحاب في جميع القرى. فقد حضر رجال الجهاد إلى قرية دير ياسين، مثلاً، وأرادوا إزعاج الحيين اليهوديين المجاورين؛ غبعات شاؤول وبيت هكيرم، بواسطة إطلاق الرصاص، لكن رؤساء القرية طلبوا منهم مغادرتها، لأن أهالي دير ياسين كانوا على علاقة صداقة جيدة مع الجيران اليهود، فاضطر المقاتلون إلى الانسحاب. تعمد التقارير الفلسطينية، عادة، إلى التقليل من هذه الأخبار وأهميتها، لأن مسلكاً كهذا يعتبر غير وطني. المعلومات عن هذه الظواهر مصدرها مخبرون من الهاغناه.

أطلق القناصة العرب نيرانهم على حركة المواصلات اليهودية في مختلف أنحاء المنطقة المحيطة بالمدينة: في الشوارع والطرقات إلى الغرب، قرب قالونيا (موتسا)، قرب مقهى أبو جورج في القسطل، قرب بيت سوريك (في الطرف الشمالي من مفسيرت تسيون، اليوم)، قرب ساريس (شوئيفا، اليوم)، في باب الواد (شاعر هجاي، اليوم) وفي عرطوف (هارطوف). إلى الشرق من المدينة، كان إطلاق النار يثير قلق المسافرين في الشارع المؤدي إلى "جبل سكوبوس" (هار هتسوفيم) وفي الطريق الهابط إلى البحر الميت. وهكذا كان الحال، أيضاً، في شمال المدينة، في الشيخ جراح، وقرب شعفاط، في الطريق إلى عطاروت ونفيه يعقوب. وأطلق القناصة نيرانهم، أيضاً، على شرايين الحركة في جنوب المدينة، ابتداء من يمين موشيه وحتى مكور حاييم، تلبيوت ورمات راحيل، وإلى الجنوب في اتجاه غوش عتصيون. طوال شهر كانون الثاني كله، كان يبدو أن القدس اليهودية تتآكل تدريجياً تحت ضغط النيران المقلقة هذه.

أنزل مقاتلو الجهاد المقدس بالمدينة نفسها ضربة قاسية في عملية تفجير شارع هسوليل (هحفتسيلت، لاحقاً) في وسط القدس، قرب ميدان صهيون. كانت تلك عملية التخريب الأولى التي نفذتها الوحدة التي كان يقودها فوزي

القُطب. شكلت تلك الحملة، كما يقول العرب، رداً على تفجير فندق سميراميس العربي في حي قطمون وإلقاء المتفجرات "إيتسل" على الأسواق العربية، في باب الخليل وباب العامود. إلا أن الحقيقة هي أن عبد القادر كان يريد، بذلك، إثبات قدرته على الوصول إلى قلب المنطقة اليهودية في القدس، إلى الشارع الذي كان يُعتبر آنذاك مركز الصحافة المقدسية ـ البناية التي ضمّت مكاتب تحرير ومطبعة صحيفة بالِستايْن بوست، التي كانت بملكية يهودية وناطقة بالإنكليزية، مكاتب الصحف العبرية عل همشمار (الناطقة بلسان اليسار في الييشوف اليهودي) وهمَشْكيف (لسان حال اليمين الإصلاحي) وعدداً من وكالات الأبناء، من بينها يونايتد برِس.

قبل تنفيذ هذه العملية بيوم واحد، أبلغ عبد القادر رجالَه في بيرزيت بأنه يشعر بتوعك صحي ما وغادر للاستراحة في عزبة آل الحسيني، في قرية عين سينيا المجاورة. طلب ألا يزعجه أحد واصطحب معه، فقط، فوزي القطب وعدداً قليلاً من المساعدين. هناك، أعدّوا، معاً وسراً، عبوة ناسفة كبيرة وحمّلوها على شاحنة.

اختير لسياقة الشاحنة شخصان من مجموعة المتطوعين الأجانب الذين كانوا يساعدون في مقر قيادة الجهاد المقدس في بيرزيت. لم يكشف الفلسطينيون اسميهما، لأنهم كانوا يريدون، بالطبع، التقليل من دورهما في العملية. كان بين الأجانب بريطانيون، يوغسلافيون، ألمان وبولنديون، تلقوا أجراً مقابل التدريبات والخدمات المهنية، مثل توجيه الراجمات وتشغيلها، إصلاح أجهزة الاتصال وتحضير العبوات الناسفة. ساق متطوعان اثنان، هاربان من الجيش البريطاني على الأرجح ـ أحدهما أراد الانتقام من اليهود على موت أخيه في عملية نفذها "إيتسل" (حسب استخبارات الهاغناه) ـ شاحنة المتفجرات في مساء يوم الثاني من شباط. وكان عبد النور الخليل جنحو، شاب في الـثالثة والعشرين من عمره، من الطائفة المسيحية الصغيرة، قائد الحرس في حي البَقعة، يقود سيارة صغيرة تتقدم الشاحنة. كان جنحو، الرقيب السابق في الشرطة البريطانية، يجيد اللغة الإنكليزية. كان يرتدي زي الجيش البريطاني برتبة نقيب (كابتن).

مرّت القافلة الصغيرة من طريق رام الله، شعفاط والشيخ جراح حتى وصلت إلى حاجز عند مدخل مركز المدينة اليهودية، في شارع هنفيئيم، بجانب المستشفى الإيطالي. كانت الساعة قد شارفت على الحادية عشرة ليلاً، فخاطب جنحو قائد الحاجز اليهودي، بالإنكليزية: ألا تعرفني؟ أنا مدير وحدة تحقيقات وعليّ إيصال معدات طبية محمَّلة على هذه الشاحنة. القائد، الذي رأى شارة الرتبة العسكرية الرفيعة على كتفه، فتح له الحاجز. قاد جنحو

الشاحنة في طلعة شارع هنفيئيم ومنه، عبر شارع الراب كوك، إلى شارع يافا، ثم اتجه يساراً نحو شارع هسوليل.

أوقف السائقان السيارتين قرب مبنى صحيفة بالِستايْن بوست. أشعل جنحو الفتيلة وسارع الثلاثة إلى الهرب بالسيارة الصغيرة، في الطريق ذاتها التي أتوا منها. بعد دقيقة واحدة أو اثنتين، وبعد عبورهما الحاجز قرب المستشفى الإيطالي مرة أخرى، حدث انفجار هائل. قُتل أربعة من اليهود، أصيب 16 آخرون، تضررت احتراقاً بنايتان وسيارتا إسعاف كانتا موقوفتين في المكان.

لم يسرع عبد القادر إلى تبني العملية وإعلان مسؤوليته عنها. في وقت لاحق فقط، بثت محطة الإذاعة الصغيرة التابعة للجهاد المقدس من رام الله بياناً ورد فيه أن التفجير، الذي استهدف مراكز عمل وصحافة الهاغناه، قد حُدّد تنفيذه في ساعات الليل لتجنب المسّ بمواطنين أبرياء من عابري السبيل. بعد ساعات من حدوث الانفجار، أو ربما بعد حدوثه مباشرة، غادر عبد القادر البلاد. شارك، يوم 5 شباط، إلى جانب الشيخ حسن سلامة، في لقاء عُقد في دمشق مع الرئيس شكري القوتلي، الذي لعب آنذاك دوراً مركزياً في المباحثات والقرارات الخاصة بالكفاح في فلسطين. في ذلك اللقاء، أقر بصورة نهائية توزيع الصلاحيات بشأن القتال في فلسطين ـ عُيِّن عبد القادر قائداً لمنطقة القدس والشيخ حسن سلامة قائداً لقطاع الوسط. كان في ذلك إنجاز ما للحاج أمين: نجح، ظاهرياً على الأقل، في تقليص صلاحيات القاوقجي العسكرية وقصرها على شمال البلاد فقط. يبدو أن اللجنة العسكرية التابعة للجامعة العربية أصرّت على ذلك، مما دفعها إلى تسريع إرسال وحدات جيش الإنقاذ إلى البلاد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ذاع اسم الرجل الذي نفّذ عملية التفجير في شارع هسوليل، عبد النور جنحو، بين الجمهور الإسرائيلي بعد عام 1967. كان رجل أعمال معروفاً في رام الله. اشتهر إبان الحكم الأردني في الضفة الغربية بأنه تاجر مخدرات وأسلحة، بشراكة ناصر بن جميل، خال الملك حسين. بعد 1967، اشتهر كمقاول وتاجر أراضٍ أكسبه تعاونه مع الإسرائيليين ترخيصاً لإقامة وتشغيل محجر كبير قرب بيتٍ لحم، إضافة إلى وكالة لتوزيع غاز الطبخ.

كان جنحو، صاحب الجسم الممتلئ واللحية الجزئية (سكسوكة)، يتكلم بصوت هادر مبحوح على الدوام ويقضي وقتاً طويلاً في شرب الخمر ولعب الورق. لم يُخفِ دوره في عملية التفجير في شارع هسوليل، قبل ذلك بـ 19 عاماً، بل أقام علاقات مع ممثلي الحكم الإسرائيلي أيضاً. في العام 1972، انتُخب عضواً في المجلس البلدي في مدينة رام الله، عندما ألزم وزير الأمن آنذاك، موشيه ديان، الفلسطينيين بإجراء انتخابات بلدية. وفي الانتخابات البلدية التي

جرت 1976 أيضاَ، أدار جنحو حملة انتخابية مبهرَجة وصاخبة. شاحنات عليها مكبرات صوت تجولت في شوارع رام الله ودعت إلى التصويت له. لكن صيته في المدينة ذاع بأنه متعاون. "في 1948 كان ينبغي محاربة اليهود، والآن ينبغي أن نقرّب القلوب بين الشعبين"، كان يقول.

صوّت لصالحه في الانتخابات البلدية، عدد قليل فقط من سكان المدينة. تورط جنحو في شجارات عنيفة مع أبناء بعض عائلات اللاجئين من قرية لِفتا المقيمين في رام الله. وخلال أحد هذه الشجارات، في سوق المدينة، أشهر جنحو مسدساً وأطلق النار على سائق سيارة الأجرة ياجِس اللفتاوي فأرداه قتيلاً. إثر ذلك، أصبح جنحو شخصاً مكروهاً ومنبوذاً في المدينة. طالب متظاهرون بإعدامه وحاول مجهولون المسّ بمنزله ومصالحه التجارية. نجا من تهمة القتل العمد بذريعة الدفاع عن النفس.

قُتل جنحو في نهاية المطاف في مدينة رام الله يوم 8 شباط 1978، وهو يهمّ بفتح مكاتب وكالة الغاز التي كان يمتلكها في أحد الشوارع الرئيسية في المدينة. سبق ذلك تهديدات على حياته نشرتها القيادة السرية لحركة "فتح" في المنطقة، بقيادة مصطفى اللفتاوي (أبو فراس)، الذي أصبح بعد اتفاقيات أوسلو محافظ رام الله، من قبل السلطة الفلسطينية. لكن عملية الاغتيال نفسها نفّذتها، على الأرجح، خلية تابعة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين من بلدة سلواد، إلى الشرق من رام الله. شارك في جنازة جنحو في القدس رئيس بلدية المدينة، تيدي كوليك، وزار البيت لتقديم واجب العزاء موشيه ديان نفسه واثنان من جنرالات الجيش الإسرائيلي هما رحبعام زئيفي ورفائيل فاردي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في 22 شباط، بعد ثلاثة أسابيع من تفجير السيارة الملغومة في شارع هسوليل، نفذ مقاتلو الجهاد المقدس عملية التفجير الأكبر التي تم تنفيذها في البلاد عموماً، وفي القدس خصوصاً، على مدار سنة 1948 بأكملها: تفجير ثلاث شاحنات ملغومة في شارع بن يهودا. اختار عبد القادر هذا الشارع الي كان يعتبر المركز الحديث لليهود في القدس، مركز التجارة والترفيه. كانت فيه حوانيت فاخرة ومقاهٍ معروفة ـ عطارا، زيخِل، فيينا وأوروبا ـ وفروع للبنوك. وكانت في أسفل الشارع البناية التجارية الأكبر في المدينة، والتي كانت تعود ملكيتها إلى عائلة صرصور العربية من بيت لحم، بينما كان مستأجرها يهودياً.

من أجل الحفاظ على سرية العملية، عاد عبد القادر، مرة أخرى، إلى مغادرة المقر في بيرزيت والانتقال إلى عزبة العائلة في عين سينيا. أمضى هناك عشرة أيام قبل موعد العملية، ومن هناك أرسل موفدين لترتيب أمور قافلة

الشاحنات، التي خُطّط لأن تسير في مقدمتها مركبة مدرعة بريطانية. أوفِد قاسم الريماوي إلى دمشق لإحضار مواد متفجرة، لم تكن متوفرة في مقر القيادة، ونجح محمد الكاظمي، الموظف في حكومة الانتداب الذي كانت له علاقات مع الجيش البريطاني في يافا، في تجنيد خمسة جنود بريطانيين أبدوا استعدادهم لقيادة شاحنات المتفجرات لقاء ألف ليرة ـ مبلغ طائل في تلك الأيام.

أحضر الجنود الخمسة معهم أسلحة، رشاش "برِن"، أربع بنادق، بضعة مسدسات وذخيرة، وكذلك المدرعة التي سرقوها من الجيش البريطاني. كانت عمليتا السرقة والفرار متاحتين في تلك الأسابيع الأخيرة من عهد الانتداب البريطاني، إذ كان البريطانيون قد أجروا استعداداتهم للانسحاب من فلسطين ـ أرض إسرائيل. خُبئت المدرعة، قبل موعد العملية بأسبوع واحد، في كراج في بيرزيت، بينما أنزل عبد القادر الجنود الخمسة في فندق صغير في رام الله. زارهم هناك قاسم الريماوي، الذي عاد من دمشق مع حمولة كبيرة من المواد المتفجرة، وسمع منهم أنهم ليسوا مستعدين للانطلاق نحو تنفيذ العملية إلا إذا حصلوا، مقدَّماً، على نصف المبلغ المتفق عليه. ويروي الريماوي في مذكراته أنه ذهب إلى عبد القادر في عين سينيا وأبلغه بتجنيد المدرعة والفارين الخمسة، وبأن رفاقه استطاعوا سرقة شاحنات من الجيش البريطاني. وطلب منه المال لكي يدفع لهم. لا أملك أي قرش، قال له عبد القادر. وبأمر منه، توجه رجال الجهاد إلى أثرياء رام الله وبيرزيت وطلبوا جمع المبلغ.

أُحضِرت الشاحنات الثلاث إلى عين سينيا، حيث قام عبد القادر وفوزي القطب بتركيب العبوات الناسفة عليها، ثم أعيدت إلى مخبئها في الكراج في بيرزيت. وهناك قررا، أيضاً، مسار السفر، وبالأساس ـ مكان التفجير: شارع بن يهودا.

غادر عبد القادر عين سينيا وبيرزيت في تلك المرحلة، متوجهاً إلى القاهرة. كان الهدف من تلك الزيارة إطلاع الحاج أمين على سير الأحداث ومجريات المعارك في البلاد، وخصوصاً في القدس، ثم محاولة تجنيد المزيج من العتاد والأسلحة، ولا أقل من هذا أهمية ـ التقاء زوجته وأولاده الأربعة. فهو لم يرهم منذ غادر القاهرة قبل ذلك بشهرين. كانت تلك المرة الأخيرة التي رأى فيها أفراد عائلته.

في ليلة 16 شباط 1948، اتصل عبد القادر من القاهرة، هاتفياً، بقاسم الريماوي في رام الله وأمره بتنفيذ العملية. اتصل الريماوي على الفور بكامل عريقات، نائب عبد القادر، وأبلغه الأمر. مع بزوغ فجر يوم 17 شباط، انطلقت القافلة من بيرزيت. كانت المدرعة في مقدمتها، وكان يقودها عزمي

الجاعوني، ابن لعائلة مقدسية معروفة، يتحدث الإنكليزية، ذو شعر فاتح اللون وملامح جندي بريطاني. كانت الشاحنات الثلاث المحملة بالمواد المتفجرة تسافر خلفه، وكانت ترافقها، من بعيد، بضع سيارات حراسة يستقلها مقاتلون من الجهاد المقدس. وصلت القافلة إلى رام الله ثم اتجهت غرباً في منحدر ضيق ومتعرج، قطعت قريتيّ بيت عور وبيت لقيا، في اتجاه عمواس واللطرون.

كانت القافلة تسافر ببطء عبر اللطرون شرقاً نحو القدس واستغرقت الطريق خمسة أيام. كل مسار الشوارع إلى اللطرون، باب الواد، حتى أبو غوش عند مشارف القدس، كان يمر بمحاذاة قرى عربية وتحت سيطرة الجهاد المقدس التامة. أما المواصلات اليهودية، فلم تكن متاحة في تلك الشوارع، إطلاقاً تقريباً. سافر قاسم الريماوي وكامل عريقات على طول هذا المسار لضمان عدم تعرض القافلة لنيران عربية، خصوصاً وأنها تبدو مثل قافلة بريطانية تسافر، ظاهرياً، من يافا إلى القدس. واصل الحراس من الجهاد المقدس مرافقة القافلة حتى بلوغها قرية أبو غوش.

كان كامل عريقات، الذي خدم في الشرطة البريطانية في شبابه يعرف أنظمة عملها فدخل إلى مبنى شرطة أبو غوش وأبلغ رجال الشرطة البريطانيين والعرب المتواجدين هناك بعبور القافلة البريطانية. وبالفعل، سافرت القافلة دون أي معيقات، حتى بمحاذاة بلدتي كريات عنفيم وموتسا اليهوديتين، ومنهما إلى الحاجز الذي نصبته الهاغناه عند مدخل المدينة، في حي روميما. كانت ثمة حواجز أخرى مماثلة قد نُصبت عند مداخل الأحياء اليهودية، بينما نصب العرب حواجز خاصة بهم عند مداخل أحيائهم. في الأحياء الحدودية، التي كان يسكن فيها اليهود والعرب سوية حتى العام 1948، جرى ما يشبه "التبادل السكاني" العائلات العربية تركت الأحياء ذات الأغلبية اليهودية، بينما تركت العائلات اليهودية الأحياء ذات الأغلبية العربية.

من وجهة نظر عبد القادر، الذي كان في القاهرة آنذاك، مع عائلته وفي مكاتب المفتي الحاج أمين الحسيني، كانت تلك أيام نجاحات واضحة. بَلَغته تقارير عن تنظّم وحدات الجهاد التي ستقوم بقطع الطرق أمام الحركة اليهودية وتزويد القدس بالغذاء والماء؛ وعن الحصار على الأحياء والبلدات اليهودية المتفرقة حول المدينة. لم يكن العرب في حاجة إلى استخبارات متطورة كي يعرفوا أن الييشوف اليهودي كان يعيش في تلك الأيام ضائقة وأجواء قاسية. كان قد جرى إخلاء السكان المدنيين من بعض الأحياء والبلدات اليهودية. لن يكون بعيداً اليوم الذي سيسقط فيه بعضها بين أيدي العرب؛ وخصوصاً بلدات غوش عتصيون الأربع، الحي اليهودي في البلدة القديمة، حي شمعون الصدّيق المحاذي للشيخ جراح، وبلدتي عطاروت ونفيه يعقوب.

مع فجر يوم الأحد، 22 شباط، وبينما كان الشارع خاوياً، أوقف عزمي الجاعوني وسائقو شاحنات المتفجرات السيارات، واحدة خلف الأخرى، في منحدر شارع بن يهودا. أشعل السائقون فتائل الأمان وأسرعوا إلى المدرعة. لدى ابتعادهم نحو مائة متر في اتجاه الشرق، حصلت الانفجارات القوية، الواحد تلو الآخر. تهدم وسط شارع بن يهودا بالكامل، تقريباً. سقط أكثر من 50 قتيلاً ونحو 200 جريحاً. انهارت تسع بنايات، من بينها فندق أتلانتيك في زاوية التقاء شارعيّ بن يهودا ومردخاي بن هليل هكوهن وكانت الأضرار جسيمة جداً ـ نحو مليونيّ ليرة، حسب التقديرات العربية. طال الدمار المنطقة بأكملها: المصالح التجارية، المكاتب، الشقق السكنية، وكذلك صالة سينما أوريون المجاورة. تضررت كلها. عملت الطواقم ساعات طويلة في إخلاء المصابين والردم.

أحدث التفجير أصداء واسعة وقوية جداً وتضررت معنويات يهود القدس بصورة حادة. كنتُ طفلاً في التاسعة من العمر أسكن على مسافة 200 متر إلى الغرب من موقع الانفجار ولا أزال أذكر جيداً حالة الذعر التي أصابت والديّ. اهتز بيتنا كله. اقتُلع باب المدخل من مكانه وتشققت الجدران. مُنعت من الذهاب إلى المدرسة في ذلك اليوم وعلمتُ في اليوم التالي أن اثنين من أبناء صفي قد أصيبا بجراح بالغة. تم إخلاء حطام المباني المتضررة إلى بئر عميقة، على بعد عشرات الأمتار في شارع بن يهودا. كان البئر يدعى "بئر شيبِر"، على اسم المقاول العربي المعروف الذي شيّد بنايات في الجوار. هي البئر نفسها التي وُضع فيها لاحقاً مصباح، قرب "بيت فرومين" ـ البناية التي ستصبح مقر الكنيست الإسرائيلي حتى العام 1966.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شرع اليهود، العرب والبريطانيون ـ جميعهم- في إجراء تحقيقات: من الذي نفذ عملية التفجير الكبيرة هذه؟ كان السؤال الأساسي حول مدى مسؤولية الجيش البريطاني، إذ كانت العربة المدرعة والشاحنات، جميعها، تحمل شارات بريطانية، كما أن السائقين أيضاً عرّفوا على أنفسهم عند حاجز الدخول إلى المدينة بأنهم جنود بريطانيون.

كان عبد القادر متواجداً في القاهرة؛ ما يعني، ظاهرياً، أنه لم يكن قائداً مباشراً للعملية. لكن وسائل الإعلام العربية والأجنبية بدأت، رويداً رويداً، بتقديم المعلومات الصحيحة عما حصل وربط عبد القادر ورجاله بالعملية. وخلافاً لبيانات قادة الهاغناه بأن أي عربي لم يكن شريكاً في تنفيذ العملية، نشر عبد القادر والمتحدثون باسمه سلسلة من البيانات الرسمية التي قالوا فيها إن "وحدة من المقاتلين العرب نفذت عملية تدمير شارع بن يهودا، بمشاركة متطوعين بولنديين وبريطانيين".

احتل التدمير الذي حصل في شارع بين يهودا العناوين الرئيسية في الصحف والنشرات الإخبارية، الإذاعية والتلفزيونية، العالمية. نشرت وسائل إعلام عديدة تصريحات على لسان عبد القادر بصيغ متشابهة: "كنا حذرنا اليهود، مراراً، ألا يعودوا إلى تنفيذ عمليات خيانية وإجرامية بمهاجمة المواطنين العُزّل [...] كانوا يحسبون أننا سنمر مر الكرام وسنلتزم الصمت حيال عدوانيتهم، لكننا سنرد بالمثل".

وأوضح عبد القادر، أيضاً، أن تدمير شارع بن يهودا جاء رداً على "العملية الإجرامية التي نفذها اليهود في الرملة يوم الأربعاء الماضي [18 شباط]، حيث وُضعت عبوة ناسفة في السوق العربي [...] إذا كان الصهاينة قد حسبوا أننا سنسكت على منظر شهدائنا الأبرار فهم مخطئون. نحن ندافع عن ناسنا".

كان عبد القادر يقصد، في حديثه هذا، العملية التي نفذها رجل "إيتسل" في الرملة ونشرت عنها صحيفة الدفاع يوم 19 شباط: "سبعة من العرب قُتلوا أمس في سوق الرملة عندما وضع إرهابي يهودي سلة فيها متفجرات في سوق الخضار، بعدما وصل إلى السوق بلباس عربي عند الساعة الثانية والنصف بعد الظهر [...] كان السوق وقتذاك يعج بالناس، فهو يوم السوق في المدينة، وقد نجح اليهودي في الفرار". لم يتطرق الباحثون العرب الذين كتبوا عن الموضوع بعد سنوات عديدة، إلى حقيقة أن الأمر بتنفيذ العملية في شارع بن يهودا أصدره عبد القادر شخصياً خلال محادثة هاتفية من القاهرة، يوم الإثنين 1 شباط؛ أي قبل يومين من العملية في الرملة. وفي كل الأحوال، ليست ثمة أهمية كبيرة لهذا الجدول الزمني، لأن استهداف المواطنين المدنيين من كلا الجانبين كان، في ذلك الشتاء، بمثابة تقليد يومي.

ما من شك في أن تدمير شارع بن يهودا قد رفع مكانة عبد القادر وزاد اعتزازه الشخصي بين الجمهور الفلسطيني خاصة، والعربي عامة. تعززت ثقته بنفسه وبقدرة رجاله: "انتقلنا من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم"، أعلن في القاهرة، "ونحن نفعل ذلك في القدس وفي يافا وفي القرى العربية. سلاحنا قليل جداً، مقارنة مع الصهاينة، لكننا أقوى منهم ولم نبدأ الهجوم الحقيقي بعد". وفي إحدى المقابلات معه، نشرت في يوم الانفجار في شارع بن يهودا بالضبط، يوضح عبد القادر أن اليهود لم يصدقوا أن العرب قادرون على أن يكونوا منظّمين ومستعدين للقتال.

عاد عبد القادر بعد ذلك ببضعة أيام إلى البلاد قادماً من القاهرة وسارع إلى الوقوف عن كثب على الأوضاع الميدانية في القدس. تيقن من أنه ليس فقط أن المدينة بأكملها قد تحولت إلى ساحة قتال بين اليهود والعرب، بل إن ثمة في الجمهور اليهودي والصحافة اليهودية أيضاً رأياً شائعاً يقول إن تدمير شارع بن يهودا هو من تنفيذ البريطانيين، لا العرب. شرعت وحدات يهودية، من

منظمتي "إيتسل" و"ليحي" في تنفيذ سلسلة عمليات انتقامية ضد جنود بريطانيين، وحصل في بعض مناطق المدينة تبادل لإطلاق النار بين البريطانيين واليهود، أسفر عن سقوط قتلى وجرحى.

كانت تلك العمليات تنطوي، في نظر عبد القادر، على محاولة لسلبه المجد الذي حققه وقطع مسار نجاحات الجهاد المقدس، التي بدأت في معركة صوريف، قبل ذلك بأكثر من شهر، ثم استمرت بتشديد الخناق والحصار على يهود القدس وكسر معنويات اليهود بعملية التخريب في شارع هسوليل، ثم التفجير في شارع بن يهودا الآن. سارع عبد القادر إلى جمع الصحافيين الأجانب "في مكان ما" ـ حسب التقارير الصحافية، في منزل شقيقه سامي، على ما يبدو، في البناية الكبيرة التي تملكها هند الحسيني، البناية التي أصبحت فيما بعد مقراً لحضانة دار الطفل، مقابل "بيت الشرق" ـ وأوضح لهم أنه ورجاله هم الذين نفذوا العملية في شارع بن يهودا، وليس البريطانيين. "هل صحيح ما ورد في بيان الوكالة اليهودية عن أن 200 جندي بريطاني، كانوا موجودين في مقر قيادتكم، تجندوا لمساعدتكم؟"، سُئل. فأجاب: "هذا كذب. لم يكن هنالك أي تدخل بريطاني في عملية شارع بن يهودا [...] وأنا أدعوكم لزيارة مقر قيادتنا ومعسكرنا لتتأكدوا بأنفسكم أن ليس ثمة أي جندي بريطاني هناك".

أما عن السبب الذي دفعه إلى اختيار مركز الحياة اليهودية في القدس هدفاً للتدمير، فقال: "اضطررنا إلى تنفيذ هذه العملية بسبب تصرفات اليهود الاستفزازية، إذ يتوهمون أن من حقهم هم فقط استخدام مثل هذه الوسائل [...] أنتم تعلمون، ولا شك، أن اليهود قد نفذوا في الماضي العشرات من هذه العمليات ضد البريطانيين وضد العرب". وكان عبد القادر يلمح في حديثه هذا إلى تفجير فندق الملك داود في القدس، تفجير فندق سميراميس في القطمون، العبوة الناسفة التي دمرت بناية السرايا في يافا، وحالات أخرى عديدة من وضع المتفجرات في الأسواق العربية في القدس وغيرها من الأماكن في مختلف أنحاء البلاد.

وقال أيضاً: "عليكم أن تعلموا أن اليهود هدموا أمس مسجداً في قرية القسطل وهم يشنون ضدنا حرباً ويطلقون النار على الأحياء العربية من منطقة الجامعة في جبل سكوبوس ومن مستشفى هداسا [...] إنهم يستغلون هذه المؤسسات الإنسانية لقتل النساء والأطفال فيضطروننا إلى الدفاع".

مرت ثلاثة أسابيع أخرى من المعارك، إطلاق نار وإغلاق شوارع، وعشرات القتلى اليهود والعرب في القدس وضواحيها، حتى الضربة التي أعلنت عنها إذاعة لندن، حسب ما ورد في العنوان الرئيسي من صحيفة فلسطين اليافيّة يوم 13 آذار: "الضربة الأقسى التي تلقاها اليهود في فلسطين حتى الآن".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الضربة المقصودة هي تفجير بناية الوكالة اليهودية يوم 11 آذار ـ "آذار الرهيب"، كما وصفته مصادر يهودية. تورد المصادر العربية شهادة مفصلة، لكن غير مفهومة دائماً، يرويها الشخص الذي كان المنفّذ الوحيد للعملية ـ أنطون جميل داود، سائق في القنصلية الأميركية. أدلى داود بشهادته أمام د. قاسم الريماوي، الأمين العام للجهاد المقدس، في مقر القيادة في بيرزيت، قبل مغادرته البلاد.

وُلد أنطون جميل داود في بوغوتا، عاصمة كولومبيا، سنة 1909، في عائلة من المسيحيين المهاجرين من بيت لحم. بعد إنهاء تعليمه في مدرسة التجارة، تجند في الجيش وأصبح جندياً محترفاً وأجيراً في خدمة جيوش الدول المجاورة. شارك في معارك ضد الأميركان في المكسيك وفي حرب محلية بين كولومبيا وبيرو. أقام في هندوراس لفترة قصيرة وحاول تأسيس شركة للطيران هناك. بعد ذلك بسنة واحدة، أبحر إلى فرنسا وزار أقارب له من بيت لحم. تعرف في فرنسا على يهود لم يعرفوا شيئاً عن أصله العربي واقترحوا عليه الانضمام إليهم في رحلة إلى فلسطين ـ أرض إسرائيل. أبحر بصحبة هؤلاء اليهود إلى ميناء حيفا وفيه نجح أحد أصدقائه اليهود في إقناع موظف الهجرة بالسماح له بمرافقتهم إلى تل أبيب، على الرغم من عدم حيازته تأشيرة دخول إلى البلاد. أقام بضعة أيام لدى عائلة يهودية في شارع اللنبي 57 في تل أبيب وأخبرها بأنه يرغب في زيارة القدس وبيت لحم. "عليك الحذر، يوجد هناك عرب"، حذّروه. تعرف في بيت لحم على أبناء عائلتيه، داود وجاسر، اللتين كانتا في الماضي من العائلات المسيحية الكبيرة والمعروفة في بيت لحم التي هاجر معظم أبنائها إلى دول أميركا اللاتينية. بعد أن تعلم اللغة العربية، تجند في الشرطة البريطانية وعمل فيها سنتين، بين 1936 و1937، ويقول إنه ساعد الثوار العرب سرّاً.

استطاع أنطون داود الحصول على وظيفة ثابتة كسائق في القنصلية الأميركية في القدس، لكنه واصل رحلة مغامراته، كتاجر على نطاق ضيق لأسلحة كان قد تخصص بها حين كان جندياً محترفاً وشرطياً في شرطة الانتداب. ويبدو أنه نسج، من خلال تجارته هذه، علاقات وثيقة مع بعض مقاتلي الجهاد المقدس، كما مع رجال الهاغناه الذين وصل إليهم بواسطة سائق سيارة الأجرة يوسف بولياكوف. كانت وظيفة داود الرسمية تشمل، أيضاً، نقل العمال إلى مجمع مكاتب القنصلية في شارع مأمن الله (شارع غرشون أغرون لاحقاً)، على حدود المقبرة الإسلامية الكبيرة ومنطقة الفنادق، مكاتب الحكومة البريطانية، والمشاغل الصغيرة في شارع يوليان (شارع الملك داود، لاحقاً). ومع تصاعد عمليات القنص والاعتداءات في المنطقة، أوكلت إليه مهمة إحضار عاملتين يهوديتين، يومياً، من زاوية شارع

كيرن كييمت، في طرف حي رحافيا، إلى عملهما في القنصلية. لتأدية هذه المهمة، كان يتعين على داود عبور جميع الحواجز التي نصبتها "الهاغناه" في شارع الملك جورج، في المقطع ما بين ساحة كلية تيراسنطة (ميدان باريس) وبين الوكالة اليهودية ـ مركز إدارة الييشوف اليهودي، في القدس وفي البلاد عموماً. إحدى العاملتين اللتين كان يقلهما هي شابة تدعى فيكتوريا، كانت تعمل في بدالة الهواتف في القنصلية، ومنها هي كان يسمع، من حين إلى آخر، أخباراً عما يجري في القيادة اليهودية في المدينة.

روى داود في شهادته، التي أدلى بها أمام قاسم الريماوي، أنه سمع عن لقاء مهم يُعقد في مكاتب الوكالة اليهودية في ساعات ما قبل ظهر يوم الأربعاء، 11 آذار. نقل هذه المعلومة إلى أحد أصدقائه في الجهاد المقدس، وأرفقها باقتراح إدخال عبوة ناسفة إلى ساحة الوكالة اليهودية، بواسطة سيارة القنصلية. في ذاك الصباح، تولى فوزي القُطُب تركيب العبوة الناسفة في سيارة القنصلية، في كراج قرب باب الخليل. استقل داود السيارة وعبر فيها جميع حواجز الهاغناه، يرفرف العلم الأميركي فوقها. أخبر حراس الهاغناه بأنه مسافر إلى فندق "عيدِن" لإحضار ضيوف على السفارة. و"عيدن" فندق صغير وفاخر يقع في شارع هليل المحاذي، كان رؤساء الييشوف اليهودي ينزلون فيه. في طريق عودته من هناك، التقى الحراس ثانية، وكان أحدهم يتكلم لغة "لادينو". تبادل داود معه بعض النكات بالإسبانية، لغته الأم، أعطاه علبة سجائر وأوقف السيارة المفخخة لصق المدخل الرئيسي لبناية الوكالة. قال للحارس إنه خارج للحظة لإحضار شطيرة من الكشك القريب. انتبه الحارس إلى أنه يماطل ودفع العربية بضعة أمتار إلى الأمام. عندئذ حصل الانفجار.

يروي التحقيق الاستقصائي الذي أجراه إسحق ليفي (لويتسه) قصة مغايرة تماماً لتلك التي سمعها قاسم الريماوي. يبدو أن أنطون داود كان متورطاً في صفقات سلاح مع الجانبين ولم يكن مقاتلاً فلسطينياً جَسوراً من أجل الحرية. بعد الصفقة الأولى التي باع خلالها ثلاثة مسدسات لرجال الهاغناه، اتفق معهم على تزويدهم بعدد من الرشاشات أيضاً. في صباح يوم الانفجار، كان قد سبقه إلى هناك سائق سيارة الأجرة بولياكوف، الذي كان حلقة الاتصال معه، وأخبر الحراس بأن سيارة القنصل الأميركي ستصل، محملة بالأسلحة. حين وصل داود، أزاح الحراس وبولياكوف الحواجز وأتاحوا دخول السيارة إلى المجمع الخاضع لحراسة مشددة. أعطى داود بولياكوف كيساً فيه شيء طويل وطلب منه التوجه به إلى القنصلية الأميركية للحصول على رشاش آخر. أوقف داود سيارة القنصل بجانب بناية كيرن هيسود وسافر مع بولياكوف. بالقرب من مبنى القنصلية الأميركية، خرج دواد لإحضار الرشاش، ظاهرياً، لكنه لم يعد. في الأثناء، كان الحراس قد تفحصوا السيارة المركونة

في مجمع الوكالة. رأوا ربطات من المواد الطرية والأسلاك فقرروا إجراء تفتيش وفحص شاملين. لهذا الغرض، كان عليهم إنزال السيارة إلى ساحة فارغة، خارج مجمع الوكالة. لم يكن هؤلاء الجنود، الذين تصرفوا بصورة فردية كما يبدو، خبراء في مجال المتفجرات، إذ لم يعثروا على شيء؛ فأعادوا السيارة إلى حيث كانت في الفناء. وعندئذ، حدث الانفجار.

أسرع داود إلى مقر قيادة الجهاد المقدس في بيرزيت وأخبر قاسم الريماوي بأمر المعركة التي خاضها، كما ادعى، مع الحراس اليهود عند مدخل الوكالة اليهودية. تؤكد جميع شهادات رجال الهاغناه أن معركة كهذه لم تحصل، مطلقاً.

سافر داود شمالاً، بمساعدة رجال الجهاد المقدس، حتى وصل إلى نابلس، ومنها إلى بيرزيت ثم إلى رام الله. فيها، نقلوه إلى منزل الطبيب سليمان سليم، حيث التقى عبد القادر. هنّأه بنجاح العملية. ويبدو أن داود قد حصل، أيضاً، على مبلغ غير قليل من المال ـ 100 ليرة ـ ساعده على الهروب من البلاد. وحسب ما يقوله مقربون منه، عاد داود إلى أميركا اللاتينية في العام 1950 وانضم إلى الثوار بقيادة فيدل كاسترو وتشي جيفارا. سافر بعد ذلك إلى الشرق الأقصى حيث أمضى بضع سنوات، انتقل بعدها إلى بيروت. انضم في لبنان إلى عضوية الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، خطط لعمليات ضد إسرائيل، لكن الوقت لم يسعفه لإخراجها إلى حيز التنفيذ. توفي داود في الكويت في آب 1969، بينما كان يزور أبناء عائلته. يكرسه التأريخ الفلسطيني بطلاً وطنياً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ربما كانت صدفة، لكن الحقيقة أن منفّذي التفجيرين الأكبرين في القدس في شتاء 1948 هم "أجانب": الجنود البريطانيون في شارع بن يهودا؛ والمغامر المرتزق المولود في كولومبيا في بناية الوكالة اليهودية.

نشرت صحيفتا فلسطين والدفاع الفلسطينيتان بتوسع عن "الصدمة والرعب" اللذين نزلا على الييشوف اليهودي إثر العملية التي قُتل وأصيب فيها "كثيرون من كبار القيادات الصهيونية". كما أفادتا بحصول دمار رمزي في "غرفة هرتسل" ـ وهي غرفة في تلك البناية خُصصت لتخليد ذكرى نبي الصهيونية وكان فيها، أيضاً، كتابه دولة اليهود. لم تكن ثمة مبالغة كبيرة في ما نشرته هاتان الصحيفتان الفلسطينيتان. أفادت المصادر اليهودية بسقوط ستة قتلى، من بينهم مدير كيرن هيسود، ليف يافِه. أما المصادر الفلسطينية فتحدثت عن 12 قتيلاً وأكثر (36 قتيلاً، حسب عيسى مُحسن). كما أفادت أيضاً بإبادة جزء كبير من الوثائق والشهادات التي كانت محفوظة في مكاتب المؤسسات القومية، بما فيها الوكالة اليهودية والهيئات التي تولت تركيز العمل المالي

الصهيوني، كيرن كييمت ليسرائيل (الصندوق القومي لإسرائيل) وكيرن هيسود (الذراع المالية المركزية للوكالة الصهيونية).

لكن مشكلة الييشوف اليهودي المركزية لم تكن عدد المصابين، ولا حتى الأضرار التي لحقت بالمكاتب، وإنما الضرر المعنوي الفادح. كانت بناية المؤسسات القومية، التي أقيمت استمراراً لحي رحافيا، الحي الحديث والفاخر الذي يسكنه يهود القدس، بمثابة المركز الرسمي للدولة اليهودية المرتقبة. كانت فيها ثلاثة أجنحة: الجناح المركزي الذي كان يشمل إدارة الوكالة اليهودية والمنظمة الصهيونية، وعلى جانبيه جناحا كيرن كييمت وكيرن هيسود. وفي بناية واسعة أخرى، أقيمت على نسق فاخر من الطراز الأوروبي ابتداء من 1928 (أُنجزت أعمال البناء بصورة نهائية في 1936 فقط)، كانت مكاتب دافيد بن غوريون، الشخصية المركزية في قيادة الييشوف، وزملائه من كبار مسؤولي الدوائر الأخرى.

لم يكن ثمة بناية أخرى في الييشوف اليهودي في البلاد مثّلت، بهذا النحو القاطع، التطلعات القومية الصهيونية والسعي نحو إنشاء دولة قومية يهودية. أقيمت في قاعات هذه البناية جميع الطقوس والمراسم القومية المختلفة. رُكّبت، على واجهة البناية، شرفة واسعة مربعة الشكل ألقى من عليها قادة الييشوف خطاباتهم المهمة أمام الجماهير التي كانت تحتشد في الساحة. قبل ذلك بسنة ونصف السنة، جلست على هذه الشرفة غولدا مئير برفقة آخرين من أعضاء الإدارة الصهيونية وأعلنوا، معاً، أضراباً عن الطعام احتجاجاً على إجراءات اتخذها البريطانيون لقمع المنظمات اليهودية التي كانت تحارب ضدهم. انطلقت من باحة مدخل البناية مظاهرات يهود المدينة من أجل "الهجرة الحرة والدولة العبرية"، وفيها أيضاً تجمع الآلاف في ليلة 29 تشرين الثاني للاحتفال بقرار الهيئة العامة للأمم المتحدة بشأن تقسيم البلاد وإقامة دولة يهودية، إلى جانب الدولة العربية.

أدى نجاح مقاتلي الجهاد المقدس في تنفيذ عملية معقدة كهذه وهدم مركز الحركة القومية اليهودية ورمزها، إلى تعزيز مكانتهم وزيادة احترامهم بين عرب البلاد، بدرجة كبيرة جداً. في إحدى مرثيات عبد القادر الحسيني، التي تمجّد دور "القائد الشهيد"، جاء:

أبو موسى [هو عبد القادر] الذي رفع لواء المجد

[...]

وبنى حائط مبكى جديداً في شارع بن يهودا

وعزّانا ببيت الوكالة اليهودية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

10

حصار

خلال شهر آذار 1948، ازدادت واستطالت قائمة الإخفاقات والضحايا اليهودية في الشتاء وبداية الربيع. من بين الهزائم، يمكن أن نشير إلى معركة بيت سوريك، بقيادة عبد القادر، والتي أصيبت خلالها وحدة "بلماح" لدى مهاجمتها مجموعة من مقاتلي الجهاد المقدس كانوا يعرقلون حركة السير إلى القدس. كما فشلت، أيضاً، عملية قام بها 19 من المحاربين اليهود من القدس (كتيبة موريا)، خرجوا من عطاروت ونصبوا، يوم 3 آذار، كميناً لحركة المواصلات العربية على الشارع من رام الله إلى اللطرون: الباص الذي حاولوا إصابته مرّ بسلام وفي المعركة المضادة التي شنها العرب من قريتي بيتونيا ورافات المجاورتين قُتل 16 من المحاربين اليهود الـ 19. كان عبد القادر يقود، مباشرة، المعركة الدائرة عند أطراف جبل ماصيون (أقيمت هناك في وقت لاحق الأحياء الفخمة في جنوب رام الله). وبعد أسبوع على ذلك، يوم الخميس 11 آذار، الانفجار في مقر الوكالة اليهودية ـ العملية التي شكلت ضربة شديدة للمعنويات اليهودية.

كان الطقس في الأسبوع التالي شديد البرودة في القدس وضواحيها. فرضت الثلوج التي تساقطت مهلة قصيرة في القتل وتبادل النيران. في 18 آذار، هاجمت وحدت من الجهاد قافلة متجهة إلى هارطوف وقتلوا عشرة من رجالها. في 24 آذار، نشبت معركة مع قافلة قرب شعفاط في الطريق إلى عطاروت ونفيه يعقوب، قتل خلالها 14 محارباً يهودياً. يجب أن نضيف إلى هذه كلّها أيضاً أعمال التضييق والتنكيل الدائمة ضد حركة السير اليهودية في الشارع إلى تل أبيب: سقط ضحايا كثيرون في هذا الطريق، وأدى الرصاص الذي أصاب وسائل النقط إلى قطع المواصلات اليهودية إلى غوش عتصيون وعطاروت، بصورة تامة تقريباً. شعرت الأحياء اليهودية في المدينة، بوضوح، بالضائقة التي خلقتها هذه الأحداث كلّها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أجرت اللجنة السياسية واللجنة العسكرية التابعتان لجامعة الدول العربية، في الأسبوع الأخير من ذلك الشهر نفسه، وعلى خلفية النجاحات التي حققها الجهاد المقدس، مداولات متواصلة في دمشق حول الوضع في فلسطين. قرر عبد القادر، بالتشاور مع المفتي الذي جاء من القاهرة إلى دمشق، الانضمام إلى الوفد الفلسطيني. بدا متحمساً ومتفائلاً برفقة المربي بهجت أبو غربية. حصل التقارب بين الرجلين إثر الجراح البالغة التي أصيب بها صبحي، شقيق بهجت، أحد قدامى المقاتلين ضمن جماعة عبد القادر. خلال

الأيام التي سبقت سفره إلى دمشق، التقى عبد القادر بهجت أبو غربية بضع مرات. في أحد تلك اللقاءات، أخبره عبد القادر بأنباء عن استعدادات يجريها اليهود لتنفيذ عملية واسعة في الطريق إلى القدس (يبدو أن الحديث كان يقصد الاستعدادات لعملية نحشون). التقيا في حي باب الساهرة، في منزل فريد الحسيني، فقال له عبد القادر وقتها إن ليس ثمة من الأسلحة والعتاد ما يكفي لتزويد وحدات الجهاد والمتطوعين الذين انضموا إليها. سمع أبو غربية من عبد القادر، أيضاً، أنه على علاقة مع اللجنة العسكرية في دمشق وأن رئيسيها إسماعيل صفوت وطه الهاشمي يرفضان تزويده بالعتاد والسلاح بموجب اللوائح التي طلبها هو. ومع ذلك، كان عبد القادر في حالة معنوية عالية حين التقى بهجت أبو غربية.

أوضح عبد القادر أن وضع عرب القدس ليس سيئاً من الناحية العسكرية، لا بل مُرْضٍ: حصار مفروض على البلدات والأحياء اليهودية في القدس، والشارع إلى تل أبيب مغلق تماماً، تقريباً. وقال إن التدخل البريطاني في المعارك وحده هو الذي ينقذ اليهود. وروى عبد القادر لبهجت أبو غربية أنه عرض على اللجنة العسكرية معطيات عن عديد وحدات الجهاد المقدس وقادتها، وعن سير المعركة ومجرياتها في القدس. ورسم صورة بدا بموجبها أن كفة المعركة ترجح لصالح العرب، لكنها قد تتبدل وتنقلب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان بهجت أبو غربية، ابن إحدى العائلات الخليلية المعروفة، رجلاً نحيفاً ذا بشرة فاتحة اللون. وُلد سنة 1916 في خانيونس في قطاع غزة، التي كان أبوه حاكماً عليها من قبل الدولة العثمانية. صحيح أن أصل العائلة هو من الخليل، لكن الوالد أشغل مناصب في الحكم المحلي في مختلف أنحاء البلاد ـ في أريحا، الفالوجة (كريات غات، اليوم)، بيت جبرين وخانيونس. في شبابه، أقام الوالد في إسطنبول لفترة ما، أنهى خلالها استكمالاً في المجال الإداري. هناك، أيضاً، تعرف على الفتاة فخرية حسن، وهي ابنة لعائلة مسلمة من صربيا هربت إلى إزمير خلال حرب البلقان، فتزوج منها. سنة 1927، عمل الوالد في الدائرة المالية في بلدية القدس الانتدابية. وبعد تهدّم منزل العائلة في منطقة باب السلسلة في البلدة القديمة، جراء الهزة الأرضية التي ضربت المنطقة في تلك السنة، أرسل الوالدان الفتى بهجت إلى حيفا لقضاء بعض الوقت في منزل شقيقه البكر راشد، الذي كان قد حصل على وظيفة مدرّس في مدرسة إسلامية في المدينة. يروي بهجت، الذي كان ابن 12 عاماً آنذاك، أنه كان يرافق شقيقه للاستماع إلى عظات الداعية السوري المعروف عز الدين القسام، في مسجد الاستقلال في المدينة. وبعد عودته إلى القدس، قرر أن يصبح مدرّساً مثل شقيقه. فيما بعد اشتهر اسم شقيق آخر لهما، هو نهاد أبو غربية، الذي كان أحد رجالات التربية المهمّين في القدس العربية.

أسس وأدار "الكلية الإبراهيمية" التي أقيمت لها، بعد سنة 1948، بناية خاصة، حديثة وواسعة، عند مشارف وادي الجوز. سار بهجت، في نهاية المطاف، على أثر شقيقه صبحي وانضم إلى الجهاد المقدس كأحد أكثر المعجبين بعبد القادر.

عيّن عبد القادر في بداية شباط 1948 بهجت أبو غربية قائداً على حي مصرارة والحي الصغير الملاصق به، سعد وسعيد (سمي الحي على اسم المسجد الصغير الذي يحمل الاسم نفسه، قرب البناية الكبيرة التي تعود لعائلة ألبينا المسيحية الكاثوليكية، والتي كانت مقراً للقنصلية الأميركية في القدس، لسنوات عديدة). كانت في القدس العربية مناصب قيادية عليا، واعتبر بهجت أبو غربية نفسه في منصب مركزي على جبهة المعركة مقابل المركز المديني اليهودي في القدس. الوصف الذي يقدمه لتلك الأيام هو بمثابة شهادة من مصدر أول على تنظّم القيادة وعلى العلاقات مع قائد المدينة والمنطقة، عبد القادر.

التقى بهجت، على الفور، أعضاء لجنة حي مصرارة، من بينهم رئيس اللجنة، طبيب الأسنان د. شاغورية (لا يزال لوح من الرخام يحمل اسمه مثبتاً في الزاوية الشمالية من شارع الـ ٧٨.ع.ح ـ "قافلة هداسا")، الشقيقان من عائلة طَلَيل ـ الصيدلي خليل والطبيب إبراهيم ـ اللذان كانا يسكنان في بيت فخم في قلب الحي (شارع ناتان هنفي، لاحقاً) وإسحاق دوزدار، ابن عائلة ضابط المدفعية العثمانية الذي استقر في القدس وبنى لنفسه بيتاً عند منحدر شارع الأنبياء، قرب باب العامود. أما مقر القيادة فأقاموه في منزل سعد الدين الخليلي، في شارع سانت بول، بجانب المدرسة السويدية (شارع شفطي يسرائيل)، في الواجهة، قبالة حي ميئاه شعاريم اليهودي. انطلقت تحت قيادة بهجت أبو غربية، أعمال تحصين في الحي: حُفرت القنوات، أقيمت المواقع المحاطة بأكياس الرمل، وجُمعت أموال لاقتناء السلاح. عقد قادة الأحياء المتجاورة جلسات مشتركة للتنسيق.

يوم السبت، 14 شباط 1948، وعلى خلفية تصاعد الأحداث في مختلف أنحاء البلاد، سافر بهجت أبو غربية، المسؤول عن حي مصرارة، وشريكه إسحاق دوزدار، المسؤول عن حي سعد وسعيد، إلى مقر قيادة الجهاد المقدس في بيرزيت. أعادوا تذكير عبد القادر بمحادثاتهم المشتركة بشأن السلاح المطلوب لحماية الأحياء في القدس والدفاع عنها. "لكننا عُدنا بدون أي رصاصة واحدة حتى"، كتب بهجت الذي قرر على الفور تقديم كتاب استقالته إلى عبد القادر. "استبدلني. أنا لا أتهرب من المعركة، سأقاتل بمسدسي كجندي بسيط دون تحمل أي مسؤوليات". أودع كتاب الاستقالة بين يدي سامي، شقيق عبد القادر.

مرّ يومان وأصيب بهجت أبو غربية برصاصة في صدره عند زيارته صديقاً بالقرب من مسجد الشيخ جراح، لصق فندق الأميركان كولوني. رفض الجنود البريطانيون الذين كانوا في موقعهم القائم في بيت نسيبة (منزل زكي نسيبة الفخم، الذي هُدم سنة 1948) إسعافه أو تقديم أية مساعدة له. غير أن فتى عابر سبيل ساعده في الوصول إلى المستشفى الفرنسي عند سفح التلة في الشيخ جراح. أخرج الطبيب الذي عالجه الرصاصة التي أخطأت قلبه بسنتيمترات قليلة فقط. كتب بهجت عن ذلك:

قلتُ للطبيب، "ألا يكفي أن شقيقي صبحي قد أصيب، وكذلك كثيرون من رفاقي؟ لكن، أنا ملزم بالاستمرار" [...] وُضع عند غرفتي حارس من مقاتلي الجهاد المقدس، أبلغني بأنّ عليّ البقاء في المستشفى لمدة أسبوعين على الأقل. قلت له: "هذا ليس في الحسبان" [...] في الأثناء، استلم عبد القادر كتاب الاستقالة الذي قدمته إليه، كما سمع عن إصابتي. ولذلك، أوفد إليّ صديقاً يحمل ملاحظة، بأسلوبه المتميز: "ما الذي حصل، أيها الوغد؟ هل حاولتَ الانتحار؟".

تحسنت حالة بهجت أبو غربية الصحية بعد أيام معدودة، والتقى، مرة أخرى، مع عبد القادر الذي أقنعه بالعدول عن استقالته. تدل المبررات التي ساقها عبد القادر على مسمع بهجت على مزاجه:

اسمع يا بهجت، قال لي، الدول العربية وافقت عملياً على إقامة دولة يهودية على أرضنا. وافقت هذه الدول في الخفاء، بينما هي تكذب على شعوبها. حتى لو دخلت الجيوش العربية إلى فلسطين، فستتوقف عند حدود التقسيم. هذا هو سبب عدم تقديمها السلاح [...] اسمع يا بهجت، المشكلة ليست فلسطين فقط، وإنما مجرد إنشاء قاعدة صهيونية ومستوطنات من الفرات حتى النيل [...] إنهم يطردون، منذ الآن، 240 ألف فلسطيني من الجليل وحده [...] لكنني لن أستسلم. سأقاتل هنا حتى الموت. بصدري سأحمي أبناء شعبي".

التعابير التي استخدمها عبد القادر في الحديث عن أطماع الصهيونية في الاستيطان "من الفرات حتى النيل" هي تعابير مميزة للخطابة الفلسطينية والعربية عموماً، إلا أن جزمه بأن الدول العربية قد وافقت على التقسيم، خلسة، وبأن الجيوش العربية ستتوقف عند حدود التقسيم، ليس متوهَّماً. كانت هذه أموراً معروفة عن عبد الله، ملك شرق الأردن. ومن شبه المؤكد أن القاوقجي أيضاً كان يفكر في الاتجاه ذاته. في أحد خطاباته أمام جنوده المنطلقين نحو المعركة، قال: "علينا طرد اليهود من القسم العربي من البلاد وحصرهم في ذاك الجزء الصغير الذي يعيشون فيه الآن وعليهم أن يكونوا خاضعين، هناك، لرقابتنا وحراستنا نحن". هذا ما نقله جوش بلمون من أقوال أدلى بها أسير عربي من معركة يكنعام، يوم كانون الثاني 1948.

ربما كان بهجت أبو غربية يستعيد تلك المحادثة مع عبد القادر بروح وطنية مبالغ فيها، لكنه عاد على أي حال لقيادة حي مصرارة وقال لعبد القادر: "أتعهد لك بأن لا يمروا من منطقتي طالما بقيت على قيد الحياة [...] سأحارب على كل شِبر".

يروي بهجت أبو غربية أنه بدأ يكتب مذكراته عن معارك 1948 في الخمسينات، حين كان معتقلاً في معسكر اعتقال في الأردن كناشط في حزب البعث العربي الاشتراكي؛ إلا أن المخطوطة ضاعت لدى احتلال إسرائيل شرقي القدس في العام 1967 بينما هرب هو إلى الأردن. يستهل كتابه مذكرات المناضل بهجت أبو غربية 1916 ـ 1949 بالقول: "وُلدتُ مع ميلاد القضية الفلسطينية وخدمتها طوال حياتي".

صحيح أن هذا الكتاب كُتب لعد سنوات عديدة من الأحداث نفسها، لكنه سوية مع مؤلفات عارف العارف، قاسم الريماوي وأنور نسيبة، من المصادر القليلة جداً التي تصف مجريات الأحداث حول عبد القادر في القدس إبان النكبة، بصورة تفصيلية ومتناسقة. فخلافاً لمؤرخين ودارسين فلسطينيين آخرين وثقوا تلك الفترة من خلال وثائق وشهادات من مصدر ثان أو ثالث حتى، يصف بهجت أبو غربية الأحداث المختلفة التي شارك فيها هو، بصورة شخصية ويومية. كان الوحيد من أعضاء الحلقة الضيقة المحيطة بعبد القادر الذي عاش عمراً مديداً. توفي بهجت أبو غربية في عمّان سنة 2012. في بيانات النعي التي نشرتها الصحف الفلسطينية، ورَد: "حارب إسرائيل كلّ حياته".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مع مغادرة عبد القادر إلى بيروت ودمشق، تولى نابه، كامل عريقات، القيادة على الجهاد المقدس في القدس. في 27 آذار؛ أي بعد يوم واحد من مغادرة عبد القادر، أمر عريقات بخوض ما سمي في التأريخ الفلسطيني "معركة الدهيشة"، وما عُرف في تاريخ المعارك اليهودية في القدس باسم "معركة قافلة النبي دانئيل" ـ إحدى الهزائم الأشدّ مرارة التي منيت بها وحدات الهاغناه.

خرجت من القدس في صباح ذاك اليوم قافلة يهودية تتألف من 58 سيارة في طريقها إلى غوش عتصيون. قطعت أطراف القرى العربية إلى الغرب من بيت لحم. لم يحرك العرب الذين كانوا يراقبونها، بمن فيهم كامل عريقات، ساكناً، اقتناعاً منهم بأن القافلة ستعود أدراجها في الطريق ذاته. شرعوا في إقامة متاريس، بحفر قنوات ووضع صخور وألغام في الشارع قرب الدهيشة إلى الجنوب من بيت لحم (بعد 1948 أقيم في المكان مخيم كبير للاجئين الفلسطينيين الذين كانوا يسكنون عند السكة الحديدية ما بين القدس وتل أبيب).

مع غياب الشمس، عادت القافلة فعلاً فاصطدمت بحاجز لم يكن من الممكن تجاوزه وعبوره. أطلق مقاتلو الجهاد وحشد من العرب، كانوا متربصين بالقافلة، وابلاً من الرصاص وأغلقوا عليها من كل الجهات. "أخذ اليهود، الذين لم يكن في الإمكان إرسال تعزيزات إليهم، يبحثون عن ملاذ لهم في بناية قديمة على جانب الطريق [...] وعند الفجر، حلقت فوقهم ثلاث طائرات يهودية ألقت برُزَم العتاد والغذاء للمحاصَرين، إلا أن الجزء الأكبر من هذه الرزم سقط بين أيدي العرب. أصيبت إحدى الطائرات وقُتل من كان على متنها، فانتكست معنويات اليهود المحاصَرين ودب فيهم الإحباط"، كما يصف بهجت أبو غربية في مذكراته. توجهت الوكالة اليهودية إلى الجيش البريطاني بطلب إنقاذ القافلة، فتوجه الضباط البريطانيون إلى كامل عريقات وشرعوا يتفاوضون معه حول شروط استسلام القافلة. وبعد معركة دامت 36 ساعة، أُبرم اتفاق الاستسلام الذي قضى بأن يسلم اليهود البريطانيين جميع السيارات، المعدات والأسلحة التي كانت في حوزة القافلة، على أن يسلمها هؤلاء إلى الفلسطينيين. في المقابل، يخلي العرب سبيل رجال القافلة ويتيحون لهم الوصول إلى القدس بسلام.

هذا ما كان، حقاً. نقل الجيش البريطاني مسافري القافلة، قتلاها وجرحاها إلى القدس، وسلّم كامل عريقات ورجاله عشرات وسائل النقل: سيارات، مدرعات، حافلات، شاحنات مصفحة و170 قطعة سلاح من أنواع مختلفة وعتاد حربي كثير.

استمر الاحتفال بهذا الانتصار الكبير في عناوين الصحف الفلسطينية ثلاثة أيام كاملة (28 ـ 30 آذار). وصفت الصحف مشاهد اليهود الأذلاء وهم ينسحبون رافعين الأيدي وعددت الغنائم الوفيرة التي حصل عليها الفلسطينيون. كما نشرت، أيضاً، عن المعاملة الإنسانية التي أبداها العرب بتقديم المساعدات للجرحى اليهود والمساعدة في نقلهم إلى المستشفيات أيضاً. أما الشكاوى الوحيدة التي ظهرت فيما بعد فكانت عن أن اليهود خرّبوا خنادق لتخزين الأسلحة. لكن العرب استطاعوا إصلاح ما تضرر وإعادة تشغيل الخنادق، مثلما كانت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يمكن الاستدلال على مدى نجاح حملات الجهاد المقدس وعملياته في أشهر الشتاء إياه من خلال تعابير الضائقة وقلة الحيلة التي كانت تصدر عن المحاربين اليهود. فقد ساد بينهم شعور ثقيل وقاس. وبنظرة إلى الوراء، استذكر شاعر "البلماح"، حاييم حيفر، تلك الأيام وكتب عنها قصيدة "معركة هرئيل":

بووم، بووم، بووم، / كل الكون يُظلم / الجبل معتم، الشارع أسود / المدينة تحتضر تحت الحصار / لا خبز، لا شيء. بووم، بووم، بووم، / الليلة ان ننام، / سنقطع الشراع بصمت / مع أربعين رصاصة للفرد / احفظني أيها الرب الرحيم / افتحي الشبابيك ببطء/ فمقابل بيتك يمرّون / أولئك الذين تقريباً تقريباً، تقريباً لا يعودون. / بووم، بووم، بووم،/ قلبنا أصبح بليداً، / ثلاثون في النبي صموئيل، / سبعة عشر على القسطل / قافلة النبي دانئيل... / ليل الظلمة هنا، إلى أعلى / في بطنه سكين، إن عُدنا من الليل / فسنهرم عشرين سنة.

كتب حاييم حيفر عبارات "الجبل المعتم"، "المدينة المحتضرة" و"القلب البليد" في سياق الحديث عن القتلى الكثيرين الذين سقطوا من وحدة "هرئيل"، إحدى وحدات النخبة في "بلماح"، لكن من شبه المؤكد أن المزاج في الوحدات اليهودية الأخرى كان مماثلاً، بل أكثر مرارة ربما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

امتلأت في الأيام الأخيرة من آذار ومطلع نيسان، صفحات صحيفتي فلسطين والدفاع الفلسطينيتين بعشرات الأخبار عن النجاحات العربية التي سبقت معركة الدهيشة، في منطقة القدس وبصورة عامة. جرى الحديث عن انفجار هائل خلّف دماراً في حي مونتفيوري (يمين موشيه)، الذي تضرر خلال المعركة حقاً. تهدمت بعض طواحين الهواء والبيوت القريبة منه. جرى حديث عن قيام القائدين العربيين، البدوي هارون بن غازي، من شرق الأردن، وجابر أبو طبيخ من خربة الوز القريبة من صطاف، بقطع الطريق على قافلة كانت متوجهة إلى القدس، بالقرب من المضخات التحتا التي عند مدخل شاعر هجاي: أصدرا نداء إلى سكان قرى المنطقة، فاستولوا على 14 شاحنة وسيارات أخرى بقيت على الشارع، فسطوا عليها وسرقوا ما فيها؛ اختبأ الذين كانوا ضمن القافلة في بناية المضخات، حتى أنقذتهم من هناك وحدة من الجيش البريطاني. كما جرى الحديث، أيضاً، عن معركة وادي الصرار (ناحل سوريك ـ القصد هنا/: قافلة خُلدَة التي تعرضت للهجوم ولم تستطع الوصول إلى القدس)، المعركة التي قتل فيها العرب عدداً كبيراً من "عصابة مجرمي الهاغناه" واستولوا على غنائم كثيرة. وتحدثت تقارير أخرى عن نجاحات عربية في أماكن أخرى من البلاد، أيضاً: معركة كَلْمَنيا (رمات هكوفيش، قرب كفار سابا)، قتلى يهود في كمين عربي قرب الجاعونة (روش بينا)، وقتلى يهود آخرون في شوارع الجنوب ما بين يِبْنا (يَفنه، لاحقاً) وأسدود (أشدود، لاحقاً). أما النجاح العربي الأبرز فكان في كمين نُصب لقافلة في الجليل الغربي، هي قافلة يحيعام، والذي قُتل فيه ٤٦ من المحاربين اليهود. اعتُبرت هذه الهزيمة إحدى الهزائم اليهودية الأقسى خلال الحرب. شارك

مئات العرب في تنفيذ الهجوم، بمبادرة من جيش الإنقاذ بقيادة القاوقجي، وقائد المنطقة أديب الشيشكلي.

نشرت الصحافة الفلسطينية أيضاً، بتوسع، عن اللقاءات السياسية التي جرت خلال تلك الأيام. التأمت اللجنة السياسية واللجنة العسكرية التابعتان لجامعة الدول العربية، في دمشق، وبحثتا في سبل دعم المقاتلين الفلسطينيين وتوسيع رقعة المعارك. تكرر، مراراً، اسما عزام باشا، الأمين العام للجامعة العربية، ورياض الصلح، رئيس الحكومة اللبنانية، اللذين برزا خلال المداولات السياسية، وكذلك اسما طه الهاشمي وإسماعيل صفوت، اللذين كانا مسؤولين عن الجانب العسكري في الحرب. من الجانب الفلسطيني، ذُكرت أسماء بعض أنصار الحاج أمين، وفي مقدمتهم جمال الحسيني (الذي كان بمثابة وزيرٍ للخارجية، الشخصية الثانية بعد المفتي في هرمية القيادة الفلسطينية).

ظهرت في نهاية الأسبوع الأول من نيسان 1948، ابتداء من يوم الخميس، الأول من الشهر، في صحيفة فلسطين، عناوين رئيسية تعكس درجة عالية من الثقة بالنفس والشعور بالانتصار بين الفلسطينيين. أفادت الصحيفة بأنه في ختام المداولات التي جرت في دمشق، اتُخذت قرارات تؤكد أن الهدوء سيعود ليخيم في فلسطين، فقط بعد قيام دولة عربية مستقلة وأنه ليس من حق أحد التدخل في الشؤون الداخلية لعرب البلاد. وكان العنوان الرئيسي في عدد يوم السبت: "الدول العربية والمجلس الأعلى ترفض أي طلب لوقف إطلاق النار في فلسطين، إلا إذا صدر قرار رسمي بوقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين وأُلغي مشروع التقسيم".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الهدف من هذه العناوين إبراز الانتصارات العسكرية في فلسطين وترجمتها إلى نجاحات على الصعيد السياسي الدولي. طالما كانت هنالك نجاحات ميدانية، فليس ثمة لدى العرب سبب لطلب وقف إطلاق النار. وقال بيان خاص صدر من القاهرة آنذاك إن اللجنة العربية العليا مستعدة لرفع الحصار عن يهود القدس، إذا ما تحقق شرطان اثنان: الأول، خروج جميع حَمَلة السلاح اليهود من المدينة؛ والثاني، إجراء تفتيش في جميع القوافل الصاعدة من السهل الساحلي إلى القدس، على أن توكل مهمة إجراء التفتيش لمندوبي الصليب الأحمر، بمشاركة مندوبي الجهاد المقدس.

تعبير بارز عن نجاح سياسي محتمل ورد في بيان وزارة الخارجية الأميركية حول تغيير في سياستها حيال النزاع العنيف في البلاد: لا تأييد لتقسيم البلاد إلى دولتين بعد اليوم، وإنما تأسيس نظام وصاية دولي. كانت تلك أيام ارتياح وشعور بالنجاح لدى المعسكر العربي والفلسطيني.

ظهرت هذه العناوين في نهاية الأسبوع الأول من نيسان، والذي أطلقت فيه الهاغناه عمليتها الكبيرة الأولى في هذه الحرب ـ عملية نحشون. بدأت هذه العملية يوم السبت، 3 نيسان، واستمرت حتى يوم 15 منه. كان الهدف من هذه العملية فتح الطريق إلى القدس والاستيلاء على نقاط تحكّم وسيطرة على طوله. كانت تلك المرة الأولى في المواجهات العنيفة في 1948 التي تم فيها تركيز قوة كبيرة جداً من الهاغناه، 1,500 محارب. اتُخذ القرار بشن هذه العملية بعد أن اتضح أن طريقة القوافل قد منيت بالفشل وأن القدس اليهودية محاصَرة وأصبحت تعاني من نقص في المعدات والمواد الغذائية.

يعتقد جميع الباحثين والمؤرخين اليهود بأن عملية نحشون مثلت التحول المهم الأول لصالح الييشوف اليهودي، وأنها تيسّرت وأتيحت في أعقاب وصول الدفعة الأولى من السلاح الدفاعي من تشيكوسلوفاكيا. في 31 آذار، في مطار مهجور قرب قرية دَرّاس وبلدة بئير طوبيا في الجنوب، حطت الطائرة الأولى وعلى متنها 200 بندقية ورشاش وذخائر، تم نقلها مباشرة إلى الوحدات التي كانت على أهبة الانطلاق في عملية نحشون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الأثناء، كانت تدور في قرية القسطل شجارات داخلية، بين رجال من عائلة مَطَر، الذين كانوا يقيمون علاقات مع اليهود في المنطقة (من موتسا ومحجر اليشار)، وبين رجال القرية الذين كانوا يتعاونون مع مقاتلي الجهاد المقدس. حاول المقاتلون العرب احتلال "محجر اليشار" والمواقع المجاورة له. دفعت عمليات تبادل إطلاق النيران التي استمرت بين الجانبين وتصاعدت، باستمرار، داخل قرية القسطل الصغيرة وحولها، أهالي القرية في نهاية المطاف، في نهاية آذار، إلى اتخاذ قرار بإخلاء جميع النساء والأطفال من القرية. ثار في مقر قيادة الهاغناه في القدس تخوف من أن يؤدي إخلاء القرية من سكانها الفلسطينيين إلى جعلها ثكنة عسكرية قوية، خالية من السكان المدنيين، في منطقة تراجع فيها الحضور البريطاني وقلّ. وعلى هذه الخلفية، أصدر دافيد شلتيئيل، قائد الهاغناه في منطقة القدس ـ بعد حصوله على إذن بذلك من هيئة القيادة العامة ـ أمراً باحتلال القسطل، في 3 نيسان؛ أي قبل وقت قصير من البداية الرسمية لعملية نحشون.

تظهر هذه العملية في جميع التوثيقات التاريخية، التي وضعها جميع المؤرخين، بوصفها سابقة دراماتيكية في الاستيلاء على قرية عربية دون نية بالانسحاب منها؛ أي، ابتداء من تلك اللحظة فصاعداً لم يعد الحديث عن هجوم بقصد العقاب والردع، وإنما هجوم بقصد السيطرة الدائمة على المكان: احتلال الأرض. وقد أصبح هذا متاحاً في أعقاب انسحاب القوات البريطانية من المنطقة، بوجه خاص.

بنظرة إلى الوراء، كان لاحتلال القسطل نتيجة إضافية أخرى: انتقل مركز الثقل في المعارك من الوادي الضيق في باب الواد (وادي علي) ـ أي شاعر هَجاي، المنطقة التي كانت للعرب فيها أفضلية طوبوغرافية مكّنت قوة صغيرة نسبياً من إغلاق طرق ـ إلى رأس الجبل، حيث المنطقة واسعة ومفتوحة، الأمر الذي منح الوحدات اليهودية المنظمة أفضلية بارزة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على الرغم مما ارتسم في تلك الفترة وكأنه نجاحات عظيمة حققها الجهاد المقدس وجيش الإنقاذ، إلا أن توقعات الجنرال إسماعيل صفوت، رئيس اللجنة العسكرية التي شكلتها الجامعة العربية، كانت، منذ بداية آذار 1948، سلبية ومتشائمة جداً، كما يظهر من تقاريره وتوصياته بشأن القتال في فلسطين. كان يرسل تقاريره تلك إلى جميل مردم بِك، رئيس الحكومة السورية ورئيس لجنة الجامعة العربية الخاصة بشؤون فلسطين. وقد نشر هذه التقارير باحثون عرب كثيرون، في مقدمتهم وليد الخالدي (في مجلة الدراسات الفلسطينية، 1998)، وكذلك باحثون يهود، مثل شموئيل صباغ في كتابه من خلف الستارة. تعكس هذه التقارير السمة المركزية في موقف رؤساء الجامعة العربية من الحاج أمين وعبد القادر: عدم الثقة والاستهتار، اللذين يقودان بالضرورة إلى تلك الليلة الحاسمة والمصيرية في القسطل. فمن التقارير يظهر، بوضوح، مدى مقت إسماعيل صفوت للحاج أمين ونفوره منه، ثم ـ ترتباً عن ذلك ـ مقته للقوات الخاضعة لإمرة المفتي وقيادته؛ أي الجهاد المقدس. كذلك، يبدو واضحاً تشكيك صفوت في كل ما يتصل بقدرات وحدات حرب العصابات الفلسطينية وكفاءتها في مواجهة البيشوف اليهودي.

بدأت قوات جيش الإنقاذ بالدخول إلى فلسطين منذ بداية كانون الثاني، لكن سرعان ما تبين للجنرال صفوت أن قواته، التي انضمت إلى المقاتلين الفلسطينيين ـ "وحدات حرب العصابات" وعلى رأسها مقاتلو الجهاد المقدس ـ لن تستطيع، ولا بأي حال من الأحوال، الصمود أمام القوات اليهودية. وقد عبر عن عدم ثقته هذه بمتطوعي جيش الإنقاذ ومقاتلي الجهاد المقدس من خلال تقريرين اثنين قدمهما، في منتصف كانون الثاني وبداية شباط 1948، ثم في تقارير أخرى لاحقة، أكثر تفصيلاً، قدمها خلال شهر آذار، وخصوصاً في نهاية ذلك الشهر، في الأيام الأخيرة بالضبط التي وصل فيها عبد القادر إلى دمشق لطلب مساعدات من صفوت ومن اللجنة العسكرية.

مقابل المزاج المتفائل الذي كان يمتاز به عبد القادر في نهاية آذار، والذي تجسد في محادثاته مع بهجت أبو غربية، وعلى خلفية سلسلة النجاحات الفلسطينية، وخصوصاً في منطقة القدس التي كان مسؤولاً عنها ـ ابتداء من معركة مفرزة الـ ٣٥ (معركة صوريف) وانتهاء بقافلة النبي دانئيل (معركة

الدهيشة) ـ كانت تقارير إسماعيل صفوت النقيض التام تماماً لتلك الصورة. كان صفوت شديد التشاؤم. كان يشخص، بدقة، الفجوات الهائلة بين قوة وقدرات المتطوعين ومقاتلي الجهاد، من جهة، وبين قوة وقدرات القوات اليهودية من الجهة الأخرى. كان سوداوياً إلى أبعد الحدود وكانت توقعاته بشأن استمرار المواجهة بالظروف والشروط الحالية قاتمة تماماً.

أولاً، كتب صفوت، من الناحية العددية، لدى اليهود نحو 50 ألف محارب، معظمهم من رجال الهاغناه، وبعضهم القليل من رجال "إيتسل" و"شتيرن" (ليحي). واستناداً إلى المعطيات التي في حوزتنا، فإن نحو نصف المحاربين اليهود مسلّحون ومدرَبون جيداً وجاهزون للدخول إلى المعركة في أي لحظة. أما نصفهم الثاني ففي مراحل التنظيم والتدريب المختلفة. لدى اليهود وحدة نخبة، البلماح ـ يكتب ـ تضم بين 5,000 و6,000 محارب، ولديهم حرس في البلدات اليهودية يضم نحو 20 ألف عنصر.

وماذا لدى العرب، مقابل هذه كلها؟ نحو 5,200 جندي في جيش الإنقاذ، موزَّعين على وحدات حراسة أنيطت بها مهمة الدفاع عن البلدات العربية وحمايتها، ووحدات هجومية، من بينها، وحدتان للدروز والشركس، الذين هم جنود مدرَّبون حقاً وذوو خلفية وتجربة في الخدمة العسكرية. يُضاف إلى هؤلاء، أيضاً، نحو 2,500 عنصر من مقاتلي الجهاد المقدس الفلسطيني، المنتشرين في القدس تحت قيادة عبد القادر، في السهل الساحلي تحت قيادة حسن سلامة، وفي مناطق جبال نابلس، الجليل والجنوب. القوات العربية بأكملها تعدّ، إذن، نحو 7,700 مقاتل، يمكن أن نضيف إليهم ونجنّد ما بين 5,000 و6,000 عنصر؛ أي أننا نستطيع أن نجند في فلسطين، بالمجمل، نحو 13 ألف جندي عربي، في أفضل الأحوال. واضح تماماً أنه من غير الممكن، ولو من الناحية العددية على الأقل، وضع هؤلاء مقابل المحاربين اليهود الـ 50 ألفاً.

مقولة "قليلون (العرب) مقابل كثيرين (اليهود)"، كانت مركّباً واحداً فقط من الصورة الشاملة، القاتمة، التي رسمها الجنرال صفوت. فإذا ما قارنّا بين مستوى المحاربين اليهود العسكري وكفاءتهم، تجهيزاتهم وتنظيمهم، فمن السهل عندئذ إدراك مدى الفجوة الهائلة بين قوات الطرفين. مقابل السلاح الشخصي، البنادق والبنادق الرشاشة (من طراز "سْتِن") والتجهيزات الحديثة والمتطورة التي يمتلكها اليهود، لا يمتلك العرب سوى كميات قليلة من الأسلحة القديمة: بنادق من مختلف الأنواع ـ فرنسية، بريطانية، كندية، ألمانية ونمسا ـ مجرية من القرن التاسع عشر. "بنادقنا جيدة كعكاكيز نتكئ عليها في مشينا"، يكتب صفوت. وكان هذا تقييمه أيضاً للرشاشات والراجمات، التي

قال إنها متوفرة لدى اليهود بوفرة، بينما لا يمتلك العرب منها سوى 14 راجمة و8 مدافع قديمة، فقط.

يواصل الجنرال صفوت فيقول إنه فحص ووجد أن لدى اليهود مئات المدرعات (وسائل نقل معززة بألواح من الفولاذ) المجنّدة في أي معركة، إضافة إلى جرارات مجنزرة رُكّبت عليها منصات إطلاق، تُستخدم كدبابات أيضاً. كما يمتلك اليهود سلاح جوّ قوامه 21 طائرة خفيفة، تُستخدم للاتصال، أساساً، ولإلقاء القنابل والمواد المتفجرة. "أما نحن، فلا نمتلك شيئاً من هذا كله، ولا نمتلك أي سلاح مضاد للدبابات، أيضاً"، يكتب بلهجة الشكوى.

يقارن صفوت، أيضاً، ما بين المستوى التقني الرفيع لدى اليهود والمستوى المتدني لدى الفلسطينيين. "يجب علينا نقل سيارة أو معدات أعطبت في ميدان القتال في فلسطين عبر طريق طويل إلى سورية، من أجل إصلاحها في الكراجات أو الورش في دمشق. ليس في هذا أي منطق قويم"، يؤكد.

كما يُفهم من تقارير إسماعيل صفوت، فإن المستقبل القريب قاتم جداً. عشرات آلاف الشباب اليهود جاهزون للتجند. كثيرون منهم موجودون في معسكرات في أوروبا وقبرص، معسكرات المهجَّرين ومعسكر المهاجرين الذين أبعدتهم بريطانيا إليها؛ ينتظرون، جميعاً، إيذاناً بالدخول إلى فلسطين والانضمام إلى المحاربين. ويصف صفوت، أيضاً، البلدات اليهودية المحصَّنة، المحاطة بالثكنات، بالأسيجة، بالألغام وبقنوات الاتصال، إضافة إلى ما في داخلها من خنادق وملاجئ. في المقابل، القرى العربية تفتقر إلى أي حماية ولا أمل لها، إطلاقاً، في الصمود في وجه هجمات بالمدرعات، بالراجمات وبالرشاشات اليهودية. "وضعها رهيب وستحل بها كارثة"، يلخص صفوت.

في جانب واحد فقط، الدافعية والمعنويات، يمتدح صفوت المقاتلين العرب، وخصوصاً "مقاتلي حرب العصابات" من الجهاد المقدس. فهو يصفهم بأنهم وطنيون عرب حقيقيون، يجعلهم إخلاصهم للوطن شجعاناً مقابل اليهود الذي يهابون الموت ومعنوياتهم متدنية، كما يقول. يمكن في هذه المقاطع من تقاريره، ملاحظة محاولته لموازنة الصورة السوداوية المتشائمة.

الصورة التي يرسمها الجنرال صفوت تلزمه بالإجابة على السؤال لماذا لا يستغل اليهود قوتهم وتفوقهم الكبير على "المتطوعين" و"مقاتلي حرب العصابات" لإلحاق هزيمة كاسحة ماحقة بالعرب؟ جوابه: "لا يزال اليهود يأملون في انتهاء القتال المحدود بتطبيق مشروع التقسيم إلى دولتين قبل أن يضطروا إلى ذلك. واليهود متخوفون، أيضاً، من احتمال تدخل بريطانيا ضدهم". بنظرة واقعية إلى الوضع، يقدّر صفوت أن اليهود يخشون هجوماً تشنه الجيوش العربية فور انتهاء الانتداب البريطاني في 15 أيار:

إنهم يستجمعون القوة ويحتفظون بها للمواجهة الكبيرة. وضعهم الآن [في نهاية آذار] ليس حرجاً، بعد، وهم غير مُجبَرين على تجنيد كل قدراتهم [...] استغل اليهود جزءاً فقط من قوتهم ولا زالوا يمسكون بزمام المبادرة بين أيديهم في الجزء الأكبر من مناطق البلاد [...] بينما نحن في حالة دفاعية، مع قوات معقولة في القدس، في حيفا وفي يافا [...] سنكون قادرين على الاستمرار على هذا النحو بصورة محدودة فقط؛ سنصبح ضعفاء حقاً وسنتيح لليهود الاحتفاظ بتفوقهم، لأن الدول العربية ـ ضمن أسباب أخرى ـ لن تساعدنا بأكثر مما تفعل الآن، لكن الأمر ليس فظيعاً إلى هذا الحد [...] كما أسلفت، قوتنا محدودة جداً، في السلاح، في الرجال، في العتاد وفي التنظيم وكل ما استطعنا القيام به حتى الآن هو إزعاج بعض البلدات اليهودية وإقلاق راحتها، لكننا لن نستطيع، بالوسائل المتاحة لنا، فعل ما هو أكثر من ذلك.

على هذه الخلفية، كان استنتاج الجنرال صفوت، القائد الأعلى للقوات العربية في فلسطين، واضحاً:

الطريقة الوحيدة لتحقيق نصر عسكري هي بواسطة تدخل الجيوش العربية النظامية. لدى هذه الجيوش تجهيزات وقدرات ووسائل لوجستية قادرة على تحقيق إنجازات [...] لكن المشكلة الآن هي أن الجيوش العربية لا تستطيع التحرك طالما بقي الانتداب البريطاني قائماً في فلسطين.

ثم يختتم تقريره بالجملة المهمة التالية: "مكمن الخطر هو في تردد الجيوش العربية وتحركها ببطء، ما يعني أننا سنخسر الصراع مع الوقت".

تتناقض توجهات وتقييمات الجنرال إسماعيل صفوت وشريكه الجنرال طه الهاشمي، وكذلك تقييمات رؤساء الجامعة العربية كما يبدو، تناقضاً تاماً وصارخاً، مع توجهات وتقييمات عبد القادر الحسيني، ثم وليّ أمره أيضا، المفتي الحاج أمين. من الصعب تحديد مدى تأثير أحدهما على الآخر وأيهما كان تأثيره أكبر وأعمق. عبد القادر، الذي وصل إلى دمشق في نهاية الأسبوع إياه الذي قدم فيه صفوت تقريره التلخيصي، كان يعتقد بأن وضع قواته في الميدان جيد جداً وبأنه يستطيع إخضاع البلدات والأحياء اليهودية المحاصَرة حول القدس، وبأنه إذا ما نجح في السيطرة على شارع شاعَر هجاي والقسطل، فإن الحظوظ كبيرة لإخضاع اليهود الـ 100 ألف في القدس. وإن هذه سقطت، فلن تقوم دولة يهودية. كان صفوت يعتبر هذه الأفكار هلوسات وأحلام يقظة لا رصيد لها في أرض الواقع. أصبح الصدام بين الرجلين حتمياً.

أيهما كان على حق؟ يبدو، بنظرة إلى الوراء، أن كليهما كان مخطئاً. أخطأ عبد القادر بأوهامه حول قدرته على الانتصار على اليهود ـ أوهام تولدت عنده في أعقاب النجاحات التي تحققت في أشهر الشتاء. لكن إسماعيل صفوت

لم يتوقع انهيار المتطوعين ومقاتلي العصابات المحتمل عقب معركة القسطل: عملية نحشون والاختراق نحو القدس، سقوط المدن المختلطة طبريا وصفد، ثم ـ الأهمّ ـ حيفا ويافا ـ المدن الفلسطينية الأكثر أهمية في فلسطين في عهد الانتداب. فقد حدث هذا كله قبل الموعد المهم من جانبه، 15 أيار. ولم يكن صحيحاً، أيضاً، تقديره بشأن قدرات الجيوش العربية ولا بشأن تعقيدات وتشابكات السياسات العربية الداخلية التي أدت، في نهاية المطاف، إلى كارثة الفلسطينيين، النكبة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان إسماعيل صفوت في المداولات التي جرت في دمشق في نهاية آذار 1948، طافحاً بالنقمة والاستياء تجاه الحاج أمين وعبد القادر: ليس فقط أنهما لا يفهمان أن لا أمل لهما، البتّة، وإنما يمارسان أيضاً سياسة قبلية هدّامة، تميز آل الحسيني تحديداً. وهو يكتب، في بعض تقاريره، بصورة مباشرة وفظة:

هنالك في فلسطين قوات لا اتصال بينها وبين القيادة المركزية [أي، مقر القيادة في دمشق]، إطلاقاً. قادة هذه القوات [أي، عبد القادر ورجاله] لا يعترفون بنا ولا يجرون أي اتصال معنا. تم تعيينهم من قبل حزب معين [حزب آل الحسيني] ويصرون على تلقي الأوامر من قيادتهم تلك فقط. يفرضون أنفسهم على الجمهور العربي، بالقوة، كي يذعن الناس لهم وينفذوا تعليماتهم. يحرضون ضد بعضهم البعض. أفادت المعلومات الأخيرة التي حصلنا عليها بأنه قد تم تزويد عدد من الفلسطينيين بالسلاح، ليس لمحاربة اليهود تحديداً، وإنما بغرض التغلب على خصوم فلسطينيين، أو بغرض حماية أنفسهم من عرب آخرين يحسبونهم أعداءً، وذلك في وقت الجميع فيه بحاجة ماسة جداً إلى الوحدة ورص الصفوف. بذلنا كل ما في وسعنا وأبدينا درجة عالية جداً من التسامح من أجل إنهاء هذا الوضع غير المحتمل، لكن جهودنا كلها باءت بالفشل. يزداد الوضع سوءاً وتفاقماً يوماً بعد يوم وسيؤدي إلى الأسوأ. موجات الشائعات المضرّة لنا قد تؤدي إلى تدخل أطراف معينة [ليس واضحاً لمن يلمح صفوت هنا] تدفع في اتجاه ما لا يمكن أن يعود بالفائدة إلا على اليهود فقط. نحن نأمل في التوصل إلى اتفاق قريب [مع الحاج أمين] كي تكون جميع وحدات مقاتلي الجهاد تحت قيادة وإمرة القيادة العامة ونؤمن بأن هذا ما سيحقق التضامن والوحدة.

في تقريره التلخيصي من يوم 23 آذار، أصبح صفوت ـ كما يبدو ـ يائساً من احتمال التوصل إلى اتفاق مع آل الحسيني، فيواصل شن هجوم حاد على عبد القادر والحاج أمين:

خلافاً للأوامر والتعليمات الصريحة والواضحة الصادرة عن لجنة فلسطين [اللجنة العسكرية لشؤون فلسطين، التي شكلتها جامعة الدول العربية]، والتي تقضي بإلزامية خضوع جميع القوات المقاتلة في فلسطين للقيادة العامة [أي؛ تحت قيادته هو]، يواصل رجال الحاج أمين القتال بشكل مستقل ونشر الفوضى في تحركاتهم الانفرادية، دون أي اعتبار للقيادة العامة.

يروي الجنرال صفوت أنه حاول التصالح مع المفتي وتهدئة روعه فيما يتعلق بنوايا القيادة العامة (تلميح لشبهات المفتي، المحقة كما يبدو، بأن الجامعة العربية والقيادة العامة تعملان بإيحاء من خصمه، الملك الأردني عبد الله)، ولذلك

قررنا تعيين عبد القادر قائداً لمنطقة القدس، دون الأخذ في الاعتبار أهليته وكفاءته العسكريتين. خوّلناه صلاحية تجنيد مئات المقاتلين الذين سنتكفل نحن بدفع أجورهم؛ كما وضعنا تحت تصرفه الحامية العسكرية المؤلفة من المتطوعين الذين تم إيفادهم إلى القدس، وهم 128 مقاتلاً نظامياً و250 مقاتلا محلياً [...] ورغم أن قائد هذه القوات يعتبر من خيرة القادة، ورغم أننا سبق وأبلغناه بأننا سنزوده بكل ما هو مطلوب ولازم ـ رغم هذا كله، لم يعترف عبد القادر بسلطة القيادة العامة وما زال يدعي بأنه هو القائد الأعلى.

يسوق الجنرال صفوت أمثلة إضافية أخرى، من مناطق أخرى في فلسطين، عن السلوكيات التي تبدو في نظره انقسامية، غرورة، مغامرة ومتهورة، من جانب المفتي وعبد القادر: "وصل إبراهيم الصغير إلى الناصرة برفقة 200 رجل وأعلن أن الحاج أمين عيّنه وأنه سيرغم الناس على الانصياع له [...] وجاء إلى قباطية [في منطقة جنين]، بطريقة مماثلة، الشيخ محمد أبو جنب، وإلى طولكرم أحمد نسيبة، على متن سيارة محملة بالأسلحة والذخائر [...] أنصار المفتي في نابلس ينشرون شائعات ضد جيش الإنقاذ".

يسوق الجنرال صفوت هذه النماذج وغيرها كي يبيّن "قليلاً من ممارسات" آل الحسيني الذين "يتصرفون كما يحلو لهم، دون أي اعتبار للقيادة العامة والقادة الذين عينتهم في المناطق المختلفة". وقد نقل تقريره هذا للجهة التي عينته؛ أي لجنة فلسطين في جامعة الدول العربية، برئاسة جميل مردم بِك، وسط تعبير عن الأمل في أن "تقدر لجنة فلسطين خطورة الوضع بصورة صحيحة وتعمل من أجل إصلاحه، وإلا فستصبح القيادة العامة أضحوكة في نظر الجميع".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

11

دمشق، بداية النهاية

في شتاء 1948، كانت أغلبية أعضاء القيادة الوطنية لعرب فلسطين خارج حدود البلاد. مئات عديدة من الشخصيات والنشطاء الذين كانوا متخوفين من الدخول إلى البلاد، سواء بسبب مذكّرات الاعتقال التي أصدرتها حكومة الانتداب بحقهم، أو بسبب شعورهم بدرجة أكبر من الأمن والراحة في الدول العربية المجاورة حيال المعارك المتواصلة الجارية في فلسطين، وكانوا يعتقدون بأن بمقدورهم مساندة المقاتلين في البلاد من خلال تجنيد الدعم لهم من الخارج.

تضافرت العوامل التي دفعت جامعة الدول العربية إلى أن تضطلع، بنفسها، بدور القيادة المفكَّكة لعرب فلسطين. أحد تلك العوامل هو فشل الثورة الكبرى في 1936 ـ ١٩٣٩، ووقوف المعسكر الوطني بقيادة المفتي الحاج أمين الحسيني إلى جانب ألمانيا المهزومة. برز على هذه الخلفية التأثير المتزايد لملك الأردن، عبد الله، الذي تحالف مع معارض المفتي ولعب دوراً مركزياً في سياسات الجامعة العربية. لم يبق أمام الحاج أمين ورجاله أعضاء اللجنة العربية العليا في فلسطين سوى التنقل بين القيادات والحكومات العربية ـ في القاهرة، دمشق، بيروت وفي عاليه، بلدة الاستجمام اللبنانية ـ في محاولة لتحقيق بعض التأثير على مجريات الأحداث.

كان المفتي وأعضاء اللجنة العربية العليا يطمحون إلى أن يشكلوا، بأنفسهم، الحكومة العربية التي ستأخذ زمام السلطة على كل مناطق فلسطين، وعلى هذه الخلفية اتخذوا قرارات تخص إدارة المعركة في البلاد. هذه القرارات، في شتاء 1948، كانت تبدو، في لحظتها، مقطوعة عن الواقع تماماً. فقد أعلنوا، على سبيل المثال، تعبئة عامة في فلسطين تشمل تجنيد جميع الذكور في سن 18 ـ 60 سنة. كل من حال أي سبب دون مثوله وانصياعه للقرار، غُرّم بدفع "كفارة تجنيد" بمبلغ 50 ليرة لخزينة الحكومة المركزية، التي كان من المفترض أن تستخدم هذه الأموال، بدورها، لاقتناء السلاح، للتدريبات ولتحصين الأحياء والبلدات الواقعة على حدود التجمعات اليهودية. لم ينظر أحد بعين الجدية لتلك القرارات وغيرها، في أي من مناطق البلاد ومحافظاتها بالتأكيد، ولكن حتى في القدس نفسها أيضاً، حيث اشتكى عبد القادر ورجاله، غير مرة، من رفض أثرياء المدينة تقديم التبرعات لهم. كانت ظاهرة رفض التبرع للكفاح الوطني هذه معروفة منذ سنوات سابقة، بل منذ الثورة الكبرى في الثلاثينات.

في الواقع، أقيمت في كانون الأول 1947 لجان وطنية في جميع المدن العربية، إلا أن طموح المفتي الحاج أمين إلى سيطرة حكومة مركزية على جميع أجزاء البلاد تجسد، في نهاية المطاف، في إدارة المعركة في منطقة القدس وحدها، فقط. كلما ابتعدت عن القدس، تضاءلت وتراجعت قوة اللجنة العربية العليا وتأثيرها. حاول المفتي تنظيم أتباعه في المحافظات المختلفة، في الجنوب، في السهل الساحلي، في جبال نابلس وفي الجليل، لكن الفشل كان حليفه في معظم الحالات. فقد فضّلت اللجان الوطنية والشخصيات الفاعلة محلياً تعليق آمالها على الجامعة العربية التي تمثل جميع الدول العربية، ثم الاعتماد عليها: فهي التي تمتلك المال، القوة والإمكانات المختلفة المتوفرة لدى حكومات ودول سيادية، ولو ظاهرياً على الأقل.

في ظل غياب التنسيق فيما بينها، شرعت اللجان الوطنية والشخصيات العامة من جميع مناطق البلاد في إيفاد مندوبين عنها إلى الزعماء العرب لطلب المساعدة. الحاج محمد نمر الخطيب من حيفا، على سبيل المثال، روى أن عرب حيفا أيقنوا، ابتداء من كانون الثاني، أن وضعهم في غاية الخطورة. صحيح أن جنود الفيلق الأردني، التابع للملك عبد الله، كانوا متواجدين في المدينة؛ غير أن الجنود والضباط العرب جميعاً كانوا تحت مظلة القيادة البريطانية وكان من المحظور عليهم، ظاهرياً، التدخل في المواجهات، إلا أنهم كانوا يقدمون المساعدة لعرب المدينة، خلسة، وكانوا يتعرّضون لليهود بالأذى، إلى أن أخرجهم قادتهم من المدينة. على هذه الخلفية، أوفِد الخطيب إلى دمشق لطلب المساعدة. تمت الاستجابة لطلبه هناك، لكنه يكتب في نهاية الأمر:

كان ثمة اعتقاد في الجامعة العربية بأن رجالها سيستطيعون حل المشكلة في فلسطين، بالتصريحات والتهديدات؛ لم تكن اللجنة المسماة "اللجنة العسكرية" في دمشق تعرف شيئاً عما يجري لدى اليهود، وكانت تعتقد بإن في الإمكان الصمود في وجههم ببنادق قديمة، مهترئة ومعطوبة، وبذخائر فاسدة، شملت أيضاً تجهيزات لا تزيد جودتها عن تلك التي جمعناها نحن في صحارى ليبيا، ممَّ تبقى هناك من أيام الحرب العالمية الثانية.

في ما يتعلق بعدم معرفة اللجنة العسكرية بأي شيء مما يدور لدى اليهود، يبدو أن الحاج نمر الخطيب كان مخطئاً هنا. فالتقارير التي أعدها الجنرال إسماعيل صفوت تدل على اطلاع وفهم واسعين لما يجري في الجانب اليهودي. وعلى أي حال، أصيب الحاج نمر الخطيب بالقرب من كريات موتسكين، في طريق عودته إلى حيفا، فنُقل إلى مستشفى في بيروت لتلقي العلاج ولم يعُد إلى حيفا، أبداً.

خرجت من يافا، أيضاً، وفود إلى العواصم العربية حاملة طلبات للمساعدة. دارت حول هذه السفرات ـ مثل سفر رئيس البلدية، د. يوسف هيكل، الذي غادر يافا إلى عمّان لطلب المساعدة، لكنه لم يعُد ـ نقاشات واسعة وعميقة بين الجمهور والباحثين الفلسطينيين. هل هرب رئيس البلدية؟ هل تخلى عن سكان مدينته وخانهم؟ ربما لم يكن لديه خيار آخر؟

يحكي الحاج نمر الخطيب، أيضاً، عن عضو اللجنة الوطنية من عكا، حسني خليفة، الذي غادر إلى لبنان، فور بدء المعارك، لطلب المساعدة، فبقي هناك شهراً كاملاً ثم عاد خالي الوفاض. بعد ذلك بوقت قصير، هرب إلى لبنان أيضاً أحمد عبدو، من بلدية عكا، ومقربون له. وانطلق وفد من اللجنة الوطنية في عكا إلى قرية المالكية على الحدود اللبنانية لطلب المساعدة من قائد جيش الإنقاذ الذي كان متواجداً هناك (أديب الشيشكلي، كما يبدو). "رفض طلبهم [...] ولم يعد أعضاء الوفد أنفسهم إلى عكا، بل فضلوا الهجرة إلى لبنان". وهكذا، فإن الصورة المرتسمة في أشهر شتاء وربيع العام 1948 هي تلك التي يغادر فيها مئات أعضاء اللجان الوطنية، الشخصيات الجماهيرية، المخاتير، رؤساء العائلات والنشطاء والوجهاء، من مختلف أنحاء البلاد، متوجهين إلى العواصم العربية متوسلين المساعدات.

صورة مشابهة لهذه يرسمها رجال عبد القادر الحسيني عما حصل في تلك الأيام بالقرب من مقر قيادة الجهاد المقدس في بلدة بيرزيت. فمن وجد صعوبة في التوجه من القدس إلى أماكن بعيدة، مثل القاهرة، دمشق أو بيروت، اختار التوجه إلى بيرزيت القريبة. رجال من مختلف القرى والبلدات في محافظات القدس، الخليل، بيت لحم ورام الله، تدفقوا بالمئات على مكتب عبد القادر طالبين المساعدة: بالمال والسلاح والعتاد والمقاتلين. وقف الرجال هناك أياماً كاملة، في الليالي أحياناً، في ذلك البرد القارس، متمنين المساعدة. كان معظمهم من القرويين، البسطاء والفقراء. كانوا يشعرون بالعجز وقلة الحيلة. وكان عبد القادر يعلم، يقيناً، أنه لا يستطيع تقديم المساعدة لهم جميعاً. وضع حراساً عند مدخل البناية حيث مقر القيادة وعلى الدرجات الصاعدة إلى مكتبه في الطابق الثاني، لسدّ الطريق أمام حشود الوافدين طلباً للمساعدة.

ماذا حصل مع أولئك الذين توجهوا إلى الزعماء الفلسطينيين المهاجرين في القاهرة ودمشق وإلى اللجنة العسكرية؟ انتظروا ساعات طويلة جداً في غرف وقاعات الانتظار في مكاتب الحاج أمين، أو عند مداخل الفنادق ـ في القاهرة، دمشق وعاليه ـ حيث كان الزعماء ينزلون ضيوفاً أو حيث كانت تعقد لقاءات واجتماعات. عادت غالبية المتوجهين بخفي حنين، أو بمساعدات هزيلة بائسة. على سبيل المثال، عاد وفد بلدة الطيرة الواقعة إلى الجنوب

من مدينة حيفا (طيرة الكرمل، اليوم) من دمشق في كانون الثاني 1948 وهو يحمل مائة بندقية فرنسية من طراز قديم وغير صالح للاستعمال. بعد ذلك، نظموا في البلدة حملة تبرعات، ثم انطلق وفد منها إلى القاهرة. كان من أعضاء الوفد من عاد بمبالغ من المال ووعود بإرسال متطوعين من جيش الإنقاذ، غير أن كثيرين، بل كثيرين جداً ربما، أصيبوا بالإحباط وقرروا عدم العودة إلى البلاد. ومع مرور الوقت، انضم إليهم أبناء عائلاتهم وخرجوا إلى الشتات، معاً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

توجه عبد القادر في ذلك الشتاء أيضاً إلى القاهرة ودمشق، مرتين، لطلب المساعدة. كتب قبل سفرته الأخيرة، الدراماتيكية، إلى دمشق في نهاية شهر آذار، بعض المذكرات إلى الحاج أمين وسكرتارية اللجنة العربية العليا، وإلى اللجنة العسكرية التابعة للجامعة العربية، في دمشق، أيضاً. أرفق بتلك المذكرات خرائط بيّنت مواقع تجمعات المحاربين اليهود، وتضمنت تقديرات بشأن كميات وأنواع السلاح والعتاد العسكري التي استطاع اليهود الاستيلاء عليها من معسكرات الجيش البريطاني في وادي الصَّرّار (ناحل سوريك) وفي صرفند (تسريفين). كان يبدو أن عبد القادر قد أدرك أن اليهود عاقدون العزم على شن هجوم شامل. ربما يكون حسن سلامة، قائد منطقة وادي الخليل، الذي جاء إلى دمشق هو الآخر، هو الذي زوده بالمعلومات الاستخبارية عن التحضيرات لعملية نحشون. قبل سفره، تشاور عبد القادر مع كبار رجاله ـ إبراهيم أبو دية، عبد الحليم الجولاني، قاسم الريماوي وكامل عريقات ـ وأصدر إليهم تعليماته بتعزيز المواقع وانتظار الحصول على السلاح والعتاد الذي يعتزم جلبه من دمشق.

طبقاً لأحد المصادر، سمع عبد القادر لدى وصوله إلى دمشق أن لدى مكتب الشؤون الفلسطينية في بيروت مخزناً كبيراً مليئاً بالأسلحة والذخائر المعدة للقتال في فلسطين. غادر دمشق في الحال متوجهاً إلى لبنان، حيث وصل إلى مدير المكتب، الحاج حسين العويني. رفض المدير تسليمه أي شيء من الأسلحة أو الذخائر من المخزن، وأبلغه بأنه تلقى أمراً صريحاً من طه الهاشمي، المفتش العام على اللجنة العسكرية، بعدم تسليم أي شخص أي قطعة سلاح بدون موافقة اللجنة وإذن منها. ولهذا، عاد عبد القادر إلى دمشق لطلب المساعدات من اللجنة العسكرية التابعة لجامعة الدول العربية.

من شبه المؤكد أن عبد القادر كان الشخصية الأرفع من بين جميع الذين توجهوا إلى اللجنة العسكرية بطلب المساعدة. لكن التقارير العديدة عن تلك الرحلة تفيد بأن مزاجه في تلك المرة كان مختلفاً تماماً عما كان عليه مزاج الآخرين طالبي المساعدات. فبينما جاء جميعهم مثقلاً بالخوف واليأس، كان

عبد القادر مفعماً بالشعور بالقدرة على تحقيق الانتصار، شريطة الحصول على التجهيزات، الأسلحة، الخفيفة والثقيلة، والأموال لتلبية احتياجات الجهاد المقدس. كان شعوره هذا مناقضاً تماماً للتقديرات المتشائمة التي وضعها قادة اللجنة العسكرية.

وقعت في دمشق، على هذه الخلفية، خلال الأيام القليلة من نهاية آذار وبداية نيسان 1948، أحداث قاسية ـ كادت تتدهور إلى العنف ـ بين عبد القادر ورؤساء اللجنة العسكرية. وكان لتلك الحوادث آثار بالغة على مكانة عبد القادر ومزاجه لدى مغادرته دمشق عائداً إلى القدس. كانت الأنباء التي وصلت إلى دمشق يوميّ 3 و4 نيسان أحد الأسباب المهمة لمزاجه المتكدر: اليهود احتلوا قرية القسطل. كانت تلك الأيام الأولى من عملية نحشون، الأيام التي جرى خلالها، بعد احتلال القسطل مباشرة، احتلال القرى الأولى في منطقة وادي الخليل، وفي مقدمتها قريتا خُلدة ودير محيسن، على جانب الطريق صعوداً إلى القدس.

وصل عبد القادر إلى دمشق في الوقت الذي كانت تُعقد فيه سلسلة من الجلسات واللقاءات الخاصة بلجنة الشؤون الفلسطينية، السياسية والعسكرية، بمشاركة الشخصيات البارزة في الجامعة العربية: عبد الرحمن عزام باشا، أمين عام الجامعة العربية، جميل مردم بِك، رئيس الحكومة السورية ورئيس اللجنتين، رياض الصلح من لبنان، ورؤساء المجلس العربي الأعلى للفلسطينيين، بقيادة الحاج أمين الحسيني. كان هناك اثنان من مقربيه، إسحاق درويش وإميل الغوري، إضافة إلى عدد من القادة العسكريين أبناء عائلة الحسيني، عبد الله العمري من بيت صفافا، صبحي أبو غربية من القدس، حسن سلامة قائد المنطقة الوسطى، وكذلك رئيس مديرية الجهاد المقدس، قاسم الريماوي (الذي تشكل يومياته المدونة المصدر الأساس للمعلومات عمّا حصل هناك). كما رافق الحاج أمين، أيضاً، مسؤولو مكتبه ومساعدوه، ومن بينهم مستشاره العسكري، ذو الكفل عبد اللطيف.

كان في مركز تلك اللقاءات الضباط الأرفع من اللجنة العسكرية، وعلى رأسهم طه الهاشمي، الذي كان يشغل آنذاك أيضاً، كما رأينا من قبل، منصب رئيس الحكومة العراقية لفترة قصيرة، قبل أن يعزله ضباط رشيد عالي الكيلاني في العام 1941. وكما ذكرنا آنفاً، فقد شارك في الثورة وفي عزل الهاشمي نشطاء فلسطينيون أيضاً، في مقدمتهم الحاج أمين، عبد القادر ورجالهما. والآن، أصبح الهاشمي الشخصية المركزية في عمل اللجنة العسكرية، إثر تعيينه مفتشاً عاماً عليها.

أما إسماعيل صفوت، فقد التقاه عبد القادر في القاهرة قبل ذلك ببضعة أسابيع، في أواخر شباط، حين وصل إلى هناك لتقديم تقرير إلى المفتي الحاج أمين والمجلس العربي الأعلى عن مجريات الأحداث في البلاد عامة، وفي القدس خاصة. عاد عبد القادر وكرر على سمع صفوت في القاهرة ما قاله من قبل لشخصيات مختلفة في مصر. تحدث، بصورة أساسية، عن نجاحاته وإنجازاته في المعركة. "اليهود لا يصدقون أننا نردّ ونهاجمهم بصورة منظمة وشجاعة"، قال. ثم وصف، بإسهاب، قصة النجاح الكبير في معركة صوريف وحجم الغنائم التي استولوا عليها، من الأسلحة والذخائر. ولكن، أضاف موضحاً لصفوت، لا يمكن لهذا كله أن يسد النقص، "لأن الإنكليز يقدمون لليهود أسلحة وذخائر بالمجان، بينما نحن لا نملك المال حتى لشراء السلاح".

يبدو أن لقاء عبد القادر مع إسماعيل صفوت في القاهرة كان لقاء ودياً. اتفقا على خطط القتال التي عرضها عبد القادر، مؤكداً أن قدراته محدودة بسبب النقص في السلاح والذخائر. تباهى عبد القادر في القاهرة آنذاك بأن جنوده يحملون السلاح ومدرَّبون، من الأفضل في العالم، لأنهم اكتسبوا خبرة في الحرب ضد البريطانيين خلال الثورة الكبرى، قبل ذلك بعشر سنوات. وبالفعل، كان جميع أعضاء المجموعة المقلصة من القادة والمقاتلين المحيطة بعبد القادر مؤلفة من قدامى الثورة الكبرى.

تبين لعبد القادر، في المكتب الفلسطيني في بيروت، أن طه الهاشمي هو الرجل الذي يحول دون إمداد الجهاد المقدس بالسلاح والعتاد فطلب لقاءه. لكن طه الهاشمي، الذي لم تخب نار العدائية والكراهية بينه وبين عبد القادر خلال السنوات السبع التي مرت منذ ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق، رفض اللقاء به. طبع عبد القادر العاصف دفعه إلى اقتحام مكتب الهاشمي في بناية وزارة الدفاع السورية، من دون إذن وبدرجة عالية من الغضب الشديد. طالبه بتوفير السلاح والعتاد والمال منبهاً إلى أن رجاله قد تركوا حقولهم وأعمالهم ولم يحصلوا على أي أجر منذ ثلاثة أشهر.

"ليس لدينا سلاح نقدمه لكم"، قال الهاشمي. فردّ عبد القادر قائلاً: "أعرف أنه لديكم سلاح كثير في دمشق وفي المخازن في بيروت".

قال الهاشمي خلال المحادثة التي جرت بأصوات مرتفعة، بل بالصراخ كما يبدو، إن السلاح في المخازن مُخصَّص لجيش الإنقاذ، للقاوقجي. فردّ عبد القادر: "لكن نحن شعب البلاد، أبناء فلسطين، ولا بد أنك سمعت عن نجاحاتنا وبطولاتنا!". لكن الهاشمي قاطعه: "لكنكم لا تجيدون تشغيل السلاح الثقيل" ـ ادعاء كان صحيحاً إلى حد بعيد وانعكس في تقارير اللجنة العسكرية: فقد اعتبرت هذه رجال عبد القادر مقاتلي حرب عصابات قرويين، يفتقرون إلى

المهارات العسكرية الاحترافية، يتدفقون إلى المعارك استجابة لنداءات الاستغاثة (الفَزعة)؛ بينما كان المتطوعون، جنود القاوقجي، في نظرها، جيشاً بامتياز، يقوده ضباط محترفون.

كعادته، لم يبق عبد القادر مديناً فصرخ في وجه الهاشمي: "ماذا نستفيد من مدافع جيش الإنقاذ المنصوبة على مسافة 30 كيلومتراً عن ميادين القتال مع العدو والتي يلعب الأولاد بها كأنما هي دمى في متحف".

استشاط الهاشمي غضباً من كلام عبد القادر وأسلوبه فراح يهدده: "أتجرؤ على الطعن بجيش الإنقاذ وباللجنة العسكرية؟ سنتخذ ضدك الإجراءات اللازمة!".

"صحيح"، ردّ عبد القادر، "أنا أطعن بجيش الإنقاذ الذي تصرفون عليه مبالغ طائلة، تجهزونه بشتى أنواع السلاح، الثقيل والخفيف، وتزودونه بالملابس والرواتب والغذاء، وكل ما يتبقى له هو الدخول إلى القرى، التدخل في الشؤون الداخلية، مهاجمة الناس، الاعتداء عليهم ومضايقتهم".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تعبر كلمات عبد القادر تلك عن فحوى تقارير عديدة وشكاوى كثيرة عن جنود جيش الإنقاذ. التأريخ الفلسطيني غني بادعاءات من هذا القبيل، في إطار البحث عن المسؤولين عن النكبة، أيضاً. روى سكان يافا، على سبيل المثال، عن الضابط العراقي عادل نجم الدين، الذي قدِم إلى يافا يوم 18 شباط بصحبة 100 من جنود جيش الإنقاذ، إثر قرار اللجنة تعيينه قائداً لمنطقة يافا. ويكتب الخطيب، في مذكراته:

تكشفت، سريعاً جداً، حقيقة عجزه وعدم جدواه. لم يخطط لحماية المدينة والدفاع عنها، بل لم يكلف نفسه حتى عناء زيارة المواقع لتفقدها [...] قام جنوده، الذين تمركزوا في تل الريش [على حدود مدينة حولون، اليوم] بنزع سلاح المقاتلين المحليين، ثم غادروا مواقعهم متوجهين إلى أماكن أخرى، إلى وادي الصرار [محطة القطار في وادي الصرار] ومن هناك إلى طولكرم [...] شخصية هذا القائد البائسة زعزعت معنويات المدافعين عن يافا، ما دفعهم إلى مغادرة مواقعهم والانتشار في شوارع المدينة للهو والتسلية في بيوت الدعارة والملاهي.

أفاد التقرير الذي وضعه إسماعيل صفوت، ونُشر في بغداد بعد سنة واحدة، بأن المحكمة العسكرية في لواء اليرموك حكمت على ضابط ورقيب من وحدة عادل نجم الدين بالسجن الفعلي مدة ثلاث سنوات بعد إدانتهما بالتنكيل بسكان يافا وبيع السلاح. وقد روى السكان في يافا وغيرها عن متطوعي جيش الإنقاذ الذين يتعاملون مع السكان تعامل المحتَلين مع الخاضعين

للاحتلال، "يجمعون الأسلحة ويبيعونها، يفرضون الغرامات على السكان، يُصادرون السيارات ويبيعونها [...] حتى وصل الوضع إلى درجة خوف الناس ممن جاء، في الظاهر، لحمايتهم ونجدتهم، أكثر من خوفهم من العدو اليهودي".

تم نشر جنود جيش القاوقجي في منطقتي جبال نابلس ومنطقة وادي الخليل في وحدات ضمت عشرات الجنود. وكانت تُرسَل فرق بعدد قليل من الجنود إلى القرى، في بعض الأحيان فقط. أصبح هؤلاء الجنود عبئاً على السكان، في معظم الأماكن والحالات: كانوا يقولون إن رواتبهم المدفوعة من دمشق لا تكفي ولا تُدفع في الوقت المحدد، كانوا يضايقون اللجان الوطنية ويضيّقون عليها وكانوا يأتون بطلبات لا تتوقف ولا تنتهي. "هؤلاء الجنود يتصرفون مثل العصابات وليس مثل جيش منظم [...] إنهم يطلقون النار دون أي سبب أو مبرر، من دون أي خطة، ولا يجيدون استخدام الأسلحة التي في حوزتهم".

أرسل قنصل مصر في فلسطين، أحمد فرج طايع، هو الآخر، مذكّرة إلى حكومته يشرح فيها ممارسات جيش الإنقاذ في محافظات نابلس، طولكرم وجنين. وذكر أن جنود جيش الإنقاذ يتركون مواقعهم، "يستولون على كل ما تطاله أيديهم، يسرقون السيارات، حتى أن الشكاوى ضدهم قد وصلت إلى القاوقجي ذاته". أمر لا يُصدَّق، كتب القنصل، لكن أحد ضباط جيش الإنقاذ ضُبط وهو يبيع السلاح في أسواق بيروت.

كان عبد القادر مطلعاً، بالطبع، على الشكاوى العديدة ضد متطوعي جيش الإنقاذ، لا سيما أن كثيراً منها قد وصل إليه هو وإلى الحاج أمين، بصورة متعمدة؛ إذ كان النشطاء الفلسطينيون واعين، دون شك، للعداوة السائدة بينهما وبين القاوقجي. ربما تكون قد وصلت إلى عبد القادر والمفتي، أيضاً، أنباء عن الاتصالات التي جرت في تلك الأيام بين القاوقجي وقادة من الهاغاناه، الأمر الذي زاد من غضبهما وحدته، أكثر فأكثر. وبالفعل، فطبقاً لتقارير رجل الاستخبارات في الهاغناه، يهوشواع (جوش) بلمون، قال القاوقجي لبلمون، خلال لقاء جرى بينهما في قرية نور شمس، قرب طولكرم: "لا يهمني أن يحارب رجالُكم عبد القادر [...] بل أتمنى أن تحاربوه وتلقنوه درساً جيداً، فلا يستطيع عندئذ طلب أي مساعدة مني". كان القاوقجي يقيم، في تلك الأيام، علاقات وثيقة مع الحاكمين الهاشميين في العراق وشرق الأردن. كان الملك عبد الله والقاوقجي يعتقدان بأن المفتي وآل الحسيني عموماً يعملون ضد مصالح شعبهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يمكن -على هذه الخلفية - فهم فورة الغضب التي تملكت عبد القادر ضد طه الهاشمي. فطبقاً للتقارير الفلسطينية الكثيرة التي وردت عن تلك الحوادث

في دمشق، صرخ عبد القادر في وجه الهاشمي: "حتى حين شارك هؤلاء المتطوعون في المعارك، كان الفشل حليفهم دائماً [...]، مقارنة بأبناء فلسطين الأطهار الذين تحاول أنت إنكار بطولاتهم وانتصاراتهم".

وحين تعالى الصراخ بينهما، خاطب عبد القادر طه الهاشمي قائلاً: "لا تهددني، بل قم بواجبك ونفذ المطلوب منك فقط. لم آت إليك لأتوسل الصدقات، وإنما لأطالب بما أستحقه، بحقي في الحصول على السلاح. وإن كنت تريد إنقاذ فلسطين، بحق وحقيق، فعليك أن تفتح لي مخازن الأسلحة وأن تمدّنا بالإمكانيات قد نتمكن نحن ـ لا أنتم ـ من تحرير فلسطين، بقوّتنا وبدمائنا".

يروي قاسم الريماوي إن طه الهاشمي كان يرتجف من شدة الغضب، وخصوصاً بعد أن ألقى عبد القادر بحقيبة المستندات التي كان يحملها على الطاولة بقوة، باتجاه الهاشمي، وهو يقول: "أنتم تخونون فلسطين، أنتم تريدون القضاء علينا".

كان الادعاء الموضوعي الأساسي على لسان الهاشمي أنه لا حاجة للتعامل مع سقوط القسطل وكأنه مسألة كبيرة. حتى أنه قال لعبد القادر، في معرض الجدال والصراخ بينهما: "على الرغم من أهمية القدس، إلا أن هذه ليست نقطة إستراتيجية ذات أهمية عليا".

تنسجم أقوال الهاشمي هذه مع الأجوبة التي قدمها إسماعيل صفوت، قائد المعارك في فلسطين، لجميع المبعوثين الفلسطينيين الذين توجهوا إليه. كان الهاشمي وصفوت يؤمنان بأن وحدات الفلسطينيين العسكرية المحلية، وقوات جيش الإنقاذ أيضاً بصورة شبه مؤكدة، غير قادرة على مواجهة اليهود، الأمر الذي يستدعي التحلي بالصبر والانتظار حتى يوم 15 أيار ـ الموعد المتوقع لدخول الجيوش العربية ساحة القتال وإخضاع اليهود، بسهولة.

رفض الهاشمي وصفوت مطالب الحاج أمين وأعضاء اللجنة العربية العليا، وكذلك مطالب عبد القادر. كان ردهما على كل من توجه إليهما، بالصيغة ذاتها تقريباً: نحن نعلم ما يجري في الميدان، أكثر منكم، لا تبالغوا بقدرات رجالكم على القتال، "وحتى لو احتل اليهود القدس، حيفا ويافا، فسنعود ونحتلها منهم ثانية" يكتب عيسى خليل محسن. وهذا ما يرد في مذكرات الحاج أمين أيضاً.

سُمع الصراخ من مكتب طه الهاشمي جيداً، كما يبدو، في أروقة وزارة الدفاع، فدخل إلى الغرفة عضو اللجنة العسكرية، الجنرال السوري محمود الهندي، الذي كانت غرفته ملاصقة. توجه إلى عبد القادر وأخرجه من الغرفة مصطحباً إياه إلى مكتبه. حاول الهندي تهدئة عبد القادر الذي عاد وكرر ما قاله لطه الهاشمي: "أنتم تحكون لنا كل الوقت عن القدرات الكبيرة التي

يمتلكها اليهود، بينما نحن نقول لكم: أعطونا جزءاً قليلاً فقط من الأسلحة والتجهيزات التي أعطيتموها للقاوقجي".

يروي قاسم الريماوي أنه رافق عبد القادر حين عاد من وزارة الدفاع إلى فندق بيت الشرق (أورينت هاوس)، حيث كان يقيم المفتي الحاج أمين ومعظم المبعوثين الكبار الذين شاركوا في المداولات حول فلسطين. في الطريق، انتبها إلى أن رجال الشرطة السرية السورية يلاحقونهما. أخبرهما رجال الشرطة بأنهم موكلون بحمايتهما، لكن الاعتقاد الذي ساد بين رجال عبد القادر كان أن الشرطة السرية السورية متخوفة من احتمال إقدام الفلسطينيين على محاولة المس بأحد خصومهم من بين المندوبين العرب، وربما بالقاوقجي نفسه أيضاً. علم القاوقجي بهذا الكلام فأرسل تحذيرات إلى عبد القادر، الذي ردّ بالقول إن لديه سلم أولويات مختلفاً تماماً وإن ما يهمه ويشغل باله الآن، كلياً، هو الحرب ضد العدو وإنه مستعد، حتى، لتوجيه أمنيات النجاح للقاوقجي في حربه هذه.

في اليوم التالي، التقى عبد القادر رئيس الحكومة اللبنانية، رياض الصلح، في إحدى زوايا الفندق، فسرد عليه شكاواه وادعاءاته وأخبره بما حصل في مكاتب وزارة الدفاع. وبينما هما يتبادلان الحديث، دخل طه الهاشمي إلى القاعة، فتوجه إليهما وشرع يحكي لرياض الصلح روايته هو عن الحادثة وكيف أن عبد القادر هاجمه في مكتبه. استشاط عبد القادر غضباً، نهض من مكانه وهو يقطع حديث الهاشمي، اقترب منه كأنما هو يستعد لضربه، فنهض رياض الصلح أيضاً عن كرسيه، وقف بينهما، أمسك بعد القادر وهدأ من روعه.

ذاع في الأثناء نبأ فورة غضب عبد القادر على طه الهاشمي في مكتبه بين المشاركين في المداولات، وفي مقدمتهم عبد الرحمن عزام باشا، أمين عام جامعة الدول العربية، الذي كان يقيم في الفندق ذاته، فطلب من رياض الصلح أن يُحضر عبد القادر إليه.

يروي قاسم الريماوي في مذكراته أن عزام باشا استقبل عبد القادر عند مدخل غرفته، بحفاوة بالغة، فتح له ذراعيه، احتضنه بحرارة، وقال له: "أهلا وسهلاً بك، أيها البطل. ها قد علمنا الآن بانتصارك الكبير [معركة الدهيشة] على المجرمين الصهاينة. لقد رفعت أنت رأس العرب". تظاهر عبد القادر بالارتباك من هذا المديح وقال: "أنا أقوم بواجبي فقط [...] هذه بداية الطريق، بداية المعركة يا باشا، الوقت ينفد، واليهود يمتلكون أسلحة كثيرة، بما في ذلك المدافع والطائرات التي تلقي القذائف علينا، ونحن لا نستطيع الصمود بما نملك من سلاح شحيح".

عرض عبد القادر في المحادثة التي دارت بينهما، على مسامع الأمين العام للجامعة العربية تحليله للحرب في فلسطين وشكا من أن اللجنة العسكرية تمنع المساعدات عنه. كما عرض أمامه، بصورة تفصيلية، خطة العمل التي أعدها: ضرب الحصار على الأجزاء اليهودية من القدس وعلى البلدات اليهودية المحيطة بها، إلى أن يضطر يهود المدينة، البالغ عددهم 100 ألف إنسان، إلى الاستسلام والهرب. "لن يستطيع اليهود تحمل هزيمة كهذه"، أوضح عبد القادر. هكذا يُمنع قيام دولة يهودية.

كانت ضائقة اليهود في القدس معروفة آنذاك، واستناداً إلى التوثيقات العربية عن تلك الأيام، على الأقل، من الصعب القول إن عبد القادر كان يعيش في أوهام. أبدى عزام باشا تحمسه للخطة وقال لعبد القادر ـ كما ينقل الريماوي: "أنت سيد البطولة، سنلبي كل طلباتك، إن شاء الله". وبالفعل، أصدر عزام باشا تعليماته لعقد اجتماع عاجل للجنة العسكرية يُخصص لمنح عبد القادر فرصة أخرى لمحاولة إقناع أعضائها. "أنا شخصياً سأؤيدك. وها قد تلقيت الآن نبأ من صديق لي بأنه مستعد لتحويل 100 ألف جنيه لدعم فلسطين، سأخصص 40 ألفاً منها لك أنت"، قال الأمين العام. خرج عبد القادر من اللقاء مع عزام باشا وهو مفعم بالأمل. شيء من هذا الشعور بالفخر وبالثقة بالنفس انعكس في المقابلة التي أجرتها معه مجلة المصري، قبل ذلك بوقت قصير ونُشرت يوم 4 نيسان:

تسيطر قوات الجهاد المقدس على منطقة القدس بأكملها [...] نحن نسيطر على الطرقات وسبل المواصلات التي يستخدمها اليهود، من الشرق من اتجاه أريحا، ومن الجنوب في طريق بيت لحم [...] حُسم مصير اليهود الـ 100 ألف في القدس ولن يكون أفضل من مصير آلاف اليهود في تل أبيب. ذلك أن المعركة [في البلاد كلها] هي معركة واحدة [...] أنا، كقائد عسكري مسؤول عن سلامة سكان القدس العرب، ولا يهمني الآن ما يجري في الأمم المتحدة [...] سيستمر قتالنا ولن نسمح بإقامة دولة يهودية في فلسطين، ولا بحال من الأحوال.

التأمت اللجنة العسكرية في تلك الليلة ذاتها، بعد ساعات معدودة من اللقاء بين عبد القادر وعزام باشا، للاستماع إلى المندوبين الفلسطينيين. عُقد اللقاء في قاعدة القطنة العسكرية، حيث مقر قيادة جيش الإنقاذ وحيث تجري تدريبات المتطوعين. في هذا اللقاء، أيضاً، حدث تلاسن حاد بين عبد القادر وطه الهاشمي. غادر عبد القادر قاعة الاجتماع بحالة من الغضب الشديد وتوجه إلى مكتب الحاج أمين، وأبلغه بأنه إذا ما استمر الحال على هذا المنوال، فسيدرس إمكانية تقديم استقالته.

يمكن الاطلاع على ما جرى في ذلك اللقاء من تقرير أعده إسماعيل صفوت وضمّنه اتهامات حادة بحق المفتي الحاج أمين وعبد القادر. فقد ادعى، كما سبق وذكرنا، بأنه "خلافاً للتعليمات الصريحة والواضحة الصادرة عن لجنة فلسطين، والقاضية بإلزام جميع القوات المحاربة في فلسطين بالانصياع لقيادة وتعليمات القائد العام، يواصل رجال المفتي القتال بشكل مستقل وإشاعة الفوضى من خلال عملياتهم الانفرادية".

ثم يواصل صفوت ويوضح أن تعيين عبد القادر قائداً لمنطقة القدس كان بمثابة بادرة حسن نية من جانب القيادة العامة لتهدئة خاطره؛ أي أنهم قدموا معروفاً للمفتي. بل وأكثر من هذا: وضعت القيادة المشتركة تحت تصرف عبد القادر الأموال والمتطوعين، بينما يواصل هو، الناكر للجميل، التنكر للقيادة العامة، عدم الانصياع لها والادعاء بأنه هو القائد الأعلى. ويورد صفوت نماذج عن أعمال يقوم بها رجال الفتي في محافظات جبال نابلس، جنين وطولكرم تؤدي إلى عرقلة وتشويش عمليات جيش الإنقاذ، نشر الشائعات بحق المتطوعين وقادتهم والتشهير بهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

علم المشاركون في لقاءات دمشق، في الأثناء، بمزيد من التفاصيل حول احتلال القسطل وكونه احتلالاً حقيقياً، بمعنى استيلاء اليهود على القرية تماماً وبقائهم فيها، مقابل هروب سكانها جميعهم ـ وهي ظاهرة لم تحدث من قبل. وورد، أيضاً، أن الجيش البريطاني كان شاهداً على الهجوم اليهودي والاستيلاء على المنطقة، لكنه لم يتدخل. ويكتب قاسم الريماوي أن عبد القادر استشاط غضباً، خطا ذهاباً وإياباً في داخل الغرفة كأنه أسد حبيس قفص وتمتم بينه وبين نفسه: "لقد احتلوا القسطل، يا للعار، يا للعار".

كان يسكن في قرية القسطل آنذاك أقل من 300 إنسان، معظمهم هجر القرية قبل أن يتم احتلالها. وقت الهجوم اليهودي، كان في القسطل عدد قليل جداً من السكان المحليين. وربما كان فيها، أيضاً، عدد ضئيل من المقاتلين العرب، العراقيين والسوريين تحديداً، من إحدى وحدات جيش الإنقاذ. ويدعي عارف العارف بأن هذه كانت مجرد إشاعة جرى نفيها لاحقاً.

وحدة من "بلماح" هي التي قامت باحتلال القسطل، ابتداء من الساعة الثانية من فجر يوم السبت، الثالث من نيسان. استمر تبادل إطلاق النار في المكان وحوله سبعة أيام دون توقف، حتى حَسْم المعركة بصورة نهائية، يوم الجمعة 9 نيسان. بدأ المحتلون اليهود، على الفور، بتحصين الجبل، حفر القنوات والخنادق، مدّ سياجات الأسلاك وتخزين المواد المتفجرة. كان عبد القادر أول من أدرك، ربما، أن ما يجري، هذه المرة، ليس معركة عادية مع تبادل إطلاق النيران من دون احتلال منطقة مأهولة بالسكان، بل إن اليهود عازمون الآن

على البقاء في القرية والسيطرة عليها لفترة طويلة من الوقت، وهو ما لم يفعلوه من قبل. كانت جميع المعارك، حتى تلك اللحظة، تقتصر على توجيه الضربات وإنزال العقاب، أشبه بنشاط وحدات البارتيزان التي تضرب ثم تنسحب، من دون إسناد المهاجِمين بقوات خاصة تتولى حماية المنطقة التي تم احتلالها.

أصيب عبد القادر بغمة شديدة. فقبل أيام معدودة فقط، زار دمشق بمعنويات عالية ومزاج ممتاز، متباهياً بنجاح رجاله الأخير في معركة الدهيشة. والآن، ها هو يقف إزاء هذا الفشل الذريع، الذي يساعد خصومه، فوزي القاوقجي ومسؤولي اللجنة العسكرية، في الادعاء بأن رجال الجهاد المقدس ليسوا مقاتلين حقيقيين وأكفاء وبأنهم غير قادرين حتى على صيانة وحماية موقع مهم مثل القسطل.

لم تكن هذه، في منظور عبد القادر، هزيمة في معركة واحدة فقط احتل اليهود خلالها قرية صغيرة واحدة، بل جسدت خطر انهيار إستراتيجيته العسكرية برمتها، والتي وضعها لدى تخطيطه المعركة على القدس. أدرك أن كل خططه لهزم يهود القدس ودفعهم إلى الاستسلام بواسطة فرض الحصار الشامل على الأجزاء اليهودية منها وحرمان سكانها من مقومات الحياة الأساسية ـ الغذاء والماء، الوقود، الأدوية والإمدادات العسكرية بالطبع ـ توشك على الانهيار التام الآن، بعدما كانت تبدو له واقعية وقابلة للتنفيذ. في جنوب المدينة، شرقها وشمالها، كان العرب قد حققوا، حتى تلك اللحظة، نجاحات ملموسة في فصل وعزل البلدات اليهودية عنها: كيبوتسات غوش عتصيون الأربعة، كيبوتس بيت هعرابا، الحي اليهودي في البلدة القديمة وبلدتا عطاروت ونفيه يعقوب. إذا ما نجح العرب في إغلاق الشارع من باب الواد (شاعر هجاي) إلى القدس، فقط، فمعنى ذلك أن الحصار سيكتمل وسيُحسَم مصير القدس اليهودية.

نما إلى مسامع عبد القادر والقيادة العربية غير قليل من الأنباء عن الضائقة الحادة التي سببها الحصار، حقاً، في الأحياء اليهودية. لم تعد مياه الشرب تتدفق فيها بشكل منتظم، إذ كانت محطات الضخ تحت سيطرة عربية ومن حولها بؤر القتال. نُظم ضخ المياه من آبار التخزين المحفورة تحت البيوت القديمة، عادة، ثم توزيعها على السكان. وُزّع الغذاء وفق حصص مقررة وأخذت المخازن تفرغ. كان هنالك نقص خطير في الوقود والأدوية وهبطت المعنويات بصورة حادة جداً. سيؤدي الإبقاء على الحصار وتشديده إلى استسلام يهود القدس. وسيكون مثل هذا الاستسلام حاسماً في مصير الحرب على البلاد بأسرها.

تفيد التوثيقات العربية بأنه لم يكن لدى عبد القادر أي شك في أن احتلال القسطل يشكل خطراً على خطته برمتها، وليس على مصير القدس وحدها فقط. مصير فلسطين كلها مرهون الآن بنقطة واحدة، بقرية صغيرة واحدة، بقمة جبل القسطل. أصدر عبد القادر، وهو لا يزال في دمشق، أوامره إلى رجاله بالعودة واحتلال القسطل، فوراً. من الواضح أن هذا الأمر قد صدر على خلفية الضغوط التي كان يشعر بها إزاء تهكّم خصومه في دمشق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على خلفية الأنباء حول ما كان يجري في القسطل، وصل الممثلون الفلسطينيون بقيادة الحاج أمين وعبد القادر إلى لقاء أخير ضمن زيارتهم هذه إلى دمشق، تبين فيما بعد أنه كان لقاء حاسماً. عقد اللقاء في ساعات المساء المتأخرة من يوم الأحد الرابع من نيسان واستمر حتى ما بعد منتصف الليل، في قاعدة القادسية التابعة للجيش السوري. حضر اللقاء أعضاء اللجنة العسكرية التابعة للجامعة العربية، ثم انضم إليه لاحقاً الأمين العام لجامعة الدول العربية، عزام بشا، ورئيس الحكومة اللبنانية، رياض الصلح.

في بداية اللقاء، عاد عبد القادر ورسم أمام الحضور صورة الوضع في فلسطين عامة وفي القدس خاصة، وعرض ما جرى في القسطل. أعاد التذكير بأن جذر الاسم "قسطل" في اللغة الفرنسية يدل على أن المكان هو قلعة، حصن، وأن العرب ملزَمون بالسيطرة على هذا الحصن لكبح القوافل اليهودية التي تنقل الإمدادات لليهود في القدس. "خطتي تحقق النجاح"، قال. "ها قد بلغنا وضعاً يطلب فيه اليهود في القدس الآن هدنة وفي مقدورنا إدخال تعديلات على مشروع التقسيم [...] لكنكم تعلمون أنني لن أستطيع مهاجمة القدس واستعادة القسطل بالبنادق الإيطالية التي في حوزتنا وبالذخائر القديمة جداً التي أحضرناها من الصحراء في مصر [...] أعطوني مدافع وسوف أتمكن من هزم اليهود في القدس وضواحيها حتى يوم 15 أيار".

إسماعيل صفوت، الذي كان يتعامل مع عبد القادر بأدب، عادةً، وجّه له سؤالاً استفزازياً: "أليس من الأجدر الطلب من القاوقجي مهاجمة الحصن وإعادته إلى أيدي العرب؟"، ثم زاد طه الهاشمي الذي خاطب عبد القادر بفظاظة، حسبما نقل قاسم الريماوي، قائلاً: "ما تجيدون فعله، أنتم الفلسطينيين، هو طلب المزيد والمزيد من السلاح فقط [...] لكن السلاح لا يهطل من السماء".

تدخل عبد القادر مقاطعاً إياه: "ما معنى تطلبون السلاح؟ نحن ندافع عن فلسطين وعن البلاد العربية [...] السلاح من أجل فلسطين!".

رفع طه الهاشمي يده اليسرى وأعلن، ساخراً: "ها هي الدبابات"، ثم رفع يده اليمنى وقال: "وها هي المدافع. أيها تختار؟ وكم من المال؟ أريد أن أفهم ما

الذي يحدث".

عبد القادر: "ما هذا الهراء؟ لماذا تستهتر بالنضال من أجل الوطن؟ عمّ نتحدث هنا؟ عن بنادق، عن 120 رشاشاً جمعها الأشقاء اللبنانيون لتقديمها لحسن سلامة [...] ثمة لدى لجنتكم مخازن مليئة بالسلاح. رأيت هذا بأمي عينيّ".

تصاعدت حدة اللهجة في الجلسة وساد توتر شديد. طه الهاشمي: "صحيح. السلاح الذي رأيتَه في المخازن هو السلاح الذي نجهّزه لنضعه قريباً بين أيدي الأفواج الجديدة من جيش الإنقاذ".

توجه عبد القادر إلى أحد المشاركين في اللقاء، أحمد الشرباتي، طالباً منه التدخل. لكن الشرباتي لم يحرك ساكناً. عبد القادر: "حسناً. لا تعطوني السلاح. لكن بإمكانكم أن تطلبوا من القاوقجي أن يرسل لنا بطارية مدفعية لدعم المجاهدين".

قال الهاشمي للحضور، بتهكم واضح، مرة أخرى: "إذا ما أرسلنا المَدافع إلى عبد القادر، فإن ما سيحصل هو أن يتغلب اليهود على المجاهدين ويأخذوا المدافع منهم".

استمر تبادل اللسعات والإهانات حتى قال الهاشمي، بلهجة عراقية شعبية: "كفى، كفى، ماكو (لا) مدافع، ماكو مصاري (أموال)، ماكو سلاح".

خرج عبد القادر عن طوره من شدة الغضب وقال:

سيحاكمكم التاريخ لأنكم تتخلون عن فلسطين، أنتم وكل من يقف وراءكم. هل ستدافع المدافع عن بيوت جبع، بعيداً عن ساحة القتال؟ [كان مقر قيادة القاوقجي في قرية جبع، إلى الجنوب من جنين]. إنني أحمّلكم المسؤولية [...] سأحتلّ القسطل وأموت. أنا وجميع المقاتلين معي؛ وسيسجل التاريخ [...] أنتم مجرمون، خونة، تخليتم عن البلاد.

ثم نهض من مكانه، أشار إلى خارطة فلسطين الكبيرة التي كانت معلقة على الحائط وقال: "لسنا في حاجة إليكم بعد الآن". غادر الغرفة وصفق الباب خلفه بقوة.

في الخارج، كان في انتظاره عدد من رفاقه. قال لهم عبد القادر: "يمكننا الانتحار هنا في دمشق، جماعياً [كخطوة احتجاجية]. يمكننا الذهاب إلى العراق للهو والتسلية، أو العودة إلى فلسطين كي نموت من أجلها [...]. سنعود إلى فلسطين".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في اليوم التالي، يوم الإثنين الخامس من نيسان، اجتمع جميع القادة الفلسطينيين الكبار مع مجموعة من قادة الجهاد، من بينهم قاسم الريماوي الذي دوّن محضر اللقاء. كان هناك، أيضاً، إميل الغوري، المسيحي وساعد الحاج أمين الأيمن، عبد الرؤوف فارس من طوباس (من زعماء الفلسطينيين في محافظة نابلس، وكان من أنصار المفتي، على عكس غالبية زعماء نابلس الذين كانوا من أنصار المعارضة بقيادة آل النشاشيبي والملك عبد الله)، فوزي جرار من جنين وآخرون.

روى لهم عبد القادر ما حدث خلال الجلسة الليلية مع اللجنة العسكرية وأبلغهم بأنه يدرس إمكانية الاستقالة من قيادة الجهاد المقدس. أصيب المشاركون في اللقاء بالصدمة. قال إميل الغوري: "صحيح، أنت الآن غاضب جدا، عصبي المزاج ومنفعل [...] لكن، عليك التفكير بأنه من الأفضل لنا القتال والموت قبل أن نرى مؤامرات الخيانة تتحقق وتمس بنا وبوطننا [...] سنقاتل حتى النهاية، بما لدينا من سلاح، ولن نفقد الأمل [...]، بل سنحصل على السلاح".

لم يقتنع عبد القادر بهذا الكلام. صعد إلى غرفة الحاج أمين في الفندق (الحاج أمين نفسه لم يشارك في اللقاء، لأنه كان مشاركاً في جلسة في القادسية في الوقت نفسه)؛ جلس في زاوية الغرفة في فندق قصر الشرق (أورينت بالاس) وكتب رسالة استقالته. في الغداة، ومع عودة المفتي إلى الفندق، سلّمه عبد القادر الرسالة المكتوبة وقال: "سيدي، كنت ملتزماً حتى الآن، لكنني لن أستطيع مواصلة القتال ورؤية شبابنا يسقطون هباءً".

حاول المفتي ورجال آخرون أقناع عبد القادر بالعدول عن الاستقالة، كما هب رياض الصلح أيضاً لنجدتهم. تحادث الرجلان مطولاً وفي نهاية الأمر نجحت مساعي الصلح، بعدما تعهد لعبد القادر ببذل كل ما في وسعه لضمان إرسال السلاح إلى المجاهدين. يقول المؤرخ الفلسطيني محسن عن ذلك: لكن (الصلح) لم يرسل ولو بندقية واحدة، حتى.

في ظهيرة ذلك اليوم، الخامس من نيسان، التقى عبد القادر أيضاً مجموعة من القادة العسكريين، رفاقه الذين كانوا برفقته، وتحدث معهم عن التقارير التي وردت من قناصل الدول العربية في القدس: هبوط المعنويات بين عرب المدينة إثر سماعهم الأنباء عن احتلال اليهود قرية القسطل. عاد عبد القادر وطلب، للمرة الأخيرة، مساعدات من اللجنة العسكرية، بوساطة الحاج أمين ورياض الصلح هذه المرة. كان أحد طلباته يتعلق بكمية محددة من المواد المتفجرة كي يتمكن من تفجير مصنع روطنبرغ للكهرباء (في "نهرايم"، إلى الجنوب من بحيرة طبريا؛ وربما كان يفكر بتنفيذ تلك العملية في طريق عودته إلى البلاد، من دمشق). هذا الطلب، أيضاً، قوبل بالرفض. في المقابل،

أعلن طه الهاشمي أنه سيضع تحت تصرف الجهاد المقدس شاحنة جديدة محملة بالسلاح. سأل عبد القادر عن توقيت وصول الشاحنة، إذ لم يكن يريد الانتظار في دمشق، بل ينوي المغادرة إلى القدس على الفور، لأنه متعجل الوصول إلى جبهة القتال؛ لكن الهاشمي طلب منه التحلي بالصبر قليلاً. وبالفعل، وصلت الشاحنة بعد ساعة تقريباً، محملة بـ 50 بندقية، 110 آلاف رصاصة، 300 قنبلة يدوية، كمية من المواد المتفجرة ومبلغ 500 ليرة.

اعتبر عبد القادر هذا إمعاناً في الإهانة والاستهتار فاستبد به الغضب الشديد مرة أخرى. في ذاك الوقت، تماماً، سرت شائعات عن أن عبد القادر يخطط، سوية مع مجموعة من رجاله، لاقتحام مقر قيادة القاوقجي ومخازنها، بغية الاستيلاء على التجهيزات والمدافع، بالقوة. لكنها كانت شائعات لا أساس لها في الواقع. سارع عبد القادر، الممتلئ غضباً، إلى المفتي وأعلن أمامه:

أصبح واضحاً الآن أنهم يريدون القضاء علينا، يريدون التخلي عن فلسطين [...] إنهم خونة ومدبرو مؤامرات ضدنا وضد بلادنا [...] لا أمل يرتجى منهم ولا فائدة، أبهذا السلاح يريدون إنقاذ فلسطين؟ لكنني قررت العودة [...] أنا مجبر على العودة كجندي يعرف كيف يدافع عن بلاده، وإلا لحقّ قتلي، ومن حقكم أن تعلقوني، كخائن، على مشنقة في ميدان دمشق المركزي.

تجند رئيس الحكومة اللبنانية، رياض الصلح، مرة أخرى لتهدئة عبد القادر. قدم له، هذه المرة، هدية شخصية: مسدس مزركش بشعار جهاز الأمن اللبناني؛ كما وضع في يده 800 ليرة "من أجل الجهاد". شكرَه عبد القادر وقال إنه سيغادر إلى القسطل على الفور ولم يتبق أمامه سوى الموت قبل أن يرى نتائج عجز اللجنة العسكرية وقصر نظرها:

سأقاتل من أجل إعادة احتلال القسطل من أيدي اليهود، مهما يكن الثمن [...] إن متُّ هناك، فسيكون دمي على رؤوس عبد الرحمن عزام وطه الهاشمي وإسماعيل صفوت، الذين يريدون تسليم القسطل لعلدو ويتصرفون معنا كأننا الشاة التي تُساق إلى الذبح.

حاول محادثو عبد القادر تهدئة خاطره، مراراً وتكراراً. وحين قال له المفتي الحاج أمين إن عليه الرأفة بنفسه والوثوق بجنوده المجاهدين، أجابه عبد القادر: "علينا غسل عار القسطل بأي ثمن [...] لن نستطيع تجنب وقوع ضحايا؛ فلدى اليهود مدرعات، دبابات، مدافع، طائرات، بينما نحن لا نملك سوى دمنا ولحمنا [...] والسلاح موجود هنا في المخازن".

كانت الإهانة التي تعرض لها عبد القادر وأولياء أمره، وفي مقدمتهم الحاج أمين، في دمشق، لا تطاق ومن الصعب جداً تحملها. وكان هذا شعورهم: سخروا منهم، أهانوهم وأذلّوهم، وكذلك الوطنية الفلسطينية التي كانوا

يمثلونها، وكل ذلك بسبب ضعفهم، أولاً وبالأساس. لم تكن تساندهم أي قوة سياسية وازنة، ولا أي طرف عربي صارم، ولا أي دولة عظمى أوروبية مقابل بريطانيا، التي أسبغت رعايتها ومساعداتها على الملك عبد الله وجيشه في شرق الأردن وعلى الجامعة العربية أيضاً. وقد قام عبد الله والجامعة العربية بمصادرة معالجة الشؤون الفلسطينية من يديّ الحاج أمين. كما أخذت الجامعة العربية لنفسها، أيضاً، صلاحية قيادة الحرب ومعاركها في فلسطين، باستثناء منطقة القدس، حيث أوكلت المهمة هناك للمفتي الحاج أمين ولعبد القادر. لكن حتى في القدس أيضاً، تعرض الحاج أمين وعبد القادر إلى الاضطهاد، الإهانات، الإقصاء وعدم إشراكهما في الجزء الأكبر من المشاورات والقرارات.

استطاع عبد القادر قبل مغادرته دمشق، خطّ رسالة إلى عائلته في القاهرة:

وجيهة الغالية، بلّغي الأولاد بأنهم إذا حافظوا على تحصيلهم التعليمي في المدرسة جيداً، فسأشتري لهم بنادق ومسدسات حقيقية، ليتمكنوا من محاربة اليهود. أما هيفاء [الابنة البكر] فسأشتري لها عدةّ للإسعاف الأولي وأدوية لمعالجة المصابين من المقاتلين. العمّ قاسم الريماوي [الذي كان إلى جانبه ساعة كتابة هذه الرسالة] يرسل لكم تحياته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خرج عبد القادر في الساعة السابعة من مساء يوم الثلاثاء 6 نيسان، بعد يوم كامل تقريباً من دون نوم، وبعد سلسلة من اللقاءات، التراكض عديم الجدوى وانفجارات الغضب، في قافلة صغيرة عائداً من دمشق إلى القدس، التي غاب عنها أكثر من أسبوع. كان ضمن القافلة 56 قائداً ومقاتلاً، عدد من السيارات، شاحنة محملة بـ 50 بندقية، ذخائر وقنابل يدوية.

أفاد الريماوي بأن عبد القادر ودّع، قبل خروجه، أعضاء اللجنة العربية العليا. طبع المفتي ثلاث قبلات على جبينه، كأنما كان يعلم أنها المرة الأخيرة التي يراه فيها. خيّم بين الحضور جو كدر، متناسب مع تقييمات لجان الجامعة العربية: ليس ثمة ما يمكن عمله في فلسطين؛ ينبغي الانتظار حتى يوم 15 أيار.

سمعه رجاله خلال السفر وفي المحطات التي توقفوا فيها، سمعه وهو يشتم عزام باشا وطه الهاشمي وإسماعيل صفوت. إنهم يريدون "أن يسوقونا مثل قطيع إلى الذبح"، لكن "نحن نحارب بدمائنا وأجسادنا، وليبق السلاح في مخازنهم في دمشق وعلى تلة جبع. من ناحيتنا، إما النصر وإما الموت".

استذكر قاسم الريماوي، المرافق الأمين، أنهم اقتبسوا آية من القرآن الكريم:

«فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ، وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيماً» (سورة النساء: 74).

كُتبت التوصيفات الدراماتيكية التي يوردها قاسم الريماوي، الذي كان بصحبة عبد القادر في دمشق (كما ترد في كتب كاتبي السير الشخصية عيسى خليل محسن ونبيل خالد الآغا)، بعد وفاة عبد القادر وبعد نكبة 1948. ولهذا، ثمة فيها نظرة ما بعد الحدث، النظرة التي تشمل أيضاً توجيه الاتهامات للجامعة العربية ولجنتها العسكرية. وحين يقول عبد القادر هذا الكلام يبدو كأنه كان يتوقع وفاته. ثمة لهذه الأحداث تأكيد جزئي فقط في تقارير وضعتها مصادر عربية وأجنبية، على حد سواء. فطه الهاشمي، الذي كتب مذكرات يومية ثم نشر مذكراته في كتاب، لم يورد أي ذكر للخصومات والشجارات الحادة بينه وبين عبد القادر. وربما يكون أسقطها عمداً بعد وفاة عبد القادر، كي لا يبدو في صورة المستفِز المتحرش الذي عمل ضد بطل المعارك في فلسطين.

عن العلاقات المتوترة بين عبد القادر والقاوقجي، أيضاً، هنالك تقارير إضافية أخرى. تتعلق إحدى القضايا المثيرة بذاك اللقاء، الذي ذكر آنفاً، بين القاوقجي ورجل الاستخبارات في الهاغناه، يهوشواع (جوش) بلمون، والذي عقد يوم السبت الثالث من نيسان 1948. كان ذلك اليوم نفسه الذي احتلت فيه وحدة «بلماح» قرية القسطل، وهو الحدث الذي اكتسب أهمية كبيرة في كل ما يتصل بلقاءات عبد القادر وخصوماته في دمشق، إذ تبين للعرب في تلك الساعات أن المحاربين اليهود قد احتلوا القرية بنيّة البقاء وأنهم يتحصنون فيها.

جرى هذا اللقاء بمبادرة من رجال الاستخبارات في الهاغناه، بعد أن كان وسطاء عرب ويهود قد التقوا القاوقجي ورجاله، قبل ذلك ببضعة أيام. من الجانب اليهودي، كان الهدف من اللقاء مرتبطاً بالتحضيرات لحملة نحشون: ضمان ألا يدفع حشد القوات الكبيرة من المقاتلين اليهود في الطريق إلى القدس القاوقجي ورجاله إلى المبادرة وشن هجمات في قطاعي الوسط والشمال. الطريقة لتحقيق ذلك، حسب بلمون، كانت بتحريض القاوقجي ضد عبد القادر وحسن سلامة. في الحقيقة، وقعت بين يدي الهاغناه وثيقة أعدها الحاج أمين إبان الحرب العالمية الثانية، يتهم فيها القاوقجي بأنه عميل لبريطانيا. أرسل الحاج أمين هذه الوثيقة إلى وزير الخارجية الألماني فقام الألمان، عقب ذلك، باعتقال القاوقجي والتحقيق معه.

أفاد بلمون بأن اللقاء جرى في نور شمس، قرب طولكرم، يوم الثالث من نيسان 1948. قطع بلمون، الذي كان آنذاك أحد كبار خبراء الهاغناه بالشؤون العربية، الحدود في يوم السبت المذكور قرب كفار يونا واستمر اللقاء بين الرجلين قرابة الساعتين. وصف بلمون القاوقجي بأنه ذو ملامح أوروبية في

مظهره الخارجي وسلوكياته، يتحدث الألمانية، حضر حتى إلى لقاء مع ابنته التي وُلدت له من زوجته الألمانية.

يبدو، حسب بلمون مرة أخرى، أن الهدف من اللقاء قد تحقق. هاجم القاوقجي الحاج أمين ووصفه بأقذع الأوصاف: محرِّض، مُفتن، مثير للخصومات، خائن وجنوده (من الجهاد المقدس) مجرد رعاع. كان القاوقجي يعتبر حسن سلامة قاطع طرق، بينما اقترح على بلمون، بشأن عبد القادر: «أضربوه، أضربوه». وألمح إلى أنه لن يتدخل في الأمر.

تعزز التقارير عن هذا اللقاء الادعاءات (من جانب الحاج أمين وعبد القادر) بشأن العلاقات التي أقيمت بين القاوقجي وأعداء الحاج أمين. تولد لدى بلمون انطباع بأن القاوقجي يطمح لأن يكون الرجل القوي، الحاكم في فلسطين العربية، إلى جانب منح اليهود حقوقاً أو حُكماً ذاتياً ـ وهو هدف الملك الأردني عبد الله.

كان من شأن هذا اللقاء ـ في ذروة الخصومات والمشاجرات في دمشق، وفي يوم احتلال القسطل نفسه ـ الدفع نحو الاستنتاج بأن شكوك الحاج أمين ورجاله وتخوفاتهم بشأن "خيانة العرب" لم تكن واهمة أو عبثية. كانوا يمتلكون معلومات عن لقاءات الملك عبد الله مع قيادة الييشوف اليهودي (حصلوا على هذه المعلومات من مصر) وكانوا واعين جيداً للغضب العارم في نفس القاوقجي ورؤسائه في الجامعة العربية على انتزاع القيادة منهم على منطقتي القدس والوسط المهمتين وتسليمهما لأنصار الحاج أمين.

يستفاد من كتاب عميرام إيزوف أن ضابط الاستخبارات في الهاغناه، أبراهام بن نتان، روى أنه في نهاية الأسبوع التي تم احتلال القسطل خلالها، اتضح أيضاً أن القاوقجي يجمّع قوات عسكرية في جنين استعداداً للتقدم غرباً نحو حيفا. تشير هذه الشهادة إلى بداية المعركة على كيبوتس مشمار هعيمق ـ المعركة التي دارت في الساعات نفسها التي دارت فيها معركة القسطل، بالضبط. يبدو، في نظرة إلى الوراء، أن القاوقجي حاول من جانبه مخادعة بلمون، رجل الاستخبارات في الهاغناه، ودفعه إلى التركيز في معارك القدس، كي يتمكن هو من فتح المحور المركزي من جنين إلى حيفا، الذي يمر عبر مشمار هعيمق، ثم هدم الكيبوتس أيضاً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان عبد القادر قد أوضح، من دمشق، لبهجت أبو غربية، الذي بقي في القدس، أنه لزامٌ عليهم استعادة السيطرة على "الجبل"، لأن "القسطل هي القدس". ومن هناك أصدر أوامره باحتلال القرية من أيدي اليهود، فوراً.

ألقيت مهمة التنسيق بين الوحدات التي ستنفذ مهمة استعادة احتلال القرية على أنور نسيبة، الأمين العام للجنة الوطنية في القدس. نُقلت التعليمات، على وجه السرعة، إلى قادة الجهاد المقدس في القدس ومنطقتها: خرج صبحي أبو غربية من رام الله، بصحبة رجاله، متجهين نحو قرية قالونيا (أطراف بلدتيّ مفسيرت تسيون وموتسا التحتا، اليوم) التي وصلوا إليها سوية مع خليل مِنون ورجاله، من عين كارم؛ ومن الجانب الآخر، من صوب صوبا، حضر إبراهيم أبو دية، قائد القطمون، ورجاله؛ حافظ بركات ورجاله من البلدة القديمة؛ وكامل عريقات مع وحدته من أبو ديس. كما جاءت، أيضاً، فرقة مقاتلين من بيت صفافا، كان قائدهم، عبد الله العمري، مع عبد القادر في دمشق، لكنه سارع إلى العودة إلى البلاد.

بدأ بعد يوم واحد من إعادة احتلال القسطل من أيدي اليهود، يوم الأحد 4 نيسان، الهجوم المضاد الذي شنه الجهاد المقدس. في ذلك اليوم، نفسه، نشرت صحيفة فلسطين، على صدر صفحتها الأولى، خبراً عن أن "القوات العربية ضربت حصاراً شاملاً على العصابات اليهودية في قرية القسطل التي أُخلِيت من سكانها". ورغم حقيقة أن صدامات ومواجهات لا حصر لها، بما فيها تبادل إطلاق نار ومعارك حقيقية، قد وقعت، تلك الأيام، بين اليهود والعرب في مختلف أنحاء البلاد، إلا أن استيلاء اليهود على القسطل وتركيز العرب قوة كبيرة لاستعادة السيطرة على المكان اكتسبا أهمية كبيرة ومميزة، على ضوء حقيقة أن اليهود لم يكونوا ينوون إخلاء المنطقة التي نجحوا في احتلالها، في المرة الأولى. كان هذا التجديد بارزاً بوضوح.

ظهرت أيضاً إلى جانب الأنباء العربية عن القسطل، عناوين عن مداولات اللجان في دمشق، عكست شعوراً بالنجاح ـ شعوراً بأن النصر قاب قوس وأدنى في متناول أيدي العرب. تشي العناوين والأخبار من دمشق بعدم الاستعداد، المطلق، لتقديم أي تنازلات. جاء ردّ ممثلي فلسطين والجامعة العربية على دعوة مجلس الأمن الدولي لوقف النار بالصيغة التالية:

ترفض الدول العربية واللجنة العربية العليا أي طلب لوقف النار في فلسطين، إلا إذا اتُخذ قرار رسمي بوقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين وإلغاء مشروع التقسيم [...] سيعود الهدوء إلى فلسطين فقط إذا أقيمت على كامل مساحتها دولة عربية مستقلة.

قبل ذلك بوقت قصير، نشرت صحيفة الدفاع خبراً عن انقلاب المزاج العام بين الجمهور اليهودي: "من الفرحة، إلى اليأس وفقدان الأمل". أي، من الفرح بقرار التقسيم، انتقل اليهود إلى اليأس بسبب الإخفاقات العسكرية. كانت صحيفة الدفاع تستند إلى أنباء نقلها صحافيون أجانب من القسم اليهودي من مدينة القدس، تتحدث عن عزم مجموعات من اليهود على التمرد ضد

القيادات، بعدما تبينت لهم استحالة تطبيق مشروع التقسيم. أبرزت الصحف الفلسطينية، في تلك الأيام، أخباراً نقلها صحافيون أجانب عن مظاهرات ضخمة نظمها اليهود في القدس، رفعوا خلالها شعار المطالبة بوقف القتال ضد العرب. كانت تلك مظاهرات وحملات احتجاجية نظمتها مجموعات من اليهود الحريديم في حي ميئاه شعاريم في القدس، بقيادة الحاخام كَتْسِنِلْبوجِن، وتعرض المشاركون فيها إلى الضرب والتفريق بالقوة من قبل الهاغناه. وبعد أيام معدودة على ذلك، زار وفد من الحريديم سكرتير حكومة الانتداب البريطاني وطلب منه توفير الحماية لهم في وجه الوكالة اليهودية. ندد هؤلاء، بعبارات حادة جداً، بالوكالة والمؤسسات اليهودية المختلفة، التي تمارس التمييز بحقهم والتنكيل بهم. وفي يوم 5 نيسان، نشرت صحيفة الدفاع خبراً تفاؤلياً ورد فيه أنه "لم يبق أمام اليهود في القسطل سوى أحد خيارين: الهزيمة أو الاستسلام".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المسؤول العربي الرفيع الوحيد الذي كان يحذّر طوال تلك الفترة من التفاؤل المفرط هو الجنرال إسماعيل صفوت، الذي طالب مراراً وتكراراً بزيادة المساعدات لقوات المتطوعين العرب (أي، لجيش الإنقاذ). نقل صفوت قراراً بهذه الروح إلى اللجنة السياسية التي التأمت في دمشق. كان تشاؤمه واضحاً تماماً من خلال التقارير التي أعدّها وقدمها. كان عبد القادر مطلعاً تماماً، بالطبع، على التقييمات غير المشجِّعة التي وضعها إسماعيل صفوت، وبالأساس على استنتاجاته بشأن التفوق اليهودي وأفضليتهم، في الإمكانيات، التجهيزات والأسلحة. لكي يعرف هذا كله، لم يكن عبد القادر بحاجة إلى هذه التقارير، لأنه كان قد رأى بأم عينيه المدرعات اليهودية، الراجمات، واستخدام الهاغناه الأوّلي للطائرات. كان قد سمع، في دمشق أيضاً، عن المعدات الكثيرة التي أخذها كامل عريقات غنائم من اليهود في قافلة النبي دانئيل (معركة الدهيشة) وعن الطائرات التي شاركت في المعركة هناك. وقد نشرت صحيفتا فلسطين والدفاع معطيات تفصيلية عن المدرعات، الباصات، والتجهيزات العسكرية الكثيرة التي أُخِذت غنائم من اليهود. كانت تلك تجهيزات ومعدات لم يكن مقاتلو الجهاد المقدس يحلمون بها، حتى.

ولكن، على الرغم من هذه الأفضليات التي كانت متوفرة لدى اليهود، كان عبد القادر عميق الثقة برجاله، كما كان واثقاً تماماً بقدرته على الانتصار؛ كان مؤمناً بأن الأمر الوحيد الذي يحتاج إليه من أجل ذلك هو المساعدة والدعم. إذا ما تهيأت له الوسائل ـ المدافع والبنادق الحديثة ـ فسيكون قادراً على صدّ اليهود.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في ساعة متأخرة من المساء، وبينما كانت في طريقها من دمشق إلى القدس، توقفت قافلة عبد القادر الصغيرة في بلدة درعا، الحدودية بين سورية والأردن. أخبره صديقه، ضابط الأمن السوري، بأنّ البرقيات التي أرسلها أحمد حلمي عبد الباقي باشا، أحد قادة الجمهور الفلسطيني ورئيس بنك الأمّة الذي أنشئ لمنع بيع الأراضي العربية لليهود، ود. حسين الخالدي، قد انتقلت عبر مكتبه هو. كانت تلك البرقيات، المُرسَلة من القدس إلى دمشق، موجهةً إلى اللجنة العسكرية التابعة لجامعة الدول العربية، وتضمنت طلباً بأن يعود عبد القادر إلى القدس بصورة فورية. ردّ عبد القادر على الضابط السوري، بصوت محمّل بالتأثر والانفعال:

أنا عائد على الفور لاقتحام القسطل، فعلاً [...] أقسم بالله أنني سئمت الحياة بعدما سمعته من الهاشمي وصفوت والشرباتي وأشباههم [...] وها أنا أعلن أمامكم أنني أفضل الموت قبل رؤية اليهود يحتلون فلسطين، وقد عقدتُ العزم نهائياً على احتلال القسطل، بعدما تيقنت من خيانة رؤساء الجامعة العربية لفلسطين [...] نحن مستعدون للتضحية بحيواتنا في الوقت الذي يستمتع فيه أعضاء اللجنة بالأموال والأسلحة التي بين أيديهم، بينما نحن مقبلون على الموت.

في الساعة الرابعة من فجر يوم الأربعاء 6 نيسان، وصلت القافلة إلى جسر اللنبي على نهر الأردن، إلى الشرق من أريحا. وهناك، التقى أعضاؤها بمجموعة من المتطوعين أعضاء "الإخوان المسلمون" بقيادة يوسف السباعي، فانضموا إليهم صعوداً نحو القدس. شقيق عبد القادر، سامي، الذي كان مقيماً في أريحا إبان الحرب، سمع أن عبد القادر غادر دمشق فسافر لاستقباله عند المعبر قرب بيسان (بيت شان). لكنّ عبد القادر لم يقطع النهر هناك. قفل سامي عائداً إلى بيته في أريحا، ولم يتوجه إلى القدس سوى في وقت لاحق.

في الخامسة فجراً، تقريباً، وصل عبد القادر إلى بيت شقيقه فريد، في القدس. بعد نومة خاطفة، خرج صباحاً إلى مقر قيادة الجهاد المقدس في البلدة القديمة، في مدرسة روضة المعارف، عند بداية "طريق الآلام" (فيا دولوروزا). ثم حضر إلى هناك، أيضاً، القادة العسكريون إبراهيم أبو دية الذي كان قد تولى القيادة على حي القطمون قبل ذلك بوقت قصير، عبد الله العمري من بيت صفافا، حافظ بركات من البلدة القديمة، وآخرون غيرهم. عرضوا عليه، جميعاً، معلومات تفصيلية عن سير المعارك ومجرياتها وعن الحصار التي تضربه قواتهم على قرية القسطل.

أصدر عبد القادر أمراً إلى إبراهيم أبو دية بتجنيد أكبر عدد ممكن من المقاتلين من حي القطمون. كما أصدر أمراً مماثلاً إلى عبد الله العمري،

أيضاً، ثم أوفد مبعوثين إلى المالحة، عين كارم، دير ياسين وصوبا، لتجنيد تعزيزات. أما قريب العائلة، مالك الحسيني، وعزمي الجاعوني، الذي نفذ عملية التفجير في شارع بن يهودا، فقد أوفدهما إلى مقر القيادة في بيرزيت، لاستدعاء من أمكن من المقاتلين ومن المتطوعين الأجانب ـ الإنكليز، البوسنيين، الألمان والبولنديين ـ لينضموا وينخرطوا في القتال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هكذا بدأ يوم عبد القادر الحسيني الأخير. إضافة إلى الاستعدادات والتحضيرات للمعركة، خَطّ عبد القادر في ذلك اليوم رسالة بقيت في عهدة أبناء العائلة في القدس، كتب فيها:

مذكّرة

السيد الأمين العام لجامعة الدول العربية

القاهرة

إنّي أحمّلكم المسؤولية بعد أن تركتم جنودي في أوج انتصاراتهم بدون عون أو سلاح.

عبد القادر الحسيني

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



12

على الجبل

كان الأسبوع الذي بدأ يوم الأحد، 4 نيسان 1948، ماطراً وبارداً. كانت تلك الأيام الأولى من فصل الربيع؛ على المنحدرات الشديدة وفي القنوات الجبلية إلى الغرب من القدس، مرّ إزهار شجر اللوز، سريعاً. استُبدِل الأبيض والورديّ في اللوز، الآن، بالأصفر في شجيرات القندول الشعري والأبيض الأرجواني في شجيرات القرّيضة. بين الصخور بقع حمراء من دم المكابيين.

بعد ذلك بخمسة أسابيع، في 15 أيار، كان الانتداب البريطاني في فلسطين على وشك الانتهاء وكان الجيش البريطاني مشغولاً في الترتيبات اللوجستية المعقدة لإخلاء معسكراته ومنشآت الحكم ومؤسساته. كان مسار إخلاء البريطانيين من القدس يتجه شمالاً، بسبب موقع مطار قلنديا (عطاروت) الصغير، عند مشارف رام الله. مرت القوافل البريطانية من مركز المدينة ومن جنوبها، عبر الأحياء الشمالية على الشارع الصاعد إلى حي الشيخ جراح وإلى بلدتي شعفاط وبيت حنينا. ثم يميل الشارع، فيما بعد، غرباً نحو المنحدر الضيق الذي يقطع قريتيّ بيت عور (بيت حورون، الفوقا والتحتا) حتى يصل إلى مفرق اللطرون. من هناك، واصلت قوافل الإخلاء البريطانية طريقها إلى مطار اللد ومنه شمالاً إلى ميناء حيفا. كان البريطانيون يفضلون الإخلاء عبر منطقة عربية متتابعة خالية من المواجهات والصدامات بين اليهود والعرب.

تضاءل وتقلص تواجد البريطانيين في المنطقة الواقعة إلى الغرب من القدس. كان الشارع الرئيسي إلى تل أبيب، عبر وادي علي وباب الواد، يمرّ في أطراف القرى العربية التي أصبحت ميادين قتال: لِفتا، قالونيا، دير ياسين، القسطل، أبو غوش، ساريس، بيت مَحسير، حتى اللطرون. وكانت في جوارها بلدات يهودية قليلة: موتسا، وفوقها قرب القسطل، موتسا عيليت. فوق موتسا عيليت وتحت بيوت القسطل و"مقهى أبو جورج"، كان هناك بيت النقاهة "أرزه"، وبعيداً عنه، في المنحدر من القسطل نحو الغرب ـ كيبوتسا عنفيم ومعاليه هحميشاه وبلدة نفيه إيلان الصغيرة. استُخدِمت جميع البلدات اليهودية قاعدة للوحدات اليهودية المحاربة.

لم تتمكن الحركة اليهودية المنتظمة، التي انطلقت من تل أبيب ومن منطقة وادي الخليل إلى القدس، من العبور في المناطق العربية المأهولة بالسكان إلى الشرق من يافا، والتي شملت مدينتي اللد والرملة الكبيرتين والقرى العديدة المحيطة بهما، حتى قرية القُبَاب (مشمار أيالون، اليوم). لذلك، تجاوزت القوافل اليهودية التجمعات العربية من الجنوب، عبر بلدة رحوبوت،

قرية كفار بيلو وكيبوتس خولدا، ثم واصلت شمالاً حتى العودة إلى الشارع الرئيسي عند مفرق اللطرون، ومن هناك إلى القدس.

هذه الظروف هي التي أكسبت قمة القسطل في تلك الأيام أهميتها الحاسمة في المعركة على القدس، وربما أيضاً ـ بنظرة أوسع وأكثر شمولية ـ في المعركة على البلاد بأسرها، كما بدا الأمر في أعين قادة المعارك من الطرفين. على مدى بضعة أسابيع من شتاء 1948، دارت في القسطل وجوارها معارك وتبادل لإطلاق النار، تصاعدت حدتها واشتد أوارها مع الانسحاب البريطاني التدريجي. سُدت الطرق أمام الحركة اليهودية فتضاءلت وتقلصت أكثر فأكثر، حتى توقفها النهائي والتام، تقريباً، في منتصف آذار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الجزء الأكبر والأساسي من النشاط الفلسطيني في قطاع شاعر هجاي تحت قيادة شيخ بدوي من الأردن، هو هارون بن جازي. جمّع بن جازي بضع عشرات المتطوعين، من أبناء عشيرته، عشيرة الحويطات، بالأساس. دخلوا إلى البلاد في شباط 1948 ووصلوا إلى مقر قيادة الجهاد المقدس في بلدة بيرزيت. بعد التشاور مع عبد القادر، مع قاسم الريماوي وإبراهيم أبو دية، عُرض عليهم الانضمام إلى المقاتلين في جنوب القدس. لكن هارون بن جازي قال إنه يفضّل قطاع باب الواد. استعان المتطوعون البدو من شرق الأردن بأبناء القرى العربية المجاورة ووصلوا إلى قرية خُلدَة. هناك، كما يقول سليمان بن موسى، في كتابه أيام لا تُنسى، ظهرت بطولة هارون بن جازي، الذي أغدق عليه الملك عبد الله المديح والثناء عن دوره في المعارك.

نادراً ما كان أهالي قرية القسطل، القرية الصغيرة نسبياً التي بلغ عدد سكانها 300 نسمة، يشاركون في القتال. ولّد قرب القرية من البلدات اليهودية، من المحجر المجاور ومن قرية أبو غوش ـ التي عارض أهلها، بشدة وحزم، محاربة اليهود ـ حالة من التلبك والارتباك بين أهالي القسطل. ما العمل؟ كانت لعائلة المطر، التي كان ينتمي إليها مختار القرية، علاقات مع الجيران اليهود. كان أبناء الحمولة يعملون في مزارع بلدة موتسا وحظائرها، مثل الشاب أحمد (الذي أصبح شلومو عمير، لاحقاً). أفراد آخرون من العائلة، في مقدمتهم عبد الله، والد أحمد، كانوا مسيطرين على أكشاك الخضروات والفواكه قرب مقهى أبي جورج. لا بل، توصل هؤلاء إلى تفاهم مع جيرانهم اليهود يقضي بأن يمنع عبد الله أية هجمات أو اعتداءات عربية على الجيران اليهود وعلى المسافرين على الشارع إلى القدس. في المقابل، انضم عدد من شبان الحمولتين الأخريين في القرية، مُطَيِّر وعَدوان، إلى عمليات إطلاق النار على المحجر، في منتصف آذار، وخصوصاً تحت قيادة جابر أبو طبيخ، أحد قدامى الثورة، ابن قرية خربة اللوز، إلى الجنوب من القسطل.

أدت المعارك التي دارت حول قرية القسطل، ثم عمليات الرد من جانب الهاغناه، مثل تفجير ثلاثة بيوت في القرية من بينها، أيضاً، بناية مقهى أبي جورج، إلى إخلاء، بل هروب، الغالبية الساحقة من السكان. انتقل هؤلاء إلى القرى المجاورة، وخصوصاً بيت سوريك وصوبا. بقي في القرية 15 مقاتلاً، بعضهم من أبنائها.

كانت ثمة بؤرتان يهوديتان في المنطقة المحيطة بالقسطل: من الجنوب ـ محجر كبير، محجر صوبا، أو «محجر إليسار» كما كان يسميه العرب؛ ومن الشرق ـ مركز النقاهة أرزه، الملاصق لموتسا عيليت.

يوم السبت، 3 نيسان، أوكلت وحدة «بلماح» التي احتلت القسطل مهمة حماية المكان إلى بضع عشرات من جنود كتيبة «موريا» المقدسية. في الحقيقة، مرّ احتلال القسطل من دون أن تنشب في المكان أي معارك حقيقية: كان في القرية عدد ضئيل من المقاتلين العرب وبعض القرويين، تراجعوا جميعاً وانسحبوا في اتجاه صوبا. لكن في غضون ساعات قليلة، بدأت أعمال القنص وإطلاق النار من قبل العرب ضد المحاربين اليهود الذين استولوا على القرية وتمركزوا على التلال ما بين المحجر والقسطل. خلال يومي الأحد والإثنين، 4 و5 نيسان، ازداد إطلاق النار، وتيرة وكثافة، على المواقع اليهودية جنوبيّ القسطل وشرقها. كانا يومين ماطرين بغزارة دون توقف وقد أصيب الجنود اليهود القلائل الذين تحصنوا في الثكنات فوق المحجر وفوق مركز النقاهة أرزه، بينما كان الآخرون قد غادروها من قبل.

خلّف احتلال الهاغناه لقرية القسطل انطباعاً سيئاً في القدس العربية؛ أثار غضب عبد القادر في دمشق واستدعى موجات من عمليات الرد العربية، ارتجالية في غالبيتها. وبينما كانت الصحف الفلسطينية تنشر عن «حصار عربي شامل على العصابات اليهودية في قرية القسطل التي أُفرغت من سكانها»، كانت تتهيأ في الجانب اليهودي قافلة يهودية كبيرة لنقل الحاجيات والمعدات من منطقة وادي الخليل إلى القدس.

في يوم الثلاثاء، 6 نيسان، وقع في أطراف القسطل حدثان مهمان. الأول، إنجاز يهودي: 60 شاحنة محملة بالإمدادات المختلفة نجحت في العبور إلى القدس. كانت تلك القافلة الأولى إلى المدينة بعد أسابيع من المحاولات الفاشلة. أطلقوا عليها اسم «قافلة نحشون»، على اسم الحملة العسكرية الشاملة التي بدأت الهاغناه بتنظيمها، وهي الحملة التي تم فيها الاستيلاء على قرى ونقاط تحكّم على طول الشارع من كيبوتس خولدا حتى مشارف القدس. والثاني، إنجاز عربي: احتلال وتفجير الآليات في محجر صوبا، ثم إطلاق نيران وقنص من مقاتلي الجهاد المقدس ضد مواقع يهودية، الأمر الذي أدى إلى إخلاء العائلات اليهودية، النساء والأطفال، من موتسا عيليت. وقد

وصل عدد من المقاتلين العرب حتى أطراف البلدة، عند مجمع مزرعة الأطفال المطل على قرية قالونيا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يتعين لدى التمعن، بنظرة إلى الوراء، في أحداث المعارك حول القسطل في ذلك الأسبوع المصيري (2 ـ 9 نيسان 1948)، الأخذ في الاعتبار أن الحديث يجري عن قوات غير نظامية، ولذلك عن فوضى غير قليلة سادت بين القوات العربية المقاتلة، بالأساس. فقد كانت تلك القوات أشبه بخليط مجموعات من المقاتلين، يعدون نحو 300 نفر، غالبيتهم من الفلسطينيين أبناء قرى المنطقة، لكنهم اختلطوا مع مقاتلين من الدول المجاورة، عدد قليل من المتطوعين جنود «جيش الإنقاذ» و»الإخوان المسلمون» من سورية، وصلوا إلى المنطقة، فرادى أو مجموعات منظمة، تحت قيادة الضابط العراقي فاضل رشيد، من المكان الذي أقاموا فيه في البلدة القديمة. وإلى هؤلاء جميعاً، انضم أيضاً عدد من جنود قوة حدود شرق الأردن، قليل من الفارين البريطانيين، ومرتزقة من البلقان (البوسنة)، بولندا وألمانيا.

تجمع الفلسطينيون في مجموعات، وحدات منظمة من الجهاد المقدس غالباً. لكن علاقة المقاتلين المباشرة كانت مع قادة محليين معروفين: جابر أبو طبيخ من خربة اللوز؛ خليل مِنون، الذي كان قائداً لرجال عين كارم؛ صبحي جبارة، الذي قاد القرويين من منطقة رام الله؛ عبد الحليم الجولاني، الذي قاد المقاتلين من الخليل؛ كامل عريقات، شقيقه وآخرون من أبناء العائلة، أحضروا معهم شبّان أبو ديس. وانضم إلى هؤلاء، أحياناً، عبد الفتاح درويش، الشخصية المعروفة من المالحة الذي كانت له علاقات وثيقة مع الملك عبد الله من شرق الأردن ومع اليهود، في بعض الحالات. وحضرت، كذلك، مجموعات من قرى وحمائل البلدة القديمة، من أحياء القدس المختلفة، بل ومن مناطق بعيدة، مثل جبال نابلس، اللد والرملة.

كان القادة العسكريون المختلفون، وعدد غير قليل من المقاتلين العرب بالتأكيد، يعودون إلى منازلهم وعائلاتهم، يومياً أو كل بضعة أيام. لم تكن في متناولهم وسائل مواصلات، ولا سيارات ملائمة للطرق الوعرية والموحلة، بالطبع. لم تتوفر لديهم إمدادات منتظمة من الغذاء، الملابس الدافئة والأدوية، ولا من الأسلحة والذخائر الكافية. حتى أجورهم كانت تُدفع بصورة متقطعة، أو لم تكن تُدفع إطلاقاً. وكان بينهم من لم يشارك في المعارك إلا على فترات متباعدة جداً، لدى سماع نداءات «الفَزعة» قريباً من أماكن سكنهم.

عليه، فعند الحديث عن نجاحات يهودية، بعبور القافلة الكبيرة من منطقة وادي الخليل إلى القدس يوم 6 نيسان، مثلاً، أو نجاح عربي، في اليوم ذاته

بالضبط، باحتلال وتفجير محجر صوبا (إليسار)، ليست ثمة مبالغة في الإقرار بأن يد الصدفة أيضاً قد لعبت دوراً في هذه الأحداث. على سبيل المثال، أفراد مجموعة صبحي جبارة الذين دخلوا إلى قالونيا، يوم الإثنين 5 نيسان، خرّبوا الجسر الكبير في موتسا (الذي يمتد فوقه الجسر الجديد، اليوم)، إلا أن جنود الجيش البريطاني قاموا بإصلاحه، بعد ساعات قليلة، على الرغم من أن عددهم في المنطقة كان ضئيلاً. لولا إصلاح الجسر، لما استطاعت قافلة نحشون العبور إلى القدس من دون عقبات.

أشارت التقارير العربية حول الهجوم على محجر إليسار وتفجيره إلى إصابة كامل عريقات، نائب عبد القادر الحسيني. كان يقود المعركة بالتعاون مع إبراهيم أبو دية، الذي كان قائد القطمون في تلك الساعة، وحافظ بركات أبو الفيلات، الذي كان يقود مجموعة من البلدة القديمة. لم تكن إصابة عريقات بالغة فعاد إلى منزله في أبو ديس للاستراحة. وأفادت التقارير ذاتها، أيضاً، بأن طائرات خفيفة يهودية قد ظهرت مرتين خلال اليومين المذكورين وألقتا قنابل على المواقع العسكرية العربية القريبة من القسطل.

يؤكد كاتبا المذكرات بهجت أبو غربية وعارف العارف أن جنوداً من الفيلق العربي (من شرق الأردن، تحت قيادة بريطانية) ومن وحدات منظمة من جيش الإنقاذ كانوا متمركزين قرب القدس، لكنهم لم يشاركوا في المعارك بصورة منظمة. «ماكو أوامر» («لم نتلقَّ الأوامر»، باللهجة العراقية) ـ كان هذا التبرير الدائم الذي يكرره الضباط العراقيون في تفسيرهم لعدم مشاركتهم في القتال. وقد أصبحت هذه العبارة تعبيراً اصطلاحياً دارجاً على ألسن الفلسطينيين يراد به التدليل على التنصل الدائم، الخيانيّ في نظر الفلسطينيين، الذي كان يلجأ إليه جنود الجامعة العربية الذين وقفوا على الحياد، مثلما تصرف الجنود البريطانيون في المناطق المختلفة، عموماً.

يروي بهجت أبو غربية:

في الخامسة من صباح يوم الأربعاء 7 نيسان، أيقظني شقيقي صبحي، لدى عودته من دمشق، حيث خضع للعلاج الطبي في أعقاب إصابته بجراح بالغة في رأسه. كان وضعه سيئاً للغاية. كانت لإصابته آثار على ذاكرته وأصبح حديثه مشوشاً. لكنني فهمت منه أنه عاد من دمشق برفقة عبد القادر ومجموعة من المقاتلين. سألتُه: هل أحضرتم سلاحاً؟ لم يكن يعلم. فهمتُ أن عبد القادر ذهب ليقيم في منزل شقيقه فريد، في حي باب الساهرة. المكان ليس بعيداً عن منزل عائلتي، فتوجهت إلى هناك. عند مدخل البيت، التقيتُ عوض الترمسعاوي، حارس عبد القادر ومرافقه الشخصي. لم أكن أعلم بما جرى في دمشق، فسألته: كم من السلاح أحضرتم؟ ومن أي أنواع؟ فأجابني: لم نُحضر شيئاً سوى سلاحنا الشخصي، نصف كيس من الرصاص الإنكليزي

ونصف كيس آخر ألماني. صُدمتُ لسماع هذا وكان من الصعب عليّ تصديقه، رغم أنني أعرفه إنساناً صادقاً وشجاعاً. سألته، فقط: "أين أبو موسى [عبد القادر]؟"، فأجاب: "عبد القادر في البيت، نائم [...] بعد سفرنا طوال الليل. فقد خرجنا من دمشق متأخراً وطلب أن ينام ساعتين". كنت لا أزال مصدوماً وامتلأتُ حزناً لأنني تذكرت تعهدات عبد القادر، قبل سفره، بأن يجلب رشاشات وأسلحة مضادة للمدرعات ومدافع وراجمات وذخائر لأنواع الأسلحة المختلفة التي في حوزتنا، الإنكليزية، الألمانية، الفرنسية، الإيطالية، وذخيرة أميركية لرشاشات براونينغ وقنابل [...]

عُدت بعد ساعتين فأبلغني عوض بأن عبد القادر في انتظاري. دخلتُ وحيّيته [...] فشعرت على الفور بأنه غاضب جداً. قال لي: عليك مهمة لا يستطيع أحد تنفيذها سواك. أريدك أن تذهب الآن إلى كامل عريقات الذي توجد لديه كمية من غنائم معركة الدهيشة، تشمل راجمات ورشاشات [أُخِذت من اليهود]. إنها ملك قيادة المقاتلين وليست ملكه الشخصي. أريد أن تجلبها إليّ. لم يخبرني بسبب حاجته إليها بهذه الصورة الفورية، كما لم يبلغني بأنه يعتزم الذهاب إلى القسطل. لم أسمع منه عما جرى في اللجنة العسكرية في دمشق، لأن محادثتنا لم تدم سوى دقائق معدودات فقط. أبلغته فقط بأنني متوجه في الحال إلى كامل عريقات وسآتي بما طلب. انتبهت، كما ورد، إلى أن مزاجه سيء. ولأنني كنت أعلم أنه لن يستطيع تلبية طلبي بإعطائي السلاح الذي وعدني بإحضاره لي، إذ عاد من دمشق خالي الوفاض، فقد غادرتُ منطلِقاً إلى منزل عريقات.

وجدتُ عريقات مستلقياً في فراشه، منهكاً جداً من الجراح التي أصيب بها قبل ذلك بيوم واحد في المعركة على محجر إليسار. كانت إصابته خفيفة ولم تستدع علاجاً في المستشفى. كان بيننا، في السابق، توتر بسبب أمور مختلفة تتعلق بالحزب العربي الفلسطيني [الإطار السياسي لآل الحسيني]، لكننا كنا على علاقة طيبة، بشكل عام. لم يكن عريقات يعلم أن عبد القادر قد عاد من دمشق. تبادلنا الحديث وتناولنا وجبة الغداء. مر وقت طويل، نسبياً، حتى تمكنت من الحديث عن موضوع الغنائم من معركة الدهيشة. أخذتُ منه، في نهاية المطاف، مدرعة يهودية بوضع جيد وستة رشاشات من أنواع مختلفة لم يكن لدينا مثلها، لكنها لم تكن صالحة للاستعمال، لأن اليهود قد خربوها قبل تسلمينا إياها. كان بالإمكان تصليحها.

سافرتُ بالمدرعة إلى القدس، إلى حي باب الساهرة، إلى منزل فريد شقيق عبد القادر وهناك أخبروني بأن عبد القادر قد غادر المنزل متوجهاً إلى حي القطمون. اتصلتُ هاتفياً بمقر قيادة إبراهيم أبو دية في القطمون، فأبلغوني بأنهما خرجا إلى القسطل، عن طريق عين كارم. لم يكن ثمة من يمكنني

الاستفسار منه واستشارته بشأن ما ينبغي علي فعله، ولم أكن أتخيل أنهم على وشك شن هجوم على القسطل، في تلك الليلة ذاتها، بين 7 و 8 نيسان، رغم ما رأيته من نشاطات ونقاط مراقبة يهودية على مواقعنا [في حي مصرارة]. وتذكرت، أيضاً، تعليمات عبد القادر الواضحة بعدم مغادرة المنطقة وعدم الانضمام لأية "فزعة" أو أية نجدة، أياً كانت، لما في ذلك من تعريض للمواقع التي تقع ضمن مسؤوليتي للخطر. قلت لنفسي: "الصباح رباح"؛ سأراقب تحركات العدو في منطقتي وسأقرر في الصباح ما ينبغي عمله.

يبدو، بنظرة إلى الوراء، أن عبد القادر تعمد اصطحاب بهجت أبو غربية معه، وكذلك المعدات التي أحضرها للهجوم، لكن أبا غربية لم يكن مدركاً ذلك فبقي عند كامل عريقات لتناول وجبة الغداء. لم ينتظره عبد القادر. وصل في المساء، بعد رحلة عبر المالحة وعين كارم، إلى محجر إليسار المهدّم عند سفح القسطل التي احتلها العرب، وهناك عقد اجتماعاً للقادة العسكريين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الرواية التي تعتبر الأكثر موثوقية عن المعركة في ذاك اليوم الدراماتيكي، والذي شهد أيضاً المعركة على مشمار هعيمق ومجزرة دير ياسين، هي تلك التي دوّنها بهجت أبو غربية عن لسان إبراهيم أبو دية، بعد ثلاثة أيام من وقوعها. جرى التوثيق في منزل إسماعيل بِك الحسيني في حي باب الساهرة، وهو المبنى الذي أصبح يُعرف لاحقاً باسم "بيت الشرق" (أورينت هاوس). كانت فيه عيادة طبية تماثل فيها إبراهيم أبو دية من الجراح البالغة جداً التي أصيب بها في القسطل. وهذا ما يرويه بهجت أبو غربية، بناء على تقرير إبراهيم أبو دية:

أعدّ عبد القادر، سوية معنا، خطة لاحتلال القسطل وتنظيم القوات. كان من المفترض أن يبدأ الهجوم بقصف بالراجمات وتم تنظيم القوات العربية في ثلاثة أجنحة: جناح من اليمين [حسب نقطة مقر القيادة، في المحجر]، أي من الجنوب الشرقي، بقيادة حافظ بركات؛ جناح من اليسار، أي من الجنوب الغربي، بقيادة المقاتل البدوي من شرق الأردن، هارون بن جازي؛ والجناح المركزي بقيادة إبراهيم أبو دية نفسه. كان المفترض أن يبقى عبد القادر في مقر القيادة في المحجر، على مسافة نحو كيلومتر ونصف الكيلومتر من قمة القرية. لم يسمح لأحد بالبقاء معه في مقر القيادة، باستثناء بعض رجال الإدارة كبار السن، بل إنه أرسل إلى جبهة القتال حارسه الشخصي عوض الترمسعاوي، الذي كان يعتبر مقاتلاً شجاعاً وكان مسلحاً برشاش "بْرِن". انضم عوض إلى القوة المركزية بقيادة أبي دية.

عند منتصف الليل، في الظلام الدامس، بدأ المقاتلون يقصفون بالراجمات: اثنتان بقطر 2 إنش واثنتان أخريان بقطر 3 إنش. كان اعتمادنا الأساسي على

راجمات الـ 3 إنش، التي كانت تستطيع إطلاق القذائف لمسافة أبعد. لكن إحداهما كانت من صنع محلي وكان ينبغي تشغيل زنادها عن بعد بواسطة حبل. تولى تشغيل الراجمات أربعة جنود بريطانيين فارين من الجيش، أصحاب عِلم وخبرة في تحديد نطاق النيران وتصويبها.

كنا حوالي 200 مقاتل، وبعد إطلاق القذائف بدأنا التقدم، تحت غطاء نيران الرشاشات. لم يكن رجالنا مدرَّبين على القتال الليلي ولم يكن القصف شديداً، فلم يكن ـ لذلك ـ ناجعاً. إلا أن اليهود كانوا واثقين من أنه هجوم جدي، ونظراً لأن رجالهم كانوا مدرّبين على القتال الليلي، فقد انسحبوا من المناطق المنخفضة في القرية متوجهين نحو القمة. هذه طريقة دفاعية معروفة باسم "المهمة الشاقة"، أي تركيز القوات عند القمة بحيث لا يكون بالإمكان اختراقها. تجمعت القوات حول بيت المختار، في بناية صلبة ذات جدران سميكة، يحدها مسجد صغير ومقبرة. كان بيت المختار يشرف على المنحدرات المحيطة بالقمة. انسحاب اليهود من المناطق المنخفضة من القرية أفسح المجال أمامنا للدخول إلى القرية، بين بيوتها، ثم الاقتراب من القمة. بقي الجناح اليميني فقط إلى الخلف. تقدم مقاتلو الجناح الشمالي، بعزم وتصميم، نحو المسجد، لكنهم تكبدوا خسائر فادحة، فسقط قتلى وجرحى وتقلصت كثيراً القدرة على التقدم.

ثم يواصل بهجت أبو غربية ويصف سير المعركة، استناداً إلى مذكرات إبراهيم أبو دية:

وصلت القوة المركزية، بقيادة إبراهيم أبو دية، إلى نقطة قريبة جداً من منزل المختار، لكنها لم تنجح في اقتحامه والدخول إليه، فتوقفت حركتها. أعدّ أبو دية عبوتين ناسفتين زنة كل منهما 40 كيلوغراماً من مادة تي. إن. تي.، تكفل أربعة مقاتلين بحملهما. كان يفترض أن يقوموا بتفجير منزل المختار. وبالفعل، تسلقوا واقتربوا كثيراً إلى الحائط الخارجي من البناية. اضطر مقاتلونا إلى الاقتصاد في الذخيرة فقللوا من إطلاق النار. تحول الهجوم إلى اشتباك ليلي تبودل فيه إطلاق النار من مسافات قريبة. كان الوقت قد أصبح متأخراً واقترب بزوغ الفجر. ساد تخوف من أن تنكشف مواقعنا مع طلوع النهار فتقع كارثة، نظراً لسيطرة العدو على القمة. وأكثر من هذا: تلقى اليهود تعزيزات بمقاتلين من بلداتهم الواقعة إلى الشمال الغربي من الجبل [كريات عنفيم]، مقاتلين صعدوا من منطقة الأحراش عند السفوح الغربية للجبل. في هذه المرحلة، قرر أبو دية إرسال مبعوث، راكضاً، إلى عبد القادر في المحجر ليطلب منه إصدار أمر إلى حافظ بركات في الجناح اليميني بالتقدم نحو قمة الجبل، بغية تشديد الضغط على اليهود على أمل إرغامهم على الانسحاب.

يُستدل من شهادته أمام بهجت أبو غربية، أن إبراهيم أبو دية لم يعلم بما حصل بعد ذلك. فالرسول الذي أرسله، راكضاً، إلى عبد القادر لم يعد إليه. تأكد من عدم حصول تقدم في الجناح الأيمن فألفى نفسه في ورطة. قُتل وأصيب كثيرون من رجاله. هو، أيضاً، أصيب وقرر الانسحاب نحو مقر القيادة. حين وصل إلى المحجر، سأل عن عبد القادر. أخبروه بأنه دخل بين بيوت القرية في طريقه لمقابلته [لمقابلة أبي دية]. "لم يصل إليّ، لم أره"، قال أبو دية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من بين القلائل الذين كانوا مع عبد القادر في المحجر في تلك الليلة وبقوا هناك حتى ساعة متأخرة، اثنان من قدامى رجاله: عبد الله العُمري، من بيت صفافا، وعلي الموَسوَس، من القدس. وقد شكلت الشهادتان اللتان أدليا بهما مصدراً ومرجعية لغالبية التقارير الفلسطينية.

عائلة العمري هي عائلة كبيرة معروفة جيداً في بيت صفافا. الطبيب د. محمد جاد الله، الذي كان والده بين مقاتلي القرية في العام 1948، يروي أنه يذكر من طفولته في القرية الشيخ جابر العمري، من عائلة عبد الله، والذي كان كبير العائلة وإمام القرية. بحكم مكانته هذه، كان على علاقة وثيقة مع المؤسسة الإسلامية في القدس ومع رئيسها، المفتي الحاج أمين الحسيني. كان عدد من أبناء عائلة العمري مشاركين ناشطين في الثورة بين 1936 و1939 وما من شك في أن عبد الله كان أبرزهم. كان أحد المقربين من عبد القادر سنة 1936، بل وأصيب بجراح في معركة الخضر. في تلك المعركة، وقع عبد الله في الأسر وهو مصاب وتم نقله إلى المستشفى البريطاني العسكري في القدس للعلاج، ومكث فيه مع عبد القادر في غرفة واحدة. هذا ما رواه قاسم الريماوي الذي زارهما هناك. في العام 1948، كان عبد الله العمري، وهو في الأربعين من عمره تقريباً، أكبر مقاتلي بيت صفافا، بل قائد القرية فعلياً. قاد شبان بيت صفافا في عدد من المعارك، إلى جانب إبراهيم أبو دية، الذي تقع قريته، صوريف، على مسافة بضعة كيلومترات إلى الجنوب من بيت صفافا.

يذكر د. جاد الله أن كثيرين من قريته، بيت صفافا، كانوا يذمّون عبد القادر الحسيني ويطعنون بشخصه. كانوا يقولون إنه متعجرف، ابن عائلة مقدسية ثرية يتكبّر عليهم. وهو يذكر اليوم الذي عُلم فيه نبأ وفاة عبد القادر في القسطل. قالوا آنذاك إن بريطانياً أطلقت عليه النار بدم بارد بينما كان خالداً للراحة. لكن روايات أخرى كانت قد شاعت بين الفلسطينيين في تلك الأيام، من بينها، مثلاً، أن البريطانيين خانوا عبد القادر وتسببوا بمقتله. ولم تكن تلك الرواية الوحيدة التي انتشرت دون أن تكون مسنودة بحقائق.

الشخص الثاني الذي بقي برفقة عبد القادر في المحجر هو علي الموسوس. كان علي من عائلة مقدسية صغيرة، كان في صغره عاملاً متتلمذاً في مرأب لتصليح السيارات، ثم انضمّ فتىً إلى مجموعة الثوار بقيادة عبد القادر. وقد روى قريب العائلة، عائد الموسوس، الذي يعمل في قسم الإعلانات الدعائية في صحيفة القدس، أن أبناء العائلة تناقلوا في حينه نبأ مفاده أن رجال شرطة بريطانيين هددوا في العام 1938 بإعدام علي، الفتى آنذاك، لأنه ضُبط وهو يحمل السلاح. وروى، أيضاً، أن عليّاً أصيب بجراح طفيفة في معركة القسطل وكان من بين أولئك الذين اكتشفوا جثمان عبد القادر وأنه، مثل آخرين، انحنى عليه وهو يبكي بمرارة. بعد العام 1948، كان علي الموسوس يمتلك مرآباً صغيراً بجانب مسجد سعد وسعيد. وفي وقت لاحق، هاجر إلى الكويت وحقق فيها نجاحات كبيرة. خلال حرب الخليج الأولى (1991) انتقل إلى الأردن وبقي فيها حتى توفي في عمّان، قبل سنوات قليلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مكث عبد القادر في المحجر نحو ساعتين أو أكثر قليلاً، بصحبة رفيقيه القديمين وعدد آخر من الفتية، كما يبدو. كان مرهَقاً، متوتراً وعصبي المزاج، بعد الجدالات الحادة في دمشق والسفر المنهك إلى القدس. كان مقطوعاً عن مقر قيادة الجهاد المقدس وعن رجاله طَوال 12 يوماً متتالية وكان نبأ احتلال اليهود قرية القسطل مفاجأة كبيرة له. قبل ذلك بأيام معدودة، كان قد وصل إلى دمشق يغمره شعور بالرضى والنجاح، بعد تلقيه الأنباء عن الانتصار والغنائم في معركة الدهيشة وعن النجاح في إيقاع إصابات بالغة بالمحاربين اليهود في المعركة قرب قرية خُلدَة ـ المعركة التي استطاع فيها العرب وقف قافلة متجهة إلى القدس، يوم 31 آذار. في تلك المعركة، استولى العرب على غنائم كثيرة.

من شبه المؤكد أن عبد القادر سمع من مقربيه، وخصوصاً من قاسم الريماوي الذي رافقه إلى دمشق، أن انتقادات شديدة وُجِّهت إليه في القدس، من وراء ظهره، في أعقاب سقوط القسطل ـ كيف يترك ساحة القتال التي هو مسؤول عنها ويغيب عنها لفترة طويلة كهذه؟ ثمة تلميح إلى هذا في مذكّرات بهجت أبو غربية، الذي خشي أن يسأله، في صباح عودته، إن كان قد جلب السلاح الذي تعهد بإحضاره أم لا.

من وجهة نظر عبد القادر، أثبت تركيز القتال في طرق المواصلات، خلال أشهر الشتاء، فاعليته وجدواه في جميع الشوارع المحيطة بالقدس، وخصوصاً في الشارع الرئيسي إلى تل أبيب. لكنه كان خائب الأمل من أن رجاله لم ينجحوا في إعادة احتلال القسطل على مدى خمسة أيام كاملة، منذ أصدر

الأمر بذلك من دمشق. والآن، في الليل، فور عودته مباشرة، كان عاقد العزم على تنفيذ الهجوم، وليكن ما يكون.

من المثير أن عبد القادر لم يكشف عن نيته الخروج إلى القسطل حتى للشخص الذي كان مقرباً منه كثيراً وعلى مدار سنوات عديدة، بهجت أبو غربية، الذي التقاه في ساعة مبكرة من صباح يوم الأربعاء، قبل انطلاقه إلى المعركة. ربما كان ينوي إخباره، إلا أن أبا غربية تأخر ولم يعد إليه في الوقت المناسب. كذلك نائبه، كامل عريقات، الذي عاد مصاباً من القسطل وظل ملازماً فراشه في أبو ديس، لم يعرف شيئاً عن مبادرة عبد القادر المتجددة لمهاجمة الجبل. لم يجنّد عبد القادر لهذه المعركة هذين الشخصين، من كبار رجاله، ولا قيادات وفرقاً أخرى، مثل مجموعة عبد الحليم الجولاني من الخليل، أو محمد عادل النجار ورجاله من حي وادي الجوزـ أو بعض الوحدات القريبة من البلدة القديمة، نسبياً، والأكثر بعداً، مثل مجموعة حسن سلامة، من منطقة وادي الخليل.

ليس ثمة شك: في المعركة الأخيرة في حياته، تصرف عبد القادر بتسرع، بل بتهور، من دون استشارة أي من مقربيه. خرج، في ساعة متأخرة من الصباح، من منزل شقيقه إلى البلدة القديمة ومن هناك إلى جنوب القدس، إلى مقر قيادة إبراهيم أبو دية، في حي قطمون. هناك، جمع من البيئة القريبة مجموعة صغيرة من القادة والمقاتلين وتوجه، سوية معهم، إلى قرية عين كارم الكبيرة، عبر الطريق الالتفافي حول القدس، من الجهة الجنوبية، ثم واصل الصعود من هناك إلى مواقع الوحدات، غير الكبيرة، التي كانت قد تمركزت على أطراف القسطل.

الوحدة العربية الأبرز التي أخلت مواقعها واستُدعِيت إلى معركة القسطل هي وحدة القائد البدوي من شرق الأردن، هارون بن جازي. أحضر جازي معه مجموعة من المتطوعين وجنّد عدداً من الشبان من قرى المنطقة. خاضت هذه الوحدة المعارك من أجل إغلاق الشارع إلى القدس، على طول وادي علي، من باب الواد حتى بداية الصعود إلى المضخات العليا في ساريس (بين شورِش وشوئيفا، اليوم). وسواء أكان احتلال اليهود القسطلَ عملية خططت لها منظمة الهاغناه بهدف نقل المعارك من وادي علي الضيق، أم عملية ارتجالية حصلت صدفة، فقد شكلت في نظر عبد القادر مفاجأة تبعث على الغضب: أرغمه الأمر على نقل المعركة ضد القوافل ـ التي أدارها هارون بن جازي ورجاله من التلال ومن حول المضخات التحتا ـ إلى الشرق نحو الجبال، نحو القسطل. كان هارون بن جازي ورجاله قريبين، نسبياً، وكان من السهل تفعيلهم من الاتجاه الذي أتوا منه، من كلا جانبيّ الشارع الواقع إلى الغرب من القسطل.

التقارير التي جمعها عيسى بن خليل محسن حول ليلة المعركة شبيهة بتلك التي رواها أبو دية لبهجت أبو غربية. لكنه يضيف إليها بعض التفاصيل، مثلاً ـ عن لقاء جرى في عين كارم، في الطريق إلى القسطل، بين عبد القادر الحسيني وعبد الفتاح درويش من المالحة، والذي طلب فيه درويش من عبد القادر، خلاله، عدم الدخول في معركة هو غير مستعد لها. لكن عبد القادر ردّ عليه بجواب وطني متعجرف: "نحن نقدم لفلسطين دماءنا وأرواحنا، لن نقتصد ولن نبخل في هذا". بحسب هذا التقرير، على الأقل، كان عبد القادر يدرك أنها معركة لا أمل فيها، معركة يخوضها رجاله بسلاح قديم، من دون ذخائر مناسبة، بينما تقف مقابلهم قوة يهودية منظمة ومزودة بأفضل ما يمكن.

جاءت التقارير عن التخلف الفلسطيني في التجهيزات والتنظيم متأخرة في الغالب، بعد سنوات عديدة، في سياق الشرح لأسباب الإخفاق وموت عبد القادر. لكن، لا يبدو أن تلك التقارير تنطوي على مبالغة كبيرة. فجميع التقارير العربية تحكي عن مشاركة طائرات يهودية في المعارك التي جرت حول القدس. صحيح أنها كانت طائرات خفيفة، معدة لأغراض الاستطلاع والإمداد في المقام الأول، لكن جرى استخدامها لإلقاء القنابل أيضاً، من حين إلى آخر. وعلى الرغم من أن مساهمتها في القوة اليهودية لم تكن على درجة من الأهمية، إلا أن مشاركتها في المعارك تركت أثراً كبيراً على العرب وعمقت شعور التخلف لديهم.

حتى أجهزة الاتصال لم تكن متوفرة لدى العرب. فقد أدار عبد القادر المعركة من مقر القيادة في محجر اليشار، بواسطة مراسيل راكضين كان يوفدهم إلى القوات الثلاث المهاجمة ومنها إليه، ذهاباً وإياباً. كان الجهد المركزي لاقتحام بيوت قرية القسطل من الجنوب، من الجنوب الشرقي ومن الجنوب الغربي، لأن القطاع الجنوبي بكامل عرضه كان تحت سيطرة عربية (عين كارم، صوبا، صطاف، خربة اللوز). أما في القطاعات الأخرى، وخصوصاً من الغرب والشمال الغربي، فقد كانت مواقع بلدتيّ كريات عنفيم ومعاليه هحميشا اليهوديتين، ومن الشرق مركز الاستجمام أرزه وبلدة موتسا عيليت. ويبدو أن ثمة هنا تفسيراً لسبب عدم إشراك عبد القادر المقاتلين العرب الذين كانوا في قرية قالونيا، الملاصقة لموتسا التحتا، في معركة القسطل، علماً بأن الصعود من قالونيا إلى القسطل صعب وحاد جداً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غادر عبد القادر في الساعة الثانية من قبل فجر يوم الخميس، 8 نيسان، في ليلة مظلمة وباردة، مقر القيادة في المحجر وغذّ الخطى نحو بيوت القرية. يبدو أنه كان يفهم جيداً صورة الوضع في المعركة، بما فيها من تقدم قوة

هارون بن جازي من الجنوب الغربي بصورة جيدة، واقتراب رجال إبراهيم أبو دية في الوسط من قمة الجبل، بينما كانت تتخلف قوة حافظ بركات أبو الفيلات، القادمة من الجنوب الشرقي. تنقل بين بيوت القرية، وحيداً معظم الوقت، شرقاً وغرباً، يلتقي المقاتلين ويحثهم على القتال. في حالة واحدة، على الأقل، التقى حارسه الشخصي عوض الترمسعاوي، حامل رشاش البْرِن، الذي أُلحق بقوة أبي دية.

روى ترمسعاوي لفيصل الحسيني، نجل عبد القادر، بعد سنوات عديدة، في 1985، إنه التقى عبد القادر، في تلك الليلة، بينما كان يتجول بين بيوت القرية. كانوا قريبين جداً من منزل المختار، كما روى عوض، فأمر عبد القادر اثنين من المقاتلين بالزحف مع العبوات الناسفة وإلصاقها بجدار منزل المختار. عاد أحدهما وقال إنهما لم يفلحا في إشعال فتيل التفجير، لأن أعواد الثقاب التي كانت بحوزتهما كانت مبللة. عندها، ألقى عبد القادر على عوض الترمسعاوي مهمة تنفيذ العملية وإشعال الفتيل بواسطة سيجارة مشتعلة. وأضاف ترمسعاوي إنه حاول رفض التنفيذ، لأنه لم يرغب في ترك عبد القادر وحده في تلك الزاوية من القرية، لكن عبد القادر غضب وقال: هذا أمر، وإن لم تتحرك، فسأطلق النار عليك. انطلق ترمسعاوي، لكنه تعثر في ساحة المنزل، سقط على "طابون" وأغمي عليه. هب آخرون لنجدته لاحقاً وساعدوه في الخروج من هناك والعودة إلى المحجر.

في مرحلة لاحقة، التقى عبد القادر فتيين من قرية بيت فجار كانت بحوزتهما بندقية واحدة. انضما إليه في محاولة للعثور على العبوة الناسفة التي بقيت في ساحة منزل المختار. كانت تلك المنطقة تحت مسؤولية قوة حافظ بركات، التي تخلفت في عملية الاقتحام، ويبدو أن عبد القادر، الذي تلقى بلاغاً من الرسول إلى إبراهيم أبو دية، قد قرر تحفيز رجال بركات.

في ذلك الوقت، بين الرابعة والخامسة فجراً، توجه عبد القادر شرقاً، عقب فشل محاولة تفجير بيت المختار. كان بعض رجال لواء عتصيوني، من بينهم مئير كَرْميول، متمركزين على شرفة منزل إلى الشرق من بيت المختار. انتبه هؤلاء إلى عبد القادر فظنّ كرميول إنها تعزيزات قد أُرسِلت إليهم. نادى كرميول صوب عبد القادر: "أهلاً يا جماعة" (أو: "مرحبا يا جماعة")، وهي تحية عربية كانت دارجة على ألسن اليهود أيضاً. هذا ما ورد في شهادة يعقوب سلمان، قائد كرميول، الذي كان يقف بجواره (كرميول نفسه قُتل بعد ذلك بساعات قليلة). عندئذ، سمع سلمان عبد القادر يجيب، بالإنكليزية: "هالو بويْز".

شكلت حالة الارتباك والشهادات التي أفادت بأن عبد القادر ردّ بالإنكليزية "هالو بويز"، في سنوات لاحقة، مصدراً لسلسلة من القصص الشعبية

والشائعات التي انتشرت بين الفلسطينيين ـ وجميعها لا أساس له من الصحة، في الحقيقة ـ عن أن موت عبد القادر كان نتيجة مؤامرة دبرها البريطانيون. خلال السنوات التي قضيتها في جمع المعلومات والوثائق عن تلك الليلة، قال لي وزير سابق في الحكومة الفلسطينية في رام الله: "عليك أن تفحص جيداً لماذا قال عبد القادر "هالو بويز"، فربما كانت هذه شيفرة سرية ما؟". من المحتمل أن يكون عبد القادر قد انتبه إلى اللهجة الغريبة في جملة المتحدث بالعربية (مرحبا يا جماعة) فظنّ أنه أحد الجنود البريطانيين الثلاثة الذين انضموا إلى قواته كمرتزقة.

كرر يعقوب سلمان، في العديد من المناسبات، إنه كان، شخصياً، أول من أدرك أن هؤلاء عرب وليسوا تعزيزات يهودية قادمة إليهم: نادى كرميول قائلاً: "مئير، هؤلاء عرب!"، فردّ هذا بإطلاق صلية من رشاش "سْتِن" الذي كان يحمله نحو عبد القادر والفتيين من بيت فجار.

لم يكن المحاربون اليهود يعرفون في تلك الساعة، وكذلك على مدى بضع ساعات أخرى لاحقة، أنهم قد اصابوا القائد المعروف عبد القادر الحسيني. بقي ممدداً جريحاً يحتضر لأكثر من ساعة كاملة. شهد سلمان بأنه سمعه يهمس بالإنكليزية "water, water" مرات عدة. لم يغادر سلمان ورفاقه موقعهم، على الشرفة، لمعاينة حالة عبد القادر المحتضر. كانت المسافة الفاصلة بينهما نحو 20 متراً وكانت المنطقة مكشوفة وعرضة لإطلاق النيران. شهد قائد آخر في لواء عتصيوني، هو مردخاي غزيت، الذي أصبح فيما بعد مديراً لديوان رئيس الحكومة، بأنه كان واضحاً لهم أن الرجل هو مقاتل عادي. عندما انبلج ضوء الفجر وتوقف إطلاق النار، اقتربوا من القتيل، تفحص غزيت ملابسه وأغراضه فعثر على رخصة سياقة، لكنه أخطأ في قراءة الاسم بالعربية. قرأ "عبد القادر موسى سليم"، اسم والد عبد القادر واسم جده، لكنه لم ير اسم العائلة، الحسيني.

وصل عوزي نركيس، قائد "بلماح" في المنطقة، إلى المكان في حوالي الساعة الثامنة صباحاً، عبر كريات عنفيم، أي بعد نحو ثلاث ساعات ونصف الساعة ومن إصابة عبد القادر بالعيارات النارية. شهد نركيس بأنه لم يعلم أن القتيل هو عبد القادر الحسيني إلا بعد بضع ساعات، من خلال جهاز الاستخبارات التابع للهاغناه. غادر نركيس القسطل، لكن بعد أن أخذ القرآن المذهب الذي كان في جيب عبد القادر. ويقول سلمان، الذي أصبح من كبار المسؤولين في وزارة المالية وفي بلدية القدس، إن عوزي نركيس أراد أن يأخذ، أيضاً، المسدس الفاخر الذي كان بين أغراض عبد القادر، فثار جدل بين الحضور في المكان انتهى إلى فوز مئير كرميول بالمسدس، فثبّته في حزامه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

13

إرث المعركة

زرت بيت فجار، القرية الواقعة على الطريق إلى الخليل مقابل كفار عتصيون في خريف 2012. توقفتُ في حانوت البقالة الأول على الشارع الرئيسي. كان هناك عدد من الرجال المسنين. سألتهم إن كانوا يعرفون قصة الفتيين من القرية اللذين كانا مع عبد القادر الحسيني في القسطل. عرفوا، على الفور، من أقصد: الشقيقان جابر وإحسان خليل الحيان. وقد استطعت، من خلالهم، العثور على معظم أبناء عائلة حيان المقيمين في خربة أم سلمونة، التي هي جزء كبير من قرية بيت فجار، على الشارع المؤدي إلى (مستوطنتي) «تكواع» و«الفرديس». توفي الشقيقان جابر وإحسان قبل سنوات وقد سمع أبناؤهما وأحفادهما، بالطبع، تاريخ معركة القسطل، لكنهم لم يستطيعوا الإدلاء بتفاصيل إضافية أخرى عن تلك الليلة إياها.

روى الفتيان من بيت فجار، اللذان عادا إلى مقر القيادة في المحجر، أنهما كانا بصحبة عبد القادر لكنهما لا يعرفان ماذا حدث له بالضبط. يبدو أنهما كانا يخشيان البوح بحقيقة أنه أصيب وأنهما تركاه لحاله؛ أي تخليا عنه. هوية الفتيين غير مذكورة في التوثيقات الفلسطينية، لكن أبناء عائلة عبد القادر استمعوا منهما إلى روايتهما عما حصل في تلك الليلة، بعد سنوات عديدة.

إسحق نافون، الذي أصبح رئيساً لدولة إسرائيل، كان في تلك الفترة مسؤولاً عن جهاز الاستخبارات التابع للهاغناه في منطقة القدس. قال، في شهادة متأخرة، إن رجاله سمعوا في ذلك الصباح، من مصادر مختلفة ومن التنصت على هواتف، أن «شيئاً جدياً» يحدث في الشارع العربي. لكنّ وقتاً طويلاً، نسبياً، مرّ حتى استطاعوا التأكد والجزم بأنّ عبد القادر الحسيني قد مات. شرعوا في بث النبأ عن موت عبد القادر في ساعة متأخرة من ذلك اليوم وكانوا، كما يبدو، أحد المصادر الأولى التي نشرت هذا النبأ بين الجمهور العربي، الذي لم يعلم بالأمر إلا في ساعات ما بعد الظهر.

اتصلت قيادة الهاغناه في القدس، بعد التأكد من أن القتيل هو عبد القادر الحسيني، بقواتها المتواجدة في القسطل وطلبت منها إنزال الجثمان إلى الشارع كي تأخذه سيارة سيتم إرسالها خصيصاً من القدس إلى هناك. أثار هذا الطلب غضباً عارماً بين أعضاء القوة في القسطل، كما أفاد قائدها يعقوب سلمان، لأن القيادة كانت تدعي أمامهم، كل الوقت، بأنه ليس هنالك ما يكفي من السيارات لإيصال العتاد والتعزيزات إلى القسطل، وها هي تجد الآن، فجأة، كل ما يلزم من أجل جثمان عبد القادر. في نهاية المطاف، لم

يُنزل جنود القوة الجثمان إلى الشارع، كما طلبت القيادة من القدس، بل تركوه على الجبل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يذكر الخبر الذي ذاع بين الجمهور العربي في فجر يوم الخميس إياه، 8 نيسان، أن عبد القادر قد قُتل، بل قال إنه مفقود، مُحاصَر في مكان ما بين منازل قرية القسطل؛ أي أنه ينبغي التوجه إلى القسطل على وجه السرعة من أجل إنقاذه وإخراجه من هناك. وهكذا بدأت نداءات «الفزعة»، الأكبر خلال حرب العام 1948 كلها ربما، وفي منطقة القدس على وجه الخصوص، بالتأكيد.

شملت «الفزعة» جميع حدود القدس، من الخليل في الجنوب، أبو ديس في الشرق، رام الله في الشمال والرملة في الغرب. كان رجال المقاتل العريق عبد الحليم الجولاني (شلف)، من جبل الخليل، أول الواصلين إلى هناك. اتخذوا مواقعهم عند سفوح قرية صوبا، وبعد الساعة التاسعة صباحاً بقليل بدأوا عمليات القنص باتجاه القسطل. ثم وصل بعدهم، تباعاً، جميع مجموعات الجهاد المقدس وجموع المتطوعين القرويين. بلغ عددهم الإجمالي، حسب التقديرات، نحو ألف رجل.

يصف بهجت أبو غربية، في مذكراته، ما حصل:

في صباح يوم الخميس، 8 نيسان، جاءني رسول حثّني على الإسراع إلى إنقاذ عبد القادر المحاصَر في القسطل. كنت مصدوماً. رتبتُ أموري على الفور وأصدرت الأوامر إلى رجالي في مصرارة وسعد سعيد ليكونوا على أهبة الاستعداد وعدم مغادرة مواقعهم في أي حال من الأحوال. جمعتُ ثلاثين شخصاً من أفضل المقاتلين في باب الساهرة وأخذتُ رشاشيّ «براوننغ» وأربعة رشاشات «بْرِن». توجهت إلى الطبيب د. مهدي الحسيني وزوجته وممرض كان يعمل في عيادتهما. ارتدوا المعاطف البيضاء وربطوا على أذرعهم أشرطة عليها شعار «الهلال الأحمر»، ثم طلبت منهم مرافقتي إلى القسطل.

استقلينا مدرعة، أخذتها من كمال عريقات قبل ذلك بيوم واحد، وشاحنة أخرى. بنيتُ خطتي استناداً إلى معرفتي الجيدة بمنطقة القسطل منذ أيام صباي في المدرسة وفي حركة الكشافة العربية. قررتُ الدخول إلى القسطل من الجهة الشمالية، من قريتي بدو وبيت سوريك. في هذا الطريق، بالإمكان الوصول بسرعة، بالسيارات، واستغلال عنصر المفاجأة أمام اليهود في القسطل، حيث أن جميع القوات الأخرى جاءت من الجنوب، من صوب

عين كارم، في الطريق الصعب الذي لا يمكن المرور فيه سوى بواسطة سيارات الجيب فقط.

خرجنا من القدس في حوالي العاشرة. كان برفقتي، أيضاً، الضباط شفيق نشاشيبي، من الحرس على باب الساهرة، يحيى زواوي، والشيخ إدريس البكري، وسائق المدرعة علي أبو غنام وآخرون. وصلنا إلى قرية بدو وفكرت في إمكانية السفر عبر الطريق المحاذي لبلدة معاليه هحميشاه اليهودية، لأننا كنا نسافر في مدرعة يهودية، فظننت أن بإمكاننا العبور بواسطتها من بين القوات اليهودية من دون أن نثير شكوكهم، فنصل بذلك إلى شارع القدس ـ يافا مباشرة، ومنه إلى القسطل صعوداً. رأى رجالي أن في ذلك مغامرة خطيرة، فواصلنا الطريق إلى بيت سوريك. من هناك، كانت الحركة بالسيارات مستحيلة فبدأنا التقدم مشياً على الأقدام، بمرافقة شبان من بيت سوريك.

عند بداية الطريق، اقترب منّا شخص ما وصرخ أن اليهود يشنون هجوماً على النبي صموئيل، بعد أن هاجموا بيت إكسا. النبي صموئيل هي نقطة إستراتيجية تفوق أهميتها أهمية القسطل ذاتها حتى. صعدنا على المدرعة والشاحنة ثانية، دون أي تلكؤ، وتوجهنا نحو النبي صموئيل. لم نجد هناك أي هجوم يهودي ولا حتى محاربين، سوى عدد من أهالي بيت إكسا الذين قالوا إن اليهود هاجموا القرية وفجروا الكثير من بيوتها، لكن السكان نجحوا في صدهم ودحرهم. عندئذ، عدنا، مشياً على الأقدام، صوب القسطل.

حذّرَنا أهالي بيت سوريك من النيران المكثفة التي يطلقها اليهود من أعالي القسطل، غير أننا استخدمنا نيران الرشاشات غطاء لنا وتقدمنا إلى القسطل من جهتها الشمالية فوقع اليهود في فخ المفاجأة، لأن الهجوم الأساسي على مواقعهم كان من الجهة الجنوبية. هجومنا من الجهة الشمالية سدّ إمكانية استدعاء اليهود أي تعزيزات إلى القسطل من جهتي الشرق والغرب ووضع قواتهم في القسطل في مرمى نيران مكثفة جداً من جهتي الجنوب والشمال. حيال ذلك، أخذوا يتراجعون وينسحبون نحو الغرب، عبر المنطقة الحرشية في سفوح القسطل، فأصبحوا هناك مكشوفين تماماً أمام نيراننا. قُتل منهم كثيرون وكلما تقدمنا نحو القمة أكثر، عبر الطريق الحرشية ذاتها، رأينا المزيد والمزيد من جثث قتلاهم. ثم وجدنا قتلى يهوداً آخرين في قمة الجبل، أيضاً. رأينا في أحد المواقع 11 قتيلاً وجريحاً واحداً. حاول الطبيب د. مهدي عبد الهادي [الحسيني] إسعافه ومعالجته، لكن دون نجاح، فتوفي. عند قمة الجبل، التقينا بالمهاجِمين من الجهة الجنوبية. رأيتُ بينهم صديقي محمد عادل النجار ورجاله من حي وادي الجوز. غمرتنا الفرحة باستعادة القسطل ثانية. كانت خسائرنا قليلة، بينما كانت جثث العدو ملقاة في كل الاتجاهات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رُفع العلم العربي فوق القسطل فأثار انفعالاً شديداً. هو تصميم لعلم مستوحى من نموذج العلم الذي رفعه الشريف حسين من مكة، سليل العائلة الهاشمية، خلال الثورة ضد الإمبراطورية العثمانية إبان الحرب العالمية الأولى. في العلم أربعة ألوان: ثلاثة خطوط بالأبيض، الأخضر، والأسود ومثلث باللون الأحمر، انسجاماً مع كلمات قصيدة قومية عربية قديمة (قصيدة صفي الدين الحلي «سَلي الرّماحَ العَوالي عن معالينا»): «بيضٌ صنائعنا، سودٌ وقائعنا، خُضرٌ مرابعنا، حمرٌ مواضينا». وهو العلم الذي تبنته منظمة التحرير الفلسطينية لاحقاً، وهو مشابه للعلم الأردني.

وصل خبر احتلال القسطل إلى القدس اليهودية ففجر موجة من الفرح العارم، لكن الفرحة لم تدم سوى ساعات قليلة فقط. كذلك كانت فرحة العرب الذين احتلوا القسطل، أيضاً. فقد جاء شخص ما، كما روى بهجت أبو غربية، وأنبأ بأنه تم العثور على جثة عبد القادر الحسيني. عثروا عليها في الساعة الرابعة بعد الظهر، تقريباً. الشخص الذي اكتشفها هو، على الأرجح، نادي دعيس، من شبان شعفاط. كانت ملقاة في الجزء الجنوبي الشرقي من القرية، على بعد مائة متر عن منزل المختار. روى أبو غربية أنه كان مصدوماً تماماً:

جلستُ على الأرض مصدوماً وحزيناً وفكّرت: ماذا سيحدث الآن؟ أمرتُ رجالي بعدم الذهاب لرؤية جثمان القائد، لأنني كنت قلقاً على معنوياتهم. بقيت على هذا الحال لبعض الوقت، سوية مع محمد عادل النجار، محاطَيْن برجالنا. مسكوناً بالحزن والألم، ظننتُ أن بانتظارنا مستقبلاً أسود من السواد. بقينا ضعفاء بعد هذه المعركة القاسية التي انتهت فيها حياة الشجاعة والتضحية التي كان يمثلها القائد في الدفاع عن الوطن المقدس. فقدنا شخصية عظيمة؛ فقدنا عمادَ مقاتلي الجهاد المقدس ومقاتلي فلسطين عامةً. بقي فراغ كبير. بكينا فلسطين حين بكيناك في القسطل. قلتَ لي ذات مرة إنهم لن يمروا إلا على جثثنا، وها قد أوفيتَ عهدك. لم يمروا في القسطل إلا على جسدك الميت. نعاهدك أن نحرر كل مليمتر من فلسطين، كما حررنا القسطل اليوم.

جاء إلى القسطل، أيضاً، شقيق عبد القادر، سامي. يروي نجل فيصل الحسيني، الحفيد عبد القادر، أن الجثة ـ كما روى سامي ـ كانت، حين العثور عليها، في وضعية الركوع بينما اليدان تمسكان بجرح في البطن.

كانت الضربة المعنوية قاسية جداً وغير محتملة. عندما نقل جثمان القائد إلى القدس، رافقه المقاتلون الذين غادروا قطاع القسطل، بكامله. كان منظر

الحشود المتوجهة إلى القدس باعثاً على الخوف وترك أثراً عميقاً في نفوس عشرات المقاتلين العرب الذين ظلوا هناك للدفاع عن القسطل.

في ذلك اليوم، وقبل حلول الظلام، وصل إلى قرية القسطل المحامي أنور نسيبة، سكرتير اللجنة الوطنية في القدس. نسيبة، الذي أصيب لاحقاً، يوم 15 أيار، بجروح بالغة جراء عيارات نارية بالقرب من نفيه يعقوب، مما استدعى إخضاعه لعلاج متواصل شمل سلسلة من العمليات الجراحية ا جرى خلالها بتر إحدى ساقيه، ترك وراءه دفتر يوميات مفصلة حول الأحداث التي وقعت في ذلك اليوم الأليم والسريع في سياق المعركة الفلسطينية على القدس. وقد كتب نسيبة، في يومياته، أنه في صباح يوم الخميس، 8 نيسان، حضر إلى مكتبه القائم قرب باب الساهرة (قرب بناية البريد عند رأس شارع صلاح الدين) حافظ بركات أبو الفيلات، ثم تبعه على الفور عوض ترمسعاوي. كانا قد وصلا للتو من القسطل وأخبراه بأنهما نزلا إلى مقر القيادة في المحجر مع طلوع الفجر، حال توقف الهجوم على القسطل، لكنهما لم يجدا عبد القادر هناك. "يبدو أنه ما زال في القسطل ويواجه صعوبات جمّة وكبيرة"، قال بركات. "دخل إلى البيت الأول في القرية قبل أن يتمكن أي من الرجال من الانضمام إليه، فأصبح معزولاً عن قوتنا"، أوضح. لاحظ نسيبة أنهما خائرا القوى تماماً، فمنذ ليلتين كاملتين لم يغمض أي منهما عينيه.

كان واضحاً أن عليهما العودة إلى القسطل لمعاينة ما جرى هناك ولتقصّي مصير عبد القادر. رتبا، على وجه السرعة، إحدى المدرعات التي كانت قد أُخِذت من الهاغناه خلال معركة الدهيشة، قبل ذلك بأسبوعين، وانطلقا فيها، سوية مع نسيبة الذي انضم إليهما.

يعبّر الوصف الذي أورده نسيبة للطريق من البلدة القديمة إلى القسطل، أيما تعبير، عن مدى الصعوبة التي كان يلاقيها العرب في الوصول إلى المكان. خلافاً لبهجت أبو غربية، الذي انطلق في تلك الساعة ذاتها للالتفاف على الأحياء اليهودية في غرب المدينة (من سنهدريا وكيرم أبراهام حتى تلبيوت ومكور حاييم) من الجهة الشمالية، قرر نسيبة ورفيقاه الالتفاف على الأحياء اليهودية من الجهة الجنوبية. كانت تلك الطريق شائكة، متعرجة وخطيرة. في البداية، هبطوا من البلدة القديمة جنوباً في اتجاه بيت صفافا، وهناك تعرضوا لنيران القنص من حي مكور حاييم اليهودي. ثم صعدوا في اتجاه المالحة، وهناك تعرضوا لنيران أطلقت عليهم من حي بايت فَجان. من هناك هبطوا في منحدر حاد إلى عين كارم، وهي الطريق القائمة حتى اليوم أيضاً، على المنحدر الحرشيّ، مقابل قمة "جبل هرتسل" ومتحف "ياد فَشيم". من عين كارم، كان عليهم الصعود مشياً على الأقدام إلى صطاف ومحجر القسطل، في طلعة حادة وصعبة.

في عين كارم، في ساعات ما بعد الظهر، علموا بمقتل عبد القادر. تم العثور على جثته. هكذا أبلغ نسيبة مقاتلون من الجهاد المقدس عادوا من المعركة "بفرح النصر ممزوج بحزن عميق".

رأى نسيبة في مقر القيادة الذي أقامه عبد القادر بصورة ارتجالية في المحجر، مصابين كثيرين يتم إخلاؤهم على الحمير لنقلهم إلى عين كارم للعلاج. كان بعضهم يحتضر. بين بيوت القرية، التقى نسيبة القادة عبد الحليم الجولاني (سلف)، الذي كان يناديه "أبو زيدان"؛ محمد عادل النجار، قائد وادي الجوز؛ وبهجت أبو غربية، الذي لم يتماثل للشفاء تماماً بعد من الإصابة النارية في الصدر وكان لا يزال صدره مضمَّداً. كان نسيبة يعرف أبو غربية معرفة جيدة، لأنه كان محاميه الذي مثّله قبل ذلك ببضعة أسابيع حين اعتقله البريطانيون بتهمة حيازة السلاح. لماذا خرجت إلى المعركة وأنت مصاب؟ سأله نسيبة. تبادل الرجلان التعازي بفقدان القائد.

إلى جانب ذلك، عبر نسيبة عن غضبه واستيائه مما رأت عيناه: حشود المقاتلين الذين انتصروا في المعركة يهجرون القسطل بعد ساعات قليلة فقط، ولا يلتزمون مواقعهم للدفاع عن المكان. "إنهم يعودون إلى قراهم لأنه عليهم الدفاع عن بيوتهم والاهتمام بشؤون عائلاتهم"، أجابوه. إذا استدعت الحاجة فزعة أخرى، فسيعودون إلى القتال. شعر نسيبة بغضب شديد جراء المغادرة الجماعية من قبل المقاتلين الذين أخلوا القسطل بعد وقت قصير جداً من الانتصار وبعد التضحية العظيمة بموت القائد وكثيرين من المقاتلين الآخرين.

يواصل بهجت أبو غربية تسجيل شهادته:

سألني نسيبة: ماذا ستفعل الآن؟ قلت: سأبقى هنا في القسطل. فردّ: لكنك لم تُشفَ من الإصابة بعد. ما زال صدرك وبطنك مضمَّدين بالكامل. يمكنك إصدار أوامر إلى رجالك بأن يبقوا هنا، بينما تعود أنت إلى القدس. قلت له إنني لن أستطيع فعل هذا. لن أترك رجالي وحدهم وسأبقى هنا مع محمد عادل النجار والمقاتلين الآخرين. سأل عما يمكنه أن يفعل من أجلنا، فقلت: ثلاثة أشياء ـ غذاء، ذخيرة وقوة مقاتلين تحل مكاننا في الدفاع عن القسطل غداً صباحاً. وهكذا، بقينا في ذلك اليوم وحدنا، 40 مقاتلاً، على قمة القسطل التي أصبحت خاوية. رجالي ورجال محمد عادل النجار، فقط.

ترك محمد عادل النجار، هو الآخر، مذكراته عن تلك الساعات في القسطل، حين تبين، نهائياً، أن عبد القادر الحسيني قد قُتل. كان النجار، ابن العائلة المقدسية من حي وادي الجوز، في الثلاثين من عمره آنذاك. يذكر قريبه، بروفسور إسكندر النجار، أستاذ الاقتصاد في جامعة القدس سابقاً، أنه سمع

في صباه أن محمد، الذي كان فتى مشاغباً، أرسِل إلى دار للأيتام في نابلس عقب طلاق والديه وهناك تعلم الخياطة. لدى عودته إلى القدس، في العام 1935، عمل لفترة من الزمن مساعد خياط لدى يهودي يدعى غولدشطاين، في شارع بن يهودا في القدس. بعد سنوات كثيرة، قال محمد عادل النجار، في مقابلة صحافية، إنه تعلم اللغة العبرية وأصبح يجيدها. ذات يوم، حضر بريطانيون لاعتقاله بشبهة المشاركة في نشاطات الثورة الكبرى، لكن غولدشطاين أبلغهم بأنه ليس الفتى العربي الذي يبحثون عنه، وإنما هو فتى يهودي يدعى يعقوب مزراحي.

بعد ذلك، انضم النجار إلى مجموعة ثوار 1936- 1939 بقيادة عبد القادر الحسيني. وإلى جانب آخرين من الثوار، هرب إلى سورية ومنها إلى مصر. مع نهاية الحرب العالمية الثانية، كان ضمن مجموعة عبد القادر في القاهرة وشارك في جمع الأسلحة في الصحراء الغربية، لإرسالها إلى فلسطين. عاد إلى البلاد إثر صدور قرار التقسيم، في كانون الأول 1947، سوية مع عبد القادر، وعُيّن قائداً في منطقة القدس ـ مسؤولاً عن قطاع حي وادي الجوز، مسقط رأسه.

بعد العام 1948، غادر النجار البلاد واستقر في مصر. روى في الأيام الأخيرة من حياته، في كانون الأول 2004، في مقابلة مع قناة "الجزيرة"، كيف انضم رجاله إلى مقاتلي بهجت أبو غربية في الفزعة الكبرى صباح يوم 8 نيسان، الصباح الذي خرجت فيه حشود لإنقاذ عبد القادر، الذي حسبوه محاصَراً في القسطل:

لم نكن منظَّمين كوحدات عسكرية. كانت كل مجموعة تُسمى على اسم الشخص الذي يقودها. هكذا كانت مجموعتي ومجموعة إبراهيم أبو دية، مجموعة حافظ بركات، مجموعة بهجت أبو غربية، مجموعة عبد الحليم الجولاني وغيرها [...] حين وصلنا إلى منزل المختار، في قمة القسطل، بعد انتهاء المعركة، وجدنا هناك مقاتلين كانوا قد سبقونا. فهمت منهم أن الهجوم الليلي على القسطل مني بالفشل لأن مجموعة حافظ بركات، التي هاجمت من الجهة الجنوبية الشرقية، لم تتقدم وفق ما هو مخطط لها، بل تخلفت [...]

كان لاكتشاف حقيقة مقتل عبد القادر أثر عميق علينا. فقد كان علينا نحن أن نموت من أجله [...] كنا نعلم، جميعاً، أنه في حال تعرض القرى التي يطوّقها اليهود للخطر، يكفي القول إن عبد القادر على وشك الوصول كي يهب أهل القرية ويقفوا في وجه العدو محاولين صده ودحره [...] حاول أنور نسيبة، الذي جاء من القدس، تهدئتنا، لكن اتضح أن حشود العرب التي صعدت إلى الجبل قد بدأت بالانسحاب.

الصحافي: لماذا لم تبقوا هناك؟

النجار: لم نكن جنوداً نظاميين. المقاتلون الذين شاركوا في معركة الليلة السابقة كانوا منهكين تماماً. كذلك كان حال الكثيرين الذين لبوا نداء الفزعة عند الفجر. كان لمعظمهم عائلات، نساء وأولاد. مجموعة الشبان التي كانت معي كانت رائعة. رأينا التحصينات التي أقامها اليهود. وجدنا طعاماً تركوه خلفهم وبدأنا ننظم أنفسنا للحراسة الليلية، يحدونا الأمل بتلقي التعزيزات بسرعة. لكنها لم تأت.

كان بهجت خائر القوى تماماً. لم يكن قد شُفي من الجروح التي أصيب بها في صدره قبل ذلك بفترة قصيرة، وكان يجد صعوبة بالغة في مجرد الاستدارة يميناً ويساراً. ثار بيننا جدال حول الحراسة والتقسيم على المواقع [...] عملياً، فعل كل منا، مع مجموعته، ما بدا له [...]

في الصباح، بدأ الهجوم العنيف علينا ولم يكن أمامنا خيار آخر غير الانسحاب. هبطنا إلى عين كارم، حيث وجدنا جنوداً من جيش الإنقاذ بقيادة الضابط العراقي فاضل رشيد. كانوا يتناولون وجبة الإفطار. سألناهم: لماذا لم تأتوا لمساعدتنا؟ فردّ فاضل: لأنهم أبلغونا بأنكم غادرتم القسطل. كذلك المجموعة التي كانت في صوبا، مجموعة عبد الحليم الجولاني، التي عرضت تقديم المساعدة لنا، لم تف بوعدها. لو أن هؤلاء جميعاً هبوا للمؤازرة، لما انسحبنا من القسطل.

تبدو شهادة النجار، وعلى الرغم من الإدلاء بها بعد سنوات عديدة، مطابقة تماماً لشهادة بهجت أبو غربية بشأن المحادثة التي دارت، مساء يوم 8 نيسان، بينه وبين عبد الحليم الجولاني (أبو زيدان)، الذي كان في عداد رجاله الخليليين في قرية صوبا المجاورة. قال له الجولاني: إن وقعت في ورطة، أخبِرني وسنأتي. قلت له: كيف ستأتي؟ فصوبا تبعد نحو خمسة كيلومترات. ويصف بهجت حملة التمشيط التي أجراها سوية مع النجار بين بيوت القرية المهجورة واكتشفا، خلالها، مدرعة يهودية كانت غارقة في الوحل عميقاً حتى لم يستطع اليهود إخراجها. في وقت لاحق، جاء إلى الجبل عدد من جنود جيش الإنقاذ، برفقة ضابط مصري. تركوا وحدتهم وجاءوا لنجدة القوة العربية التي بقيت على الجبل. استطاع هؤلاء الجنود إخراج المدرعة من الوحل وسمح لهم بهجت بأخذها إلى القدس. في حملة التمشيط والتفتيش، عثر أبو غربية والنجار على كمية كبيرة من المتفجرات في أحد بيوت القرية وحوله جثث كثيرة لقتلى يهود.

استناداً إلى شهادات أخرى، وجد المقاتلون العرب الذين كانوا يشاركون في حملة التفتيش في بيوت القرية، بقيادة أبو غربية والنجار، حقيبة ظهر

عسكرية في أحد البيوت. في هذه الحقيبة، وضع كرميول وسلمان جميع الأمتعة التي كانت بحوزة عبد القادر، ما عدا اثنين. الأول، مسدس فاخر أخمصه من العاج، أخذه مئير كرميول، الشخص الذي أطلق النار على عبد القادر. قُتل كرميول نفسه بعد ذلك ببضع ساعات خلال هجوم عربي ووجد الفلسطينيون المسدس عليه فأخذوه. ومن المرجح أنه المسدس نفسه الذي أهداه رياض الصلح، رئيس الحكومة اللبنانية، لعبد القادر قبل ذلك بأيام معدودة وعليه عبارة محفورة تقول "الأمن الوطني اللبناني". فيما بعد، تم التأكد من أنه مسدس عبد القادر، حقاً، وتم تسليمه للعائلة في القاهرة.

كان الغرض الثاني كتاب قرآن صغير الحجم مذهّب الغلاف عُثر عليه في الجيب الخارجي للسترة الواقية التي كان يرتديها عبد القادر. هذا القرآن أخذه عوزي نركيس، من قيادة "بلماح"، في صباح 8 نيسان، بعد ساعات قليلة على موت عبد القادر، بينما كان قادة الهاغناه يتفحصون هوية القتيل الغامض. بعد نحو ثلاثين سنة، في أعقاب التوقيع على معاهدة السلام بين إسرائيل ومصر، زار عوزي نركيس القاهرة. وهناك، اتصل هاتفياً بوجيهة، أرملة عبد القادر، وأخبرها بأنه يريد أن يعيد إليها القرآن المذهّب. لكنها أغلقت الهاتف في وجهه. في السنوات التالية، نقل الشقيق سامي أمتعة عبد القادر إلى عمان، إلى منزل الطبيب د. موسى الحسيني، الابن البكر لعبد القادر. وهي تشمل بعض الوثائق الملطخة بالدم، محفظة صغيرة، كتاب القرآن، صافرة ومشط شعر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أطلِقت على محتلّي القسطل العرب في ساعات ما بعد ظهر يوم الخميس 8 نيسان، بضع قذائف من صوب موتسا وألقت طائرة صغيرة تابعة للهاغناه قنابل محلية الصنع على القرية. مدرعة يهودية كانت تتقدم من جهة كريات عنفيم، من حين إلى آخر، ويحاول أفراد طاقمها جمع جثث القتلى اليهود التي كانت ملقاة في المنحدر.

كان أنور نسيبة يسير في ساعات المساء، في طريق العودة من القسطل، بصحبة عبد الحليم الجولاني (شلف) الذي أصبح، بعد وفاة عبد القادر، القائد الأكثر أقدمية والأعلى رتبة في الميدان. كان كامل عريقات، نائب عبد القادر، ممدداً في فراشه في منزله في أبو ديس جراء إصابته. ونُقل إبراهيم أبو دية لتلقي العلاج في القدس، جراء إصابته غير الخطيرة في الليل. انضم زيدان، نجل الجولاني ابن الـ عاماً، إلى نسيبة ووالده وهو «يحمل بندقية وخنجراً ويتصرف بعنجهية»، كما قال نسيبة. أصبح زيدان هذا بعد سنوات عديدة، محامياً مشهوراً في القدس الشرقية. لم ينزل الجولاني إلى عين كارم، بل اتجه نحو قرية صوبا حيث أقام مقراً للقيادة وجمّع فيه رجاله، الذين كانوا من

جبل الخليل، في أغلبيتهم. ويروي نسيبة أنه سأل الجولاني عن سبب رفضه البقاء والدفاع عن القسطل، التي تم احتلالها بثمن باهظ جداً.

كتب نسيبة يومياته بعد الأحداث ببضعة أشهر وفيها تبصرات وتحليلات شخص يحكي عن الأحداث من مسافة زمنية ما. قبل أن يفترقا، أوضح له الجولاني أنه ورجاله لم يكونوا مهيأين لتشكيل حامية عسكرية تتولى مهام الحراسة على منطقة ما:

كان الجولاني أسير التفكير الذاتي المرتبط بالثورة السابقة [من الثلاثينات] حين لم تكن الأرض هي القضية، وإنما الحرب على الحياة [أي، مهاجمة العدو، وليس احتلال أراضٍ] كانت هذه مصدر شهرته العسكرية وقاعدة نجاحه الأسطوري في الماضي [...] أدركتُ أن الوضع قد تغير الآن وأن الصراع أصبح الآن على كل شبر من الأرض [...] البريطانيون [الذين قمعوا الثورة في الماضي] لم يحتلوا، أبداً، قرية بغية طرد سكانها واستبدالهم بمستوطنين بريطانيين. لكن هذا بالضبط ما ينوي اليهود فعله.

ظل منحى التفكير هذا ملازماً لأنور نسيبة حتى حين التقى في عين كارم أحد معارفه من فترة طويلة، الطبيب المسيحي حنا عطا الله. كانت العيادة الصغيرة التي أقامها عطا الله في القرية تغص بالجرحى في تلك المرحلة. في الليل، بعد منتصف الليل، خرج كلاهما للبحث عن غرفة يستريحان فيها قليلاً وأيقظا راهباً في دير الفرنسيسكان فوافق على إيوائهما. يروي نسيبة أنه يرقد على السرير ويفكر بمدى امتنانه لمسؤولي الدير الذين وضعوا تحت تصرفه غرفة للراحة والاستحمام وفرشة عليها مُلاءة نظيفة. فوق سريره، كان معلقاً صليب مصنوع من خشب الزيتون وقبل أن يغط في النوم فكّر بمضيفيه وبما لديهم من مبادئ روحانية وعملية غير أنانية وغير جشعة. وقد صاغ، في مذكراته، زبدة رؤيته حول اليهود والصهيونية، والتي تعكس بالتأكيد المزاج العام الذي كان سائداً بين الجمهور العربي آنذاك:

هم، الفرنسيسكان ومسيحيون آخرون، اقاموا في البلاد عيادات مفتوحة أمام الجميع، مطابخ تقدم الطعام للمحتاجين، ومدارس لمحو الأمية ومحاربة الجهل. جميع هذه الخدمات تُقدَّم بتواضع واحترام. هم الطلائع الذين أقاموا بنايات لطيفة ونظيفة وحدائق تحظى بعناية فائقة. صحيح أنهم يؤدون رسالة مكشوفة، لكنهم يمثلون أيضاً نموذجاً مثالياً للحياة ولا يحاولون فرض معتقداتهم على الآخرين. هم الغزاة الذي أصبحنا نحن، العرب الفلسطينيين، معجبين بهم.

الغزو الصهيوني، في المقابل، مختلف تماماً: لم أستطع عدم وضع صورة المسيحيين هذه في مقارنة مع صورة الغزو الصهيوني اللاحق. فخلافاً

للمسيحية، رسالتهم العقائدية ليست روحانية، بل مادية. لم أسمع، قط، صهيونياً يدعي بأن مجيء اليهود إلى فلسطين هو في مصلحة السكان الروحية، ولا حتى لليهود أنفسهم. معظم اليهود الذين قدِموا إلى فلسطين هم خليط من كفار، لا رب لهم، يطرحون ادعاءات رائعة في المجال المادي. تمت تغذية العرب بتقارير وأرقام أعدها خبراء لتأكيد إمكانية نمو شجرتين في مكان معدّ لشجرة واحد فقط. أنا شخصياً أفضّل شجرة واحدة يحيط بها ضوء كثير وهواء وفير. لكنني لستُ يهودياً، ولا خبيراً حتى.

رغم كل ملايينهم وخبرائهم الزاعقين، لم يستطع اليهود تحقيق ما يمكن مقارنته بالإنجازات التي حققتها الأديرة التي تعمل وفق مبادئ روحية، وعملية أيضاً. في غضون أقل من جيل واحد، أصبحت البيوت التي بناها اليهود بنايات تعيسة ينبغي هدمها، بينما لا يزال الدير المتماسك الذي وفر لي مأوى في عين كارم قائماً منذ القِدم.

في كلمات نسيبة هذه، من السهل سماع صدىً للشعور الذي عبر عنه كثيرون من قبله. يُكثر المؤرخون العرب الذين يصفون احتلالات سابقة في فلسطين من وصف أنواع الاستعباد المختلفة التي أُخضِع لها العرب في هذه البلاد. اليهود هم أسوأ هذه الأنواع. ليس بسبب وحشية سلطتهم، وإنما لأنهم لم يأتوا ليحكموا ويستعبدوا، بل «ليحلوا محلنا».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رأى نسيبة في طريقه إلى الغرفة في الدير، مجموعات ـ مجموعات من المقاتلين العرب يجلسون مُتعَبين في مقهى وسط عين كارم يحكون قصص المعركة. كان هؤلاء رجال الجهاد المقدس برفقة متطوعي الفزعة من القدس والقرى المجاورة. كان كل واحد منهم يحمل سلاحه، الذي كان ملكاً خاصاً له فعلياً: حصل المقاتلون العرب على السلاح بأنفسهم وهم الذين اشتروا الذخيرة للسلاح، أيضاً. كانوا، في نظر نسيبة، شباناً غير مستعدين للإذعان لسلطة ما أو للخضوع للضغوط. كان بالإمكان إثارتهم وتحفيزهم على الخروج إلى المعركة، لكن من أجل حماية بيوتهم فقط، وحين يرون أن للأمر علاقة مباشرة بقريتهم، فقط. «لم يكن ثمة مجال لإقناعهم بالعودة إلى معركة أخرى في القسطل»، كتب. في نظرته اللاحقة، رأى في ذلك حالة هوسيّة لا تسمح بأي تخطيط. لم تكن ثمة طريقة لشرح أهمية المدى البعيد للقرويين، ولا للاستعداد وتنفيذ خطة شاملة للدفاع عن منطقة محددة، بالتأكيد.

رأى نسيبة في عين كارم، أيضاً، فرقتين من جنود جيش الإنقاذ، تضمان 75 مقاتلاً، معظمهم من العراقيين والسوريين، كانوا قد وصلوا إلى عين كارم قبل ذلك ببضع ساعات استجابة لطلب وجهه نسيبة إلى قيادتهم في البلدة

القديمة. كان نسيبة يعتقد بأنه من الأصح إرسالهم إلى القسطل للدفاع عنها. قلائل منهم ـ كما شهد بهجت أبو غربية ـ تطوعوا وتوجهوا إلى القسطل فعلاً، سوية مع ضابط مصري، بينما بقي معظمهم في عين كارم. ردّ قائدهم على طلب نسيبة أن يتوجهوا إلى القسطل للدفاع عنها بالقول: «ماكو أوامر» ـ ليست لدينا أوامر للقيام بذلك وعلينا العودة إلى القدس.

بحسب بهجت أبو غربية، الذي كان على الجبل، وصلت إلى القسطل في الساعة التاسعة من مساء اليوم ذاته مجموعة صغيرة من الحمير من جهة عين كارم، محملة بالغذاء والذخائر، كما وعدهم أنور نسيبة. وبعد ساعات قليلة، بلغتهم تقارير من المواقع تنبئ بأن بضع مدرعات يهودية تحاول الصعود نحو قمة الجبل من جهتيّ موتسا وكريات عنفيم. كان تقديره أن الهجوم اليهودي سيبدأ مع طلوع الفجر وأن الهدف منه هو إعادة احتلال القسطل من جديد، أو جمع جثث القتلى اليهود، على الأقل. بناء عليه، أوفد بهجت أبو غربية شخصاً من سكان صوبا كان معهم في القسطل إلى عبد الحليم الجولاني، الذي كان مع رجاله في صوبا، ليطلب منه التوجه إلى القسطل للمساندة. لم يعُد الفتى الرسول إلى القسطل، وكذلك الجولاني لم يأتِ. وكما كان أوضح لأنور نسيبة، قبل ذلك ببضع ساعات، فهو لم يكن معنياً بأن يشكل حامية عسكرية للدفاع عن القرية.

هكذا طلع فجر يوم الجمعة 9 نيسان على قمة القسطل: سمع المقاتلون العرب الذين كانوا على الجبل أصوات انفجارات وإطلاق نار من الجهة الغربية، جهة قريتي ساريس وبيت محسير، اللتين جرى قصفهما من طائرات خفيفة؛ من الشرق ـ سُمعت أصوات إطلاق نار وتصاعدت أعمدة الدخان من جهة قرية دير ياسين. ومع انبلاج ضوء الصباح الأول، بدأ هجوم مضاد من وحدة «بلماح»، من جهة كريات عنفيم. كان الهجوم مصحوباً بالمدرعات وكان يرمي إلى فتح طريق آمنة أمام قافلة نحشون التي كانت صعدت إلى القدس قبل ذلك بثلاثة أيام وكانت، في تلك اللحظات، في طريق عودتها إلى منطقة وادي الخليل. رأى بهجت أبو غربية ومحمد عادل النجار القافلة الطويلة من الشاحنات والمدرعات اليهودية تهبط في منحدر القدس، في التعرجات التي عند مشارف قرية لفتا، فدبّ الرعب في قلبيهما. من وجهة نظر العرب الذين بقوا في القسطل، كانت تلك بداية معركة محكومة بالفشل مسبقاً أمام قوة يهودية كبيرة ومنظمة تضم رجال القافلة، أيضاً، بينما هم وحدهم: بضع عشرات من المقاتلين من دون أي أمل بتلقي أي مساعدة.

منذ اللحظة التي بدأ فيها قصف القسطل، قرر القادة العسكريون العرب، سوية مع رجالهم الذين لم يتجاوز عددهم الخمسين مقاتلاً (وثمة من يدّعي بأن العدد لم يزد عن 15)، الانسحاب إلى الجنوب، في اتجاه عين كارم.

سارعوا إلى الانسحاب لخشيتهم من أن تقوم القوة اليهودية بإغلاق طريق الانسحاب أمامهم. في طريقهم جنوباً، شاهدوا عمليات قصف القسطل والقنابل التي كانت الطائرات اليهودية تلقيها على الجبل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تدفق عشرات الآلاف من عرب القدس وضواحيها في تلك الساعات من صباح يوم الجمعة، التاسع من نيسان، إلى جنازة عبد القادر الحسيني، الذي سُجيّ جثمانه في منزل شقيقه فريد في باب الساهرة، المنزل نفسه الذي خرج منه عبد القادر قبل ذلك بيوم واحد متوجهاً إلى القسطل. خلال ساعات الصباح، تجمع مئات المشيعين في الشارع المحاذي للمنزل، بعضهم كان يحمل السلاح ويطلق النار في الهواء. ورغم مرور عشرات السنين، ما زال بالإمكان رؤية آثار الرصاصات على جدران المنزل، حتى اليوم.

كان انسحاب آخر مقاتلي الجهاد المقدس من القسطل متزامناً، تماماً، مع المعركة الشهيرة من عام 1948، والتي جرى خلالها ذبح أكثر من مائة شخص من سكان قرية دير ياسين. وهكذا، كما يكتب بهجت أبو غربية، انضم سقوط القسطل، مذبحة دير ياسين ورحيل سكان قالونيا عن قريتهم ـ وهي أحداث وقعت في الوقت نفسه تماماً ـ إلى الحزن الشديد على رحيل عبد القادر، لتولّد هذه كلها، معاً، شعوراً بالفقدان واليأس.

كانت صدمة الجمهور الفلسطيني، ثم العالم العربي كلّه، من مذبحة دير ياسين كبيرة جداً. كان في مصلحة المتحدثين جميعاً، كما يبدو، تسليط الضوء على الفظائع التي كانت، حتى في نظر المراقب المحايد، رهيبة جداً. صحيح أنه تبين مع مرور الوقت أن عدد القتلى لم يكن أكثر من 250، كما كانوا يرددون، بل أقل من ذلك، نحو 110، لكن نصفهم كان من النساء وأغلبية الباقين من الأولاد والأطفال. حوالي 25 من القتلى كانوا في سن 16- 45 عاماً، أي: رجال لم يشاركوا في القتال.

كانت أحداث دير ياسين موضع تحقيقات عديدة أجراها إسرائيليون، فلسطينيون وأجانب، وليس ثمة شك أو نقاش في كل ما يتصل بالحقائق. ولا شك أو جدال، أيضاً، في الانعكاسات القاسية التي خلفتها قصص الجريمة في دير ياسين على الفلسطينيين في القرى والبلدات المختلفة في البلاد؛ إذ اختار بعضهم الهرب للنجاة من الوحشية اليهودية.

ثمة بين الباحثين المختلفين نقاشات حول السؤال ما إذا كانت دير ياسين قرية معادية تجند سكانها للحرب ضد الييشوف اليهودي، أم قرية وادعة ومحبة للسلام كانت لسكانها علاقات صداقة وجيرة حسنة مع الحي اليهودي المجاور، جبعات شاؤول. الجواب على هذا السؤال ليس قاطعاً. مثل قرى

أخرى في المنطقة، كما في مناطق أخرى من البلاد، كان القرويون الفلسطينيون متنازَعين بين خيارين ـ الانضمام إلى المقاتلين العرب والتجند في الفزعات ضد البيشوف اليهودي، أو الوقوف على الحياد متفرجين. أما في نظر قادة الهاغاناه، فقد كان التمييز، بصورة عامة: هل سمح سكان القرية لمقاتلين «غرباء» من خارج القرية ـ رجال الجهاد المقدس بقيادة عبد القادر أو جنود جيش الإنقاذ بقيادة القاوقجي ـ بالدخول إلى القرية ووفروا لهم المأوى، المعدات، المال والغذاء، أم منعوهم ولم يتعاونوا معهم؟

لم يكن هذا التمييز، أيضاً، حاداً، قاطعاً وواضحاً دائماً. ففي معظم الحالات، كان القرويون يسمحون للغرباء بالدخول إلى القرية، بينما كانوا يمنعونهم في بعضها؛ كانوا يقدمون لهم المساعدات، بالغذاء والسلاح، أحياناً، ويطردونهم في أحيان أخرى. في معظم القرى، كانت الحمائل، أو العائلات، منقسمة على ذاتها بهذا الشأن، كما رأينا في قرية القسطل ذاتها. في دير ياسين، على أي حال، كان ثمة شبان شاركوا في المعارك، بل وفي الفزعة الكبيرة إلى القسطل، قبل ساعات معدودة من احتلال قريتهم. ومع ذلك، يبدو أن التوجه العام في القرية كان نحو منع دخول الغرباء. لكن في اليومين الأخيرين من شهر آذار وبداية نيسان، وعلى خلفية التأثر بالانتصارات العربية في حرب القوافل، سمح سكان دير ياسين لمجموعة من متطوعي جيش الإنقاذ بالدخول إلى القرية. ويبدو أنهم فعلوا ذلك من منطلق التفكير البسيط بأن من الأفضل الانضمام إلى الطرف المنتصر، دائماً.

كان أنور نسيبة في حاجة إلى سيرة البطل العربي الأسطوري، الشاعر عنترة بن شداد، لوصف وشرح ما حدث في دير ياسين. عنترة، ذو البشرة السوداء، بدأ حياته عبداً، في منزل رئيس قبيلة غني. ذات يوم، تعرضت القبيلة لهجوم ونودي عنترة للمساعدة في طرد الغزاة. بحكمته وطموحه، رأى عنترة في المناسبة فرصة للمساومة. «وظيفة العبد أن يحلب الماعز، لا أن يحارب»، قال لأسياده. «حارِب واكسب حريتك»، تعهد له الأسياد. حارب عنترة بكل بأس وشجاعة ونجح في صد الغزاة، حتى ذاع صيته بين العرب بأنه بطل ومحارب مغوار. سألوه ذات مرة عن سبب نجاحه في المعركة، فقال، بصراحة تامة: بحثت بين الخصوم عن الشخص الأضعف وهجمت عليه بكل قوتي. أصيب بالصدمة، انكسر وانهار. في أعقابه، دب الذعر الشديد في قلوب كل الخصوم الآخرين، الأقوياء، فولوا هاربين.

يعتقد نسيبة أن اليهود استخدموا دير ياسين على طريقة عنترة بن شداد. كانت دير ياسين قرية صغيرة نسبياً، ملاصقة لأحياء يهودية. كان سكان دير ياسين يعملون في بيوت اليهود، يزودونهم بالحليب والخضروات، ولم يشعروا بأي حاجة للاستعداد للحرب ضد الجيران المخلصين. على خلفية الهزيمة التي

مني بها اليهود في القرية المجاورة، القسطل، قرروا مهاجمة القرية الضعيفة وغير المحمية. نفذ اليهود الأعمال الفظيعة في دير ياسين بهدف بث الذعر وتحطيم المعنويات في القرى الأخرى، الكبيرة والقوية خصوصاً. وهكذا، كما يرى نسيبة، بدأ وتزايد فرار العرب من بيوتهم.

يعتقد نسيبة أن ثمة علاقة واضحة بين الحدثين. وتظهر في شهادات اللاجئين من دير ياسين (كما جمعها الباحث شريف كناعنة)، أيضاً، إشارة واضحة إلى العلاقة المباشرة بين معركة القسطل ومذبحة دير ياسين؛ إذ إن قوافل الفلسطينيين التي شاركت في الفزعة الكبيرة واحتلال القسطل هبطت من طريق قالونيا ثم صعدت عبر الطريق الجنوبية القديمة إلى دير ياسين. كان هؤلاء يرفعون الأعلام ويرددون شعارات النصر. وطبقاً لشهادات سكان دير ياسين، فقد جاءت المجزرة انتقاماً على الهزيمة اليهودية في القسطل ومقتل يهود كثيرين في معركتها.

كان لاجئو دير ياسين، وهم يمرون من عين كارم في ساعات الصباح الباكرة من يوم الجمعة إياه، في طريقهم إلى القدس، يحكون عن القتل الجماعي الذي حصل في القرية، عن إطلاق النار على النساء والشيوخ والأطفال. كانت صدمتهم شديدة حين رأوا مجموعة كبيرة من جنود جيش الإنقاذ في عين كارم، وعلى الرغم من توسلات الهاربين وطلباتهم المتكررة لمساعدتهم ونجدتهم، إلا أن جنود جيش الإنقاذ رفضوا الصعود إلى دير ياسين. وكانت حجتهم، هذه المرة أيضاً، «ماكو أوامر» ـ لم نتلق أوامر. عبر أحد المسنين في القرية عن صدمته وإحباطه بالقول: «اليهود أعداء، ولا يهم ما يفعلون، لأن الذنب هو ذنب الجيران العرب. من يقتلك هو جارك. كيف يمكن أن يعلم هؤلاء أنهم (اليهود) يقتلوننا ويطردوننا ولا يحرك أحدهم ساكناً ولا يهبون للنجدة؟». انتشرت قصص لاجئي دير ياسين بين الآلاف العديدة التي توافدت إلى جنازة عبد القادر، والتي استمرت بضع ساعات، فعمقت الشعور بالعجز، بالحزن والإحباط.

قبيل انتهاء موكب التشييع، في ساعات بعد الظهر، انضم إليه بهجت أبو غربية ومحمد عادل النجار، اللذين غادرا الجبل. بعد أن تأكدا من أن القوة الصغيرة التي معهما لن تستطيع حماية القسطل من الهجوم اليهودي المضاد، هبطا إلى عين كارم ثم صعدا إلى القدس.

في الخطاب الإسرائيلي، كثيراً ما جرى الحديث عن قصور القيادة العسكرية العربية وإخفاقها في عدم قدرتها على تجنيد وحدة عسكرية يمكنها البقاء في القسطل لحماية القرية وصيانة الإنجاز الكبير الذي تحقق في احتلالها. وبالفعل، فقد هجر كثيرون من المقاتلين العرب، من القسطل ومن منطقة القدس بأسرها، مواقعهم العسكرية وتدفقوا إلى جنازة بطلهم، عبد القادر.

لكن في سياق المرحلة الأولى من حرب 1948، من الصعب جداً اعتبار ذلك قصوراً وإخفاقاً: احتلال منطقة كاشفة والاستيلاء على مواقع مهمة فيها لم يُعتبَرا أمراً ذا أهمية في المعركة التي كانت تجري في البلاد، حتى بداية نيسان. كانت جميع المعارك التي جرت بين قوات عربية ويهودية حتى ذلك الأسبوع، أسبوع القسطل، أقرب إلى حرب العصابات الرامية إلى ضرب العدو، إيلامه، معاقبته، الإضرار به والانتقام منه. حتى ذلك الوقت، لم تكن قد تبلورت بعد، لدى أي من الطرفين المتحاربين، فكرة الإبقاء على حامية عسكرية مخصصة لمهمات دفاعية. كان الانتداب البريطاني لا يزال السلطة الرسمية في البلاد. في الجانب اليهودي، الذي حارب على الشارع الموصل إلى القدس، أُرسِلت آنذاك وحدات لاحتلال مواقع معينة والاستيلاء عليها تمهيداً لعبور القافلة، وبعد أن تكمل القافلة طريقها، كانت تلك الوحدات تُعاد إلى قواعدها وتُناط بها مهات أخرى. وهكذا كان الحال، أيضاً، في الوحدات العربية التي كان جزء كبير من قوتها العسكرية معتمداً على مقاتلين محليين، غالبيتهم من أبناء القرى الذين يعودون إلى منازلهم مع انتهاء كل يوم قتال.

مع ذلك، يروي أنور نسيبة كيف فوجئ حين رأى بهجت أبو غربية ومحمد عادل النجار يصلان إلى القدس قبيل انتهاء جنازة عبد القادر، على الرغم منأنه كان قد طلب منهما، مع حلول الليل، البقاء في موقعهما للدفاع عن الجبل وتعهدا بالبقاء هناك حتى يأتي من يستبدلهما ويبقى مكانهما.

«هل جاء أحد مكانكما؟»، سأل نسيبة بهجت أبو غربية.

فردّ قائلاً: «نعم، استبدلونا».

«من استبدلكم؟»، سأل نسيبة.

«اليهود»، قال أبو غربية، «اليهود حلوا مكاننا».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



14

رايــة ســوداء

في هذا اليوم، 8 نيسان 1948، سالت دمعةٌ على خدّ فلسطين

أنبل الدموع، ربما،

على ابنها الطاهر، الشجاع، الجريح، القتيل، الشهيد...

حين بكت فلسطين عبدَ القادر،

بكاهُ الوطن....

بعد رحيله، اشتدّ إرهاب العدوّ،

تحطمت روح شعب فلسطين...

فوق فلسطين رُفعت راية سوداء، نذير شؤم،

راية التهجير، راية اللجوء والتشرّد...

تلبدت سماء فلسطين،

وغطى أرضَها دمُ شابٍ عربيٍّ قلّ مثيله...

ضاع الإيمان النقي، الحضور القوي، الرؤية الثاقبة، الكرامة الحقيقية، الغاية النبيلة،

والموهبة العسكرية الفريدة من نوعها.

(من نهاية الفصل لدى عيسى خليل محسن)

هذا مقطع واحد فقط، من مقاطع كثيرة جداً ـ بالمئات، ربما ـ من المقالات، كلمات الرثاء والتأبين، التي تزخر بها الأدبيات الفلسطينية، تتضمن غالبيتها التقدير، الذي تحدد لاحقاً فقط، بأن معركة القسطل وموت عبد القادر مثّلا نقطة تحوّل مصيرية في حرب 1948 ـ الانعطافة التي "تحطمت (فيها) روح شعب فلسطين" وعلى أرضها "رُفع العلم الأسود".

مع بزوغ فجر يوم الخميس إياه، 8 نيسان، لم تتطرق العناوين الرئيسية في الصحيفتين العربيتين فلسطين والدفاع، اللتين كانتا تصدران في يافا، إلى المعارك في القسطل، ولا إلى موت عبد القادر بالطبع، خصوصاً وأنه لم يكن قد عُلم في تلك الساعات، بعد. يبدو أن يد الصدفة هي التي كانت وراء تزامن التحوّل الذي حصل في معارك ذلك اليوم المصيري، ليس في القسطل

وحدها فقط، بل على الجبهة الشمالية أيضاً. كان العنوان الرئيسي في صحيفة فلسطين في يوم وفاة عبد القادر: "أعلام عربية ترتفع فوق مشمار هعيمق، بعد استسلام المدافعين عنها". ونشرت صحيفة الدفاع شروط استسلام مشمار هعيمق، فيما أعلنت الصحيفتان إنه بعد بضعة أيام من المعارك المتواصلة، اضطر اليهود إلى الخروج من ملاجئهم وهم يرفعون أيديهم، استسلاماً. "وقّع مختار البلدية اليهودية على وثيقة الاستسلام، بحضور ضباط جيش الإنقاذ والقائد العسكري البريطاني الذي أشرف على الأمر"، كتبت صحيفة فلسطين وأضافت فنشرت نداء قائد جيش الإنقاذ، فوزي القاوقجي، إلى اليهود للعيش مع العرب بسلام، إن كانوا يريدون الحياة حقاً.

كانت هذه الأخبار تعبيراً مبالغاً فيه عن اتفاق وقف النار المحلي لمدة 24 ساعة الذي تم التوصل إليه بوساطة بريطانية على جبهة مشمار هعيمق. كان الهدف من وقف إطلاق النار تمكين اليهود من إخلاء الجرحى والأطفال من الكيبوتس ونقلهم عبر مناطق خاضعة لسيطرة العرب.

تابع القاوقجي من جبهة مشمار هعيمق ومن مقر القيادة الذي أقامه في جنين، جميع المعارك حول القسطل. كان يوم الخميس، 8 نيسان، من جهته، الوقت الأنسب لاتخاذ قرار مهم ـ هكذا، على أي حال، كتب في مذكراته لاحقاً. من جهة أولى، انتهى وقف إطلاق النار القصير في مشمار هعيمق، وكان عليه بذل جهود في استئناف القتال؛ ومن جهة ثانية، "قدماه كانتا في هعيمق، لكن قلبه في القدس"، حسب تعبير عميرام أزوف، في كتابه لن يسقط مشمار هعيمق. أي أن تفكيره كان منصَباً على المعركة الحاسمة في القسطل، وهي الجبهة غير الخاضعة لمسؤوليته هو والتي كان محظوراً عليه التدخل فيها. ما العمل؟ هل نقدم مساعدة فورية للقسطل ـ بالجنود وبالمدافع، أساساً ـ كما طلب الحاج أمين وعبد القادر حينما كانا في دمشق؟ كان هذا القرار ينطوي، بالتأكيد، على مخاطرة ما بإضعاف القوة في مشمار هعيمق.

في دمشق، أيضاً، كانت حيرة مماثلة. كتب طه الهاشمي في يومياته إنه حيال احتدام المعارك في القسطل، غيّر إسماعيل صفوت رأيه ووافق على إرسال مدافع إلى القسطل. ويبدو أن الذي أقنعهم بذلك هو رياض الصلح، رئيس الحكومة اللبنانية، أحد القلائل من بين القادة العرب الذين وقفوا إلى جانب عبد القادر على طول أيام الخلافات والنقاشات في دمشق.

يبدو أن القرار قد اتُخذ خلال ساعات يوم الخميس إياه، لا سيما منذ وصول الأخبار إلى دمشق وجنين ـ عن اختفاء عبد القادر أولاً، ثم عن موته، لاحقاً: يجب إرسال مساعدات فورية إلى القسطل. سيكون هذا بمثابة دليل براءتهم من تهمة المسؤولية عن مصيبة مقتل بطل فلسطين. في مساء يوم الخميس

إياه، أرسل القاوقجي أحد ضباطه البارزين، مأمون البيطار، إلى القدس، على رأس فرقة من المشاة وبطارية المدفعية التي كانت موضوع حديث كثير وطويل. وفي اليوم التالي، الجمعة، توجه القاوقجي نفسه إلى القدس للمشاركة في جنازة عبد القادر، غريمه وشريكه في الحرب على البلاد.

كانت المساعدات التي أرسلها القاوقجي إلى القسطل قليلة جداً ومتأخرة جداً. خلال أقل من يوم واحد (الجمعة ـ السبت) قصفت مدفعية جيش الإنقاذ قرية القسطل وبلدة موتسا، من مواقع محاذية للنبي صموئيل. وفي يوم السبت، 10 نيسان، أرسل القاوقجي برقية إلى مأمون البيطار أبلغه فيها بأن مهمته في القدس قد انتهت وعليه العودة إلى جبهة مشمار هعيمق، في الليلة نفسها.

استمرت المعارك حول مشمار هعيمق بضعة أيام أخرى. وفي يوم الثلاثاء 11 نيسان، أصيب ضابط المدفعية الموهوب، مأمون البيطار، بجراح بالغة نقل على أثرها إلى نابلس لتلقي العلاج، لكنه توفي هناك. كانت وفاته، بمعنى ما، إيذاناً بانتهاء معركة مشمار هعيمق. فقد انتهت الهجمات المضادة التي شنتها وحدات الهاغناه بانسحاب جيش القاوقجي.

وهكذا، كان التحول في معركة القسطل سبباً لتحول آخر في جبهة الشمال. بعد النجاح العربي المهم (الهجوم على قافلة يحيعام)، قبل ذلك بأسبوعين تقريباً، حصل تطور إضافي كان أحد المؤشرات عليه انتقال الوحدات الدرزية في البلاد من دعم المقاتلين الفلسطينيين إلى دعم اليهود. على هذه الخلفية، أفادت يوميات طه الهاشمي في دمشق بأن إسماعيل صفوت عاد، خلال اللقاءات المختلفة، وكرر موقفه المعروف: "لن نستطيع معالجة الوضع من غير جيوش نظامية. خسارة إراقة دماء المجاهدين الفلسطينيين والمتطوعين عبثاً".

في صباح يوم الجمعة، 9 نيسان، وبينما كانت جنازة عبد القادر مستمرة في القدس، عادت القوات اليهودية واحتلت القسطل من جديد، ثم بدأت بتفجير بيوت القرية. في تلك الساعات، بالضبط، وصلت إلى البلدة القديمة في القدس مجموعات من القرويين المرعوبين من قرية دير ياسين. اختلطوا بالمشاركين في موكب التشييع وتحدثوا، بانفعال شديد، عن احتلال قريتهم والمذبحة التي نفذها المحتلون اليهود فيها. يبدو، بنظرة إلى الوراء، أن هذه كانت ذروة ذلك اليوم في ربيع 1948، الأكثر دراماتيكية من بين جميع أيام القتال التي سبقت 15 أيار.

في صباح يوم الجمعة إياه، بثت وسائل الإعلام في البلاد وفي العالم العربي نبأ وفاة عبد القادر الحسيني. احتل الخبر العناوين الرئيسية في الصحف

الفلسطينية واستهلت محطات الإذاعة العربية نشراتها الإخبارية به. قبل ذلك بيوم واحد، في ساعات المساء، استقبل عدد غير قليل من عرب القدس خبر إعادة احتلال القسطل بالهتافات وبإطلاق النيران احتفالاً. أما الآن، في ساعات الصباح، فقد استيقظ هؤلاء جميعاً بحالة من الذعر لسماع نبأ موت عبد القادر وما حصل في دير ياسين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وصل خبر وفاة عبد القادر إلى دمشق أيضاً قبيل حلول مساء يوم الخميس، 8 نيسان، وبعد العثور على الجثمان. في الساعة الخامسة ونصف بعد الظهر، وصلت مكالمة هاتفية إلى فندق "أورينت بالاس" (قصر الشرق) الذي كان ينزل فيه الحاج أمين وزميلاه من اللجنة العربية العليا، إميل الغوري وإسحاق درويش. كان هذا هو العنوان الذي توافدت إليه، في بداية نيسان، عشرات الوفود، تِباعاً، من مختلف البلدات العربية في فلسطين لطلب المساعدات من المفتي ورجاله. كان كثيرون من أعضاء هذه الوفود ينتظرون ساعات طويلة لمقابلة الحاج أمين. كان من بين المقربين للمفتي والذين زاروه في تلك الأيام، ثمة من وثق انطباعاته.

ترسم جميع هذه التوثيقات صورة مماثلة. غادر الحاج أمين في ذلك اليوم، أو قبله بقليل، مكان إقامته في الفندق وانتقل إلى منزل خاص واسع في دمشق، هو منزل الشيخ تاج الدين الحسيني، في حي الجلبوني. تاج الدين هو قريب الحاج أمين، من قرية عين سينيا، كان يعمل في تلك السنوات مدرساً في دمشق. طوال ساعات ما بعد ظهر يوم الخميس، كان الحاج أمين يسأل عما إذا كانت ثمة أخبار جديدة من القسطل وكان يتلقى الجواب ذاته: لا أخبار واضحة، حتى الآن. وحتى حين وصل من الفندق الخبر الواضح بأن عبد القادر قد توفي فعلاً، لم يجد المشاركون في اللقاء مع الحاج أمين واللجنة العربية العليا ما يكفي من الجرأة لإبلاغه بالخبر المؤلم. نزل المفتي إلى حديقة المنزل لاستقبال شخصيات سورية جاءت للبحث معه في قضية فلسطين.

حين عاد إلى داخل المنزل، سأل مرة أخرى إن كانت قد وصلت أخبار من القسطل، ثم انتبه إلى تعابير الاضطراب على وجوه الحاضرين، فسأل:

"ما خطبكم؟ ما هذا الصمت الذي نزل عليكم جميعاً؟ من غير الممكن طبعاً ألا يكون ثمة أي جديد؟".

قال أحدهم: "مقاتلونا استعادوا القسطل، لكنّ أبا موسى [عبد القادر] أصيب".

"أصيب بجراح بالغة"، أضاف آخر.

فهِم الحاج أمين فهمَس: "أصيب أم قُتل؟".

وحين لم يجبه أحد، هزّ رأسه وترقرقت الدموع في عينيه. روى أحد الحاضرين أن جميع من في الغرفة تنهد والبعض بكى. وسرعان ما التف حول الحاج أمين ورجاله كثيرون من أبناء الجالية الفلسطينية في دمشق، من بينهم اثنان سيحاولان، خلال الساعات القريبة، ملء مكان عبد القادر في قيادة منطقة القدس.

الجماهير التي توافدت إلى مكان إقامة الحاج أمين في دمشق، مساء يوم الخميس إياه، سمعته يتحدث، مراراً وتكراراً، عن الخبر المفجع، القاسي، عن سقوط عبد القادر في القسطل. لم يكن في الانطباع العام بأنّ العرب حققوا انتصاراً في القسطل وأعادوا احتلالها من جديد ما يمكن أن يخفف من حدة الألم ومرارة الفقد. مشياً على تقليد مناقب الشهداء، عزى المفتي معزّيه بالحديث عن بركة الشهادة في سبيل مبدأ سام، من أجل الله والوطن: "الأمة لا تعرف عجز رجالها والنصر قادم في طريق الكفاح العادل الذي سقط أبو موسى من أجله". ثم قال إن عبد القادر هو ابن بار لعائلة الأمة العربية كلها وليس ابناً لعائلته الصغيرة، عائلة الحسيني، فقط.

كانت كلمات المفتي هذه شبيهة، في روحها، بجملة من الكلمات التي قيلت في رثاء عبد القادر. إحدى كلمات الرثاء المشهور تلك كتبها الشاعر، المدرس والمقاتل عبد الرحيم محمود. كان عبد الرحيم آنذاك برفقة المفتي في دمشق، وبعد وقت قصير قُتل في معركة مع الجيش الإسرائيلي قرب قرية السجرة في الجليل الأسفل. في رثائه لعبد القادر، قال: "أخوفاً وعندي تهون الحياة؟ أذلاً وإني لربّ الإبا؟".

اكتسبت قولة الحاج أمين إن عبد القادر هو ابن الأمة العربية كلها وليس ابن عائلة الحسيني فقط أهمية كبيرة منذ الساعات الأولى التي أعقبت وفاة عبد القادر. كانت تلك الساعات التي نوقش فيها السؤال حول من سيخلف عبد القادر. كان ينبغي اتخاذ قرار فوري حيال اتساع المعارك واشتدادها في منطقة القدس كلها، من رام الله حتى الخليل. كتب طه الهاشمي، في يومياته، أنه لاحظ أن الحاج أمين يتعالى على ألمه بشجاعة ولذا، فقد سمح لنفسه أن يبحث معه في سؤال من سيحل محل عبد القادر. اقترح الهاشمي الضابط العراقي فاضل رشيد، قائد وحدة جيش الإنقاذ في القدس، والذي كان مقبولاً على الحاج أمين منذ الفترة التي مكثها في بغداد. ردّ الحاج أمين بالقول إنه على الرغم من ثقته الكبيرة بفاضل رشيد، إلا أنه يفضل الشيخ حسن سلامة، الذي كان شريك عبد القادر في النضال، منذ أيام الثورة الكبرى ومنذ أيام بغداد، رافق المفتي إلى ألمانيا ثم عاد ليكون قائد الجهاد المقدس في المنطقة الوسطى. كان حسن سلامة في دمشق أثناء المعارك في

القسطل، أمر رجاله، من هناك، بإرسال الدعم إلى القسطل في الفزعة الكبيرة يوم الخميس، 8 نيسان.

أبدى طه الهاشمي تحفظاً على تعيين سلامة: "جاهل في الشؤون العسكرية"، يكتب عنه في يومياته. عليه، اقترح اسم الضابط السوري محمود الهندي، الذي كان مركّزاً لقيادة جيش الإنقاذ في دمشق. "إذا أرسلنا الهندي إلى يافا وسلمناه قيادة منطقة القدس أيضاً، فسنحل بذلك مشكلة القيادة المشتركة لجيش الإنقاذ والقوات الشعبية"؛ أي قوات الجهاد المقدس. ثم أضاف أن الحاج أمين طرح إمكانية أخرى: تعيين رجل الفيلق وصفي التل الذي خدم كضابط عمليات تحت قيادة صفوت. إنه الضابط نفسه الذي تزوج فيما بعد من سعدية، التي كانت زوجة موسى العلمي ثم أصبح في وقت لاحق رئيساً للحكومة الأردنية (قُتل وصفي التل في القاهرة في تشرين الثاني 1971، بأيدي فلسطينيين اتهموه بالمسؤولية عن قتل الفلسطينيين في الأردن خلال الصدامات العنيفة في "أيلول الأسود" سنة 1970).

استمرت المناقشات حول هوية خليفة عبد القادر حتى نهاية ذلك الأسبوع.

توافد في ساعات المساء والليل إلى مكان إقامة الحاج أمين المزيد والمزيد من الشخصيات الاعتبارية: الرئيس السوري، شكري القوتلي، رئيس الحكومة السورية، جميل مردم بِك، وزراء، أعضاء برلمان، رؤساء الطوائف وشخصيات جماهيرية مختلفة. في ساعة متأخرة من الليل، توجه المفتي إلى غرفته للاستراحة وهو يقول لمرافقيه: كيف سأرتاح وعبد القادر لن يعود؟

اتصل الحاج أمين ورجاله بمندوبيهم في القدس في ساعة مبكرة من الصباح، وأمروا بأن يُدفَن عبد القادر الحسيني في زاوية خاصة في حرم المسجد الأقصى، بجوار والده، موسى كاظم الحسيني، الذي دُفن هناك سنة 1934. بعد سنوات عديدة، في 2001، دُفن إلى جانبهما فيصل الحسيني، الابن الأوسط لعبد القادر، والذي كان مسؤولاً عن نشاطات م. ت. ف. في مدينة القدس، بعد ضم الجزء الشرقي منها إلى إسرائيل في العام 1967.

انطلق موكب تشييع جثمان عبد القار في الساعة العاشرة وثلاثين دقيقة من منزل شقيقه فريد، في حي باب الساهرة. كانت معظم البيوت المجاورة في الحي قد بُنيت إبان عهد الانتداب البريطاني، بين الحربين العالميتين، بينما بُني جزء قليل منها قبل ذلك، في أواخر العهد العثماني. تقع بيوت آل الحسيني، الواسعة والفاخرة، إلى الشمال قليلاً من هناك (جرى توسيعها لاحقاً ثم تأجيرها لتكون فنادق، مثل أميركان كولوني وأورينت هاوس، أو مدارس أو مكاتب).

كثيرة هي العائلات العربية العريقة في القدس، مثل البديري، نسيبة، الدقاق والشهابي، التي شيّدت بيوتاً فاخرة لها في تلك المنطقة وبقي أبناؤها مالكين لهذه الأملاك، التي نُذر بعضها كوقف عائلي ـ وهو تصنيف يحول دون بيعها. قريباً من هناك، في المنحدر نحو وادي الجوز، البناية التي كان يسكن فيها موسى كاظم الحسيني. مع السنوات، أصبحت هذه البناية مدرسة. قريباً منها، بيت عائلة وجيهة الحسيني، زوجة عبد القادر، والذي سكن فيه الزوجان بعد زواجهما مباشرة في العام 1935. وبما أن عبد القادر غادر البلاد بعد ذلك بثلاث سنوات، ثم لحقت به زوجته، فلم يكن له ولعائلته، فعلياً، مقر إقامة دائم في القدس. تنقلت الزوجة وأولادها مع عبد القادر بين سورية، العراق، السعودية ومصر. بقيت العائلة في القاهرة في الوقت الذي عاد فيه عبد القادر للقتال في البلاد، في كانون الأول 1947. وفي الوقت الذي قضاه في القدس، في أشهر ذلك الشتاء، كان عبد القادر يقيم في منزل شقيقه فريد، وهو المنزل الذي انطلقت منه جنازته الآن. صودر المنزل المجاور، الذي أقام فيه عبد القادر وزوجته وجيهة بعد زواجهما، من قبل السلطات الإسرائيلية بعد العام 1967 وتحول إلى مركز جماهيري. أما المنزل الذي خرجت منه جنازة عبد القادر، فهو خالٍ منذ بضع سنوات، كما يفيد صاحب حانوت القرطاسية والصحف الموجود في واجهة البناية القديمة منذ سنوات عديدة.

تقول التقارير الفلسطينية إن جنازة عبد القادر الحسيني كانت واحدة من أكبر الجنازات التي شهدتها مدينة القدس في تاريخها، حتى ذلك اليوم. غصت جميع الشوارع في المنطقة بآلاف مؤلفة من المشيعين، حتى قبل انطلاق موكب التشييع. أغلقت أبواب جميع الحوانيت، المصالح التجارية، المكاتب، المدارس والمؤسسات العامة التابعة للعرب في المدينة. روى المشيعون الذين كانوا يقفون بجانب البيت أن الشارع كان مزدحماً جداً وأن كثيرين تجمعوا حول الدرَج الخارجي المؤدي من الشارع إلى الطابق الثاني من المنزل. في لحظة ما، خرج إلى الدرج شاب يحمل سلاحاً وراح يطلق الرصاص في الهواء. بعد ذلك، حُمل النعش وبدأ جنود من جيش الإنقاذ، كانوا يقفون على شاحنة قريبة، بإطلاق وابل من الرصاص في الهواء، أصاب بعضها خطوط الكهرباء والهاتف في المكان فسقطت الأسلاك بين الحشد المزدحم فحصلت حالة من الفوضى العارمة. بدأ كثيرون من بين الجمهور، كانوا يحملون السلاح، بإطلاق العيارات النارية في الهواء فتفرق الناس باحثين عن ملاذ عند مداخل البيوت وفي الشوارع القريبة. «بدا وكأن في الشارع معركة كبيرة»، كتب فيما بعد أنور نسيبة، الذي حاول، مع زملائه في اللجنة الوطنية، تهدئة الوضع وإعادة النظام إلى موكب التشييع.

سُمع دوي العيارات النارية لمسافات بعيدة جداً. سمعوه جيداً في الأحياء اليهودية في الجزء الغربي من المدينة، أيضاً. حاول رجال الشرطة البريطانية

العرب المحافظة على النظام وفتح الطريق أمام مسيرات أعضاء المنظمات الكشفية وطلاب المدارس. عزفت جوقة «دار الأيتام الإسلامية» ألحاناً حزينة. سار موكب التشييع ببطء. رفع المشاركون أعلاماً إسلامية تقليدية: أعلام الأقصى، أعلام النبي موسى، أعلام النبي داود ـ وهي أعلام كانت ترفع على مدى سنوات عديدة خلال المراسم الدينية والزيارات إلى الأماكن المقدسة. كما شوهدت، أيضاً، أعلام نابلس وأعلام إبراهيم الخليل (الحرم الإبراهيمي الشريف) من الخليل.

لُفّ جثمان عبد القادر بالعلم القومي ذي الألوان الأربعة الذي ما زالت تستخدمه، حتى اليوم، م. ت. ف. والسلطة الفلسطينية والأردن. تقدم أبناء عائلة الحسيني موكب التشييع، ثم سار خلفهم قادة الجمهور العربي، أعضاء المجلس الإسلامي الأعلى وقضاة المحكمة الشرعية الإسلامية، أعضاء اللجان الوطنية في الأحياء المختلفة، ممثلو الطوائف المسيحية والقناصل العرب، رؤساء النقابات المهنية، ومئات قادة ومقاتلي الجهاد المقدس، بل وضباط عرب من وحدات الفيلق الأردني الذين كانوا منتشرين في المدينة ومحيطها. دخل موكب التشييع إلى البلدة القديمة عبر باب الساهرة.

باستثناء بناية أقيمت في عهد الحكم الأردني واستُخدمت مركزاً للبريد في القدس الشرقية، بقيت صورة الشوارع حول باب الساهرة كما كانت عليه آنذاك: إلى الشرق من ساحة الباب، بناية مدرسة «الرشيدية» الحكومية العريقة ومتحف روكفيلر. إلى الغرب ـ شارع السلطان سليمان، باني أسوار القدس من القرن السادس عشر، وهو شارع فيه سلسلة طويلة من الحوانيت. من الشمال ـ المصالح التجارية المركزية في شارع صلاح الدين، الذي احتل مدينة القدس من أيدي الصليبيين في القرن الثاني عشر. وثمة في المنطقة، أيضاً، عدد من الفنادق الصغيرة والكثير من أكشاك الباعة المتجولين. استقر في الزاوية الداخلية من الباب، بعد العام 1948 بائع قهوة ذو محدودية جسدية جراء إصابته في الحرب: «المناضل الجريح»، كانوا يسمون الزاوية التي خصصتها له دائرة الأوقاف الإسلامية كي تكون مصدر دخل يعتاش منه. في داخل الباب، حيز صغير اشترته مجموعة صغيرة من طلاب مدرسة دينية يهودية (ييشيفاه) بعد العام 1967.

من باب الساهرة، هبط موكب التشييع في زقاق عقبة درويش متجهاً نحو الشارع المؤدي إلى باب الأسباط ودخل منه إلى باحة المسجد الأقصى عبر الشارع القصير وباب الملك فيصل (باب العتم). يذكر أنور نسيبة أن شخصاً ما وقف على منصة صغيرة عند مدخل حرم المسجد الأقصى وطلب من الناس احترام قدسية المكان وعدم إطلاق النار في الهواء في منطقة الحرم: «بدلاً

من إطلاق النار، تصدّقوا بالذخائر التي ستوفرونها»، قال الرجل ومدّ يده متسولاً، فتبرع له كثيرون. أثارت ظاهرة التسول في الجنازة غضب نسيبة.

دخل موكب الجنازة إلى باحة المسجد الأقصى في الساعة الحادية عشرة والنصف. بعد تلاوة آيات من القرآن الكريم، سُمعت أصوات قرع أجراس الكنائس وصدى 11 طلقة مدفعية رمزية. أدى المشيعون صلاة الظهر واستمعوا لخطبتين من إماميّ المسجد الأقصى، الشيخين سعد الدين العارف وعبد الحميد السايح (الذي أصبح فيما بعد رئيساً للمجلس الوطني الفلسطيني، ضمن مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية)، ثم تُليت كلمة الحاج أمين الحسيني، كما تحدث اثنان من رؤساء الطوائف العربية المسيحية وحكمت المصري من نابلس، ابن عائلة مشهورة من رجال الأعمال المقربين إلى النظام الهاشمي ورئيس البرلمان لاحقاً (حفيده، بشار المصري، بادر وأقام مدينة الروابي الفلسطينية إلى الشمال من رام الله). وكان لكلمة التأبين التي ألقاها إبراهيم أبو دية، باسم المقاتلين، تأثير كبير على الحضور. كان أبو دية مصاباً لكنه أصرّ على المشاركة في الجنازة. وفي النهاية، تحدث د. إسحاق الحسيني فشكر، باسم العائلة، جميع المشيعين والمعزّين.

استمرت مراسم التشييع خمس ساعات بمشاركة نحو 50 ألف إنسان. «جنازة مهيبة لم تشهد البلاد مثلها من قبل»، كتب في يومياته المربي المعروف خليل السكاكيني. «إن كان ثمة من يمكن القول عنه إن البلاد كلها سارت خلف نعشه، فهو عبد القادر». ومثل آخرين، أشار السكاكيني أيضاً إلى كلمة إبراهيم أبو دية التي كانت «أجمل الخطابات، رغم أنه ألقاها من دون تحضير مسبق. إنه رجل رائع»، كتب السكاكيني في يومياته.

لم يكن من المخطط أن يكون أبو دية بين المتحدثين، إلا أنه وقف بجانب جثمان عبد القادر والقى كلمته. الأثر العميق جداً الذي تركه مردّه، أيضاً، إلى أنه حضر وهو يرتدي عباءة بنية اللون وكوفية وعقالاً وإحدى يديه ملفوفة بسبب الإصابة فيها خلال الليلة السابقة في القسطل. أسرت كلماته الحضور ببساطتها. تلا الآية المعروفة، «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا، بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ»، ثم قال: «عبد القادر ليس ميتاً، إذن، بل حي يرزق». وفي ختام كلمته، دعا المقاتلين إلى العودة إلى مواقعهم فوراً ومواصلة القتال.

مع انفضاض المشيعين، وصل إلى المدينة آخر المقاتلين في القسطل، بقيادة بهجت أبو غربية ومحمد عادل النجار. رآهم أنور نسيبة وهو في طريق عودته إلى منزله وكانت تلك اللحظة التي سمع منهم أن اليهود «استبدلوهم» في حراسة الجبل. سارع إلى منزله حزيناً يتملكه شعور بأن عبد القادر مات هباء.

واصل القائدان أبو غربية والنجار القتال، إلى جانب مقاتلي الجهاد المقدس، فترة أخرى من الوقت. بقي النجار، ثلاثة أيام بعد الجنازة، على رأس رجاله من وادي الجوز الذين هاجموا قافلة الأطباء وممثلي الجامعة العبرية في طريقهم إلى جبل سكوبوس (هار هتسوفيم). يصف تاريخ النكبة هذا الهجوم القاتل على قافلة هداسا (الذي يُطلق عليه بالعربية اسم «معركة الشيخ جراح») بأنه «رد على مجزرة دير ياسين». أسفر الهجوم على القافلة عن مقتل 78 يهودياً ـ من عمال، مدرّسي ومديري الجامعة وهداسا. أصيب النجار خلال تلك المعركة وسافر بعدها إلى القاهرة، التي بقي فيها حتى مماته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان السؤال الأول الذي طُرح فور وفاة عبد القادر مباشرة، كما ذكرنا آنفاً: من سيخلفه؟ جرت نقاشات ومداولات طويلة حول هذا الموضوع في المنزل الواسع الذي استأجره الحاج أمين في دمشق وواصلت التوافد إليه وفود المعزين، طوال يوم الجنازة كله.

كان التوتر والعداء اللذان سادا في الأيام الأخيرة من حياة عبد القادر بين الحاج أمين واللجنة العربية العليا، من جهة، وبين رؤساء اللجنة السياسية واللجنة العسكرية في جامعة الدول العربية، من جهة أخرى، لا يزالان واضحين الآن أيضاً. اقترح طه الهاشمي ـ الشخصية الأبرز في اللجنة العسكرية والخصم الأعنف لعبد القادر ـ والذي كان على علاقة وثيقة مع معارضي آل الحسيني ومع الملك عبد الله من شرق الأردن ـ على الفور، تعيين ضابط محترف من جيش الإنقاذ. من جانبه، كان بالإمكان استغلال الفرصة الآن لإثبات عدم قدرة مقاتلي حرب العصابات الفلسطينيين (أي، الجهاد المقدس) على إدارة وخوض حرب حقيقية، على الرغم من كل الاحترام المحفوظ لهم ولشجاعتهم. ها هو البرهان: حتى الإنجاز الكبير في احتلال القسطل ضاع من بين أيديهم لأنهم يفتقرون إلى النظام، التنظيم والانضباط، إذ تدفقوا بأعداد كبيرة إلى جنازة قائدهم في القدس وهم يُخلون موقعهم المهم جداً ويفسحون المجال أمام اليهود لإعادة احتلال القسطل ثانية، من دون قتال حتى.

كان هذا الاقتراح، تعيين ضابط من جيش الإنقاذ خلفاً لعبد القادر، استفزازاً مهيناً، من وجهة نظر الحاج أمين. كانت محافظة القدس والمدينة ذاتها، عاصمة البلاد، معقل قوته الأساس ـ وربما الوحيد ـ في الصراعات السياسية والعسكرية على مستقبل السلطة في فلسطين. كان له موالون وأنصار في مختلف أنحاء البلاد، حقاً، لكنهم لم يكونوا خاضعين لإمرته، كما رجاله في القدس الذين كانوا تحت قيادة عبد القادر، نصيره وابن عائلته. وعليه، رفض الحاج أمين، رفضاً قاطعاً، جميع الاقتراحات بشأن تعيين ضباط من جيش

الإنقاذ، حتى حين طَرحت أمامه أسماء مثل محمود الهندي، الضابط السوري الذي وقف إلى جانب الحاج أمين ورشيد عالي الكيلاني إبان ثورة 1941 في بغداد.

خيّم فوق رأس المفتي والموالين له، باستمرار، تهديد عبد الله، ملك شرق الأردن، بوحدات جيشه، التي كانت ـ على الرغم من كونها تحت قيادة بريطانية ـ متمركزة كل الوقت في مواقعها مستعدة للدخول في معارك مع اليهود في منطقة القدس. كان معنى ذلك أن تلك الوحدات مستعدة، أيضاً، لتفكيك وطرد مجموعات المقاتلين من الجهاد المقدس. وهو ما حصل بالفعل في نهاية المطاف، في المرحلة الثانية من الحرب في 1948، ثم فيما بعد أيضاً.

ثمة شهادة غير موثوقة دائماً، لكنها مثيرة على الرغم من ذلك، بشأن إجراءات تعيين وريث عبد القادر في موقع القيادة العسكرية، هي شهادة «ذو الكفل عبد اللطيف»، السكرتير العسكري للحاج أمين والذي كان شريك حسن سلامة في عملية الهبوط في أريحا في تشرين الأول 1944. كان مرافقاً للمفتي في المداولات والشجارات التي خاضها عبد القادر في دمشق حين جاء يطلب المساعدات بالمال والسلاح.

يروي ذو الكفل أنه عند الساعة الواحدة بعد منتصف الليل (في الليلة بين السبت والأحد، 10 و11 نيسان، على ما يبدو) اتصل به الحاج أمين وقال له: إنها مصيبة كبيرة دون شك؛ نحن نفكر في تعيينك أنت خلفاً لعبد القادر في قيادة منطقة القدس. وسرد المفتي على مسامعه، أيضاً، تسلسل الأحداث في دمشق، والتي غادر عبد القادر بعدها متوجهاً إلى القدس وهو ممتلئ بغضب شديد لأنه لم يحصل على السلاح. «توجه إلى الجبهة، إلى المعركة، مع القليل الذي كان بحوزته، مقارنة بما كان في حوزة العدو»، قال الحاج أمين، وأضاف فروى لذو الكفل عن المشكلة المالية التي أثارت غضب عبد القادر، لأن رجاله لم يتلقوا رواتبهم منذ ثلاثة أشهر: «وهم رجال تركوا بيوتهم وعائلاتهم وأعمالهم كي ينخرطوا في الجهاد [...] سنضع تحت تصرفك الأموال والأسلحة اللازمة وسيأتي الضابط محمود الهندي لمساعدتك، أيضاً».

يروي ذو الكفل عبد اللطيف أنه التقى، في تلك الليلة، طه الهاشمي وحسن سلامة، وكذلك إميل الغوري، المندوب المسيحي في اللجنة العربية العليا، الذي كان يعتبر مقرباً ومخلصاً جداً للمفتي الحاج أمين. بارك له هؤلاء الثلاثة وهنأوه بالثقة التي وضعها فيه المفتي.

في الصباح الباكر (في يوم الأحد 11 نيسان، على الأرجح)، كان المفتي الحاج أمين وإميل الغوري يستعدان لسفر الحاج أمين بالسيارة إلى بيروت، ليتوجه

من هناك إلى القاهرة، بالطائرة. في يوم سفرهما، جرى تبليغهما بأن الجامعة العربية اتخذت قراراً بأن يكون غزو الجيوش العربية لفلسطين يوم 15 أيار لفترة زمنية مؤقتة فقط. كان هذا القرار أشبه بتعويض للحاج أمين وأعضاء اللجنة العربية العليا الذين كانوا يخشون أن يمثّل دخول جيوش عربية إلى فلسطين دخول سلطة عربية غريبة ودائمة إلى وطنهم. لكن القرار كان رمزياً فقط، إذ تبين خلال أشهر معدودة أن تخوف الحاج أمين ورجاله كان مبرَّراً وفي محله: أصبح دخول الفيلق الأردني إلى الضفة، ودخول الجيش المصري إلى غزة، تثبيتاً لوجود السلطتين الأردنية والمصرية في هاتين المنطقتين.

كان طه الهاشمي ومحمود الهندي، أيضاً، على وشك مغادرة دمشق، فيما بقي ذو الكفل في المدينة ليومين آخرين برفقة صديقه القديم حسن سلامة، لإعداد تحضيرات فورية من أجل جمع المال والسلاح استعداداً لمغادرته واستلامه زمام القيادة على جبهة القدس. تعهد المفتي لذو الكفل بتوفير شاحنة لنقل الأسلحة من المخازن في قاعدة المزّة، وبالأموال التي سيحصل عليها من مساعده، خالد الفرح. وبالفعل، جاء الفرح إياه إلى ذو الكفل في الصباح نفسه وهو يحمل إليه 200 ليرة لتغطية نفقات فورية، من أصل المبلغ الكبير الذي سوف يحصل عليه لدفع رواتب مقاتلي الجهاد المقدس في القدس.

في ذاك الصباح، كما روى ذو الكفل، حصلت دراما غريبة للغاية، في نظره هو على الأقل. فبينما كان يحتسي القهوة، سوية مع حسن سلامة وإميل الغوري، تجمع حولهم عشرة شبان، وربما أكثر، من أبناء عائلة الحسيني (صلاح جميل، أكرم، إسحاق، عبد السلام، د. مهدي، مالك، إبراهيم، جواد وإسماعيل) ثم انضم إليهم عبد الله العمري، الذي جاء من القدس، من معركة القسطل. فوجئ ذو الكفل جداً بحضورهم، لكنه ظنّ أنهم جاءوا ليتعرفوا عليه بوصفه القائد العسكري الجديد، وريث عبد القادر.

في كل الأحوال، ترك ذو الكفل المجموعة وسافر إلى حيث مخازن السلاح في المزّة، برفقة الضابط السوري محمود الهندي وحسن سلامة، ثم انضم إليهم أيضاً الناشط الخليليّ، فخري مرقة، الذي تواجد هناك صدفة فساعدهم في تحميل السلاح على عدد من السيارات لنقله إلى جبهة القدس، بأسرع ما أمكن.

وبينما هم منشغلون بهذه المهمة، وصلت إلى مخزن الأسلحة محادثة هاتفية من إميل الغوري، الذي لم يكن قد غادر بيروت بعد. طلب من ذو الكفل العودة إلى مكتب اللجنة العربية العليا، حيث تجمع الشبان من عائلة الحسيني. كان ذو الكفل يعرف أكثرهم، شخصياً، منذ أيام طفولته في

القدس. كان بعضهم زملاء له على مقاعد الدراسة، في الصف التعليمي نفسه، أو في المدرسة. حين دخل إلى الغرفة، لاحظ أنهم ظلوا ملتزمين الصمت التام. أيقن أن شيئاً ما ليس على ما يرام، لكنه شرع في الحديث فروى لهم عما دار في أحاديثه مع المفتي الحاج أمين ومع طه الهاشمي وعن المساعدة التي سوف يحصل عليها من محمود الهندي. قال ذو الكفل إنه ينبغي العودة إلى ساحة القتال على الفور، لإعادة تنظيم الصفوف من جديد والاستعانة بالأسلحة الجديدة التي ستأتي إلى القدس.

يذكر ذو الكفل جيداً، كما يروي، أن جلبة حدثت في الغرفة بعد إنهائه حديثه، مباشرة. كان الجميع يتحدث، معاً في الوقت نفسه، ثم علا صوت صلاح جميل الحسيني الذي أسكت الحاضرين وقال: «لدينا رأي آخر في الموضوع. وقد اتفقنا عليه».

فهم ذو الكفل المشكلة وقال: «ما معنى هذا الكلام؟ ثمة قيادة للمعركة في فلسطين».

ردّ صلاح جميل: «هذا ليس مناسباً لنا».

قاطعه ذو الكفل: «من أخبركم بأن للجنود رأياً في تعيين القائد؟».

هنا تدخل عبد الله العمري، الذي كان يحظى باحترام الحاضرين جميعاً لأنه كان برفقة عبد القادر في لحظاته الأخيرة، فقال: «عليك أن تسمع رأينا».

«وما رأيكم؟»، سأل ذو الكفل.

العمري: «اتفقنا على شخص ما».

ذو الكفل: «على ماذا اتفقتم؟».

تواصل تبادل الكلام والتلميحات حتى قطعها صلاح جميل الحسيني فجأة، بصوت مرتفع وواضح: «اتفقنا على أنه إذا مات الحسيني، فسيحل محله حسيني آخر».

رغم أن مذكرات ذو الكفل عبد اللطيف كُتبت في مرحلة متأخرة، إلا أنه من المرجح الافتراض بأن روايته في هذا المقطع دقيقة تماماً. وهو يقول إنه كان مصدوماً للغاية لسماع جملة ابن الحسيني تلك، لكنه تمالك أعصابه واستعاد اتزانه على الفور وقال:

«أنت تعرفني، يا صلاح. المشكلة ليست عائلية وليست ثمة قضية توريث أو صراع هنا. المسألة هي الواقع القائم في ميدان القتال وأولئك الذين يعرفون الأمور ويفهمونها والمسؤولون من الناحية العسكرية رأوا أنني مناسب وقادر على إصلاح ما يحتاج إلى إصلاح، وهم الذين قرروا تعييني في هذا المنصب.

حتى أنني قلت لهما [للحاج أمين ولطه الهاشمي] إني سأستعين بقدراتكم وكفاءاتكم قدر المستطاع وأنكم ستقفون إلى جانبي».

لم يثر كلام ذو الكفل هذا أي اهتمام لدى صلاح جميل الحسيني فعاد على ما قاله، مرة أخرى وبصورة حازمة: «اتفقنا ولن نتراجع عن هذا ـ «مات الحسيني، يجب تعيين حسيني آخر مكانه».

يواصل ذو الكفل ويستعيد ما حدث في الغرفة. سأل:

«وماذا إن لم يحصل هذا؟».

صلاح جميل: «سنتصدى بقوة لكل من يستلم المهمة».

ذو الكفل: «ومن منكم الذي سيشغل المنصب بدلاً من أبي موسى [عبد القادر]؟».

صلاح جميل: «سوف نبحث ونقرر».

ذو الكفل: «ليست ثمة مسألة بحث وقرار هنا [...] المسألة هي المعركة العسكرية. ومن هو مرشحكم من آل الحسيني؟».

صلاح جميل: «خالد شريف الحسيني».

ذو الكفل: «لكن خالد شريف هو شرطي [كان ضابطاً في شرطة القدس]. ثمة فرق كبير بين عمل الشرطة وعمل الجيش. تعمل الشرطة لفرض القانون والنظام وسلاحها قليل. يعرف خالد كيف يقبض على مجرمين ولصوص، لكن ماذا يعرف عن الجيش الذي يحارب بأنواع عديدة من السلاح؟".

صلاح جميل: "لكن هذا ما قررناه. الحسيني سيخلف الحسيني".

توجه ذو الكفل إلى حسن سلامة [أبو علي] وإلى إميل الغوري اللذين كانا حاضرين في الغرفة، طلب منهما مرافقته إلى خارج الغرفة للتشاور. قال حسن سلامة إنه يرى أن هذا تصرف طفولي من شبان آل الحسيني وينبغي التصدي لهم. "سأعود إلى ساحة القتال وأرسل لك كتيبة كاملة لمواجهتهم". قال. ردّ عليه ذو الكفل، بلهجة تغلب عليها المسؤولية الوطنية، كما قال: "علينا أن نواجه العدو وأن نتصدى له، وممنوع أن نتحارب فيما بيننا، لأنها جريمة وطنية".

اقترح إميل الغوري التوجه إلى مسني آل الحسيني وأثنى على طلب ذو الكفل عرض الأمر على الحاج أمين بصورة فورية، كي يتخذ هو القرار بشأن حل هذه الإشكالية. بعد تردد قصير، قرر ذو الكفل عدم التوجه إلى القدس مع

السلاح في الحال، كما خطط من قبل، بل التوجه إلى القاهرة بنفسه لإطلاع الحاج أمين على ما حصل من تطور.

بعد ليلة واحدة، سافر إلى القاهرة بالطائرة. وفي ساعة مبكرة من الصباح، اتصل بالحاج أمين الذي سأل، وقد أخذته المفاجأة: "من أين تتصل؟ من القدس؟" ـ "كلا"، قال ذو الكفل وروى للمفتي ما قاله شبان آل الحسيني عن أن "الحسيني مات والحسيني سيخلفه" وأنهم ينوون محاربة كل شخص آخر. وحين شرع يشرح للمفتي أن الشبان قرروا تعيين خالد شريف، الذي لا يفقه شيئاً في شؤون الجيش والعمل العسكري، أوقفه المفتي وقال: هذا ليس شأنك. أنا عيّنتُك أنت ولا ينبغي التحدث في الموضوع هاتفياً. ثم دعاه للحضور إلى مكتبه.

بعد أيام معدودة، نُظمت في منزل الحاج أمين في القاهرة وجبة عشاء كبيرة دُعي إليها ذو الكفل وشارك فيها عدد من أبناء عائلة الحسيني، بينهم مساعدو الحاج أمين، وآخرون ممن شاركوا في اللقاء في دمشق (تغيب صالح جميل، كما يؤكد ذو الكفل). كما تغيب مدعوّ آخر من أبناء عائلة الحسيني، هو قاسم الريماوي، رئيس مديرية الجهاد المقدس ومن أكثر المقربين، بالتأكيد، لعبد القادر، منذ الثورة الكبرى.

خلال وجبة العشاء، أجلَسَ المفتي ذو الكفل إلى جانبه وتحدث مطولاً عن الحاجة إلى الوحدة الوطنية والتعاون. في نهاية الوجبة، سلّمه وثيقة تفصّل تسلسل القيادة الهرمي في القدس: القائد العام خالد شريف الحسيني وله نائبان: ذو الكفل عبد اللطيف وفاضل رشيد.

"المعذرة، لكن ليس هذا ما اتفقنا عليه في دمشق"، قال ذو الكفل. وأضاف: "هذه المرة الأولى التي لن أنصاع لك فيها. لماذا غيرت رأيك؟".

الحاج أمين: "لقد تغير الوضع".

ذو الكفل: "صحيح. الوضع الآن مختلف. مرت ستة أيام منذ وفاة عبد القادر. لم أسافر إلى القدس، بينما عزز العدو قوته في هذا الأثناء واحتل مناطق وقرى أخرى. عليك أن تسيطر على الشباب من عائلتك".

يشهد ذو الكفل عن نفسه أنه انفجر بهذا الأسلوب المتطاول، بوقاحة، أمام الحاج أمين. وسواء أكانت شهادته المتأخرة هذه دقيقة أم لا، إلا أن سلسلة من الحوادث المحرجة قد حصلت في قيادة اللجنة العربية العليا وقيادة جيش الإنقاذ في مسألة تعيين خليفة عبد القادر الحسيني. الدسائس، الخصومات، السياسات القبلية ـ جميع العناصر التي أضعفت المجتمع الفلسطيني لسنوات عديدة ـ تم التعبير عنها وتجسيدها بحدة، حسب هذه التقارير. في النهاية، كان

فاضل رشيد الشخص الذي أدار المعركة، على الرغم من أن خالد شريف كان القائد الرسمي، في نظر الحاج أمين ورجاله على الأقل.

عمل ذو الكفل عبد اللطيف لفترة أخرى في الحكومة المؤقتة التي شكلها الحاج أمين في غزة، لكنه عاد واستقر في القاهرة وانسحب من جميع الفعاليات الفلسطينية. وفي وقت لاحق، في كتاب مذكراته (الذي طُبع في عمان سنة 2000 للمرة الأولى)، توسع في الحديث عن نظام الحمائل والقبليّة الذي أنهك المجتمع الفلسطيني وحركته الوطنية والنضال من أجل فلسطين. كشخص كان، كما يقول هو نفسه، أحد أكثر المقربين من الحاج أمين، شعر بحصول تغيير لديه في أعقاب الحرب العالمية الثانية: أصبح متشككاً جداً ولم يثق إلا بأبناء العائلة.

في إحدى المحادثات القاسية التي دارت بينه وبين الحاج أمين حول عزله من قيادة منطقة القدس ـ يروي ذو الكفل ـ أوضح له الحاج أمين أنه ملزم بتعيين خالد شريف الحسيني قائداً عاماً لأن عائلة والدته من قرية صوريف في الأصل، وهي قرية إبراهيم أبو دية؛ فكانت هذه الطريقة الوحيدة للاحتفاظ بولاء أبي دية ورجاله ولضمان عدم سقوط السلاح من صوريف في أيدي جهات أخرى. وفي محادثة حميمية أخرى بينهما، حين عاد ذو الكفل واشتكى عدم حصوله على المنصب خلفاً لعبد القادر، ادعى المفتي أمامه بأنه سمع عبد القادر يشكو، ذات مرة، أنه هو، ذو الكفل، شخص عنيف، ذو رؤية نازية، ليس جديراً بأن يكون قائداً وليس مناسباً لتأدية هذه المهمة. أجابه ذو الكفل (حسب شهادته هو، مرة أخرى) بأن هذا كذب وافتراء وأن عبد القادر لا يمكن أن يقول كلاماً كهذا، قطعياً. فقد عرفا بعضهما جيداً منذ كانا صديقين إبان زمالتهما في الأكاديمية العسكرية في بغداد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان للصدمة الفلسطينية في القاهرة بوفاة عبد القادر صدى في تقرير لاحق لشاب يدعى حمد أبو ستة، من عائلة بدوية ثرية في غرب النقب، كان يدرس آنذاك في جامعة الملك فؤاد في القاهرة (التي أصبحت "جامعة القاهرة" فيما بعد). كان أبو ستة قد خضع لبعض التدريبات العسكرية في معسكر لمتطوعي جيش الإنقاذ في سورية، بل حارب لوقت قصير في فلسطين أيضاً، ثم عاد لإتمام دراسته في القاهرة. بعد سنوات عديدة، روى أبو ستة للصحافيين الأميركيين جون وجانيت فَلَخ أنه حين علم بوفاة عبد القادر وأصبح خطر الهزيمة المحدق بعرب البلاد خطراً حقيقياً وملموساً، دعا عشرات الطلاب الفلسطينيين الذين كانوا يدرسون في الجامعة إياها آنذاك، إلى لقاء عقد في ناد تابع لحركة "الإخوان المسلمون" التي كان مقرباً منها.

في اللقاء المؤثر، الذي تولى أبو ستة عرافته، أخرج الطلاب كتب التدريس، الدفاتر وبطاقاتهم الجامعية وألقوها في موقدة أشعلوا النار فيها وهم يقسمون بأن يتوجهوا إلى فلسطين للقتال. شارك في الحفل، أيضاً، طالب شاب، قصير القامة ونحيف، كان يدرس الهندسة في السنة الأولى، يدعى ياسر عرفات القدوة. يروي أبو ستة أنه التقى عرفات قبل ذلك في أوساط الجالية الفلسطينية في القاهرة، والتي كانت تلتف آنذاك حول الحاج أمين وعبد القادر. حاول نهي عرفات عن التوجه إلى فلسطين، لانعدام الخبرة العسكرية لديه، لكن عرفات أصرّ وانطلق مع مجموعة صغيرة إلى غزة فشاركوا في معارك جرت يومي 10 و11 أيار 1948 تخللتها هجمات ضد كيبوتس كفار دروم، قرب دير البلح. فشلت الهجمات التي نفذتها وحدة المتطوعين التابعة للإخوان المسلمين. بعد أقل من أسبوع، دخل الجيش المصري إلى فلسطين. أصيب عرفات بخيبة أمل جراء عدم إشراكه في العمليات القتالية وعاد أدراجه إلى القاهرة لمواصلة دراسته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



15

خـاتـمـــة

في يوم الثلاثاء، 13 نيسان 1948، بعد أربعة أيام على جنازة عبد القادر ومجزرة دير ياسين، تلقت القدس اليهودية إحدى الضربات الأشدّ قسوة في الحرب. قافلة تضم سبع سيارات وحافلتين تقلان عمال مستشفى هداسا والجامعة العبرية، كانت في طريقها إلى جبل سكوبوس. تعرضت القافلة للهجوم في الشارع الذي يمر عبر حي الشيخ جراح. أسفر الهجوم عن مقتل 78 من ركاب القافلة. تشير التوثيقات الفلسطينية إلى "معركة الشيخ جراح" بكونها أحد الإنجازات التي حققها محمد عادل النجار، أحد الموالين لعبد القادر. من الصعب وصف ما جرى هناك بأنه "معركة": نصب النجار ورجاله كميناً وقعت فيه القافلة وخلال وقت قصير تجمع في المكان عشرات، وربما مئات، من سكان وادي الجوز والأحياء المجاورة، وأطلقوا النار، هم أيضاً ولساعات طويلة، على المسافرين في القافلة.

كان بين المهاجِمين، أيضاً، مساعد الخياطين مصطفى العشو، الذي كان منزله قريباً من مكان مرور القافلة، قرب حي نحلات شمعون اليهودي الصغير. بعد ثلاث سنوات، في تموز 1951، أطلق العشو هذا النار على ملك الأردن، عبد الله، وأرداه قتيلاً عند مدخل المسجد الأقصى. ردّ حراس الملك بقتل مصطفى العشو على الفور، في المكان نفسه. حُكم على شريكيه في عملية الاغتيال، شقيقين من عائلة العكّة، وشريك رابع، هو محمد سيدمير (ادكيدك)، بالإعدام وجرى تنفيذ الحكم بحقهم في عمان. كان الأربعة في الماضي جنودا في الجهاد المقدس واعتُبروا، في نظر الشارع الفلسطيني، "أبطال معركة الشيخ جراح". هذا ما قاله لي بعد سنوات عديدة محمود نابلسي، صاحب حانوت في الحيّ.

اتهم الأردنيون ستة أشخاص آخرين بالتخطيط لعملية الاغتيال، من بينهم عبد الله التل، ضابط الفيلق الذي كان قائداً لمنطقة القدس قبل ذلك، د. داود الحسيني، ابن عائلة الحاج أمين، ورجل الدين المسيحي، إبراهيم عيّاد.

زرتُ، كصحافيّ، منزل عائلة العشو في العام 1980. ظل شقيقا مصطفى يعملان خياطين في مخيطة صغيرة في البلدة القديمة، ثم في منزلهما. حتى بعد مرور ثلاثين عاماً على اغتيال الملك عبد الله، كانا لا يزالان فخورين بشقيقهما الذي قتل الملك "الخائن". على الحائط في المنزل كانت معلقة لوحة كبيرة عليها رسمة يدوية كُتب عليها:

بنى قصر وما خشّو،

سلم يمينك يا عشّو.

القصر المقصود هو بناية كبيرة على رأس التلة المسماة "تل الفول فوق بيت حنينا". هذه التلة اشترتها العائلة الهاشمية المالكة لبناء قصر ملكي في القدس. ظل هيكل بناية القصر قائماً في الموقع عشرات السنين ولم يكتمل البناء حتى اليوم.

سُجل في اليوم ذاته الذي وقعت فيه مجزرة قافلة هداسا، نجاح في الجانب اليهودي، أيضاً: قافلة تضم 200 شاحنة نجحت في اختراق الشارع من منطقة وادي الخليل والوصول إلى القدس. بعد ذلك بيومين، احتلت وحدات "بلماح" وعتصيوني قرى على الشارع، من بينها ساريس. وفي 17 نيسان، نجحت في الدخول إلى المدينة قافلة أخرى، كبيرة، ضمت 227 شاحنة محملة بالمواد الغذائية والتجهيزات العسكرية. وقد كان عبور القافلتين نتيجة واضحة لعملية نحشون واحتلال القسطل.

على الرغم من الهزيمة في القسطل، حققت الوحدات الفلسطينية عدداً من النجاحات خلال الأسابيع المتبقية حتى يوم 15 أيار. فقد تم، في نهاية المطاف، احتلال بلدتيّ عطاروت ونفيه يعقوب اليهوديتين المعزولتين في شمال القدس. وفي معركة النبي صموئيل، صدّ العرب هجوماً ضارياً. في 13 أيار، احتل الفيلق الأردني غوش عتصيون، وفي نهاية أيار سقط أيضاً الحي اليهودي في البلدة القديمة. في المقابل، استطاع اليهود احتلال الأحياء العربية في جنوب ـ غرب المدينة (القطمون) ووسطها. أما المعارك التي جرت على الشارع المؤدي إلى القدس خلال شهر أيار، فلم يتحقق الحسم فيها لأي من الجانبين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في يوم السبت، 15 أيار، انتهى حكم الانتداب البريطاني في البلاد. قبل ذلك اليوم، احتُلّت الأجزاء العربية من المدن المختلطة: طبريا، صفد، حيفا ويافا. بدأ فلسطينيون كثيرون في هجر بيوتهم، بعد أن صدّقوا وعود الدول العربية بأنهم سيعودون إليها منتصرين عمّا قريب.

في يوم الجمعة، قبل حلول السبت، أعلن دافيد بن غوريون تأسيس دولة إسرائيل. سارعت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي إلى الاعتراف بالدولة الجديدة وأعلنت الدول العربية أن جيوشها ستدخل إلى البلاد لإجهاض إقامة الدولة اليهودية. الحكومات العربية، التي كانت حاولت قبل ذلك انتزاع إدارة المعركة السياسية والمعركة العسكرية من أيدي الفلسطينيين بقيادة الحاج أمين، أنجزت غايتها في أيار. طردت الفلسطينيين، الذين أنهكتهم الصراعات

الداخلية والتعصبات القبلية، وبينما هي تتنافس فيما بينها على الهيمنة، انتزعت من أيدي الفلسطينيين أي مسؤولية عما يجري في البلاد.

أدى دخول الجيوش العربية إلى تغيير موازين القوى في القدس بصورة دراماتيكية. لم تعد تلك مجرد مجموعات من المقاتلين المحليين غير النظاميين التابعين للجهاد المقدس، إلى جانب تعزيزات قليلة من متطوعي جيش الإنقاذ، العراقيين والسوريين في غالبيتهم، بل أصبحت وحدات نظامية، مدرَّبة ومجهزة بمستوى جيد.

منذ الآن، وللمرة الأولى، أصبح الجانب العربي متفوقاً، عددياً ونوعياً. اضطرت الوحدات اليهودية، التي أصبحت "جيش الدفاع الإسرائيلي"، إلى خوض معارك صدّ ودفاع فقط. كانت الجبهات المركزية في وسط المدينة، عند حدود مصرارة والمجمع الروسي (المسكوبية)، الشيخ جراح في الشمال، في أحياء الأطراف اليهودية، وفي الجنوب ـ في كيبوتس رمات راحيل. انتقل ميدان المعارك الرئيسي على الطريق نحو القدس إلى منطقة اللطرون، التي فشلت فيها وحدات الجيش الإسرائيلي في اختراق الشارع المؤدي إلى القدس. بقي هذا المسار المهم مغلقاً. في 10 حزيران، فقط، على وشك بدء الاستراحة الأولى، استطاعت القوات الإسرائيلية، خلال عملية ناجحة، اختراق مسار التفافي يتجاوز اللطرون، أطلق عليه اسم "طريق بورما"، على اسم عملية بريطانية من الحرب العالمية الثانية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مع انتهاء المعارك وقبيل التوقيع على اتفاقية وقف إطلاق النار بين إسرائيل والمملكة الأردنية في مطلع نيسان 1949، تحددت صورة القدس كمدينة مختلف عليها لتسعة عشر عاماً قادمة. قسّمها حدّ بلديّ تمثل في مناطق ردم مهجورة، من كيبوتس رمات راحيل في الجنوب حتى حي سنهدريا في الشمال. في الجزء الغربي من المدينة، الذي أُعلِن عاصمة لدولة إسرائيل، شُملت الأحياء العربية الجديدة والثرية في غالبيتها ـ القطمون، طالبيَّه، الحي الألماني والحي اليوناني، حي البَقعة وأجزاء من حيّي أبو طور ومصرارة.

كما شُملت في الجزء الغربي من المدنية، أيضاً، القرى الكبيرة: المالحة، عين كارم، لِفتا، دير ياسين والجزء الشمالي من قرية بيت صفافا. هذه كلها، إضافة إلى عدد كبير من القرى العربية في المنطقة التي أطلق عليها اسم "رواق القدس"، من كلا جانبي الشارع إلى تل أبيب، قرى تم اقتلاع سكانها وأقيمت خلال السنوات بلدات يهودية مكانها وبدلاً منها.

كما انتقلت إلى أيدي الحكومة الإسرائيلية، أيضاً، ممتلكات عربية كثيرة كانت في وسط الجزء اليهودي من المدينة، وذلك من خلال تشريعات قانونية أطلق

عليها لاحقاً اسم "قانون أملاك الغائبين"، الذي وضع تحت سلطة وصيّ إسرائيلي ممتلكات تعود لنحو 750 ألف عربي فلسطيني من مختلف أنحاء البلاد ـ هم الذين هربوا، أو طُردوا، من البلاد إلى مناطق تحت سيطرة العدوّ خلال حرب 1948، أو مجرد أنهم كانوا خارج حدود بلادهم في اللحظة المقرِّرة.

كانت هذه بمثابة ضربة قاصمة للقدس العربية. اضطر عشرات آلاف اللاجئين، بعضهم من أبناء النخب العربية التقليدية في مدينة القدس، إلى التزاحُم بين أسوار البلدة القديمة، وقد فقدوا ممتلكاتهم، فيما هروب كثيرون منهم إلى شرق الأردن، أو تفرقوا في أرجاء العالم العربي أو هاجروا إلى ما وراء البحار.

بقيت القدس العربية خلال السنوات التي جرى فيها توسيع القدس الغربية، الإسرائيلية، وتحويلها إلى عاصمة تضم جميع المؤسسات الرسمية، إحدى ضواحي المملكة الأردنية، بلدة صغيرة ومغلقة. من الناحية الوطنية الفلسطينية، لم تعد القدس في حكم الوجود، عملياً. لم يعد إلى القدس العربية أي من أعضاء القيادة الوطنية الفلسطينية جميعاً، تقريباً، وفي مقدمتهم المفتي الحاج أمين الحسيني ومقربوه. استقر كثيرون منهم في القاهرة، في بيروت أو في دمشق، بينما تصالح آخرون مع نظام الملك عبد الله الذي رفع آنذاك شعار "وحدة الضفتين" ـ وهو الشعار الذي كان يعني، فعلياً، شطب الهوية الفلسطينية المستقلة مقابل تنمية، تطوير وإعلاء شأن الضفة الشرقية والعاصمة عمّان، على حساب الضفة الغربية والقدس.

كانت مكانة القدس الشرقية البائسة تحت الحكم الأردني عاملاً مساعداً لإسرائيل، إذ سهّلت عليها تنفيذ مخططها لضم المدينة إلى السيادة الإسرائيلية، في أعقاب احتلال الضفة الغربية في حزيران 1967. فقد جرى تنفيذ الضم تحت شعار "إعادة توحيد المدينة". تقررت حدود المدينة الموحدة الجديدة وفق مبدأ بسيط: ضم أكثر ما أمكن من المساحة وأقل ما أمكن من السكان العرب، إلى دولة إسرائيل. وهكذا، أيضاً، شُملت في المساحة التي ضمتها إسرائيل إلى سيادتها 28 من الأحياء والقرى التي لم تكن جزءاً من المدينة العربية من قبل، من بيت صفافا وشعفاط في الجنوب حتى بيت حنينا في الشمال. كان عدد السكان العرب الذين شملهم الضم آنذاك 60 ألفاً ـ أقل، نسبياً، من مساحة المنطقة التي تم ضمها. بعد مضي خمسين عاماً، أصبح عدد السكان نحو 330 ألفاً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يصبح العرب سكان القدس الشرقية مواطنين إسرائيليين، مثل العرب الآخرين الذين بقوا في إسرائيل بعد 1948. مُنح المقدسيون مكانة "مقيم

دائم"، وهي المكانة التي تعني أنهم يتمتعون بجميع حقوق المواطنين، باستثناء حق الانتخاب للكنيست الإسرائيلي وحق حمل جواز السفر الإسرائيلي. والأهم من هذا هو حقيقة أن الإنسان قد يفقد مكانة المقيم الدائم في حال لم يعد "مركز حياته" في داخل حدود المدينة والبلاد. بكلمات بسيطة، الفلسطيني الذي يغادر حدود مدينة القدس جراء نشوء أزمة سكن حادة فيها فينتقل إلى السكن في إحدى ضواحيها الكبيرة من الشمال، على حدود رام الله، قد يفقد حق الإقامة الدائمة في إسرائيل، وهو الحق الذي تتمثل ميزاته الأساسية في خدمات النظامين الاجتماعي والصحي وإمكانية العمل في مختلف أنحاء إسرائيل. وقد أصبحت هذه الميزات أكثر أهمية وفائدة بعد إقامة السلطة الوطنية الفلسطينية بشكل خاص، والتي تحيط مناطقها بالقدس الشرقية.

ازداد كثيراً عدد السكان العرب في القدس في حدودها الجديدة، خلال السنوات منذ 1967، كما ارتفعت أيضاً نسبتهم من بين مجموع السكان في المدينة: فقد وصلت نسبتهم في العام 2017 إلى نحو 40٪ من مجمل سكان المدينة. العرب غير المواطنين في إسرائيل ليسوا شركاء في المؤسسات التي تدير المدينة: صحيح أنهم يتمتعون بحق انتخاب السلطة المحلية (البلدية)، لكنهم يقاطعون هذه الانتخابات في العادة وغالبية الأحياء الشرقية في المدينة تعاني من الفقر وشح الخدمات اللائقة.

لم يبق في مدينة القدس سوى قلة فقط من آل الحسيني الذين تولوا قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية لعقود من الزمن. أبرزهم هو فيصل الحسيني، نجل عبد القادر، الذي كان عضواً في قيادة منظمة التحرير الفلسطينية حتى وفاته بصورة مفاجئة في الكويت سنة 2001. شقيقاه، البكر الطبيب موسى الحسيني، والأصغر غازي، يقيمان في عمّان. الشقيقة هيفاء وأفراد عائلتها كانوا يسكنون في عزبة العائلة في قرية عين سينيا، المجاورة لمدينة رام الله. نجل فيصل، المسمى على اسم جده عبد القادر، يدير مع شقيقته فدوى مؤسسة ثقافة صغيرة تحمل اسم والدهما، في شرق المدينة.

انخرط عدد من أبناء عائلة الحسيني في مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية، فيما انتشر آخرون في أماكن مختلفة، انتقلوا إلى السعودية ودول خليجية أخرى. تحولت بيوت عائلة الحسيني، الواسعة والفخمة، في وادي الجوز، إلى مدارس، فنادق، مكاتب ومؤسسات عامة. أصبح منزل الحاج أمين في شرق الشيخ جراح فندق شيبرد حتى مصادرته من قبل السلطات الإسرائيلية، باعتباره أملاك غائبين، وجعله مركزاً لطلاب مدرسة دينية يهودية (ييشيفاه). أما منزل عبد القادر، فأصبح مركزاً جماهيرياً. قليلون فقط من أبناء أنصار عبد القادر والموالين له بقوا في المدينة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غيّرت زيارة الرئيس المصري، أنور السادات، إلى القدس (سنة 1977)، ثم معاهدة السلام التي أعقبتها بين مصر وإسرائيل، تماماً وجه الصراع بين إسرائيل والدول العربية. أدركت التنظيمات الفلسطينية أن عليها خوض المعركة وحدها تقريباً، لأن ليس ثمة من يمكنها الاعتماد عليه من بين الحكومات والجيوش العربية. لن يأتي الخلاص منها. تقلص الصراع العربي ـ الإسرائيلي الواسع، الذي تخللته حروب شاملة بين إسرائيل والجيوش العربية، إلى جبهة واحدة فقط الآن، هي الجبهة الفلسطينية.

لئن كان الفلسطينيون يعتقدون في السابق بأنهم قادرون على تحفيز الحكومات العربية ودفعها إلى شن الحروب، فقد تبين لهم في حرب لبنان الأولى، سنة 1982، بصورة نهائية، أن العرب لا يهبون لنجدتهم: "صمدنا وحدنا 88 يوماً أمام ثماني فرق من الجيش الإسرائيلي وكل سلاحه الجوي وسلاحه البحري [...] لم يتبق لدى إسرائيل في الجبهة الداخلية سوى ثلاث فرق على امتداد الجبهة العربية مع مصر والأردن وسورية [...] لم يكن على الجيوش العربية سوى أن تنهض وتسافر في الطريق نحو القدس، التي كانت مفتوحة"، هذا ما قاله ياسر عرفات في تموز 1983 خلال لقاءات مع صحافيين في عمّان وتونس. "وما الذي حصل؟ لا شيء، على الإطلاق. ماذا يمكن للإنسان أن يقول عن هذا؟".

كان المتحدثون في وسائل الإعلام الفلسطينية معبأين بتعابير الغضب، الاحتقار والاستهزاء، تجاه الحكام العرب الذين يقفون ضعفاء عاجزين في مواجهة إسرائيل. ينبع موقفهم الخيانيّ من التخاذل أمام أميركا، كما قال ناجي العلي، رسام الكاريكاتير الفلسطيني الأشهر على الإطلاق؛ ولم تكن أقل حدة منه فنانة الكاريكاتير أميّة جحا، التي تجرؤ على تصوير الحكام العرب كأشخاص بدينين، يرتدون الدشاديش البيضاء، غارقين في ملذاتهم باحثين عن الملذات ولا يتعدى دعمهم للفلسطينيين التصريحات الجوفاء.

صراعات، اعتقالات، ملاحقات، صدامات عنيفة، بل ومعارك حقيقية وجدية أحياناً ـ هذه مميزات العلاقات ما بين الحكام العرب والناشطين السياسيين الفلسطينيين. وقد بلغ الأمر حد الحرب الأهلية مرتين: الأولى، في الأردن في أيلول الأسود عام 1970؛ والثانية، في لبنان بين 1975 و1990. وكانت الخلفية، على الدوام، مطالبة الفلسطينيين بتوجيه قوة الدول العربية، العسكرية والسياسية، ضد إسرائيل. كيف يمكن لأمة عربية مسلمة تعدّ الملايين، ذات قدرات عسكرية، اقتصادية وسياسية تمتلكها عشرات الدول، أن تكون عاجزة عن التصدي لإسرائيل وعن أن تعيد للفلسطينيين ما يعتبرونه وطنهم وحقوقهم الوطنية المسلوبة؟

تحقق مع مرور خمسين عاماً على حرب الأيام الستة، تساوٍ تام بين عدد اليهود وعدد الفلسطينيين في المناطق الواقعة إلى الغرب من نهر الأردن. بلغ تعداد كل واحد من الشعبين نحو 6,5 ملايين نسمة. لكن، بينما يشكل اليهود مجتمعاً يتمتع بمكانة سياسية وحقوق مدنية موحدة ومتساوية، قسّمت السلطات الإسرائيلية الفلسطينيين إلى عدة مجموعات، لكل منها مكانة مختلفة.

تضم المجموعة الأولى 1,8 مليون عربي إسرائيلي يتمتعون بالمواطنة الإسرائيلية الكاملة كما يتمتعون، بصورة رسمية، بحقوق متساوية مع المواطنين اليهود؛ لديهم تمثيل في الكنيست، وعلى رأس جدول أعمالهم المطالبة بمساواة مدنية تامة، فعلية وليس رسمية فقط.

تضم المجموعة الثانية نحو مليونيّ فلسطيني يعيشون في قطاع غزة، الذي تحكمه حركة "حماس". يعيش هؤلاء في ظل إغلاق مستمر وتحت حصار، شبه تام، منذ 2007. يعاني سكان غزة من ضائقة حادة من نقص المياه والكهرباء؛ تزيد معدلات البطالة عن 50٪ ولا تتوفر لهم أي إمكانية للخروج من قطاع غزة، إلا بتصريح إسرائيلي أو مصري، على أن هذه التصاريح تُعطى بالقطارة فقط.

تضم المجموعة الثالثة نحو 2,5 مليون فلسطيني يعيشون في الضفة الغربية، التي تقسمت أراضيها بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية، طبقاً لاتفاقيات أوسلو التي قضت بأن تكون 60٪ من مساحة الضفة الغربية تحت سيطرة إسرائيلية كاملة، 20٪ تحت سيطرة فلسطينية شبه تامة و20٪ تحت سيطرة أمنية إسرائيلية وسيطرة مدنية فلسطينية. إضافة إلى هؤلاء، ثمة أكثر من 300 ألف فلسطيني يسكنون في منطقة القدس التي تم ضمها إلى إسرائيل وهم، كما ذكرنا، "مقيمون دائمون" في إسرائيل، أي ليسوا مواطنين إسرائيليين.

p?^∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت معركة القسطل المعركة الأخيرة بقيادة وإدارة فلسطينية كاملة. أدار القادة العسكريون الفلسطينيون، وغالبيتهم من قدامى الجهاد المقدس منذ الثورة الكبرى، المعركة بكل تفاصيلها: هم الذين أحضروا رجالهم من مختلف أنحاء منطقة القدس، من الخليل في الجنوب حتى رام الله في الشمال؛ هم الذين وضعوا إستراتيجية الهجوم على القرية؛ هم الذين حددوا شكل انتشار القوات والأهداف الثانوية. بنظرة إلى الوراء، هم الذين تحملوا نتائج الفشل، أيضاً.

لم تتضح الصورة الحقيقية للتحول الذي حصل في أعقاب المعارك في القدس وضواحيها إثر سقوط القسطل ووفاة عبد القادر الحسيني، إلا بعد أشهر عديدة. وأكثر ما برز بعد القسطل هو حقيقة أن وحدات الجهاد المقدس تفقد، بسرعة، دورها كمسؤولة عن قطاع القدس وضواحيها. فقد تفككت في غضون أشهر قليلة وتفككت معها، أيضاً، القيادة العسكرية الفلسطينية ونزلت عن منصة الصراع لعقود طويلة. وضعت معركة القسطل حداً نهائياً لعشر سنوات من المحاولات الفلسطينية لشن كفاح عسكري ضد الانتداب البريطاني واليشوف اليهودي. عادت القيادة العسكرية الفلسطينية إلى ميدان القتال بعد ما يزيد عن ثلاثين سنة على تلك المعارك في القسطل.

ظل تأريخ معركة القسطل، المعركة الفلسطينية الأخيرة في حرب 1948، حاضراً بقوة لسنوات عديدة، وخصوصاً في كتب التدريس ومواقع الذكرى الفلسطينية. توزع المشاركون في المعركة وأبناء عائلاتهم في شتى جهات الأرض، وكذلك كثيرون من سكان القدس العربية. لم يعد الخيار العسكري الفلسطيني، الذي بدا واضحاً تماماً في معركة القسطل ـ قبل أكثر من سبعين سنة ـ مطروحاً بعد.

بنظرة إلى الوراء، يمكن الجزم بأن اليوم المصيري الحاسم في معركة القسطل وموت عبد القادر الحسيني هما عصارة قصة سقوط القدس العربية، وربما قصة النكبة الفلسطينية كلها. أثبتت الأحداث التاريخية، إذن، ما قاله رؤساء الجمهور اليهودي والعربي، معاً، في مسألة السيطرة على القدس، في العام 1948: من يسيطر على القدس، يسيطر على البلاد كلّها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



مصادر وشُكر

تذكر آلاف الكتب، المقالات والمنشورات الأخرى المعركة الحاسمة على قرية القسطل، الواقعة عند مشارف القدس، في الأسبوع الثاني من شهر نيسان 1948. أثارت هذه المعركة، التي دارت بالتوازي والتزامن مع أحداث دراماتيكية أخرى جرت في الساعات ذاتها بالضبط ـ مجزرة دير ياسين ومعارك مشمار هعيمق ـ اهتماماً واسعاً وحظيت بمعالجات معمقة ومستفيضة لدى الطرفين المتحاربين، على السواء. على خلفية عملي الصحافي في القضية الفلسطينية، بذلت كل ما في وسعي للوصول إلى مصادر بالعربية، بغية الوصول إلى جوانب وزوايا لم تُطرَق بالعبرية بعد.

استعنتُ، في هذا الكتاب، بسلسلة طويلة من كتب المذكرات وبكتابيّ سيرة عبد القادر الحسيني. كتاب المذكرات الأكثر تفصيلية هو كتاب في خضمّ النضال العربي الفلسطيني (بيروت 1983) من تأليف بهجت أبو غربية، الذي شارك في المعارك. أما كتاب السيرة الأكثر تفصيلية الذي كتبه عيسى خليل محسن من قرية قطنة، إلى الشمال من القسطل: فلسطين الأم وابنها البار عبد القادر الحسيني (عمّان 1986)، فيرتكز، في معظمه، على كتابات قاسم الريماوي، الرجل الذي كان الأكثر قرباً من عبد القادر ورافقه طوال حياته. كتابات الريماوي نفسها، والمحفوظة في منزل موسى الحسيني، الابن البكر لعبد القادر، لم تخضع لأي تحرير ولم تُنشر. وثمة سيرة مفصلة أخرى هي تلك التي وضعها نبيل خالد الآغا وصدرت بعنوان قضية فلسطين في سيرة البطل الشهيد الحيّ عبد القادر الحسيني (بيروت 1980).

ضمن الذين شاركوا في المعارك من الجانب العربي، من المهم التنويه بمحمد علي النجار من حي وادي الجوز، الذي لم يكتب مذكرات حقاً، لكنه تحدث في مقابلات مطولة مع قناة الجزيرة. كذلك زار القسطل في يوم وفاة عبد القادر، رئيس اللجنة الوطنية العربية في القدس في 1948، أنور نسيبة، وترك مخطوطة مذكرات لم ترَ النور؛ حرّر المؤرخ موسى البديري جزءاً من تلك المذكرات ووضع أحد الأصدقاء تحت تصرفي، للاطلاع، مقاطع من المذكرات الأصلية (بالإنكليزية) عن الزيارة في القسطل.

كتاب التاريخ الأكثر شهرة عن المعارك في القدس، باللغة العربية، هو نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود، الذي ألّفه عارف العارف، الذي التقيته في رام الله في الفترة الأخيرة من حياته. وثمة شخصان آخران أجريت معهما أحاديث صحافية قصيرة هما: موسى العلَمي، الذي يوجز كتابه عِبرة فلسطين (بيروت 1949) أسباب هزيمة العرب، ورئيس بلدية الخليل، الشيخ محمد علي

الجعبري. لم يكن الجعبري يتحدث كثيراً عن معارك 1948 في مقابلات صحافية، لكنه كان يعرف عبد الحليم الجولاني (الملقب بـ "شلف")، الذي رافق عبد القادر منذ الثورة الكبرى 1936- 1939 حتى معركة القسطل. حدثني الجعبري عن تفاصيل مثيرة حول تلك الأيام. ويقدم المؤرخ الفلسطيني المهم وليد الخالدي صورة معبرة عن المعارك في القدس، ضمن ما نشره، باللغة الإنكليزية أيضاً، في مجلة الدراسات الفلسطينية (Journal of Palestine Studies) في العام 1998.

كِتاب مذكرات آخر يشكل مرتكزاً مهماً لكتّاب تاريخ المعارك في القدس هو كتاب المربي خليل السكاكيني، الذي حرره وترجمه إلى العبرية غدعون شيلو (كذا أنا يا دنيا، القدس 1990)، كما تظهر مقاطع حول معارك القدس في مذكرات كل من المفتي الحاج أمين الحسيني (دمشق 1999)، فوزي القاوقجي (بيروت 1975)، عبد الله التل (ترجمة عبرية، معرَخوت 1960) وطه الهاشمي (بيروت 1978).

استعنتُ أيضاً بكتب ألّفها، بالعربية، أبناء قرى في منطقة القدس: محمد سعيد رمان، ابن قرية صوبا المجاورة للقسطل (قرية مقدسية في الذاكرة، القدس 2000)، وكراسات عن دير ياسين ولِفتا حررها شريف كناعنة، من جامعة بيرزيت. وحصلت من الصحافي حمدي فراج، من مخيم الدهيشة للاجئين، على كتاب مثير لخضر سلامة عن تاريخ قريته، زكريا، القريبة من بيت شيمش.

لفهم خلفية تنظّم مجموعة عبد القادر (الجهاد المقدس) في فترة الثورة الكبرى، استعنتُ غالباً بالمعجم المفصل الذي وضعه مصطفى كبها ونمر سرحان بعنوان سِجلّ القادة والثوار والمتطوعين لثورة 1936-1939 (كفر قرع 2009). كذلك استعنتُ كثيراً بكتب أخرى لمصطفى كبها وبمقابلات معه.

في قبو مظلم قريب من المدرسة الإنجيلية في القدس، خبّأ أبو الفهد الأنصاري أكواماً مكدسة من الكتب والصحف العربية القديمة. هناك عثرت على كتاب عيسى السِفري عن الثورة الكبرى، فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية، وكذلك مجموعة مقالات سليم تماري، القدس 1948 (بيروت 2002).

وجدت كمية كبيرة من المواد عن القدس، القسطل وعن الأحداث في قرى المنطقة في مجلدات موسوعة بلادنا فلسطين الـ 11 لمصطفى مراد الدباغ (طبعة رابعة، بيروت 1988) وفي مؤلفات سلمان أبو ستة العديدة، من مركز "العودة" في لندن. كما اطلعت على منشورات جمعية "البديل" من بيت لحم وعلى كتب عادل يحيى، ابن عائلة لاجئين من قرية عنابة، عن اللاجئين، وهو

الذي بحث ما يجري في مخيمات اللاجئين في منطقة القدس، ومنهم لاجئو القسطل.

أحد الكتب المثيرة بشكل خاص هو كتاب مذكرات ذو الكفل عبد اللطيف بعنوان مذكراتي: [قصة كفاحي من الثورة الفلسطينية الكبرى إلى حرب 1948] (عمان 2000). رافق ذو الكفل الحاج أمين في ألمانيا إبان الحرب العالمية الثانية، نقله الألمان بالطائرة إلى أريحا سنة 1944 وكان مرشحاً، حسبما قال، لخلافة عبد القادر الحسيني في قيادة الجهاد المقدس. كتاب آخر هو كتاب وليام نصار حول سنوات نشاطه الأربعين في حركة "فتح" (عمان 2005)، والذي يسهب فيه في الحديث عن محاولات قتل أحمد مطر (الزوط)، ابن قرية القسطل الذي أصبح عميلاً للمخابرات الإسرائيلية واشتُبه به في الشارع العربي بأنه خان عبد القادر وقتله في القسطل. كذلك، كتاب سيرين الحسيني شهيد، مذكرات مقدسية، الذي تُرجم إلى العبرية (أندلس 2006).

اطلعت، بإمعان وتوسع، على الصحيفتين الفلسطينيتين المهمتين في تلك الفترة، فلسطين والدفاع، اللتين كانتا تصدران في يافا إبان الحرب.

في مكتبة قرية (اليوم، بلدة) صوريف في جبال الخليل، عثرت على كتاب ابن القرية محمود القاضي، بعنوان شيء من الذاكرة، عن زيارته إلى دمشق خلال الأيام الأخيرة من حياة عبد القادر، وكتاب عادل عويضة عن القائد البطل ابن القرية إبراهيم أبو دية، الذي كان بين آخر الذين رأوا عبد القادر في معركة القسطل. لم يترك أبو دية مذكرات، لكن عدداً من الذين كتبوا عن القسطل تحدثوا معه في القدس، ثم في بيروت قبيل وفاته سنة 1952.

وجدتُ مواد كثيرة في مؤسسة "باسيا" للدراسات التي يديرها د. مهدي عبد الهادي، الذي كان صديقاً مقرباً لفيصل الحسيني، نجل عبد القادر، وفي ترجمات نقلها إلى العبرية شموئيل سيجف (صباغ) لمنشورات مختلفة بالعربية في كتابه في نظر العدوّ ومن خلف الستارة (معرَخوت 1954). كما وجدتُ شأناً كبيراً في عمل يهوشفاط هركابي الشامل موقف العرب في الصراع الإسرائيلي ـ العربي (تل أبيب 1968)، الذي يشمل وفرة من المصادر والترجمات من العربية حول دولة إسرائيل في أيامها الأولى.

العمل الأغنى من حيث جمع وترجمة المصادر العربية عن القدس في 1948 هو الذي أنجزه الباحث إيتمار رداي، من الجامعة العبرية في القدس، في مؤلفه القوات غير النظامية والتنظيم في المجتمع العربي في منطقة القدس من مطلع كانون الأول 1947 حتى 19 أيار 1948.

نشر الصحافي الياس نصر الله مؤخراً كتاب مذكرات شخصية بعنوان شهادات للقرن الفلسطيني الأول يشمل قصصاً عميقة وأخاذة عن القدس

(دار الفارابي، بيروت 2017).

على رأس المصادر الأجنبية، الأكثر تفصيلاً ودقة هو، في رأيي، كتاب لاري كولينس ودومينيك لابيير القدس، القدس، الذي تُرجم إلى العبرية (سفريات معاريف، 1972)؛ ومن بين المصادر الإسرائيلية، الأكثر إثارة وزخماً هو، في رأيي، كتاب إسحق ليفي (لويتسه) تسعة أقواب: القدس في معارك حرب الاستقلال (معرَخوت، 1986).

قائمة الكتب والمقالات التي كتبها إسرائيليون عن معركة القسطل طويلة بشكل خاص. أودّ أن أشير إلى بعضها: عوزي نركيس، جندي القدس (منشورات وزارة الأمن، 1991)؛ مئير أفيزوهَر، موريا في القدس في 1948 (دفاتر أدبية، 2002)؛ مردخاي نأور، القدس في 1948 (مجموعة مقالات، ياد بن تسفي، 1985). كتاب يوحنان بن يعقوب مفرزة الـ ٣٥ (مودان ووزارة الأمن، 2011) يقدم صورة محدَّثة ودقيقة عن قضية مفرزة الـ ٣٥ التي كُتب عنها الكثير، بما في ذلك ضمن كتاب آندا بينكِربيلد لامِد هي (رؤوبين ماس، 1950). كما استعنتُ، أيضاً، بكتاب هرئيل، المعركة على القدس، الذي ألّفه تسفيكا درور (هكيبوتس همؤوحاد، 2005) وبالتوثيقات التي أشرف عليها يونا كوهن بعنوان القدس تحت الحصار (ميلو، 1976).

بين كتب الخلفية التي أودّ التنويه بها بشكل خاص، كتاب يعقوب شمعوني عرب أرض إسرائيل (عام عوفيد، 1947)، الذي يقدم معلومات مهمة عن المجتمع العربي في البلاد قبل 1948. ويكشف كتاب هليل كوهن، أحداث 1929 (كيتر، 2013) [صدرت ترجمته العربية بعنوان: هبة البراق 1929 - سنة الصدع بين اليهود العرب، عن: مركز مدار، 2018] يكشف، ضمن أشياء أخرى، تفاصيل عن عائلة مطر من القسطل وقالونيا. تفاصيل كثيرة عن "القدس في 1948" نجدها في سلسلة عيدان، المجلد ب (1988)، ياد بن تسفي.

كتاب زاخر ومحدَّث عن معركة مشمار هعيمق هم كتاب عميرام أزوف، لن يسقط مشمار هعيمق (دفير، 2013) بينما يصف كتاب يقولون إن ثمة بلاداً، مرشد الرحلات الصادر عن منظمة "ذاكرات" (برديس، 2012) موقع القسطل. الباحث إيلان بابه بحث في تاريخ عائلة الحسيني في كتابه نبلاء البلاد (موساد بياليك، 2002)؛ وقد سبقه في هذا الموضوع إلياهو إيلات في مؤلفه الحاج أمين الحسيني (رشفيم، 1968) وتسفي إلبيلغ في كتابه من وجهة نظر المفتي (هكيبوتس همؤوحاد، 1995).

تفاصيل الأحداث في 1948 بحثها بيني موريس في كتابه تاريخ الحرب العربية ـ الإسرائيلية الأولى (عام عوفيد وكلية سبير، 2010)؛ عن التاريخ الفلسطيني

كتب يهوشواع بورات في كتبه نشأة الحركة الوطنية الفلسطينية 1918-1929 (الجامعة العبرية في القدس، 1971) وفي امتحان الفعل السياسي (ياد بن تسفي، 1985)، كما كتب باروخ كيمرلينغ وشموئيل مجدال في كتابهما فلسطينيون، شعب قيد التشكّل (كيتر، 1999). يبدو لي أن هذه الكتب الثلاثة هي الأفضل والأكثر أهمية في هذا الموضوع.

تعرفت على فلسطينيين كثيرين خلال سنوات عديدة من الزيارات اليومية إلى القدس الشرقية للبحث في تفاصيل معركة القسطل. عندما بدأ اهتمامي بهذه المعركة، أحسن أصدقائي الفلسطينيون توجيهي وإرشادي إلى الأشخاص، المنشورات ومواقع الانترنت، بالعربية، التي تعالج الموضوع. أولهم هو الكاتب والمربي زكي حسن نسيبة، الذي كان لي صديقاً حميماً جداً، منذ التقيته في مقر صحيفة القدس سنة 1970 حتى وفاته سنة 2014. من بين المواقع العديدة التي تجولنا فيها، عشرات الصفحات الإلكترونية تحت عنوان فلسطين، النكبة والقدس، مواقع مثل "حنين"، "دفتر فلسطين"، "فلسطين اليوم"، "فلسطين في الذاكرة"، "الوطن"، "صامدون"، "الجريدة" وموقع قنوات الجزيرة الغني الذي وجدتُ فيه مقابلات مع فلسطينيين قاتلوا في القسطل ومع أبناء عائلة الحسيني.

زرتُ قريتي الخضر وصوريف برفقة الصحافي محمد عبد ربه، لإجراء مقابلات مع أبناء عائلات متطوعين في الجهاد المقدس قاتلوا في القسطل. كما زرت بلدات بيت فجار، أم سلمونة، بني نعيم، العيزرية، أبو ديس، بيرزيت، والتقيت أبناء عائلتيّ العمري وجاد الله (في بيت صفافا) ومع أبناء لاجئين من قرى القسطل، قالونيا، ساريس، دير ياسين، لِفتا والمالحة الذين يقيمون في تجمعات اللاجئين في شرق القدس، في بيت لحم ورام الله. من السهل العثور عليهم، نظراً للبنية التقليدية في السكن حسب القرى الأصلية ولأن أبناء الأجيال الجديدة من سكان القرى يعرَّفون بأسماء قراهم الأصلية: اللفتاوية (لاجئو لِفتا)، الساريسية (لاجئو ساريس)، اللداوية (من اللد)، الطرايفة (من دير طريف)، الموالحة (من المالحة) وغيرها. نتجت عن هذه الزيارات، في كثير من الأحيان، لقاءات غير مخطط لها، غير متوقعة ومعلومات مثيرة.

ساعدتني، كثيراً جداً، الأحاديث التي أجريتها مع غسان الخطيب من جامعة بيرزيت، ومع عالم الاجتماع سليم تماري. تعلمت الكثير من شخصيات إسرائيلية: إسحق نافون كان قائد الاستخبارات في القدس سنة 1948؛ مردخاي بارـ أون وألون كديش كتبا عن 1948. التقيت، بضع مرات، أبراهام سيلع وميرون بنفنستي، الضالعين بشكل خاص في أحداث حرب استقلال إسرائيل. يعقوب سلمان ومردخاي غزيت، اللذين قاتلا في القسطل، كتبا

وتحدثا في مقابلات عن ليلة المعركة في نيسان. وصديقي الصحافي يهودا ليطاني رافقني في عشرات اللقاءات في القدس وفي مختلف مناطق الضفة الغربية.

أشعر بمتعة وأنا أتقدم بالشكر لكل من ساند وساعد في إصدار الكتاب. مسؤولو منشورات "سفري عليات هَجاج" ـ يهودا ملتسر الذي رافق، بإخلاص وتفان، تأليف الكتاب منذ بداياته؛ عيلاي ملتسر، الذي أشرف على إنتاج الكتاب؛ مولي ملتسر، الذي قرأ، قدم ملاحظات وساهم بتجربته الغنية. يوني مندل ساعد في نقحرة الأسماء؛ هرئيل شرايبر أعد الخرائط بمهنية وتفان ويوآب شتيرن قرأ المخطوطة مراراً وقدم ملاحظاته المجدية. أخيراً وليس آخراً، ابنتي آيه حورِش، محررة الكتاب، التي عملت على تحرير المخطوطة وتحويلها من مقالات صحافية إلى كتاب. لولا مساهمتها، إصرارها ونصائحها، لما استطعت الكتابة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



شخصيات

الأسماء في هذه القائمة مرتبة بأسماء العائلات، حسب الأبجدية العبرية. من المعروف أن أسماء عائلات عربية كثيرة تبدأ بأل التعريف. الترتيب هنا بدون أل التعريف. مثلاً، كلمة الحسيني ترد ضمن حرف الحاء، لا الألف.

إبراهيم أبو دَيّة (1917- 1952): انضم إلى مجموعة عبد القادر الحسيني في الثورة الكبرى، اعتُبر جندياً وقائداً شجاعاً. لقّب بـ "الفلاح ذو رأس الجنرال". أقام مقر قيادة في قريته صوريف وقاد معركة مفرزة الجبل. عُين في العام 1948 قائداً للمعارك في القطمون.

بهجت أبو غربية (1916- 2015): عضو المجموعة المصغرة التي رافقت عبد القادر الحسيني منذ الثورة في 1936 حتى معركة القسطل في 8 نيسان 1948. كتاب مذكّراته عن مسيرته في النضال الوطني العربي ـ الفلسطيني هو مصدر مهم جداً لفهم الحرب في البلاد، من الثلاثينيات فصاعداً.

صبحي أبو غربية: عضو المجموعة المقربة من عبد القادر الحسيني ابتداء من 1936. نظم هجمة في القدس ضد البريطانيين واليهود. أصيب بجراح خطيرة خلال معركة في الحي اليهودي في البلدة القديمة ولم يستردّ عافيته. رافق عبد القادر في رحلة إلى دمشق في نهاية آذار وبداية نيسان 1948.

حافظ بركات أبو الفيلات: عضو في الجهاد المقدس، من مجموعة عبد القادر الحسيني المصغرة. إسكافيّ، في مهنته. شارك في الثورة في العراق، إلى جانب عبد القادر الحسيني. قاتل في معركة القسطل على رأس مجموعة مقاتلين من البلدة القديمة. أشارت التوثيقات الفلسطينية إلى شبهات بأنه المسؤول عن فشل احتلال القسطل ليلة 7-8 نيسان، لأن رجاله لم يتقدموا كما ينبغي.

هارون بن جازي: شيخ من قبيلة الحويطات من شرق الأردن، نظم مجموعة من المتطوعين لمساندة الفلسطينيين في حربهم. قاتل، بالتنسيق مع عبد القادر الحسيني وقيادة الجهاد المقدس. قاتل على جبهة باب الواد وخُلدَة، حقق إنجازات في إغلاق الشارع المؤدي إلى القدس. شارك في معارك القسطل.

عبد الحليم الجولاني (1905- 2012): من أوائل المنضمين إلى مجموعة عبد القادر الحسيني في الثورة الكبرى وقائد منطقة جبال الخليل. كان معروفاً بلقبه "شلف". شارك في احتلال القسطل يوم 8 نيسان. استمر في تنفيذ

عمليات ضد إسرائيل حتى بعد احتلال 1967 أيضاً وطَرد إلى الأردن. عاد إلى القدس بعد إقامة السلطة الفلسطينية.

عبد النور جَنحو: من المسيحيين القلائل الذين انضموا إلى الجهاد المقدس بقيادة عبد القادر الحسيني. نفذ عملية تفجير السيارة المفخخة في شارع هسوليل (شارع هحفتسيلت، اليوم) قرب مقر صحيفة "بالستاين بوست" يوم 2 شباط 1948.

محمد علي الجعبري (1900- 1981): رئيس بلدية الخليل بين 1940 و1976، من أشد الموالين للنظام الأردني. أشغل مناصب وزارية مختلفة في الحكومات الأردنية وكان أول من طرح فكرة الحكم الذاتي الفلسطيني بعد حرب 1967.

أنطون جميل داود (1909- 1969): مغامر من أميركا الجنوبية من أصل فلسطيني. خدم في الشرطة البريطانية وفي العام 1937 بدأ العمل سائقاً في القنصلية الأميركية في شارع ماميلا في القدس. نفذ عملية تفجير مبنى الوكالة اليهودية يوم 11 آذار 1948.

إبراهيم الدقاق (1929- 2016): جار عبد القادر الحسيني منذ الطفولة. مهندس وناشط يساريّ. عمل مهندساً رئيسياً لترميم مسجد الأقصى بعد إحراقه من قبل شاب أسترالي سنة 1969. تزوج شقيقه من هيفاء، ابنة عبد القادر.

إسحاق درويش (1896- 1974): مساعد المفتي الحاج أمين الحسيني وأحد المقربين منه. رافق المفتي في منفاه في لبنان والعراق، إبان الحرب العالمية الثانية. مكث مع الحاج أمين في ألمانيا النازية وانتقل معه إلى القاهرة وبيروت. كان عضواً في اللجنة العربية العليا.

طه الهاشمي (1888- 1961): ضابط وسياسي عراقي. كان مفتشاً عاماً على جيش الإنقاذ الذي شكلته جامعة الدول العربية. إلى جانب إسماعيل صفوت، كان الشخصية الأبرز في قيادة فوزي القاوقجي، القائد المباشر لجيش الإنقاذ. ترك وراءه كتباً ويوميات تشكل مصدراً مهماً لفهم تلك الفترة. توفي في تركيا.

الحاج أمين الحسيني (1895- 1974): مفتي القدس في عهد الانتداب البريطاني. المرجعية السياسية لعبد القادر الحسيني. حصل على التعيين من المندوب السامي البريطاني هيربرت صموئيل. أصبح، خلال العشرينيات والثلاثينات، الشخصية الوطنية المركزية في أوساط الشعب الفلسطيني. يُعتبر الشخص الذي كان وراء أحداث العنف في 1929 والثورة العربية في

1936. لاحقته السلطات البريطانية فهرب من البلاد إلى لبنان سنة 1937، ثم تابع إلى العراق، وهناك ساهم في الانقلاب والثورة المؤيدة لألمانيا، والتي منيت بالفشل. انتقل إلى ألمانيا النازية والتقى أدولف هتلر (1941). إبان الحرب، كان مطلوباً كمجرم حرب، لكنه نجح في الانتقال إلى مصر ومنها قاد تنظيم المقاومة ضد الانتداب البريطاني وضد الييشوف اليهودي. في تشرين الأول 1948، حاول تشكيل حكومة في غزة كانت تطمح إلى السيطرة على البلاد كلها (حكومة عموم فلسطين). تفككت هذه الحكومة الفاشلة وبعد سنوات قليلة انتقل الحاج أمين إلى لبنان، التي بقي فيها حتى وفاته.

موسى كاظم الحسيني (1853- 1934): والد عبد القادر الحسيني. رئيس اللجنة التنفيذية العربية، من الفلسطينيين القلائل الذين منحهم الأتراك لقب "باشا". عيّنه البريطانيون رئيساً لبلدية القدس، ثم عزلوه سنة 1920 على خلفية ضلوعه في أحداث العنف التي وقعت في المدينة. كان السياسي الفلسطيني الأبرز في العشرينيات.

عبد القادر الحسيني (1910- 1948): نجل موسى كاظم الحسيني (من زوجته الثانية). قائد الجهاد المقدس، الوحدة الفلسطينية الأكثر شهرة خلال حرب 1948. كان موالياً للمفتي الحاج أمين الحسيني. شارك في الثورة الكبرى بين 1936 و1939، قائداً لمنطقة القدس. هاجر إلى لبنان، العراق، السعودية ومصر وعاد إلى البلاد في كانون الأول 1947 بعد صدور قرار التقسيم. قاد المعارك في منطقة القدس حتى وفاته في معركة القسطل يوم 8 نيسان 1948. دُفن في حرم المسجد الأقصى في نهاية جنازته التي اعتُبرت الأكبر في تاريخ القدس الشرقية حتى ذاك اليوم.

خالد شريف الحسيني: ابن عم عبد القادر الحسيني. خدم في شرطة الانتداب. عُيِّن، بقرار من المفتي الحاج أمين، خلفاً لعبد القادر في قيادة منطقة القدس. أشغل المنصب لفترة قصيرة ولم يترك أي أثر.

رشيد عالي الكيلاني (1882- 1965): سياسي عراقي. اشتهر بالانقلاب الذي نفذه في بغداد في نيسان 1941 وكان مؤيداً لألمانيا. بعد فشل الانقلاب، هرب إلى ألمانيا، ثم هاجر إلى السعودية ولبنان، في أعقاب الحرب العالمية.

علي الموَسوَس: عضو المجموعة المصغرة التي أحاطت بعبد القادر الحسيني منذ 1936. خلال معركة القسطل، كان مرافقاً لعبد القادر في مقر القيادة في محجر إليسار. انتقل إلى الكويت بعد 1948. في العام 1991، وعقب الحرب في الخليج وطرد الفلسطينيين من الكويت، انتقل إلى عمّان وتوفي فيها.

أحمد مطر، أنظروا: شلومو عمير.

جميل مردم بِك (1894- 1960): رئيس الحكومة السورية في 1948. لعب دوراً مهماً في المداولات حول مستقبل الجمهور الفلسطيني. بعد الهزيمة في حرب 1948، استقال وهاجر إلى مصر والسعودية.

محمد عادل النجار: عضو مجموعة عبد القادر الحسيني المصغرة. كان قائد منطقة وادي الجوز في 1948. وصل إلى القسطل ظهيرة يوم 8 نيسان إثر النداءات لإنقاذ عبد القادر. نظم الهجوم على قافلة هداسا يوم 13 نيسان، والذي أسفر عن مقتل 78 من عمال الجامعة العبرية وهداسا هار هتسوفيم (جبل سكوبوس).

أحمد نسيبة: أحد القلائل من أبناء العائلات المرموقة في القدس الذين انضموا إلى مجموعة عبد القادر الحسيني إبان ثورة الثلاثينيات. انتقل مع المجموعة إلى العراق، اشتُبه فيه بأنه قتل، بالرصاص، فخري النشاشيبي الذي كان يصفه آل الحسيني بـ "الخائن الأكبر" بسبب تأييده للبريطانيين. أُرسِل خلال معارك 1948 لتجنيد الدعم وقيادة العمل العسكري في بعض القرى في منطقة وادي الخليل.

أنور نسيبة (1912- 1986): كان السكرتير العام للجنة العربية العليا في العام 1946 ورئيس اللجنة الوطنية في القدس سنة 1948. زار القسطل في يوم وفاة عبد القادر الحسيني وترك يوميات لم تنشر، في غالبيتها، بشكل رسمي. أشغل مناصب وزارية في حكومات أردنية ومنصب حاكم القدس الأردنية. كان عضواً في المؤسسات الوطنية الفلسطينية بعد الحرب وضم القدس الشرقية إلى إسرائيل.

فخري النشاشيبي (1899- 1941): ابن إحدى العائلات المعروفة في القدس، مساعد راغب النشاشيبي، رئيس بلدية القدس ورئيس قوى المعارضة للحاج أمين الحسيني. من منظمي الثورة الكبرى سنة 1936. أيد مشروع التقسيم الذي اقترحه اللورد بيل وتورط في نزاع دامٍ مع آل الحسيني. قُتل في بغداد سنة 1941.

راغب النشاشيبي (1882- 1951): رئيس بلدية القدس في عهد الانتداب البريطاني. غريم سياسي شرس للمفتي الحاج أمين الحسيني ورئيس المعارضة لآل الحسيني. اعتُبر شخصية معتدلة في نظر البريطانيين. كان عضواً في اللجنة العربية العليا سنة 1946 واعتُبر صديقاً مقرباً للملك عبد الله والنظام الهاشمي في الأردن.

رياض الصلح (1884- 1951): رئيس الحكومة اللبنانية بين 1946 و1951 في عهد الرئيس بشارة الخوري. برز بتأييده للفلسطينيين (تزوجت ابنته من الكاتب والصحافي الفلسطيني ناصر الدين النشاشيبي).

خليل السكاكيني (1878- 1952): مربٍ وكاتب فلسطيني معروف. كتب يوميات ومذكّرات من منزله في حي القطمون إبان الحرب في 1948. وصف جنازة عبد القادر الحسيني في القدس يوم 9 نيسان.

حسن سلامة (1913- 1945): كنيته "أبو علي"، أحد أعضاء مجموعة عبد القادر الحسيني المصغرة، قائد الجهاد المقدس في منطقة وادي الخليل سنة 1948. رافق الحاج أمين وعبد القادر في العراق سنة 1941 ثم انضم إلى الحاج أمين في ألمانيا النازية. في سنة 1944 هبط في أريحا للتحضير لعودة المفتي إلى البلاد. قُتل في حزيران 1948 خلال معركة راس العين. كان ابنه علي مخطِّط العملية ضد الرياضيين الإسرائيليين في أولمبياد ميونيخ سنة 1972.

نوري السعيد (1888- 1958): سياسي عراقي، مؤيد لبريطانيا. ترأس الحكومات العراقية 14 مرة. التقى عملاء صهيونيين. قُتل سنة 1958 خلال الانقلاب العسكري ضد النظام في بغداد.

إسماعيل صفوت (1896- 1972): ضابط عراقي. ترأس اللجنة العسكرية التي شكلتها جامعة الدول العربية في تشرين الأول 1947. كتب سلسلة من التقارير عن معارك 1948 قدّر فيها جميعها، أن قوة اليهود العسكرية تفوق بكثير قوة الوحدات العربية والفلسطينية. كان يأمل، أساساً، في نجاح الجيوش العربية التي ستدخل إلى "أرض إسرائيل" فور انتهاء الانتداب البريطاني.

سعيد العاص (1889- 1936): ضابط عثماني، قومي عربي متشدد. قُتل في معركة الخضر التي قاد خلالها مجموعة عبد القادر الحسيني في بداية الثورة الكبرى سنة 1936.

عارف العارف (1892- 1937): مؤرخ وموظف رفيع في حكومة الانتداب البريطاني. أشغل منصب رئيس بلدية القدس الأردنية في العام 1951. اشتهر بفضل كتبه عن البدو في منطقة بئر السبع وتوثيقاته عن حرب 1948.

ذو الكفل عبد اللطيف (1910- 2008): الملحق العسكري للمفتي الحاج أمين الحسيني. انضم إلى المفتي إبان مكوثه في ألمانيا النازية. نقلته طائرة ألمانية إلى البلاد للإعداد لعودة المفتي إلى البلاد. ألقى البريطانيون القبض عليه وأخذوه أسيراً. قضى معظم أيامه في القاهرة. يشكل كتاب مذكّراته مصدراً موثوقاً عن الصراع على خلافة عبد القادر الحسيني بعد معركة القسطل.

عبد الله (الأول) ملك الأردن (1882- 1951): ابن الشريف حسين (أبناء العائلة يُعتبرون من سلالة النبي محمد). منحه البريطانيون إمارة شرق الأردن،

تعويضاً عن عزل شقيقه فيصل عن كرسي الحكم في دمشق. في العام 1946، تُوِّج ملكاً على شرق الأردن. أجرى مفاوضات مع قادة الييشوف اليهودي في أرض إسرائيل. مع انتهاء الحرب في 1948، ضمّ الضفة الغربية إلى مملكته. قُتل في تموز 1951 بجانب المسجد الأقصى برصاصات أطلقها عليه أتباع المفتي الحاج أمين الحسيني.

عبد الله العمَري: من أوائل المنضمين إلى مجموعة عبد القادر الحسيني في ثورة 1936. أصيب بجراح خلال معركة الخضر، بينما كان يقف إلى جانب عبد القادر. كان في مقر قيادة معركة القسطل، بين القلائل الذين رأوا عبد القادر في ساعاته الأخيرة.

عبد الرحمن عزام باشا (1893- 1976): سياسي مصري، الأمين العام الأول لجامعة الدول العربية. شارك في المداولات التي جرت في آذار 1948 في دمشق بشأن المساعدات العسكرية للفلسطينيين. ترك عبد القادر الحسيني رسالة كتبها بخط يده يتهم فيها الأمين العام للجامعة العربية بإفشال المقاتلين الفلسطينيين.

موسى العلَمي (1897- 1974): سياسي فلسطيني. أشغل مناصب رفيعة في الجهاز الحكومي الانتدابي. وقف إلى جانب المفتي خلال سنوات منفاه في لبنان والعراق. كان المندوب الأول للفلسطينيين في الجامعة العربية.

شلومو عمير (1924- 1977): وُلد ونشأ عربياً اسمه أحمد مطر ولُقّب بـ "الزوط" في قريتي قالونيا والقسطل. عمل لدى عائلات يهودية في مستعمرة موتسا. انتقل خلال حرب 1948 مع عائلته ولاجئي القسطل إلى القدس الشرقية وبلدة العيزرية. بدأ يخدم كعميل للمخابرات الإسرائيلية فور انتهاء الحرب مباشرة، ثم تم تجنيده لـ"الموساد" الإسرائيلي. اعتنق اليهودية لاحقاً وبدّل اسمه. اتهمه الفلسطينيون بخيانة عبد القادر الحسيني وقتله.

كامل عريقات (1906- 1984): أحد المقربين من عبد القادر وكان يُعتبر نائبه الأول. قاد معركة الدهيشة. أصيب بجراح في بداية المعارك في القسطل. بعد ضم الضفة الغربية إلى الأردن، انتقل إلى خدمة النظام الهاشمي. أنتُخب عضواً في مجلس النواب الأردني.

فوزي القاوقجي (1890- 1977): قائد "جيش الإنقاذ"، وحدات المتطوعين العرب التي شكلتها الجامعة العربية لدعم عرب فلسطين إزاء قرار التقسيم الذي صدر عن الأمم المتحدة في تشرين الثاني 1947. كان غريماً للمفتي الحاج أمين الحسيني. بعد سلسلة الإخفاقات التي مني بها جيش الإنقاذ، عاد إلى سورية ولبنان.

شكري القوتلي (1891- 1967): رئيس سورية بين 1943 و1949. شارك في المداولات حول مستقبل الفلسطينيين. اتهم ملك شرق الأردن، عبد الله، بخيانة العرب. عُزل عن منصبه في الانقلاب العسكري الذي قاده حسني الزعيم، لكنه عاد وأشغل رئاسة سورية من 1955 حتى 1958.

فوزي القُطُب (1917- 1988): من أوائل المنضمين إلى عبد القادر الحسيني في الثورة الكبرى. مكث مع عبد القادر في بغداد ثم رافق المفتي الحاج أمين الحسيني في ألمانيا النازية. كان قائد وحدة المتفجرات في الجهاد المقدس في العام 1948، أعد العبوات الناسفة التي تم تفجيرها قرب 15 هدفاً يهودياً في القدس وضواحيها.

الشيخ عز الدين القسام (1880- 1935): يُعتبر الشهيد الفلسطيني الأول. دعا إلى الجهاد واعتُبر أول المقاتلين الفلسطينيين ضد البريطانيين واليهود. شكلت شخصيته مصدر إلهام للثورة العربية الكبرى. أُطلق اسمه على الذراع العسكرية لحركة "حماس" ("كتائب عز الدين القسام").

قاسم الريماوي (1918- 1982): مدير وحدات الجهاد المقدس في العام 1948. بقي إلى جانب عبد القادر الحسيني منذ ثورة 1936 حتى معركة القسطل. ترك دفاتر يوميات ومذكرات لم تُنشر، لكنها شكلت مصدراً لكل من كتب عن تلك الفترة. ترأس الحكومة الأردنية لفترة قصيرة سنة 1980.

أديب الشيشكلي (1909- 1954): الرئيس السوري في 1953. بعد قرار التقسيم من تشرين الثاني 1947، تطوع كضابط في جيش الإنقاذ بقيادة فوزي القاوقجي. كان قائد كتيبة اليرموك التي دخلت إلى الجليل في بداية كانون الثاني 1948. وضع مقر قيادته في قرية ترشيحا وفشل في احتلال كيبوتس يحيعام.

عوض ترمسعاوي: ابن قرية ترمسعيا، الحارس الشخصي لعبد القادر الحسيني. كان مقاتلاً عنيداً وأحد الأخيرين الذين رأوا عبد القادر قبل وفاته في معركة القسطل. هاجر بعد الحرب إلى الولايات المتحدة. في إحدى زياراته إلى البلاد، سرد لفيصل، نجل عبد القادر الحسيني، تفاصيل عن معركة القسطل.

عبد الله التل (1928- 1973): ضابط عربي رفيع في الفيلق الأردني في العام 1948. أدار المعارك التي جرت في القدس يوم 15 أيار. كان حاكماً عسكرياً على القدس الشرقية. يصف، في كتاب مذكراته، الحرب في القدس بأنها مؤامرة من البريطانيين والملك عبد الله كانت ترمي إلى إفساح المجال لإقامة دولة يهودية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

أحداث

بدأ الاستيطان الصهيوني في "أرض إسرائيل" بموجة الهجرة الأولى سنة 1882. أقام المهاجرون في تلك الموجة مستعمرات يهودية أولية في البلاد عملت في الزراعة بصورة أساسية. أما الموجة الثانية، التي بدأت سنة 1905 عقب فشل الثورة في روسيا، فقد أتت إلى البلاد بمجموعات من الشبان الذين أصابهم اليأس من إمكانية تغيير المجتمع والنظام في روسيا، كان كثيرون منهم ذوي ميول اشتراكية. شرع مهاجرو الموجة الثانية هذه، التي استمرت حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى، في بناء مجموعة من المؤسسات القومية في البلاد بغية إنشاء مستعمرة يهودية متنامية، بصورة منظمة. لم ينفجر التوتر بين المهاجرين اليهود والسكان العرب الفلسطينيين المحليين إلا على عتبة نهاية الحرب العالمية، في أعقاب "وعد بلفور" ـ الكتاب التي وجهه وزير الخارجية البريطاني، اللورد بلفور إلى اللورد روتشيلد وفيه يتعهد بـ "إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في أرض إسرائيل" (تشرين الثاني 1917). صدر هذا الوعد قبيل انتهاء الحرب العالمية الأولى، بالتزامن مع مسعى الجيش البريطاني لاحتلال البلاد وقبل وقت قصير من استسلام الحكم العثماني في القدس بصورة تامة ونهائية (كانون الأول 1917) ونقل السلطة في البلاد إلى أيدي البريطانيين.

كان وعد بلفور بمثابة إعلان إلى الجمهور العربي ببدء الصراع مع الييشوف اليهودي، مصحوباً بانفجارات عنيفة، من حين إلى آخر. لا يزال التأريخ الفلسطيني يذكر وعد بلفور، حتى اليوم، بأنه وعد "مِن مَن لا يملك إلى مَن لا يستحق". وقد شُمل وعد بلفور في صك الانتداب الذي حصل عليه البريطانيون لإدارة شؤون فلسطين ـ أرض إسرائيل (نيسان 1920). بنى الوعد سقفاً عالياً من التوقعات في الييشوف اليهودي، خصوصاً وأن المنتدَبين لإدارة حكومة الانتداب كانوا: المندوب السامي هيربرت صموئيل، اليهودي الصهيوني، وموظفي حكومة بريطانيين آخرين مؤيدين للصهيونية.

تَمَثّل الصدام العنيف جداً الأول بين الييشوف اليهودي والجمهور العربي في الأحداث التي تفجرت في العام 1929 ("أحداث 1929" كما يسميها اليهود، "ثورة البراق" كما يسميها الفلسطينيون) التي كان الدافع وراءها نزاعاً حول ترتيبات تأدية الصلاة في "الحائط الغربي" (حائط البراق) في القدس. كان المصابون اليهود الأساسيون أبناء المجتمع اليهودي العتيق في الخليل وأبناء مجتمعات يهودية عريقة أخرى في أرض إسرائيل.

شهدت الثلاثينيات تزايد وتيرة الهجرة اليهودية إلى أرض إسرائيل، وخصوصاً من دول أوروبا الوسطى. كانت هذه هي خلفية تفجر الثورة العربية الكبرى

1936- 1939، التي تشكل نقطة البداية في هذا الكتاب.

1936

بداية نيسان: هجمات ضد يهود في بعض الأماكن في البلاد ومحاولات لمهاجمة الأحياء اليهودية في ضواحي مدينة يافا العربية.

20 نيسان: الإعلان عن إضراب عام للجمهور العربي الفلسطيني؛ هجمات عنيفة ضد يهود في يافا، لكن في أماكن أخرى في البلاد، أيضاً. تشكيل لجان وطنية فلسطينية لغرض تنسيق فعاليات الثورة: مظاهرات وإضرابات ضد الانتداب البريطاني وضد الحركة الصهيونية.

25 نيسان: تشكيل اللجنة العربية العليا، التي تضم في عضويتها ممثلي جميع الأحزاب العربية، وفي مقدمتها "الحزب العربي الفلسطيني" بزعامة عائلة الحسيني من القدس ومفتي القدس، الحاج أمين الحسيني. تعلن اللجنة عن ثورة ترمي إلى تحقيق ثلاثة أهداف: وقف الهجرة اليهودية إلى أرض إسرائيل؛ حظر بيع أراضٍ لليهود؛ وتشكيل حكومة تمثيلية، حسب النسبة العددية القائمة، التي يتمتع العرب، وفقها، بأغلبية مطلقة.

أيار: تطلب اللجنة العربية العليا من الجمهور العربي الفلسطيني في البلاد التوقف عن دفع الضرائب للسلطات البريطانية. ثم تطالب العمال العرب، لاحقاً، بالتوقف عن العمل لدى اليهود وتحظر على المزارعين العرب بيع محصولاتهم لليشوف اليهودي.

تنتظم مجموعات من الشبان العرب في مختلف أنحاء البلاد لتنفيذ اعتداءات ضد اليهود وتشويش مجرى حياتهم. بين العمليات التي يتم تنفيذها: هجمات على وسائل النقل اليهودية والبريطانية، نصب كمائن، قطع خطوط الهاتف، تخريب السكك الحديدية وإتلاف مناطق زراعية تابعة لليهود.

الصيف: ينظم عبد القادر الحسيني وحدة عسكرية يطلق عليها اسم "الجهاد المقدس". خلال الأحداث العنيفة، يحاول قادة الدول العربية التدخل والتوسط لصالح الثوار. في آب، يصل إلى البلاد وفد من المتطوعين العرب بقيادة فوزي القاوقجي الذي يعلن، في نهاية الشهر، أنه هو القائد الأعلى للثورة العربية في البلاد. تُضعف نزاعات داخلية بين الأحزاب ومجموعات الثوار المختلفة الثورة وتفت في عضدها. يتم تشكيل لجنة تحقيق بريطانية، برئاسة اللورد بيل، لتقصي العوامل التي أدت إلى الاضطرابات ولإيجاد صيغة مناسبة لحل الصراع بين اليهود والعرب الفلسطينيين.

تشرين الأول: القاوقجي يغادر البلاد. اللجنة العربية العليا، بتأثير من قادة الدول العربية، تنهي الإضراب العام بعد نحو ستة أشهر من إعلانه. تتوقف

الثورة، التي دفعت نحو إعادة بلورة وتنظيم الييشوف اليهودي في البلاد، بسبب عمليات القمع التي يمارسها الجيش البريطاني.

1937

تموز: بعد أشهر من الهدوء الجزئي، ينشر تقرير لجنة بيل. تخلص اللجنة إلى وجوب تقسيم البلاد إلى دولتين: يحصل العرب على ثلاثة أرباع المساحة الكلية ويحصل اليهود على خُمسها. تبقى منطقة صغيرة (نحو 5٪) تحت الحكم البريطاني.

يُحدث نشر تقرير لجنة بيل انقساماً في اللجنة العربية العليا: يرفضه حزب عائلة الحسيني، رفضاً قاطعاً، بينما يميل معارضوهم، بقيادة عائلة راغب النشاشيبي (حزب "الدفاع")، إلى القبول بالخلاصات البريطانية. على هذه الخلفية، تتجدد الهجمات ضد اليهود، فيما يندلع، في المقابل، صراع فلسطيني داخلي دموي.

أيلول: مقتل حاكم الجليل، البريطاني لويس أندروس، بأيدي رجال آل الحسيني. يرد البريطانيون بسلسلة من العمليات ضد الثوار وضد القيادة العربية: حظر تجول وهدم بيوت.

1 تشرين الأول: تحل الحكومة البريطانية اللجنة العربية العليا وتعزل المفتي، الحاج أمين الحسيني، من منصبه كرئيس للمجلس العربي الأعلى.

يُصدر البريطانيون، في وقت لاحق، مذكّرات اعتقال بحق قادة الثورة، ينفون بعضاً من قادة الجمهور العربي ويصدرون أحكاماً بالإعدام ضد مئات الثوار العرب (يتم تنفيذ الحكم بحق 54 منهم).

يقيم البريطانيون محطات للشرطة وجداراً عند الحدود الشمالية وينجحون في إعادة الحكم البريطاني إلى نصابه بعد اهتزازه في أجزاء واسعة من البلاد.

1938

الربيع والصيف: تبلغ الثورة العربية ذروتها بالعمليات العنيفة ضد البريطانيين واليهود في مختلف أنحاء البلاد. تقع بعض المناطق تحت سيطرة الثوار العربية، سيطرة تامة.

الصيف: تتصاعد حدة ووتيرة الصدامات بين المجموعات الفلسطينية المختلفة، وخصوصاً بين المجموعات الموالية لآل الحسيني، التي تطالب بمواصلة القتال ضد البريطانيين واليهود، وبين "عصابات السلام"، وهي المجموعات التي تطالب بوقف أعمال العنف وتتعاون مع الجيش البريطاني.

الشتاء: عشية انتهاء سنة 1938، تتراجع قوة الثورة وزخمها. يحاول البريطانيون التوسط بين الطرفين، العربي واليهودي.

يسقط، خلال الثورة الكبرى، أكثر من 5,000 قتيل عربي، نحو 400 قتيل يهودي ونحو 200 قتيل بريطاني. في إطار التصدي اليهودي للثورة العربية، تقام وحدات عسكرية للدفاع ولتنفيذ عمليات انتقامية.

1939

شباط: يدعو البريطانيون إلى تنظيم طاولة مستديرة يجلس حولها ممثلون عن العرب واليهود.

أيار: بعد فشل هذه الطاولة، ينشر البريطانيون "الكتاب الأبيض" الذي يشمل قيوداً مشددة جداً على الييشوف اليهودي: تحديد أعداد قليلة لهجرة اليهود إلى البلاد وتقييدات مشددة على قدرة اليهود على شراء الأراضي.

أيلول: اندلاع الحرب العالمية الأولى في أوروبا. تبدأ السلطات البريطانية بإنشاء قواعد عسكرية في البلاد وتوسيع البنى التحتية في مجالات المياه، المواصلات والكهرباء. يؤدي هذا إلى انتعاش في مجال الشغل، ارتفاع في جودة الحياة وهدوء بين اليهود والعرب.

يتجند يهود من أرض إسرائيل في صفوف الجيش البريطاني، تلبية لنداء دافيد بن غوريون: "نحارب مع البريطانيين ضد هتلر كأن الكتاب الأبيض غير موجود، ونحارب الكتاب الأبيض كأن هتلر غير موجود". حزب المعارضة الفلسطينية (بقيادة عائلة النشاشيبي) يجند شباناً عرباً في صفوف الجيش البريطاني. ينتقل الحاج أمين الحسيني من منفاه في بيروت إلى بغداد في العراق، وينتقل معه عبد القادر الحسيني أيضاً.

1941

آذار: فلسطينيون، بقيادة المفتي، يشاركون في تنظيم انقلاب مؤيد لألمانيا في العراق، بقيادة رشيد عالي الكيلاني. بعد قمع الانقلاب من قبل البريطانيين، يهرب الحاج أمين ومجموعة من رجاله إلى إيطاليا وإلى ألمانيا.

28 تشرين الثاني: المفتي الحاج أمين الحسيني يلتقي هتلر.

عبد القادر الحسيني في العراق على خلفية الاشتباه بضلوعه في اغتيال يُسجن فخري النشاشيبي (يوم 8 تشرين الأول). بعد أكثر من سنة في السجن، يُسلَّم إلى الحكومة السعودية.

1942

الصيف: قوات ألمانية بقيادة، رومل تتقدم، على طول شمال أفريقيا باتجاه مصر. تجري في البلاد استعدادات عسكرية لإمكانية حصول غزو ألماني. ينجح البريطانيون بعد سلسلة من المعارك الضارية والواسعة، في لجم التقدم الألماني، قرب العلَمين (بداية تموز).

الخريف: تمثل معركة العلَمين الثانية (نهاية تشرين الأول وبداية تشرين الثاني) إحدى نقاط التحول في الحرب. يلحق الجيش الثامن البريطاني، بقيادة برنارد مونتغومري هزيمة بالفيلق الأفريقي الألماني بقيادة إرفين رومل. يبدأ انسحاب القوات الألمانية في شمال أفريقيا ويتبدد خوف اليهود من احتمال احتلال الألمان للبلاد.

1945

أيار: انتهاء الحرب العالمية الثانية ضد ألمانيا النازية.

تشرين الأول: خيبة الأمل في الجانب اليهودي من استمرار التقييدات البريطانية على الهجرة تدفع نحو تشكل "حركة التمرد" ـ تعاون بين منظمات "الهاغناه"، "إيتسل" و"ليحي" في تنفيذ عمليات ضد البريطانيين.

تشرين الثاني: تأسيس جامعة الدول العربية، بإيحاء من بريطانيا.

1946

كانون الثاني: عبد القادر الحسيني يصل، مع عائلته، إلى القاهرة.

آذار: المفتي الحاج أمين الحسيني يصل، هو أيضاً، إلى مصر.

22 تموز: منظمة إيتسل تفجر الجزء الجنوبي من فندق "الملك داود" في القدس. 91 قتيلاً (بريطانياً، يهودياً وعربياً). عقب هذه العملية، تلغي الهاغناه تعاونها في إطار "حركة التمرد" وتنتقل لتركيز جهودها في عمليات الهجرة (هجرة اليهود إلى البلاد رغم معارضة البريطانيين).

1947

29 تشرين الثاني: يُعتمَد في الجمعية العمومية لعصبة الأمم المتحدة قرار ينص على إنهاء الانتداب البريطاني وإقامة دولتين في أرض إسرائيل. يستقبل الييشوف اليهودي هذا القرار بالترحاب والفرح الغامر، مقابل غصب وحزن في الشارع العربي، الذي يرد على الفور بهجمات عنيفة ضد أحياء وطرق مواصلات يهودية. هنا تبدأ الحرب على مستقبل البلاد.

كانون الأول: عبد القادر الحسيني يعود إلى البلاد ويشرع في تنظيم مقاتليه تحت اسم "الجهاد المقدس".

هجمات أولى على مسافرين في الطريق إلى القدس. استمرار الهجمات على طرق المواصلات على مدى فترة الحرب كلها، وخصوصاً في منطقة شاعر هجاي (باب الواد)، وتؤدي إلى قطع القدس اليهودية عن منطقة وادي الخليل.

1948

مطلع كانون الثاني: وحدات من جيش الإنقاذ ـ جيش المتطوعين الذي أقامته الجامعة العربية لنصرة فلسطين ـ بقيادة فوزي القاوقجي تدخل إلى شمال البلاد.

5 كانون الثاني: وحدة من الهاغناه تفجر فندق سميراميس في حي قطمون في القدس.

15- 16 كانون الثاني: "معركة صوريف" (مفرزة الجبل) ـ فصيلة من المحاربين اليهود، مرفقة بقوة تعزيز، تتعرض لهجوم قرب قرية صوريف وهي في طريقها إلى غوش عتصيون. الهجوم يسفر عن مقتل عناصرها جميعا.

2 شباط: عناصر الجهاد المقدس يفجرون سيارة مفخخة قرب مقر صحيفة بالستاين بوست في شارع هسوليل في مركز مدينة القدس. سقوط أربعة قتلى يهود.

5 شباط: بضغط من المفتي الحاج أمين، تقرر الجامعة العربية تعيين عبد القادر الحسيني مسؤولاً عن القتال العربي في منطقة القدس. تعيين حسن سلامة قائداً لمنطقة الوسط؛ تركيز نشاط جيش الإنقاذ بقيادة القاوقجي في شمال البلاد.

22 شباط: انفجار ثلاث سيارات مفخخة في شارع بن يهودا في القدس. هذه العملية نفذها عناصر الجهاد المقدس بمساعدة جنود بريطانيين فارّين. سقوط أكثر من 50 قتيلاً يهودياً ونحو 200 جريح.

10 آذار: قيادة الهاغناه تقرّ الخطة (د): الانتقال من إستراتيجية الدفاع إلى إستراتيجية الهجوم والعمل على إنشاء تتابع إقليمي يهودي على الأرض.

11 آذار: الجهاد المقدس ينفذ عملية تفجير في مبنى الوكالة اليهودية في القدس، مركز المؤسسات القومية اليهودية. سقوط ستة قتلى يهود. اليهود يتلقون ضربة معنوية قاسية.

27 آذار: "معركة الدهيشة" ("قافلة النبي دانئيل") ـ هجوم على قافلة يهودية في طريقها من غوش عتصيون. يحتمي أعضاء القافلة في بيت مهجور في "النبي دانئيل"، عند مشارف بيت لحم، ويخوضون معركة تستمر 36 ساعة.

البريطانيون ينقذون أعضاء القافلة. تسليم العرب عشرات السيارات وكل الأسلحة التي كانت بحوزة القافلة. سقوط 15 قتيلاً يهودياً و25 قتيلاً عربياً.

27 آذار: قافلة يحيعام ـ قافلة إمداد، بمرافقة لواء كرمِلي، تغادر نهريا في طريقها إلى كيبوتس يحيعام، تتعرض لهجوم من حشد من العرب بقيادة جيش الإنقاذ، قرب قرية الكابري. سقوط 46 قتيلاً يهودياً.

31 آذار: قافلة خُلدة ـ قافلة إمداد، بمرافقة وحدة من البلماح، تحاول الوصول إلى القدس لكنها تعلق في وضح النهار قرب قرية خُلدَة العربية. يهاجم عرب المنطقة القافلة العالقة في الوحل. سقوط 23 قتيلاً يهودياً.

الشروع في تنفيذ صفقة السلاح بين الييشوف اليهودي وتشيكوسلوفاكيا: الدفعات الأولى من الأسلحة تصل إلى البلاد.

يغادر عبد القادر الحسيني إلى دمشق لطلب المساعدات، بالمال والسلاح، يحدوه شعور بالأمل بأنه إن استطاع الإبقاء على السيطرة في باب الواد والقسطل، فسيتمكن من السيطرة على القدس؛ وإن سقطت القدس، فلن تقوم دولة يهودية.

3 نيسان: تحتل قوات الهاغناه قرية القسطل (قبل عملية نحشون)، على خلفية التخوف من أن تتحول القرية إلى موقع عسكري عربي يسيطر على الطريق إلى القدس. للمرة الأولى في الحرب، يتم احتلال مساحة ما بنية الاستيلاء الدائم عليها.

4 نيسان: تشن قوات جيش الإنقاذ، بقيادة القاوقجي، هجوماً على كيبوتس مشمار هعيمق (في أطراف مرج ابن عامر). يستمر هذا الهجوم، بصورة متقطعة، لأكثر من عشرة أيام.

تشن قوات الجهاد المقدس هجوماً مضاداً على القسطل وتضرب حصاراً على القوات اليهودية الموجودة في المكان.

5 نيسان: تبدأ الهاغناه حيال فشل أسلوب القوافل وتفاقم الضائقة في القدس المحاصَرة، بتنفيذ عملية نحشون (طبقاً للخطة د) بغية فتح الطريق إلى المدينة والاستيلاء على نقاط للسيطرة على امتدادها.

ينشر الجنرال إسماعيل صفوت، القائد الأعلى للقوات العربية في فلسطين، تقريراً متشائماً يقول فيه إنه على الرغم من النجاحات التي حققها الجهاد المقدس، إلا أن الانتصار على الييشوف اليهودي ممكن التحقق فقط بمساعدة الجيوش العربية النظامية، بعد انتهاء الانتداب البريطاني. ترفض الجامعة العربية ترفض عبد القادر الحصول على مساعدات بالمال والسلاح.

6 نيسان: يحاول عبد القادر الحسيني أن يشرح لمسؤولي الجامعة العربية أهمية قرية القسطل الإستراتيجية لمواصلة الحصار على القدس حتى استسلامها. بعد فشل لقاءاته في دمشق، يأمر قواته بإعادة احتلال القسطل ويعود بنفسه إلى البلاد.

تنجح قافلة نحشون، التي تشمل 60 شاحنة تموين، في الوصول إلى القدس وكسر الحصار العربي.

قوات عربية غير نظامية تحتل محجر صوبا (إليسار)، عن سفوح القسطل، وتفجر كل ما فيه من معدات.

إطلاق نيران متواصل من جانب العرب يدفع نحو قرار بإخلاء العائلات اليهودية من موتسا عيليت.

7 نيسان: يضع عبد القادر الحسيني، في محجر صوبا، اللمسات الأخيرة على خطة الهجوم على القسطل. قوات بقيادة حافظ بركات، هارون بن جازي وإبراهيم أبو دية تهاجم من ثلاثة اتجاهات، بينما يبقى عبد القادر في المحجر (على بعد نحو كيلومتر ونصف الكيلومتر عن قمة الجبل) لتنسيق الهجوم. قبل منتصف الليل بقليل، يبدأ الهجوم.

8 نيسان: بعد ساعتين من القتال والتقدم، تتوقف القوات العربية. يترك عبد القادر المحجر ويتوجه، وحده، نحو قمة الجبل. في الطريق، يلتقي مقاتلين عرباً ويشجعهم على الاستمرار في القتال.

يصل عبد القادر بين الرابعة والخامسة فجراً إلى نقطة قريبة من منزل المختار، سوية مع فتيين من بيت فجار. يعتقد المحاربون اليهود الذين كانوا يحرسون في ثكنة هناك، خطأ، أن الثلاثة ضمن تعزيزات قادمة إليهم فيحيّونهم؛ يرد عبد القادر على تحيتهم، فيدرك اليهود أنهم أخطأوا ثم يطلقون النار. يصاب عبد القادر في بطنه، يبقى وحيداً في المكان وهو مصاب، ثم يفارق الحياة بعد وقت قصير متأثراً بجراحه.

يخرج المحاربون اليهود مع طلوع الفجر من ثكنتهم لتفحص القتيل العربي. من الواضح لهم أنه ليس مقاتلاً عادياً، لكنهم يخطئون في قراءة اسمه بالعربية ولا يتعرفون عليه. يتوقف إطلاق النار من جانب العرب. يعود الفتيان من بيت فجار إلى المحجر ويبلغان أن عبد القادر قد أصيب وأنه محاصر بين بيوت القرية. ينتشر الخبر عن غياب عبد القادر بسرعة فائقة ويتردد نداء للفزعة في كل مناطق القدس العربية.

ينقض نحو ألف من المقاتلين والمتطوعين العرب على القسطل ويحتلونها من أيدي اليهود. يتم في ساعات ما بعد الظهر، العثور على جثمان عبد القادر

الحسيني ويُنقَل إلى القدس. يترك معظم المقاتلين العرب مواقعهم في القسطل.

9 نيسان: قبل الفجر، تشن قوات من ليحي وإيتسل هجوماً على قرية دير ياسين (عند مشارف القدس). قتل أكثر من مائة شخص من سكان القرية. تشن قوات البلماح هجوماً مضاداً على القسطل لتمكين قافلة نحشون من العودة من القدس إلى منطقة وادي الخليل. انسحاب عشرات العرب الذين كانوا لا يزالون في القسطل، جنوباً نحو عين كارم. مع الانتهاء من احتلال القسطل، يفجر اليهود معظم بيوتها.

جنازة عبد القادر الحسيني في القدس بمشاركة نحو 50 ألف شخص. دفن عبد القادر في حرم المسجد الأقصى، بجوار قبر والده، موسى كاظم الحسيني.

تم بعد احتكاكات ومشادات، تعيين رجل الشرطة البريطانية السابق خالد الحسيني، ابن عم عبد القادر، قائداً لمنطقة القدس، خلفاً لعبد القادر.

13 نيسان: "معركة الشيخ جراح" (قافلة هداسا) ـ قافلة تشمل خمس سيارات وحافلتين تقل عمالاً من مستشفى هداسا والجامعة العبرية في جبل سكوبوس (هار هتسوفيم) تتعرض لهجوم وهي في طريقها إلى الجبل. 78 قتيلاً من بين مسافري القافلة اليهود.

في شمال البلاد: بعد عشرة أيام من القتال، قوات جيش الإنقاذ التي هاجمت كيبوتس مشمار هعيمق تنسحب إلى جنين.

15 نيسان: استمراراً لعملية نحشون، تنفذ الهاغناه عملية هرئيل لإيصال إمدادات إلى القدس. تستمر هذه العملية حتى يوم 21 نيسان. في إطار العملية، ورغم الهجمات العربية، تنجح ثلاث قوافل تشمل 600 شاحنة في الوصول إلى القدس وتزويدها بالغذاء، بالسلاح، بالوقود وبالأدوية (القافلة الثالثة تعبر بشكل جزئي فقط). من شأن هذه المساعدات أن تتيح لسكان القدس الصمود في داخل الحصار حتى فتح مسار التفافي آخر يتجاوز "طريق بورما" (في منتصف حزيران).

وفقاً للخطة (د)، كان من المفترض أن تؤدي مبادرة يهودية إلى تحرير المدن المختلطة حيفا، طبريا وصفد. تفشل بضع محاولات لاحتلال قلعة النبي يوشع وفتح الطريق نحو عكا ونهريا؛ سيتم احتلال القلعة في نهاية المطاف ليلة 15 أيار، ضمن عملية يفتاح. فتح جميع الطرق في غور الأردن أمام حركة وسائل النقل اليهودية. في وسط البلاد، تنفيذ عملية حميتس لتحرير منطقة تل أبيب وتحرير يافا. ينشأ تتابع إقليمي يهودي من المطلة حتى النقب. مئات آلاف الفلسطينيين يهجرون بيوتهم.

12 أيار: يبدأ الفيلق الأردني يبدأ ضد بلدات في غوش عتصيون؛ ستسقط منطقة غوش عتصيون بالكامل في يوم إعلان استقلال الدولة.

تقرر الجامعة العربية إرسال جيوش عربية إلى البلاد مع انتهاء الانتداب البريطاني بهدف إحباط إقامة الدولة اليهودية.

14 أيار: دافيد بن غوريون يعلن إنشاء دولة إسرائيل. الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي تعترفان بالدولة الجديدة، على الفور.

14- 15 أيار: يغادر آخر البريطانيين أرض إسرائيل، نهائياً. انتهى الانتداب البريطاني.

15 أيار: جيوش العراق، مصر، سورية والفيلق الأردني تجتاح "أرض إسرائيل"، تساعدها وحدات من المتطوعين ومن "جيش الإنقاذ" بقيادة القاوقجي. عبد الله، ملك شرق الأردن، هو الذي يقود القتال.

15 أيار حتى 11 حزيران: 24 يوماً من القتال على جميع الجبهات حتى الهدنة الأولى. 900 قتيل إسرائيلي.

في منطقة القدس: يدخل جنود الفيلق الأردني الـ 9,000 إلى "أرض إسرائيل". يتم إرسال نصف هذه القوة إلى منطقة اللطرون وشاعر هجاي من أجل إغلاق الشارع المؤدي إلى القدس والوصول إلى مدينتي اللد والرملة. أما النصف الثاني، فأُرسِل إلى القدس ووُضع على الحد الشرقي الشمالي من المدينة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞




متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

رس المحتويات

عن الكتاب..
إهداءٌ..
تقديم..
مدلولات الماضي الذي لا ينقضي...
مقدمة
القسطل خاصتي
1
هجومٌ عند الفجر
2
ثـــورة
3
خصومة الأشقاء
4
من الشيخ علي حتى القدس
5
شـــتات
6
متعاون
7
«إمّا نحن وإمّا هُم"
8
بين المطرقة والسندان
9
آذار الرهيب
10
حصار
11
دمشق، بداية النهاية
12
على الجيل
13
إرث المعركة
14
رايــة ســوداء

15
خـــاتـــمـــــة
مصادر وشُكر
شخصيات
أحداث